

S A I M B A R A K A I

سليم
بركات

سليم بركات

سجّتا جبل أيايانو الشرقي

أبو عبدو البغل

<https://facebook.com/groups/abuab/>



scanned by jamal hatmal

سجناہ جبل ایاتو الشرقی

سجناء جبل أبايانو الشرقي / رواية عربية
سليم بركات / مؤلف من سورية
الطبعة الأولى، 2014
حقوق الطبع محفوظة ©



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
بيروت، الصنائع، بناية عبيد بن سالم
ص. ب 5460-11، هاتف 1 751438 / +961 1 752308
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمان 11191 الأردن،
هاتف 6 5605431 / +962 6 5605432 هاتف 6 5685501 / +962
e-mail: info@airpbooks
موقع الدار الإلكتروني:
www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفني:
سليم بركات © عمان، هاتف 7 95297109 / +962
صورة الغلاف: كارين مارغوليس / الولايات المتحدة الأمريكية
الصفّ الضوئي: المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعي: ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-478-2



سليم بركات

سجناء جيل أيايانو الشرقي



شخوص ومعالم اختيرت عشواء في توثيق هذه الرواية

- * جبل آيايانو الشرقي ، وجبل آيايانو الغربي .
- * سجن جبل آيايانو الشرقي .
- * مدينة سارسيدون .
- * نهر جُون .
- * ماهَاهُون : معلم رياضيات . ٣٦ سنة .
- * بيتَاليا : سائقة سيارة أجرة . ٤٠ سنة .
- * يَوْمَار . دِيرُو : توأمان . ١٩ سنة وبضعة شهور .
- * أَرْدِيلا : محامية . ٤٤ سنة .
- * دَائِك : حلاق . ٥٤ سنة .
- * بِيُونَا : عاملة في كازينو . ٤١ سنة .
- * سِيْتُون : صانعة عقود للنساء . ٣٩ سنة .
- * جُورْنِي : خياط . ٦٦ سنة .
- * دَالُومي : طبيبة نفس . ٤٨ سنة .
- * رُوثَا : إختصاص في صبغة الشعر . ٢٧ سنة .
- * رَابْكَيْن : مبشر . ٢٨ سنة .
- * يَارُوزَا : طبيبة كلاب . ٣٣ سنة .
- * جِيْنْتَالُو : مدرب رقص رياضي . ٣٤ سنة .
- * سُولُكي : خباز كعك ومُعْجَنَات إفطار . ٢٩ سنة .
- * مِيلَادَيْن : موظفة في دائرة الضرائب . ٣٣ سنة .
- * راسِيْد : طالب . ١٩ سنة .
- * دَارُوم : موزع بريد . ٣٠ سنة .

- * رَاووت : شخص غير مفهوم السيرة . ٦٣ سنة .
- * مِيرَاس : دليل . ٣٧ سنة .
- * سَادُوك : دليل ٤٠ سنة .
- * شَلَّالَان ومتفرعاتهما .

الفصل الأول: ماهاهون

قَضَمَ المَغيِبُ آخرَ الفُروقِ الحَجريةِ في سَفوحِ جِبلِ آيَاانو الشرقي . امتزجت المنحنياتُ النافرةُ بأخواتها الغائرة . انحسرتِ الأشكالُ إلَّا القمَّةَ لَمْ تزل متماديةً في دفعِ السماء ، بأيدي سوادها الكتيم ، كي لا تسقط السماء ، بدورها ، في أخدود الليل الهائل .

لا نجوم في الأعالي بُعدُ سوى كوكبةٍ منها عند الحدودِ المكسورة للشمال ، مترددةٌ في بزوغها من حلم اللون على اللون . تومض شاحبةٌ وتنطفئ ، منتظرةٌ وعدَّ الرؤيا لتتكشف للظلام الحالم نجومًا توصف ، في مجلس السماء ، باسم كوكبة الثور إلى جوار أخواتها الجاثمات ، في بروجهن ، على فراخها الدافئة من الرجوم والشهب .

انحنى الكهل دأيك ، المتمدّد بطوله على الأرض ، متكئاً على مرفقه الأيسر ، صوب الشخص الذي يجاوره :

- مَنْ قَتَلْتَ ، ياسيد ماهاهون؟ .

«ابن أختي» ، ردَّ الرجل ذو الصوتِ الرنينِ الخافتِ في حنجرتِه . حكَّ ظهرَه بالصخرة خلفه ، جالساً مطوي الساقين المتقاطعتين . أشار بيده اليمنى إلى المصباح المضاء بشعلة الغاز النقية فيه :

- خَفَّفْ من ضيائه قليلاً ، ياسادوك . إنه يُعْشى .

أدار سادوك الطويل ، النحيف ، قُرْصَ ميزانِ النارِ في خاصرة

المصباح . تراجعت الشعلة ، بخيالها المنسرح ، إلى كهفها الزجاج الكرة ذات القاعدة المثلثة القوائم .

«ذلك أفضل» ، قال ماهاهون المحتجب العينين وراء نظارته انعكس عليها وميضان : وميضُ ضياء المصباح ، وميض النار المضرمة في الدائرة الحجر ، وسط مجلس الجمع العشرين نفرًا اقتعدوا الأرض الخلاء ، على ملاءات من جلود رقيقة . «أستطيع أن أرى الخرائط الخفية في عينيك» ، أضاف .

تناثر شرارٌ مذعوراً من سقوط حطبة فوق الجمر ، واللهب ، أسقطها الشاب دارؤم ليؤجج النار أكثر ، في الظلام المضموم ، كالقبضة ، على كنوزه في الجهات الثماني . تمددت ظلالُ الجالسين بتناول اللهب في الدائرة الحجر وسط مجلسهم . انكشفت عيونُ بانكشاف الشعل عليها . تشابهت السُحنات مُدَّ وَسَم الظلُّ الأشكالَ بامضائه المنتشر فالمنحسر بحسب أنفاس النار انكثاماً وانطلاقاً .

هُم في الليلة الثانية من رحلتهم . قطعوا شعاباً قليلة من أهضام جبل آييانو الشرقي صوب سفوح جبل آييانو الغربي . ثمت عراء حجر - صخورٌ ملساء بامتداد أربعة فراسخ بين الجبلين ، يتخللها فرعٌ من نهر جُون ، نحيلٌ ، رقراق ، غريّدٌ ببلابل زبده نقرأ على الصخور في المنعرجات الكثيرة .

أصغوا إلى الماء - إلى بلابل زبده قليلاً حين حلُّوا مستقرين الليل في خلاء المغيب ، بين الصخور متجاوزةً رصفاً ، لا يعلو بعضها البعض بنتوء أو منخفّض ، كأنّ هي أقرانُ أعمار واحدة سوّتها حجوماً متشاكلةً ، وبَرَّتْ سطوحها رصفاً منتظماً ، وصكّتها صكاً بالملاسة والصقل .

قليلاً كان متاعُ الواحد منهم : ملاءتان جلديتان ، يفترشون واحدةً ، ويتخذون الأخرى غطاءً للنوم ، في أواخر صيفهم ذلك ، ويتوسّدون إسفنجاً أسطوانياً صغيراً . أمّا زائدُ الرحلة - الأُطعمة ، والأنيةُ القليلة ، والماء ، فاحتواها الهيكلُ المعدنُ الصندوقُ الكبير خلف الدراجة النارية ، ذات المقعدين ، الشبيهة بعربة تكفل قيادتها الدليلان سادوك ، وميراس ، المتمرّسان انتقالاً بالجماعات الصغيرة من محطة الانطلاق ، في جبل آيايانو الشرقي ، إلى المدى القادر لعربة - دراجة ناريةٍ كدراجتهما أن تصعده من سفح جبل آيايانو الغربي .

لقد سار الدليلان بدراجتهما النارية ، ذات الصندوق الكبير على الأرض الصخر ، تلك ، مراراً . عجّالها الخمسُ المطاطُ ، الثخينة - أربعٌ من جنبها ، وواحدة من أمام - تجعل العبورَ المترجرجَ غيرَ مزعج ، عكس تقدير البصر في قياس الأرض الوعر . الثمانية عشرَ الأنفَارُ الأخر تتبّعوا الدراجة النارية ماشينَ بخشوع لجلال أعماقهم الصامتة ، المتأملّة رحلتهم المتعثرة التوازن في انتسابها إلى الرحلات ، ومنطق الرحلات . همُ أمضوا ليلتهم الأولى عند مطالع الصخور السود ، على بُعد من النهر . ليلة صامتة كانت ، متكلّفة ثقل السماء الكتيمة ، الواقفة على أطراف أصابعها فوق أضلاع الأرض . تبادلوا الغمغمات مكسورة الحروف ، لكن موثّقةً ، بين صوت وصوت ، باسم من أسمائهم تبادلوها تعارفاً ، وسط النظرات الفارغة من عيون الدليلين مرّراها ، كممحاة ، على الوجوه . في الليلة الثانية تخفّفوا من العداء الخافت إذ يجتمع الغرباء بالغرباء ، وخفّفوا تحفّظ قلوبهم من اجتماعهم معاً بلا اختيار لشركاء الصُحبة : ذلك كان اجترأ السؤال الأول ألقى به أحدهم ، هو

الكهل دايك ، على ماهاهون ذي النظارة الموصدة الزجاجتين بالموميض انعكس عليهما من لهب وسط مجلس الجمع ، ومن المصباح الناطق ضياءً بجداول الغاز فيه : «مَنْ قَتَلَتْ ، ياسيد ماهاهون؟» ، فرد الرجل البالغ ستةً وثلاثين عاماً :
- ابن أختي .

أكلوا شيئاً من الزاد أعدّه الدليلان من مؤنة الرحلة ، المتواضعة العناصر خبزاً ، ومحفوظات في عُلْب معدن - خضاراً ، ولحماً أحمر وأبيض ، جالسَيْن على الأرض الصخر فوق بُسْطٍ رقيقة من الجلود ، قرب النهر . تمدّد بعضهم في الحلقة حول النار ونور المصباح . اتكأ آخرون على جنوبهم ، أو أسندوا ظهورهم إلى بعض الحجر المرتفع عن مستوى الرصف .

«هؤلاء خطباء» ، قال جُورُنِي ، ذو الستة والستين عاماً ، ممسداً في الشحوب الليلي على شاربيه الرفيعين .
«مَنْ الخطباء؟» ، ساءله ماهاهون ، فردَّ الشيخ من فمه الصغير :
- الحجارة النافرة في وسط هذا الرّصف المستوي .

همهم ماهاهون من الوصف المتعالي على سواد الحجر ذائباً في سواد الليل . حكَّ ظهره بالصخرة خلفه :
- هل الحجارة الأخرى ، المتشاكلة رصفاً ، هي رعية تستمع إلى خطبائها ، ياسيد جاني؟ .

«اسمي جورني» ، تتمم الشيخ بصوت هادئ . «هي ليست رعيةً ، بل رعاءً» ، أردف . «الرعاغُ ليسوا رعيةً أحد . لا ولاء لهم» .
«هذا دَرَسُ في نشأة الماء» ، قال ماهاهون مبتسماً بصوته ذي الرنين المتدحرج خافتاً من حنجرته .

لم يعقّب جورني على تعليق ماهاهون . أصغتِ الأنفأرُ

العشرون إلى خربير الماء مستيقظَ البلابل نقرأً بمناقيرها الزيد على
الصفتين الصخور . أنيساً موحشاً ، معاً ، كان الصوتُ المرتسم
علاماتٍ لامرئيةً في خيال الليل . صوتٌ صورٌ تلتقط الصورَ ؛
تهشمها وترمّمها بتسارع ، كالسؤال المتسارع الكلمات على لسان
بيونا ، المرأة البالغة الحادية والأربعين من عمرها ، ألقته إلى
الدليلين :

- كيف تقودان دراجتكما على هذه الأرض الصخرى ؟ .
«الأفضل أن تسألِيهما لماذا هذه الطريق إلى جبل آييانو
الغربي ، وليس سواها؟» ، تساءل جينتالو ، الطويل العضلي ،
النحيل ، بصوته الواثق كثقة سنواته الأربع والثلاثين بجسده .
«هاسألكما الشاب الوسيم جينتالو ماوددتُ أن اسألكما» ،
قالت بيونا الطويلة ، الضخمة ، الثخينة العظام .

نظر سادوك الدليل إلى نظيره ميراس العريض الكتفين نظرةً
استخفاف بالسؤال لن تُلاحظ في الظل الكثيف محيطاً بوقبِي
عينيه : «لماذا ، ياميراس ، يحتاج أناس كهؤلاء إلى دليل مثلي ، أو
مثلك؟» ، قال بصوت هادئ . أدار وجهه المستطيل إلى بيونا . تأملها
لحظةً بخيال رجل في الأربعين . كلّمها :

- عمّ تريدِين جواباً؟ عن دراجتنا النارية ، أم الطريق إلى جبل
آييانو الغربي ؟ .

«عن الاثنين» ، سارعت المرأة الجالسة إلى جوار بيونا رداً .
«ألستما أختين؟» ، ساءلها ميراس الدليل ، ذو الوجه المستدير
قليلاً .

«نعم» ، ردت سيئون ، أخت بيونا ، البالغة التاسعة والثلاثين ،
بصوت عميق من حنجرتها .

«أنا سأردُّ عن سؤال الدراجة ، ويرد شريكى ميراس عن سؤال الطريق» ، قال سادوك بصوت عالي النبر ، من بين شفتيه المنفرجتين عادةً . «الدراجة النارية» ، تتمم مخفضاً صوته كالمتملّس رداً يُقنع : «أنا ، وميراس ، لانعرف لماذا الدراجة النارية وسيلةً لبلوغ جبل آيايانو الغربي . هل الأمرُ قصاصٌ؟» ، سأل نظيره الدليل . لم ينتظر جواباً . استرسل : «أسيادُ مهنةٍ نقلِ أمثالكم إلى جبل آيايانو الغربي استأجرونا للمهمة بدراجة نارية ، ذات خمس عِجال ، وصندوق معدن ، ومقعد مزدوج يتسع لكلينا . نحن نقود بتأنٍّ ، وببطء لا يضطر أمثالكم إلى استعجال خطواتهم خلفها . أم كنتم تفضلون حَمْلَ أمتعة على أكتافكم؟» ، قال سادوك . ألقى عنقه صوب نظيره ميراس :

- دورك الآن . أخبر السيدتين عن الطُرق إلى الجبل .

«لا طُرق إلى الجبل . نسيرُ من حيث نستطيع» ، ردَّ الرجل البالغ أربعين ، الحليق الرأس تماماً .

«إلى أين من الجبل تستطيعان الصعود بدراجتكما هذه؟» ، ساءلتهما سيئون ، ذات الشفتين المكتنزتين .

«إلى حيث نستطيع . لكن لم نحاوز ، في أية مرة ، أعلى من فرسخ صعوداً» ، ردَّ ميراس .

«أسنضطر إلى حمل متاعنا بعد ذلك؟» ، ساءلته بيونا بصوتها الرقيق ، المتلاحق الكلمات .

«نعم» ، ردَّ سادوك بنبرة فيها بعضُ التشفّي .

«وماذا عن الدراجة النارية؟» ، أسستركانهها؟» ، ساءلتها

سيتونا بصوت منسحب مع أنفاسها .

«لا» ، ردَّ ميراس . «نعود بها» ، أضاف .

لم يبدُ ردُّه متجانساً في منطقِ سَمْعِ الجالسِين . انبرى الشيخ
دايك ، من تلقائه ، شارحاً بصوته العالي :
- سيتركان الدراجة في مكان مَّا ، طبعاً ، ثم يعودان بها بعد
إنهاء المهمة .

«ليس بعد إنهاؤها» ، ردَّ سادوك الدليل بصوت عال كصوت
دايك نفسه . اضاف : «سنعود بها من الموضع الذي لأنستطيع
الصعود أبعد منه إلى الجبل» .

«وماذا عنا؟» ، ساءلته سيتون ، فردَّ سادوك :

- تصعدون وحدكم .

بدا المتحلقون حول النا را كأنهم أفاقوا من إغفاءة ، أو أنَّ النهر ،
الذي لم يصمت ، صمتَ ملجوماً فنطقَ فضولُهم . قَرَّب شاب منهم
صدره من وهج الخطب يستجلي ، في الجهة قُبالتها ، وجهَ سادوك :
- وحدنا؟!

«نعم ، أيها العزيز رابكين» ، ردَّ ميراس ، الدليل الآخر .

ابتسم الشاب ذو الثماني والعشرين من سنين الإنسان . حرك
يده اليسرى تتبَّع الكلمات في صدورهما ، أو تتبَّعها الكلمات :
- وماذا إن ضيعنا؟ .

«لا أحد يضيع في الطريق إلى القمة» ، قال سادوك ، فانبرى
نظيره الدليل ميراس مضيفاً :

- كل مَنْ صعدوا الجبلَ لم يعودوا .

تراجع الشاب رابكين جالساً . أدارَ وجهه المتطاول على
الآخرين مفتوحَ الفم ، يتأوَّل ، مثلهم ، جملةَ ميراس ذات الأرجل
الأربعين . تكلمَ بصوت فيه نبرة الوعظ بلا عظة :
- السخرية ملكةٌ إنسانية في مملكة الله .

«هذه أقلُّ من سخرية» ، قال ماهاهون وهو يخلع نظارته . «لو كانت سخريةً لقال السيد ميراس : صاعدو الجبل لا يضيِّعون ، لكن يضيِّعُ الجبل» .

ابتسم ميراس . رمى حطبةً صغيرة ، مما جمعوا من حطب وغصون ميتة ، إلى النار ، وهو يتلمَّس بعينه عينيَّ ماهاهون في ظِلِّي وَقبَّيهما :

- سأقول هذه الجملة لجماعة الرحلة القادمة .

«أوضح لي ، ياسيد ميراس . لم أفهم» ، قال الشاب رابكين ذو اللحية الخفيفة خلطت الظلال أكثر على وجهه المتطاوّل . «مامن أحد عاد بعد صعود الجبل؟ ذلك يعني أنهم ضلُّوا ، أو فُقدوا» .

«أن لا يعود أحد لا يعني أنه ضاع ، أو فُقد» ، ردَّ سادوك ممسداً براحة يده اليسرى على خيته ذات العنقفة الرمادية .

«هذه ، أيضاً ، ليست سخرية» ، قال ماهاهون متوجهاً بكلامه إلى الشاب رابكين . «لو قال سادوك : المفقودون ، وحدهم ، يرجعون بعد صعود الجبل ، لظننته يسخر قليلاً» .

«سأستعير هذه الآية من لسانك ، ياسيد ماهاهون» ، قال ميراس الطويل ، العريض الكتفين ، في سترته السوداء ، الطويلة حتى الركبتين : «لو سئلتُ عمن يضيِّع ، أو يُفقد ، لأجبتُ أنه مَنْ يعود من جبل آيايانو الغربي ، بعد الرحلة ، إلى جبل آيايانو الشرقي . مَنْ يرجعون هم المفقودون . لكن لا أحد يرجع» .

تنهَّدت يَارُوزًا ، المرأة الحامل في شهرها الثالث ، ذات الثلاث والثلاثين سنة : «تحدثون عن مصيرنا كالتوابل تُضاف أو لا تُضاف إلى طهو» ، قالت بصوتها البالغ مبلغه رقةً ، الحنون النَّبر . حدَّدت سؤالها :

- ألا يعني ، ياسيد سادوك ، أن من لا يرجعون ، من الرحلة ، هم قطعاً مفقودون ، أو تائهون ؟ .

التفت سادوك إلى نظيره الدليل ميراس يحثه ، بنظرته الممحوّة في وقْبَي عينيّه ، على جوابٍ ، فردّ ميراس مطأطئاً انعكس ضياءُ اللهب على جلد رأسه الخليق :

- لم نتبّع من أحد عن مفقودين ، أو ضائعين تائهيّن . من يسلكون الرحلة إلى جبل آيايانو الغربي يبقون هناك .

«لماذا يبقون هناك؟» ، ساءلته ياروزا ، محدّقةً إليه من وجهها النحيل ، العصبيّ عكّس صوتها البالغ مبلّغه العميق من الرّقة .

بدا الضجر على وجه ميراس المستدير مطأطئاً بعدّ ، لكن بعينين أدارهما جانبياً إلى المرأة الحامل :

- لماذا تصعدون جبل آيايانو الغربي؟ لم هذه الرحلة؟ .

تجاهلت المرأة ذات الشفتين النافرتين سؤاله المحمول على ضجره . أعادت المحاورّة إلى منطق فكرتها هي :

- لماذا تخمّن أن لا أحد يرجع بعد الرحلة ، ياسيد ميراس؟ .

«لورجع أحد لرجع إلى حيث انطلقت الرحلة من جبل آيايانو الشرقي» ، ردّ ميراس .

تنحنحت ياروزا كأنما تصحّح سياق صوتها من غير سبب . أكدت لنفسها ثقة التقدير :

- لن أبقى هناك بعد نهاية الرحلة .

«لا أحد سيبقى هناك» ، وافقته بيتاليّاً ذات الأربعين عاماً ، المائلة إلى نحافة مثل ياروزا نفسها . أدارت وجهها على الآخرين من بين شعرها الأشقر ، المتماوج الطويل أضاءته النار والمصباح . تلمّست من عيونهم تأكيداً يُبدّد ما أنزلته كلمات الدليلين من حيرةٍ

إلى يقينها .

عاد خريير الماء متصلاً لم ينقطع ، بالطبع ، لكن حجبته
المحاورات ، كأن كان الماء يُصغي إليهم ، وإذا صمتوا نطقت بلبله
الزبد نقرأ بمناقيرها على حجارة الضفتين .

رئ ، من بعيد ، تلامسُ حجرين ، أحدهما بالآخر ، في
الأرجح . التفت كلُّ بوجهه إلى جهةٍ لأعلى تعيين ، مُدَّ كان
الصوتُ مبعثراً خلف الظلام ، بل مجسماً يحيط بالظلام .

«أرانب الليل تفاجئ النبات نائماً» ، قال الدليل ميراس . حكَّ
جلد رأسه الحليق برهةً ، ثمَّ تمدَّد تماماً . «لا تخاف الأرانبُ أصواتَ
القتلى بين جبلي آييانو الشرقي وأخيه الغربي» ، أضاف . «ثمانمائة
عام لم تهدأ المعاركُ في هذا المكان» .

«أظنني سمعتُ صوتاً» ، قال أحد التوأمين المتلاصقيَّ
الجسدين من جنبيهما ، فأكد توأمه الآخر بصوته المتلبس زعيقاً
خافتاً :

- أنا أيضاً .

تنهَّد ميراس الدليل مغمضاً عينيه : «الحيوانات ، وحدها ،
تسمع أصوات القتلى» ، قال بصوت نعسان . غمغم كلماتٍ
يُخاطب بها نفسه :

- كل حجر ، في هذا العراء ، عليه جلدٌ منسلخٌ ، أو لحمٌ
منسلخ ، من سخل أجساد الأسرى .

ارتعشت كتفا التوأمين يُومار ، وديرو ، اللتان لا يملكان سواهما
في جسدهما الواحد المتداخل : عنقٌ واحد ورأسان ؛ أضلاعٌ
ملتحمة ؛ بطنٌ واحد ؛ أربع أرجل . كتفان ، لا غير ، ويدان ؛ اليمنى
تخصُّ ديرو ، واليسرى تخصُّ يومار . سَرَتِ الرعشةُ من يديهما إلى

الحجر تحتها . كادا ينهضان مشدوهي الخيالين من مشهد جلد
ولحم سَلَخَهما سَحْلُ الأسرى على الحجارة فتلبّستهما الحجارة .
تلمّساً بيديهما البساطَ الجلْدَ الرقيقَ اقتعداهُ يَزْنانَ الحِرْزَ ، الذي يقي
جسدَهما ، في جلوسهما أرضاً فوق الحجر . مالا بصدرهما الواحد
صوب النار يَتَراجَعُ جدالُ ألسنتها الأفعوانية . حدّقاً إليها يستوثقان
أن الأشباحَ ستنهض بغتةً ، بصراخ صاعق ، ممسكةً بأرسان جيادها
اللهب . عادت الرعشة إلى كتفيهما ، ثانيةً ، من صوتِ ميراس
الوسنان ، أو المتصنّع وَسْناً :

- يستطيع الإنسانُ أن يغمض عينيه حين يشاء . لكنه لن
يغمضهما قط حين يفتحهما الموتُ .

«أتقرأ كتباً ، ياميراس؟» ، ساءله ماهاهون ، فردّ الدليل :

- أقرأ السجون .

عاد الرنينُ الحجريُّ البعيد . «أرنب» ، تتمم الشيخ دايك .

«بل ثعلب» ، قالت روثا ، المرأة الصغيرة ذات السبعة والعشرين
عاماً ، بصوتها الرقيق . «في مَجْمَعِ المزارع ، جنوب مدينة
سارسيدون ، لا تهدأ الثعالب ليلاً» .

«نحن لسنا في المزارع ، جنوب مدينة سارسيدون ، بل
شمالها» ، قال سادوك تعقيباً . «أُسكنين مزرعةً ، أيتها السيدة
أرثي؟» ، ساءلها .

«اسمي روثا» ، ردّت المرأة الصغيرة من شفتيها الممتلئتين .

«نعم» ، أضافت . «أعيش في مزرعة» .

«لا تستهويني المزارع . أحب صخب مدينة سارسيدون» ، قال

سادوك . «ألسنا ، جميعاً ، من سارسيدون؟» ، ساءل الأنفَارَ
بتخصيصهم عموماً .

علت الهمهمات تأكيداً . انعشتُ خيالَ الدليل سادوك
الناطقَ : « ثمانمائة عام من القتل قبل توطيد الأسس الأولى لعمارة
مدينة سارسيدون . بدأ الأسرى أشغالهم الإكراه بنقل الحجر
الأسود لبناء مجلس الحكماء » ، قال . « ربما ما سمعتموه من صوتٍ
ليس إلا عودة روح أسير بحثاً عن إبرة وخيط » .

« ماذا ستفعل روحُ بإبرة وخيط ، ياسيد سادوك ؟ » ، ساءله
الشاب المتناول الوجه دارؤوم بصوت بحّة خفيفة .

« كل الأسرى ، في حرب الثمانمائة عام ، مُنحوا إبراً وخيوطاً
يَرَفون بها ثيابهم الممزّقة حيناً ، وجلودهم المتشققة أيضاً » ، ردّ
سادوك . نفخ الهواء زفيراً من بين شفتيه :

- كل الأرواح مزوّدة بإبر وخيوط .

« لا إبرة معي ؛ لاخيط » ، قال داروم ذو الثلاثين عاماً ، دافعاً
الهواء - المحتبس قليلاً في أنفه العريض الأصل - من منخريه .
« ربما بعد هذه الرحلة » ، ردّ ميراس الدليل ببعض التلميح
الحشن إلى مصير ما .

« ألسنا أرواحاً الآن ؟ » ، تساءل داروم الطويل ، المعتدل اللحم
على العظام . « كم من الموت يلزم قبل انتقال الجسد الميت إلى هيئةٍ
روح ؟ » .

نهض ماهاهون الطويل ، النحيف . مال بجسده شمالاً ويميناً ،
مرتين ، يَلِينُ ماتصلّب قليلاً من عضل خاصرته . رمى صوته خافتاً
بالرنين في حنجرتة :

- يلزمنّا تحديدُ قياس ، أولاً .

« أتعني قياس الموت ؟ » ، ساءله داروم ، ذو الشعر الأسود
الطويل ، المتماوج .

«نعم» ، ردّ ماهاهون .

«قياسه الزمن» ، ياسيد ماها . نقول : مات فلان منذ يوم ؛ منذ

سنة ؛ منذ سنتين» ، قال داروم .

«هذا قياسٌ يائسٌ . اسمي ماهاهون» ، ردّ الرجل الواقف ،

متطلعاً من خلف نظارته إلى الشاب متراجعاً عن الحلقة نصف ذراع ، أو أكثر .

«اسمك غريبٌ قليلاً» ، عقّب داروم مستدرِكاً التلفُّظ خطأً

باسم ماهاهون .

«اسمك دار ، داروم» ، همهم ماهاهون .

«داروم» ، ردّ الشاب .

«كأنه اسمُ مكان ، وليس اسم شخص» ، قال ماهاهون .

أضاف : «نحن أمكنة . أحبُّ تسمية الناس بأسماء أمكنة : داروم -

السهل الأجرد . داروم - الضفة اليسرى . دار . . .» ، لم يُكمل مُذ

قاطعهُ سُوْلُكِي ، ذو العين اليسرى الأصغر من اليمنى ، بصوته

الرفيع :

- ما مهنتك ، ياسيد ماهاهون؟ .

«مدرّس رياضيات» ، ردّ ماهاهون .

«هل تعبيرُ «القياس اليائس» هو من مصطلح الرياضيات؟» ،

سأله سولكي الطويل ، الممتلئ ، ابن التسعة والعشرين عاماً .

«هو من مصطلح السجون» ، ردّ ماهاهون محدّقاً إلى ميراس .

«أنت تقرأ السجون ، ياسيد ميراس . من أين تبدأ في قراءتها؟» .

«من صرير الأبواب في الزنازين» ، ردّ ميراس . نهض بدوره ،

ملقياً بصره إلى جهة في الظلام صدر منها الصوت البعيد لارتطام

حجر بحجر . «أنت مدرّس رياضيات ، ياسيد ماهاهون . ما

الاختلاف بين الرياضيات والمعارك؟» .

«الأرقام مذعورة في الرياضيات ؛ متراخية جداً في المعارك» ،
ردّ ماهاهون .

«أمضيت وقتاً طويلاً ، إذاً ، مع دعر الأرقام ، ياسيد ماهاهون» ،
قال ميراس . أشار بيده جنوباً : «من مساكب شلالات نهر جُون
بدأت حرب الثمانمائة عام . كانت أجور المحاربين تُدفع إِبْرًا
وخيوطاً» . عاد جالساً ، مضيفاً من بين شفثيه المنفرجتين :

- المحاربون تقاضوا أجورهم إِبْرًا وخيوطاً ، ووهب المنتصرون
أسراهم إِبْرًا وخيوطاً . خيال واحد جمع المنتصر والأسير .

«لا أتبع المنطق الطريف في حكايتك ، ياسيد ميراس . أَجَرْتُ
حربٌ ، هنا ، ثمانمائة عام؟» ، ساءله الشيخ جُونُني من ظلال الستة
والستين عاماً في وَقْبَي عينيهِ .

تناهى الصوتُ البعيد من ارتطام حجر بحجر ، للمرة الثالثة .
سدَّتْ الأسماعُ سهامَ إنصاتها إلى الجهات الأربع معاً ، مُذْ ترققَ
الصوتُ مجسماً يتلبسُ بصداه المكان .

«ألا تزال مؤمناً ، ياسيد سادوك ، أن روحَ أسيرٍ ما عادت باحثةً
عن إبرة وخيوط؟» ، تساءل الشاب داروم .

«كل صوت لا تخمّن مصدره ، على التحديد ، يكون من فعلٍ
الأرواح اللطيفة اللامرئية» ، ردّ سادوك ، فساءله داروم من جديد :

- أكلُّ الأرواح لطيفة لامرئية؟ .

«عليك التوجه بسؤالك إلى مدرّس الرياضيات» ، ردّ سادوك .
تنبّه إلى انسحاب التوأمين ، المتلاصقين من جنبيهما في جسد
واحد ، من الحلقة :

- إلى أين تهربان؟ .

لم يجبه التوأمان . كانا ذاهبين لقضاء حاجةٍ تخص جسدهما
الواحد . تبعهما صوت سادوك مماًزحاً :
- لا تبتعدا . أرواحُ الأسرى غاضبةٌ عادةً .

كان الليل فاتراً الهواء ، خاملاً ، في نهاية الصيف على الأرض
الحجر . ليلٌ جافٌ الأثير في عنصره الليلي ، متماثل الطباع ، من
جبل آيايانو الشرقي حتى آخر الشفق البرتقالي وراء قمم جبل
آيايانو الغربي الثماني ؛ ينتعش هواءٌ مع المغيب ، ويبرد قليلاً على
تحوم الضحى . الأنفار العشرون كانوا مُكْتَفِينَ بالجلود الرقيقة بُسْطاً
تحتهم ، وأغطيةٌ فوق ثيابهم الموحدة لوناً برتقالياً - قمصانهم ،
وبناطيلهم التي بلا جيوب ، متعلين أحذيةً رمادية ، رقيقة ، من
تفصيل واحد طرازاً .

«حربٌ بين مَنْ وَمَنْ ثمانمائة عام ، ياسيد ميراس؟» ، تساءل
الشيخ جورني المتفكّر ، بعدُ ، في السؤال ذاته ألقاه إلى الدليل
العريض الكتفين .

«أيهم أن نعرف بين مَنْ وَمَنْ جرت تلك الحرب ، ياسيد
جورني؟ مايعني التاريخ ، ويعنينا ، هو طولها» ، ردّ ميراس . «إنها
أكثر الحروب صَبْرًا ، وانسراحاً ، وإيماناً بالحياة» . حكَّ جلدَ رأسه :
- الحروبُ الطويلةُ إيمانٌ بالحياة . الحروبُ القصيرةُ إيمانٌ بالموت .

نثر ماهاهون ، من يده المبتلة بالماء ، رذاذاً على النار ، بعد جرعة
شربها من قدحه البلاستيك . نشَّ الجمرُ مستغرباً أن تُقَاطَعَ فكرةُ
النار الذهبية . استرسل ماهاهون في نثر رذاذ آخر ، متكلماً :

- مثيرةٌ فلسفةُ السجون فيك ، ياميراس .

«لا . لا» ، تتمم ميراس وهو يهز رأسه الخليق نفيّاً :

- هذه فلسفةُ الأسرى .

«تدفعني إلى التخمين أنك كنت أسيراً في حرب الثمانمائة عام»، قال الشيخ جورني ذو الستة والستين عاماً من بين شفثيه المزمومتين .

«نعم»، ردّ ميراس بكلمة تداخلت مع سؤال جديد من جورني خصّ به الجميع :

- أعرف أحدّ منكم شيئاً عن حرب الثمانمائة عام ، في علوم مدينتنا سارسيدون ، ومناهج أخبارها؟ .

هزّ البعض رأسه نفيّاً . اكتفى البعض بالصمت جواباً .

«لماذا تعرفان ، وحدكما ، عن تلك الحرب؟» ، سأل جورني الدليلين ، فردّ سادوك ، ذو العينين البنيتين ، الصغيرتين محتهما الظلال في وقبيهما :

- ستعرفون أنتم أيضاً ، في نهاية هذه الرحلة .

«تعني هذه الرحلة التي لن نعود منها؟» ، ساءلته بيتاليا ، الطويلة ، المائلة إلى نحافة ، بنبرة مزج من سخرية ومن ريبة .
«أية رحلة؟ أية عودة؟» ، قال الشاب داروم مستهزئاً . «ضاع البريد ، لكنني سأعثر عليه» .

«كنتَ تتحدث البارحة عن البريد» ، قالت امرأة ذات شعرٍ سبط ، أسود ، طويل حتى كتفيها ، بصوت فيه استرسال من النّبر تجرّ الكلمة الكلمة .

«مهنتي موزّع بريد ، ياسيدة أرديلا . معي بريد إلى جبل آيايانو الغربي» ، قال داروم ساخراً ، وهو يتحسّس ثيابه كأنّ فيها رسائلٍ مخبّأة .

«أهي الرسائل الأخيرة ، التي تبادلها القوَّاد في نهاية حرب الثمانمائة عام؟» ، تساءل ميراس بصوته المتصنّع وسناً .

«بل معي رسائل بداية الحرب ، ياسيد ميراس» ، ردّ داروم .
التفت إلى بيتاليا وهو يهزّ رأسه استخفافاً :

- لا رحلة . لا عودة . انا واثق من أمر واحد : في جيبى هذا
بضع رسائل من قتلى في جبل آيايانو الشرقي إلى قتلى في جبل
آيايانو الغربي .

«تقول إنك حاملٌ بريدَ بداية الحرب . لا قتلى ، بعدُ ،
ياداروم» ، قال سادوك ، فردّ الشاب ذو البحة الخفيفة في صوته :
- الحقّ ، ياسيد سادوك ، أن الرسائل التي معي هي من بعض
قتلى أيامنا هذه إلى قتلى من أيامنا هذه .

«لماذا تلمس فخذ بنطالك كلما ذكرتَ الرسائل ، ياداروم؟» ،
ساءله سادوك ، فردّ الشاب :

- الرسائل هنا ، في جيب بنطالي .
ابتسم سادوك من بين شفثيه المنفرجتين :
- لا جيوب في بنطالك ، ياداروم .
تحسّس داروم بنطاله البرتقالي ، فوق فخذة اليمنى . نظر إلى
أرديلا ، ذات الأربعة والأربعين عاماً ، بانحناء من جوار الشاب
راسيد ، الأصغر سنّاً في جماعتهم :
- نسيتُ الرسائل في جيوب بنطالي الآخر .

«منذ متى ترتدي هذا البنطال؟» ، ساءلته أرديلا بصوتها
المسترسل النبر ، منحنية قليلاً لترصده بعينيها البنيتين الكبيرتين ،
الغائرتين من أثر حزن .

مال راسيد ، الأصغر سنّاً ، إلى الخلف قليلاً يتيح للاثنتين
تبادلاً مريحاً للمحاورّة ، في البرهة التي ردّ داروم :
- منذ سبعة شهور .

انحنى راسيد بجذعه إلى الأمام يعيث بكرة قدم رمادية ،
مخيلة الجلد بسور بيض ، فحجب بينهما . نهض داروم من
موضعه . جرّ معه بساطه الجلد الرقيق على الأرض الحجر . مشى
خطوتين . جاور أرديلا من وراء كتفها اليسرى . فرش بساطه
واقعده راعاً . ساءلها بصوت خفيض :

- مَنْ قتل ، ياسيدة أرديلا ؟ .

«خَمْنٌ» ، ردّت المرأة مديرةً عنقها صوبه .

غمغم داروم بلا كلمات . أبقي عينيه متجولتين على وجهها
المبعثر الملامح في الظلال الكثيفة عليه . مالت المرأة كأنما ستتكلّم
على مرفقها الأيسر . تكلمت همساً من فمها الكبير ، المتناسق ،
المبتسم :

- أنت تتبعني بنظراتك منذ البارحة .

«أنا لمحتة أيضاً» ، قال الأصغر سناً بين أنفار الرحلة راسيد ، ذو
الشعر الأسود المعقود عقيصاً كالذيل خلف عنقه . دور الكرة على
إصبعه السبابة .

«أأنت تراقبني؟ ما أسمك؟» ، تساءل داروم ببعض الحرج في
صوته .

«اسمي راسيد . لا أراقبك . سهلة نظراتك . سهلة أن
تلتقط» ، ردّ الشاب بصوت لم تبارحه بعد نبرة المراهق الجاثمة
خلف حرقده البارزة .

غمغم داروم ثانية . دارى حرجه مبتسماً . التفت بوجهه إلى
البعيد المحتجب خلف حلقة أنفار الرحلة ، وخلف ضياء المصباح
والنار : «نحن لسنا في رحلة . نحن عائدون إلى مكان تائه» ، قال .
لمست أرديلا ركبته الراكعة بإصبعها مُدّ أدارت جذعها إليه :

- كم عمرك؟ .

«ثلاثون سنة» ، ردّ داروم .

«مَنْ قَتَلْت؟» ، ساءلته المرأة من فمها الواسع ، المتناسق ، المبتل

الشفقين دأباً من لسانها .

«لم أقتل أحداً» ، ردّ داروم من فوره .

لطمت أرديلا ركبته براحتها كأنما سمعت دعابةً فاشلة . رفعت

صوتها كي يُسمع :

- معنا شخصٌ خطأ .

«أهو موزع البريد؟» ، تساءلت بيتاليا ، فعقّب سادوك على

تساؤلها :

- موزّعو البريد ، أبداً ، أشخاصٌ خطأ .

«لأنهم يعرفون ، ياسيد سادوك ، أن هذه ليست رحلة» ، قال

داروم .

تناهى إليهم صوت ميراس مرتفعاً ، مستخفاً :

- أعْدموه يَصِرْ شخصاً صواباً ، لاثقاً بالبريد يحمله من قتلى

إلى قتلى .

«ثمانمائة عام» ، أطلق ماهاهون الكلمات بلا رابطٍ ، بصوتٍ

مستدرِك بعد تأخّرٍ طويل .

«ماذا يقلقك ، ياسيد ماهاهون؟» ، ساءله ميراس .

طوّق ماهاهون وجهه المهمل الحلاقة ثلاثة أيام براحتي يديه ،

مُسْتَذْكراً قلقه الأكثر قبضاً بالأنامل على أحشائه ، حين وقف ،

للمرة الأولى ، أمام المنضدة الخشبية يجلس إليها الرجلُ الشاحب

البشرة سائلاً :

- كيف ترى إلى الحياة ، الآن ، ياسيد ماهاهون؟ .

كان الرجل الشاحب ، البالغ ثلاثة وستين عاماً ، يمسك بلحيته الطويلة ، الحليقة الشارين ، بيد ، مقلّباً بالأخرى صفحات من كتاب ضخّم ، حالّ لونُ غلافه الأحمر بالحروف الذهبية عليه فغداً أقرب إلى بنيّ . رفع عينيه الغائرتين ، البنّيتين على حمرة ، إلى وجه ماهاهون ، الذي ردّ بصوتٍ جاهدٍ أنّ يلجّم رنينه :

- الحياة سائلةٌ كصمغ ، يأسيد رَأوؤت .

«كيف ترى إلى الحرّية ، الآن؟» ، ساءله راووت بصوتٍ انخفض من كلمة إلى أخرى كأنه يتراجع إلى حنجرتة .

«هي كلون ثيابي» ، ردّ ماهاهون ، ذو الحنكين البارزين في جرّم وجهه . تحسّس صدر القميص البرتقالي ، الفضفاض ، الطويل حتى الركبتين ، فوق بنطاله البرتقالي الفضفاض ، الذي بلا جيوب .

«كيف ترى إلى ماضيك؟» ، ساءله الرجل الشاحب كنخشب المنضدة ذاتها في تلك الغرفة المستطيلة ، الضيقة هندسةً مثلها مثل سردابٍ ، لا مثل غرفة . أردف : «كنتُ سأدعوك إلى الجلوس . لكنّ القانون يمنع جلوس سواي هنا» . أشار بإصبعه إلى فراغ المكان : «لا كراسي» . أبقى بصره على جدار من الأربعة الجدران غطّته ، كالثلاثة الأخرى ، رسومٌ بالأسود والأبيض لمعارك بين قِرَدَةٍ من أجناس شتى - بابون ، وشمبانزي ، وغوريلا ، بهراوات في أيديها عراكاً ، وعضٌّ بالأسنان ، وتمزيق بالأظافر . «هذه الرسوم هنا منذ ثمانمائة عام» . غمغم يذكرّ الواقفَ أمامه بسؤاله : «ماضيك ، يأسيد ماهاهون» .

«هو هنا ، معي ، الآن ، كلون ثيابي . لم أختَر ماضيّ ، كما لم أختَر ثيابي هذه ، ولونها» ، ردّ ماهاهون ذو الأنف الطويل قليلاً في وجهه البارز الحنكين . لمس نظارته يصحّح ثباتها :

- ماضي بلا جيوب أيضاً ، ياسيد راووت .
«ماذا لو وضعتُ ماضيكَ أمامك ، الآن ، ياسيد ماهاهون؟»
سأله راووت بجسده المتقوّس في القميص الأسود الفضفاض فوق
البنطال الرمادي الواسع ، المطوّق الخصر بحزام من حلقات حديد .
«مالذي تعنيه؟» ، تسأَل ماهاهون المتوسّط الطول ، لا نحيفاً
لا ممتلئاً .

«تصفية حساب» ، ردّ راووت . أضاف :
- تعتذر ، ياسيد ماهاهون .
«أعتذرُ عمّ؟ إلى مَنْ؟» ، تسأَل ماهاهون بصوتٍ جرّده من نبرة
الرنين فيه ، وألبسه فضولاً مفاجئاً .
«عن جريمة القتل» ، ردّ راووت ، محدّقاً إلى الواقف أمامه
بعينين شريهتين .

«أينفعني اعتذارُ إن اعتذرتُ؟» ، سأله ماهاهون .
«نعم . قطعاً» ، ردّ راووت . نقر بأنامله على غلاف الكتاب
الضخم الأوحـد في مكتبه الدهليز .
نقل ماهاهون بصره بين شفتي راووت الكبيرتين ، المنفرجتين ،
وبين رسوم القردة في عراكٍ موحش كعيونها الجاحظة هلعاً ، أو
غضباً . تتم .
- هذا موقفٌ ساخر .

«ما السخرية فيه؟» ، سأله راووت من طوق شعره الطويل ،
الرماديّ حائلاً إلى بياض .

هزّ ماهاهون يديه ينفض عنهما خفّة الكلمات ، أو يهيئهما
للثقل في الكلمات : «أقدّم اعتذاري لك ، ولمكتبك ، ولكل من
صادفته في الممرات إلى مكتبك ، ولن تشاء ، أيضاً ، من مخلوقات

هذا الكون . ضَعْ ماضيَّ أمامي لأصحِّح كلَّ عَوَجٍ فيه بمطرقة قلبي .
تنفس مبتسماً في السياق الذي رآه مزاحاً ، على الأرجح .

ارتدَّ راووت الشاحب بظهره المقوَّس قليلاً إلى الوراء ، في
كرسيه الخشب المتَّصل الصرير . ألقى عنقه صوب رسوم القُرود
متدرِّجَة البزوغ بالأشكال ، من اقتدار السواد على تصريف مَنْطِقِهِ ،
أو اقتدار البياض على تثبيت برهانه ، فيما يحصَّن الرماديُّ ، في
البرازخ بينهما ، ولاياته بأسوار من أحماس قُواه وأسداسها ،
وببوابات من تفاريع الكثافة واللطافة فيه حتى استحال بياضاً
حيناً ، وسواداً حيناً : «أنا في الرمادي ، ياسيد ماهاهون» ، قال
راووت بصوته الذي ينخفض نبرُهُ ويصعد بلا موجب . «الرمادي
هو البدء» . أدار وجهه الشاحب بعينه الغائرتين إلى الواقف أمامه
في ثيابه البرتقالية :

- عَبَرْتَ الرماديَّ ، يا سيد ماهاهون .

قلَّص ماهاهون بين جفونه ، خلف نظارته المستطيلة
الزجاجتين . تَمَتَّ :
- لم أفهم .

نظر راووت إلى حذاء ماهاهون الرمادي ، فأحنى ماهاهون رأسه
ينظر إلى حذائه . رفعاً وجهيهما ، معاً ، أحدهما صوب الآخر .
ابتسم الواقفُ :

- أأوحى حذائي بشيءٍ إليك ، ياسيد راووت؟ .

«أأوحى إليك ، أنتَ ، بشيءٍ ، ياسيد ماهاهون؟» ، ردَّ راووت
بسؤال على سؤال .

«هذه لعبةُ كلمات» ، قال ماهاهون .

«أموقفٌ كموقفكُ ، في مكتبي ، يستدعي لعبةَ كلمات؟» ،

تساءل راووت . «لا مدخل . لا مَخْرَج . الأنبياء كلهم أوضحوا ذلك حتى أضحى ملتبساً . لا ينبغي أن يكون المَخْرَج واضحاً ، كذلك المدخل . هُم أوضحوهما فصار المَخْرَجُ لا مَخْرَجاً ، والمدخلُ لا مدخلاً» . أدار وجهه ، ثانيةً ، صوب الرسوم القُرود ، في برهة عراكها الثابتة زمناً كهلعها ، وغضبها : «هذه القِرْدَة عرفت ذلك منذ ثمانئة عام . وهي تتدبّر الآن ، في السواد والبياض والرمادي التي هي مصائر أشكالها ، خروجاً من المأزق» ، قال من بين شفثيه الكبيرتين . أطرق محدّقاً إلى الكتاب الضخم على منضدته العتيقة : - خَمْنٌ ماذا في هذا الكتاب ، ياسيد ماهاهون ؟ .

«إنه ضخّم ، ياسيد راووت ، ومافيه ضخّم أيضاً . هذا تقديرى» ، ردّ ماهاهون .

غمغم راووت مقلّباً ردّ ماهاهون ، الواقف أمامه ، على وجوه : - مافيه ضخّم ، أيضاً ، كحجمه . نعم . لكنه يُخْتَرَل إلى آخر قَدْر تستطيع فيه الكلماتُ شرحَ كسلها . وأنا أنقل هذا الشرح إليك بأمانة : صناعةُ المأزق .

أبقى كلاهما بصره على وجه الآخر . لربما تساءل راووت ، في برهته تلك ، إن كان ماهاهون التقط شيئاً من مُلَغِزِ لسانه ؛ ولربما تساءل ماهاهون ، في برهته تلك ، إن كان راووت يوقّف ثرثرته على قدميها كوقوفه هو على قدميه .

«أفهمتني؟» ، تساءل راووت ، فردّ ماهاهون ، وهو يمسخ زجاجتي نظارته بحاشية قميصه :

- صناعة المأزق . الكلمات هي صناعة المأزق .

«لا» ، ردّ راووت . نقر بأصابعه الطويلة على غلاف الكتاب الحائل اللون :

- هذا الكتاب هو صناعة المأزق .

«أمرٌ لا يليق بضخامته» ، علّق ماهاهون .

«أصناعة المأزق سهلة المنال؟» ، تساءل راووت ، فردّ الواقفُ أمامه :

- اقتُلْ تصنعُ مأزقاً .

ارتدّ راووت إلى الوراء بظهره . وسّع قليلاً بين أجفان عينيه

الغائرتين ، المتفرّستين ، الشرّهتين :

- أأصنعُ بالقتل مأزقاً لي؟ .

«للقتيل» ، ردّ ماهاهون .

انفجرت شفّتا راووت الكبيرتان أكثر من انفراجهما المعتاد .

ساءلَ الواقفُ أمامه :

- أأصنعُ مأزقاً للقتيل بقتله؟ مامأزقه؟ .

«يغدو مرغماً على مجاورتك حتى الأبدية» ، ردّ ماهاهون .

نفخ راووت هواءً من بين شفّتيه . وضع راحة يده اليسرى على

الكتاب الضخم .

- يعجبني هذا . أليّ بسؤال؟ .

«لستُ هنا إلّا لأسأل» ، ردّ ماهاهون .

«حسنٌ» ، قال راووت . «لستُ هنا لتُسألَ ، على التحديد .

لكنّ لا بأس . سأسألك : ما علاقة الرياضيات بالقتل؟» .

نقلَ ماهاهون بصره بين جدارين حشدتُ فيهما رسومُ القروود

صراخاً يكفي أربعين قرناً ، لكنه صراخٌ صامت . مسح براحته

اليمنى على شعره الأسود القصير . ردّ :

- التجريد .

سحب راووت الكتاب الضخم حتى كاد يلامس بطنه جالساً

وراء المنضدة :

- الرياضيات تجريد . نعم . كيف يكون القتلُ تجريداً ، ياسيد ماهاهون؟ .

«البرهنة التي نقتل فيها أحداً هي برهنة تجريد ، ياسيد راووت» ، ردَّ ماهاهون .

«أهذا تقديرٌ نظريٌّ لانفعالك؟» ، تساءل راووت ، فردَّ ماهاهون :

- بل إحساسٌ . حين نقتل لانرى القتل . تنقلب الصورُ إلى فراغٍ مُبهم كالحال المُبهمّة التي لن يكون الوقتُ قبلها متصلاً بالوقت بعدها . مامن يقين ؛ مامن شكٍّ في برهنة القتل . لاخِفةٌ ؛ لاثقلٌ لبرهنة القتل . لا أبعادٌ للصُّور في برهنة القتل . تقسيمٌ ، وجمعٌ ، وطرحٌ ، حاصلُها الرقمُ ذاته - الصِّفرُ . بالقتل ، وحده ، يغدو التجريدُ محسوساً ، والمحسوسُ تجريداً . القتلُ رياضياتٌ عَرَفَ أولُ قاتل ، في تاريخ البشرية ، جذورَ لوغارتمها قبل معرفة الأرقام .

«كنتُ في الرماديّ ، إذاً ، ياسيد ماهاهون ، حين قتلتَ» ، قال راووت . مطَّ شفتيه الكبيرتين لحظةً قبل النطق من جديد :

- قتلتَ ابنَ أختك خنقاً بيديك . لمَ لم تقرع برأسه الجدارَ ، مثلاً ، أو تذبحه بسكين؟ .

«لم أفكر بطريقة قتله ، بل بقتله . قتلته ارتجالاً كحاصل ضرب الصفر بالصفر» ، ردَّ ماهاهون .

«ألم يكن ابنُ أختك يعني لك شيئاً؟» ، ساءله راووت .
«كان يعني لي إنساناً مأزقاً قبل قتله . وعنى لي إنساناً في مأزق بعد قتله . أما في لحظة قتله فلم أعرف ماهو ، ومَنْ هو» . أعاد تثبيت نظارته على أصل أنفه الطويل قليلاً :

- ربما اختصرتُ الشرحَ عن التجريد علاقةً بين الرياضيات

والقتل ، ياسيد راووت . هل تسمح لي ببعض الإضافة ؟ .
« سأكتفي بما قلت » ، ردَّ راووت ، محدّقاً من شراهة عينيه إلى
عيني الواقف أمامه .

« والآن ، ماذا عن اعتذارى ؟ » ، تساءل ماهاهون ، عائداً
بالوقت ، قبل استطرادهما ، إلى صواب السبب من وقوفه في
مكتب راووت الدهليز .

« اعتذارك ؟ نعم . لن يكلفك الأمر سوى اعتذار » ، ردَّ راووت .
« سأقدّمه لمن تشاء ، ياسيد راووت » ، قال ماهاهون . « أعتذر
إليك » .

« لا . ليس إليّ » ، ردَّ راووت . أبعدَ الكتابَ الضخم بيده إلى
منتصف المنضدة بلا سبب ، كسحبه بلا سبب :

- ستقدم اعتذارك لابن أختك القتيل .
« إلى القتيل ؟ » ، تتم ماهاهون مستغرباً . قلبَ بصره على فراغ
المكان باحثاً عن شبح ابن أخته :
- سأعتذر إليه . أين هو ؟ .
« تقبّل إذا ؟ » ، تساءل راووت .

« سأعتذر إلى ثيابه ، ودراجته ، وساعة يده ، ومحفظته
الصغيرة . دلّني عليه لأعتذر منه » ، قال ماهاهون ببعض السخرية
في أدائه .

« خذ طريقَ الرحلة إلى جبل آيايانو الغربي - مُعسكر القتلى » ،
قال راووت . صمت محدّقاً إلى الواقف أمامه .

« مُعسكر القتلى ؟ » ، ردَّد ماهاهون كلمات راووت لتثبيتها في
السطر الناقص من سطور خياله . ضمَّ يديه إحدیهما إلى الأخرى
كأنما يمسك بهما عصفوراً فرّخاً :

- أجبل آيايانو الغربي هو مُعسكر أرواح الموتى؟ .
هزّ راووت رأسه نفيّاً :
- هو معسكر القتلى تحديداً ، وليس الموتى .
«معسكرُ أرواح!!» ، تتمّ ماهاهون مستجلياً ببصر يقينه مقدارَ
المزاح في كلمات راووت . أردفَ :
«أرواحُ في خيام» .
«القتلى يقيمون هناك ، وليس أرواحهم» ، قال راووت مصححاً
تلميح ماهاهون إلى ماهيّات الأشكال الخفيّة الأثير بعد الموت .
«أين تقيم أرواحهم ، إذا؟» ، تساءل ماهاهون . ابتسم في
سخرية لا تُستجلى : «ربما في كهوف آيايانو الشرقي» .
«ستعرف ذلك ، ياسيد ماهاهون . هم قتلى مجموعون من آخر
سنتين ، ويسيّمون في معسكر على جبل آيايانو الغربي» ، ردّ
راووت .
«أليس الأفضل ، ياسيد راووت ، القول إنها أرواحهم في
معسكر هناك . أم هم قتلى أحياء؟» ، ساءله ماهاهون .
«كما تشاء» ، ردّ راووت .
«لا أؤمن بالأرواح» ، قال ماهاهون بصوت خفيف عاد إليه
الرنين من حنجرتّه .
نهض راووت الطويل ، المتقوَّس قليلاً . حدّق إلى ماهاهون من
عينيّه الشرهتين في وجهه المطوّق بشعر رمادي غلب البياض عليه ،
طويل جداً : «لا أحثّك على الإيمان بشيء ، ياماهاهون . خُذ طريقَ
الرحلة إلى جبل آيايانو الغربي . إن التقيتَ القتيلاً ، لم يزل في
جسده ، اعتذر منه . وإن التقيتَ روحاً في خيمةٍ اعتذر إليه أيضاً» ،
قال .

«وماذا إن لم ألتق به؟» ، تساءل ماهاهون ، فردَّ راووت بصوتٍ
انخفض بالكلمات حتى لا ساءها :

- ألا يكفيك ان تخرج من هذا المكان؟ .

حين تذكر ماهاهون المحاورَةَ تلك ، وهو في حلقة أهل الرحلة
ليلتهم الثانية ، استنزل صورها في ترديده جملة «ثمانمائة عام» ، قال
مخاطباً الموجودات المفقودة في صور اللاتعيين ، فأثار سؤالاً من
الدليل ميراس :

- ماذا يقلقك ، ياسيد ماهاهون؟ .

صورة ابن أخته كانت ماثلة في الظلام بتدرج من الرمادي إلى
الرمادي ، تلك البرهة . داريان الشاب ، الرقيق ، الكبير العينين
السوداوين ، الفكهُ اللسان في درس الرياضيات ، الذي يجتمع له
سبعة وعشرون تلميذاً . داريان تلميذ خاله ماهاهون . مدرستهم فرع
من المؤسسة الأم القائمة ببناها في جزء من حديقة متصلة
بالحديقة العامة ، المترامية ، شرق وسط مدينة سارسيدون . كل
شيء كان على مايرام في القاعة ، حيث يقوم ماهاهون فيها بإدارة
خيال الأرقام ، ومجزؤاتها ، وأحلاط لعبتها المفتوحة على سلالَم
للصعود إلى مجاميع المنطق الكبرى ، و سلالَم للنزول إلى مدائح
المطلق حبساً في مُجرِّده الهاوية . الفتاة أسلين ، القصيرة الثياب ،
أبدأ ، حتى منتصفَي فخذيها ، ألقت على ماهاهون بسالة الشهويِّ
من سنينها الست عشرة . جريئة كانت في تودُّد لحمها وعينيها ،
معاً ، إلي ماهاهون ، غمزاً ، ورسائل قُصاصات ممزقة من دفترها
باليد ، وتأخراً في الخروج من القاعة عند انتهاء الدرس ، وانصراف
التلاميذ ، لتنفرد بالمعلم بليلة الشفتين لعقاً من لسانها على نحو
يفهمه جرح اللذائذ في جسد رجل بالغ ستة وثلاثين عاماً ، متزوج

منذ سنتين من غير إنجابٍ بعدُ . فخذنا أسلين الممثلتان لحماً ، ونداءَ لحم ، وصبيٍّ من غسل لحم ، كانتا ضاريتين في نزالهما كي تربحا قلبُ ماهاهون الأعزل . مامن سبب يردُّ رجلاً ناضجاً عن تسليم خزائن أسلحة عقله إلى تينك الفخذين إلاَّ الخوف من فضيحة . ماهاهون لم يتجرأ ، كمعلم ، أن يأخذ هبات أسلين المحتملة على محمل رغبته ، خوف الفضيحة تحديداً ، بل زاد من صده تلميذته مارآه من عزم ابن أخته داريان أن يفوز بها غزلاً صامتاً من عينيه ، ناطقاً من إصراره مجاورتها جلوساً على المقعد في قاعة الدرس ، وإعانتها بسبب ، وبلا سبب ، في جمع كرايسها ، وحمل حقيبتها حتى الباب ، وترفيهها بفكاهاته وحركاته ، ودعوتها مع الأصدقاء ، مراراً ، إلى سمر في البيت يُلزمُ حاله ، وزوجة حاله ، إلخافاً ، بالحضور إلى جوار أمه وأبيه .

تمنى ماهاهون أن يربح ابن أخته تلك الشهوة المنكرة عليه عرفاً . لكن الفتاة أسلين ، في بزوغ اليقين من قلبها على عقلها أنها لن تدخل إلى عقل ماهاهون وقلبه ، قلبت المكان رأساً على عقب ، وسدّدت إلى الزمن لكمة المأزق الدموي .

«اسمع ، ياداريان» ، ذلك ما مهّدت به سياق الجرح القادم إلى قلب داريان ، حين جرّته من حمالة حقيبتته إلى ظل شجرة الحور الرجراج الضخمة . «أتفهم رغبتك في أن أكون صديقةً صفيّة لك . أنت دمث ، ظريف ، ذكي ، جذاب أيضاً» ، أضافت . قلبت عينها على وجهه متصنّعة براءة المنكسر : «يحزنني أنني لا أستطيع مبادلتك مشاعرك بمثلها» . أشارت إلى فتيات منتشرات ، او مجتمعات تحت شجر الحديقة المترامية : «بينهنّ ، قطعاً ، مَنْ يُسعدُها أن تكون لك ياداريان . أنا . . .» . صمتت . لمست زراً في

صدر قميصه تدغدغه بأملتها : « قلبي ليس معي » ، قالت . تأوّهت :
« خُطِفَ قلبي » .

تخلع شيءٌ ما في صدر داريان . أحبط . غطي أحشاءه هَلَلٌ
عنكبوت الخيبة القوية . اقتحمته أسلين منكسراً : « طالما تميتك
صديقاً أخصك بأسراري ؛ أهدئك كما أهدت صديقة ، وليس
حبيباً ، أو عشيقاً ، ياداريان . انظر إلى قلبي وعقلي ، وأنس جسد
الأُنثى الذي لي » ، قالت تستدرجه . ألحت بدلال :
- أ تكون صديقي ؟ .

مرتبكاً من انتشار حاله شظايا بين يديّ حالها استجمع لسانه -
لسان ابن السادسة عشرة مايرضيها :

- أكن صديقك الأمين ، الكتوم ، إن أخبرني اسم المخطوط .
لا أراك ، يا أسلين ، تخصّص طالبا بصحبتك . تتبعك عيناى .
أطرقت الفتاة ذات العينين الزرقاوين الصغيرتين تُزيدهما
اتساعاً موهوماً بأصباغ تبرّجها . همست من غير أن ترفع وجهها
إليه :

- لا أريد اختبار أمانتك كصديق . لكنني خائفة قليلاً .
« جرّيني . أنا أمين ، وجريء ، يا أسلين » ، قال الشاب الواسع
العينين . جدّد عرض فضوله :
- من المخطوط ؟ .

« خالك » ، تمت الفتاة من وجهها المطرق . اتسعت ابتسامه
بوجهها .

غاب وجهها عن بصره برهة . مالت أشجار الحور الرجراج ،
والبتولا ، والصنوبر ، على الطلاب المتناثرين في أرجاء الحديقة .
اختطفتهم الظلال ، أو التهمتهم . حدّق داريان إلى مفرق شعر

أسلين في رأسها المنكس . ارتعش لسأته جفافاً :
- أيجبك ، وتحبينه ؟ .

لم تنطق أسلين . نطق صمئها اعترافاً .
احتبس داريان لهاثاً كاد يخرج من أذنيه . غمغم بلسانه الرمل
في فمه :

- كيف حدث ذلك؟ منذ متى؟ .
رفعت أسلين عينيها بالصباغ المتمدد زرقاً حولهما :
- خالك كان البادئ ، ياداريان . ماهاون بارع اللسان
بالكلمات ، شيق الأحاديث . وقعت .
«أيلمسك خالي؟» ، ساء لها داريان من ارتداد خياله عليه
بالخسارة .

ضربته أسلين بظاهر يدها اليسرى على صدره ، في لينٍ ،
متصنعةً دلالاً :

- أنتزع أسراري كلها دفعة واحدة؟ .
«لم اقصد ذلك . ولكن .» ، قال داريان ، فقاطعته أسلين
مسترسلةً بصوت هامس : «يلمسني؟ . إنه يأكلني» . غطت عينيها
براحة يدها اليسرى إيغالاً في ادعاء الخفر . عادت فقبضت بيدها
على معصمه :

- لا تخبر خالك بشيء مما أخبرتك . لا تتصرف أمامه كأنك
تعرف . أنت صديق سري الآن . لا تخذلني .

لم يخذل داريان الفتاة الناطقة اللحم من لسان فخذيها . تحيّن
غياب خاله عن البيت فقصد زوجته نأيدا ، المستعرضة جسدها
الرياضي في البنطال المطاط القماش . انتهبها بالفجاءة في خبره :
- لخالي علاقة بإحدى تلميذاته .

تلَقَّفت المرأةُ الخبرَ ببرودٍ فاجأ داريان . ساءلتهُ وهي تملأُ له قدحاً
من شراب الفريز :
- ما اسمها ؟ .

«أسلين» ، ردَّ الفتى .
«هل رأيْتُها قبلاً في حفْلٍ عندكم؟» ، ساءلتهُ ، فردَّ :
- ربما .

«صفْها لي» ، قالت ، فردَّ داريان :

- ليست طويلة . ليست قصيرة . ترتدي ثوباً قصيراً .

«كل اللواتي رأيتُهن في بيتكم ، من صديقاتك ، يرتدين ثياباً
قصيرة» ، قالت نايدا الملجومةُ ردةً فعلٍها . وهي ظلت على حالها تلك
عاديّة الهمس في وداعة الكلمات مع زوجها إذ عاد إلى البيت ؛
عاديّة الحركة في تقديم العشاء ؛ عاديّة النظرات في ارتشاف نبيذها
الأحمر ؛ عاديّة الهمس في وداعه صباح اليوم التالي مغادراً ، مع قبلة
على الفم ، إلى استعراض الأرقام ومجاهيلها الذهب في القاعة
الكبيرة مرصوفة الأرض بخشب الباركيه الملمع برّيقاً لا يزول .
لكنها ، في الساعة الحادية عشرة وثمانين دقائق ، أدارت مقبض باب
القاعة ، ودلفت داخلّةً تحت نظرات التلاميذ الراقصة فضولاً ، ونظرات
زوجها الصامت مُبَاغِتاً لثوان ، ثم مستدرِكاً صمته بالسؤال صاعداً من
حنجرتة ببعض الرهبة من حدوث أمر مُنْكَرٍ : «أحدثَ مكروه؟» ، إذ
لم يحدث له ، في الأربع السنوات من خدمته معلماً ، أن زارت
زوجته المدرسة أبعد من بوابة المبنى ، حين تعطلت سيارته من جَمَد
الشتاء مرةً فاوصلته بسيارتها . لكن هاهي داخلّة إلى القاعة بلا قرع
على الباب استئذاناً ، متقدمة من صدر المقاعد الصغيرة خمسة
صفوف قصيرة اقتعدّها الطلابُ الفتيّة .

«من منكنَّ أسلين؟» ، ساءلت نايدا جَمْعَ القاعةِ الإناثِ في بنطالها الأسود ، المطاطِ القماشيةِ ناطقاً بلسانِ جسدها مصقولاً بعنايةِ التدريبِ رياضةً .

نهضت أسلين واقفةً بابتسامةٍ خَفَرٍ من تلفيقِ تتقنه .
أنزلت نايدا بصرها إلى فخذي أسلين المنفجرتين لحماً متراصاً . مطَّت شفيتها علامةَ إعجاب : «لا ألومك ، ياماهاون» ، قالت . رفعت يديها كأنما تطلب من التلاميذ أن يقفوا على أقدامهم .

«ماذا تفعلين؟» ، تساءل ماهاون مستهجنًا ، فردَّت زوجته :
- حبذا لو نهض الشبان الذكور عن مقاعدهم .
«ماذا تريدين؟» ، تساءل ماهاون ، مجيلاً بصره على التلامذة بعقل في مصيدة .

لَمْ تردَّ نايدا . كرَّرت الإشارةَ من يديها فنهضَ بعضُ الشبان مشاركةً في الدَّورِ المرتجِّل من فِصْل طارئ ، مرتجلٍ من مسرحية ، ممتلئٍ الأعين فضولاً . أنزلت المرأةُ يديها تلمس بهما فخذيها في البنطال الضيقِ القماشية :

- ما العيب في هاتين الفخزين ؟ .
تصنَّعَ الشَّبَانُ صفيراً خافتاً ، وزفيراً مسموعاً من بين شفاههم إعجاباً بفخذي المرأةِ المُعْتَصِرَةِ نضوجاً في ثلاثينها .
صفَّقت نايدا تصفيقاً خافتاً ، قصيراً ، في شكرٍ منها على إطرانهم . استدارت مقتربة من ماهاون في خطوات هادئة من نقرِ حذائها الواطئِ العقبين . صفعتهُ قَدْرَ ما تمكَّنت راحةَ يدها من وجهه . ارتدَّ معلِّم الرياضيات حتى كاد يسقط جانبياً . التفتت ، من جديد إلى التلاميذ بعد الصفعة . انحنت لهم بوضع يدها على

صدرها متصنعةً إجلالاً . استقامت محدقةً إلى أسلين : «ترتدين سروراً داخليةً أخضر» ، قالت . اتجهت إلى الباب . فتحته وانسلت خارجةً .

حاول ماهاهون استجلاءً وجوه تلاميذه مذهولاً فغابت ملامحها . كانت وجوهاً حسبُ فارغةً ككرات بيض . ابتسم على نحو غير مفهوم . أدار وجهه صوب الباب في حركة متأخرة لحاقاً بزوجته . هرول . خرج من القاعة بدوره . سلك الرواق الطويل ، المستقيم ، إلى باب المبنى الواسع ذي الطبقتين . لحق بزوجته راكضاً فأدركها في مطلع الحديقة . «نايدا» ، صاح بصوت تكاثف رنينه . توقفت نايدا مستديرةً إليه . أمسك بها من كتفيها مرتعش الشفتين :

- أجننت ؟ .

«لا» ، ردّت نايدا الحمراء الشعر قصيرةً . تمتمت :

- جئت خصيتاك .

«قولي شيئاً أفهمه» ، قال ماهاهون وهو يهزها .

أبعدت نايدا يديه عن كتفيها :

- ستطرد ياماهاهون . إنها تلميذتك أولاً ، وهي قاصير ثانياً .

مامن مدرسة في مدينة سارسيدون ستقبل مدرّساً يُغوي تلميذة . أنا لا أعرفك .

لهث ماهاهون . غصّ . استجمع صوته المنكسر :

- لم أَعُوَ أحداً ، يانايدا . من أين تلقفت هذا الخبر الجنون ؟ .

«من داريان» ، ردّت نايدا . «داريان لا يكذب» . انفلتت ماشيةً

في اتجاه موقف سيارتها . استدار ماهاهون عائداً إلى المبنى . دخله . سلك الرواق الفارغ بعدُ إلا من معلّمة سها عن تحيتها . دخل قاعة

الدّرس متفجّر القلب بأرقام راقصة الأعشار . اتجه إلى ابن أخته ،
الجالس في مقعده . أمسك به من فروة رأسه : «ماذا فعلت يا ابن
الكلبة؟» ، صاح مُرغياً . «لماذا فعلت هذا بي؟» .

انتفض الفتى . نهض فأفلت فروة رأسه من قبضة خاله .
ابتعد متحامياً وهو يصرخ بدوره :
- بِمَ كُنْتَ تفكر أيها المعلم ؟ .

«ماذا؟» ، تتم ماهاون في مرارة . صحّح الميل في نظارته فوق
قاعدة أنفه الطويل . «كيف لفقت هذه القذارة ، ياداريان؟ أم هناك
مَنْ لَفَّقَ لك؟» ، قال ، مستديراً بوجهه إلى الفتاة أسلين ، التي
أبدت امتعاضاً من نظرتة إذ حوصرت بوجوه التلامذة محدّقين إليها
بعيون مستفسرة .

انسحب داريان يتفادى أسئلة أخرى . تتبّعه خاله : «توقّف» ،
صاح به . خرج داريان . خرج ماهاون من القاعة خلفه . تسلل
بعض التلامذة خلفهما بخطى خفيفة كالهررة . اتجه داريان إلى
جناح المراحيض في تخطيط مُرتجّل لنجاة مرتجلة من غليان خاله .
دخل خطأً ، على عجلته ، الفرع الخاصّ بالإناث . ألقى بنفسه إلى
أول مُستراح من العُرف الصغيرة المتلاصقة ، ذوات الأبواب القصار .
غلّق الباب بالقفل .

ركل ماهاون الباب فهشّم مغلاقه . سقطت نظارته أرضاً . لم
يتناولها . دلف داخلاً المرحاض .

كان في مستطاع التلامذة ، الذين لحقوا بالشاب وخاله المعلم ،
أن يلمحوا ، وهم قُرب مدخل مَجْمَع المراحيض لا يتقدّمون ، أقداماً
أربعاً من أسفل الباب القصير تتناقُر أحذيتُها ، وتلتحم السيقان ثم
تنفصل ، مصحوبة الحركة بزفير قوي . أمّا في داخل المرحاض

المردود الباب ، فكان ماهاهون قد أحكم يديه على عنق داريان تطويقاً ، أحرص الفم ، ناطق العينين هلعاً من فكرته الدموية . لم يكن يرى ، في برهته تلك ، ابن أخته مفتوح الفم اختناقاً ، بل يرى إلى فكرته هو قوية لا تقاوم ، جذابة في أن تستكمل حتى آخر رومق شرحاً من ماهاهون للحياة ، في برهته تلك ، أن الحياة ليست إلا صرامة التنفيذ بلا تردد . كان ماهاهون يُنجز تواطؤ الحياة على التنفيذ . كان لا يرى داريان بل أمل يديه في التقاط الزمردة السوداء على حافة كل يقين كيقينه ، في برهته تلك : مامن ترف يعدل لمس الموت بالتواطؤ الضاري للحياة على إنجاز الموت محسوساً . ذلك ما أحسّه ماهاهون . وإذا أرخى أصابعه عن عنق داريان ، بعدما استنفدت رثنا الشاب تجرع آخر قطرة من الهواء ، وتهدأت ذراعاه على جانبيه جالساً على مقعد المرحاض ، عادت الصور متلاحمة بصمغ اللون ، مرئية ، إلى مرمى بصره . لم تفاجئه فداحة إنجاز الفكرة . بدا مشدوهاً من اقتدار يديه على التقاط أكثر من زمردة سوداء عن حافة يقينه . نظر إلى التلاميذ المشدوهين مثله ، من غير أن يعرفوا ، من موضعهم ذاك ، النهاية بتمامها ، كأنه يراهم أول مرة في دخوله القاعة معلماً قبل أربع سنين . موقفه ، أنثذ ، كان موقف المعلم في مبتدأ استعراض علومه ، يجاهد أن يبدو متماسكاً ، واثقاً ، ودوداً وصارماً ، أيضاً ، بحركته في التحية ، وفي تقديم اسمه إليهم بالحروف جلية كتبها على اللوح الأخضر . لكن الفارق بين هيئته أنثذ ، قبل أربع سنين ، وهيئته يوم خروجه من المرحاض تاركاً خلفه داريان صامتاً ، كان ذلك الخيط من اللعاب والزبد انساب من زاوية فمه اليسرى على ذقنه .

بحث ماهاهون عن نظارته بعينين جالتا على الأرض قرب باب

المرحاض . تقدّمت منه فتاة ممدودة الذراع إليه بالنظارة . تناولها . ركّزها على قاعدة أنفه . بدت عينه اليمنى متشظيةً من وراء الزجاجاة اليمنى المكسورة شروخاً ستّة .

«لماذا لا تبغ بين متاع الرحلة؟» ، - تلك كانت الجملة التي أعادت ماهاون من رحلة ذاكرته الثقيلة إلى حلقة الأنفار العشرين في ليلتهم الثانية على الأرضِ العراءِ الحجر . صوتُ الشابة ميّلادين ، ذات الثلاث والثلاثين سنة ، هو الذي رمى الجملة متبوعةً بزفير الحسرة . بادلتها المرأة التي تجاورها ، ذات الثمانية والأربعين عاماً ، حسرتها : «ليس إنصافاً هذا» ، قالت .

«إنها القاعدة ، والقانون ، ياسيدة ديلا» ، أجاب ميراس الدليل ، فصوّبت المرأة اسمها بصوت هادئ : - دالومي .

«يشبه اسماً من تاريخ مّا» ، قال الدليل الآخر سادوك . «ما القانون؟ ما القاعدة؟» ، تساءلت دالومي ، فوافقتها ميلادين ، الجالسة إلى جوارها ، بصوتها المتردد كأنها تتمهلّ في اختيار الكلمات .

«المسؤولون عن ترتيب الرحلات إلى جبل آيايانو الغربي لا يريدون بين مؤن المسافرين موادّ تُدليهم» ، ردّ ميراس . «إذلال؟!» ، غمغمت ميلادين القصيرة ، البدينة ، مستهجنةً . «أيعتبرون التبغ مذلاً؟» .

«إن كان التدخين إذلالاً ، فأنا مفعمةٌ هوىً بهذا الإذلال ، وأعبد» ، قالت دالومي تأييداً لاستنكار ميلادين . وجّه ميراس صوته إلى ماهاون ، قافراً من فوق استطرادات المرأتين عن التبغ ونعمته :

- أخبرني . ما الذي يجمع الرياضيات بالأساطير؟ .
«كلاهما - ربما - من حِيلِ الإقناع» ، ردَّ ماهاون متمدداً على
البساط الجلد ، بعينين إلى فراغ السماء الراقصة نجومًا .
«أعندك حكاية مَّا لَسَمَرْنَا ، ياسيد ماهاون؟ المتحيزون إلى
العلم لا يسردون حكايات . أم أنا واهم؟» ، ساءله ميراس .
أدار ماهاون وجهه صوب ميراس . لم يره من أفق الضياء
متراكباً من نور المصباح ونور النار . رفع صوته :
- أهل العلم ، وحدهم ، هُم زُرَّاعُ الحكايات ، وبستانيوها ،
ياميراس : الفلكيون والكيميائيون ، والقَتْلَةُ ، وآباء الأديان .
«أرؤ لنا حكايةً ، ياسيد ماهاون» ، كرَّر ميراس طلبه .
نفخ ماهاون الهواءَ متقطعاً من بين شفثيه يهيئهما لقفزة
الكلمات إلى الضفة الأخرى - ضفة الخيال الجاري ماءً كفرع نهر
جُوْن ، الذي تُسمَعُ بلابلُ زبده نقرأً على الحجارَة : «وقف فرعون
بعينين مغرورقتين دمعاً أمام بحر قُلْزُم . اشتعل قلبه حريقاً حقداً
وهو يرى فلولَ شعب موسى خائضةً في المياه هرباً . صرخ : يا
موسى . وعدتَ قومك بإله غيري . أغويتهم بإخراجهم من عبوديتي
لتأخذهم إلى عبودية إله آخر . أنا أعدُّ شعبي بالممكنات الأرضية ،
والهكَّ يعدُّهم بشيء لا يوثقُ به . لماذا تختار إلهاً غيرَ موثوقٍ بوعدهِ؟
لماذا تشرِّعُ لَلامُوثوق ، الـلا أكيد كخيارٍ إغراء؟» .
«أتحدَّثُ عن فرعون الذي هو فرعونُ ذاته؟» ، تساءل ميراس
بصوت عالٍ .
«نعم» ، ردَّ ماهاون .
«وعن موسى الذي هو موسى ذاته؟» ، تساءل ميراس فردَّ
ماهاون :

- نعم .

«ثم ماذا؟» ، تساءل ميراس ، فاسترسل ماهاهون :

- رفع فرعون ذراعه عالياً يطلب من جيشه الرجوع . توجه بصوته إلى موسى من فوق عربته ذات العجلتين ، والجياذ الثمانية ، المريشات الأعراف : ياموسى ، خُذ البحر . أنا سأخذ اليابسة . لن ألحق بـ قوم قايسوا إلهاً مثلي ، موثوقاً ، يُرى ويُسمع ، ياله لا يعرفه سواك .

«من هو موسى؟» ، تساءلت بيتاليا بصوتها الخشن متأكلاً من أثر الكحول القوية فيه .

«موسى هو رياضيات الصحراء» ، ردّ ميراس . حثّ ماهاهون أن يستمرّ في سرده :

- ثم ماذا؟ .

«هَلْ أناسٌ من قوم موسى وهم يرون فرعون منسحباً من حيث جاء» ، قال ماهاهون . «هتفوا : «لقد نجونا» . لكنّ موسى بدا مرتبكاً . أدار وجهه على الأخدود المائيّ في بحر قُلم المنشقّ طريقاً بضربة من عصاه . «إلهي» - هتف موسى . «وعدتنا أن يلحق فرعون بنا» . انطلق مهرولاً إلى شاطئ البحر صارخاً : «ماذا تفعل ، يا فرعون؟ عليك أن تكمل مطاردتي» . لم يلتفت فرعون إلى موسى . كسر موسى عصاه حنقاً ومراراً . مشى خلف عربة فرعون ذات العجلتين والثمانية الجياذ أربعين عاماً ، متضرّعاً إليه : «طارِدْني إلى البحر» ، يقول له ، فيردّ فرعون : «لن أطاردك» .

نفخ ماهاهون ضلالَ كلمات النهاية الناقصة من بين شفثيه . ساءلته دالومي المعتدلة الطول ، الممتلئة ، بنبرة فيها استظراف للحكاية :

- ماذا جرى بعد ذلك؟ .

«نجا فرعون ، وغرق موسى» ، ردَّ ماهاهون .
«أأنتَ متديّنٌ ، ياسيد ماهاهون؟» ، ساءلته دالومي ، فردَّ :

- نعم .

«بأيِّ إله تؤمن؟» ، ساءلته من جديد ، فردَّ ماهاهون :

- بإله الأفعال الأكثر قسوةً .

نطق الصوتُ الحجريُّ البعيد ، الذي تأوَّله البعض ، من قبل ،
عبثاً من أرانب الليل ، أو الشعالب . كان أكثر وضوحاً بالنَّقر
المتلاحق سبع مرات . استوى الأفراد العشرون جلوساً بعد أن كانوا
متمدِّدين على جنوبهم ، أو مستلقين على الظهر . وجَّهوا
أبصارهم ، على التحديد ، إلى نار خافتة في الظلام الراكد على
مطالع الأدرج الأوائل من سفح آيايانو الغربي . بدتِ النارُ مضرمةً
على علٍ من الأرض كأنَّ هي على أكمة .

«كم تبعدُ عنا تلك النار؟» ، تساءل الشاب داروم . وإذا لم يحظَ
بجواب من أهل الرحلة ، المستغرقين في استجلاء الجرح الذهبيِّ
للهب خافتاً ، نهض متقدِّماً من ميراس بعينين أبقاها مسترسلتين
في قياس الأبعاد . تكلمَ ثانيةً : «كم المسافة بيننا وبين تلك النار ،
ياسيد ميراس؟» .

«لا أعرف» ، ردَّ ميراس .

«أعتقد أنَّ في مستطاعي الذهابَ إلى هناك لأستجلي؟» ،
تساءل داروم بصوته البَحَّة الخفيفة من غير أن يعني ذلك ، على
الأرجح .

«إن اعتقدتَ أنك بومةٌ فاذهبُ» ، ردَّ سادوك الدليل .

حكَّ داروم رأسه غير واثقٍ من تخمين المسافة بين موضعهم

وموضع الجرح الذهب البعيد :

- ألا تظنّ أن حول تلك النار أناساً في رحلة مثلنا؟ .

«لا» ، ردّ سادوك واثقاً بصوته العالي النبر . «لادليل للرحلات إلى جبل آيايانو الغربي سوى ، وسوى ميراس» . نظر جانبياً إلى قرينه ميراس : «أظنّهم استيقظوا» ، قال الكلمات مبهمّة الإشارة ، فأثارت نفخاً مُريباً على خيال ميلادين القصيرة ، المدينة :

- أتتعمّدان إرباكنا؟ مَنْ هم الذين استيقظوا؟ .

«هذا ما أعتقد» ، وافقته آرديلا ، ذات الوجه المستدير الناتئ الذقن . «دليلاً رحلتنا يُربكاننا مرةً بحديث عن رجوعهما قبل إكمال الرحلة ، ومرة عن احتكارهما مهنة الدلالة للرحلات إلى جبل آيايانو الغربي ، ومرة عن . . .» . صمتت محدّقة من موضعها إلى ميراس ، ونظيره سادوك ، كأنما لمستها رعشة متأخرة :

- مَنْ الذين استيقظوا؟ .

«المتحاربون ثمانمائة عام» ، ردّ ميراس . استلقى من جديد متمدداً بتمامه على البساط الجلد . تتم بصوته الهادئ ، المتصنّع وسناً :

- هم يستكملون الخطّ لحرب الثمانمائة عام الأخرى .

الفصل الثاني: بيتاليا

لم تفهم بيتاليا وقوفَ امرأةٍ شديدة النحول والشحوب ، بارزة العظام ، أمام باب زنزانتها . الشرطي ، الذي رافق تلك المرأة ، فتح المغلاق بمفتاحه . استدار مغادراً في صمت ، بلا توضيح .

«تعالى معي ، ياسيدة بيتاليا» ، قالت المرأة الشاحبة للسجينة بصوت مرتجف لا يتناسب مع هدوء ملامحها الباردة . بيتاليا لم ترها قبلاً . تأملتُها متمائلةً في وقفاتها بلا اتران . كان هيكلُها القَصْبَةُ شبحياً ، شاحب الجلد ، بوجه رقيق الشفتين المتقلصتين عن أسنان كبيرة .

مدت المرأة الشبح ذراعها الطويلة صوب الممر بين الزنازين على جهتيه . «تفضلي» . لكن بيتاليا لم تتحرك . كادت تغمض جفني عينيها اليسرى في التحديق إلى الوجه البارز العظام ، تستوضح ما تحت الجلد الشاحب . تمتت :

- لم أشاجر أحداً منذ أيام .

ظلت المرأة الشاحبة ، الطويلة فتراً أكثر من بيتاليا ، على حالها ممدودة الذراع . حدقت ، بدورها ، إلى عيني السجينة الزرقاوين من عينيها الغائرتين ، الزجاجيتين ، اللتين بلا لونٍ . أومأت تصديقاً :

- أعرف .

«لِمَ أَسْتَدْعَى ، إذاً ، وأنا لم أشاجر أحداً؟» ، ساءلتها بيتاليا .

نظرت عالياً إلى وجه المرأة البارز العظام : «أأنت جديدة في العمل هنا؟ لم أرك قبلاً» . أنزلت بصرها من أعلى إلى أسفل على ثوبها الرمادي الطويل تحت سترتها الرمادية بأزرارٍ صُفر :
- لست شرطية .

«لا . لست شرطية» ، ردت المرأة المفرطة طولاً ، ونحولاً ، بصوتها المرتجف ، غير الموافق هدوء ملامحها .
«طبيبة نفسانية ، ربما» ، قالت بيتاليا .
«تفضلني» ردت المرأة الشيخ .

«أين تأخذينني؟» ، ساءلتها بيتاليا من شفيتها المملتئتين في وجهها المحاط بشعر طويل ، متموج ، أشقر صباغةً .

ابتسمت المرأة الشاحبة . تجعدَ جلدها حول الفم الرقيق الشفتين . غمرت بيتاليا من إحدى عينيها المنكفئتين إلى غُورِي وقبيهما . ظلت صامتة . مشت فتبعتها السجينة . بلغتا نهاية الممر الطويل . انعطفتا يميناً بإشارة من ذراع المرأة حتى مكتب الإدارة ، الذي تولى شرطي شاب حراسته . أدارت المرأة الشاحبة مقبض الباب داخلةً بلا طَرَق استئذاناً . دخلت بيتاليا خلفها وهي تنظر إلى الشرطي متجاهلاً دخولهما . اقتربتا من طاولة المدير الأصيل منكباً على ورق تدقيقاً . لم يرفع وجهه إليهما . ظلَّ مستغرقاً كأنه لا يراهما . أومأت المرأة الشاحبة إلى بيتاليا أن تتبعها أبعد ، من وراء ظهر المدير ، حيث بابٌ مستودع السجلات . دخلتا ممرٌ المستودع الواسع قامت على جانبيه رفوفٌ ، وخزائن بادراج حديد . سلكتا الممر إلى نهايته المسدودة ، أو هكذا بدت . سلّت المرأة النحيلة مفتاحاً صغيراً من جيب سترتها . أدارتُه في قفل خزانة عالية فانفتح بابها على فراغٍ مديد يضيئه مصباح شديد الخفوت . مشتا

فيه تسع خطوات لا غير . استوقفت المرأة مرافقتها السجينة :
« ادخلي » ، أشارت إلى الجدار . استدارت عائداً ، تاركة بيتاليا
وحدها .

لم يكن جداراً ، بحق ، ما أشارت إليه المرأة الشاحبة ، بل باباً
احتجبه خفوتُ المصباح . دفعته بيتاليا ودخلت على حذر .
صوتُ نقر هو الذي لفت بصرَ السجينة إلى نهاية الدهليز
الطويل مضاءً بوضوح . كان رجلٌ متقوسٌ قليلاً ، ذو شعر رمادي
على بياض ، ينقر بأنامل يده اليسرى غلافَ كتاب ضخم واقفاً .
سبق صوته اتّضح تفاصيل شخصه :
- أنت بيتاليا . تقدّمي .

تقدمت بيتاليا في صمت الدهليز المنهوش بأنياب القروود
البابون ، والغوريلا ، والشمبانزي ، عالقةً في برازخ الرماديّ والسوادِ
رسوماً .

غلب الحذرُ قلبَ بيتاليا . غلبتها الريبةُ من المكان الدهليز
لا يشبه مكتباً ، أو زنزانة ، قطُّ ، ملتبساً بالرسومِ العراكِ المهولِ على
جدرانه . تقدّمت من منضدة الرجل الشاحب ، المستطيل الوجه
بلحيته الحليلة الشارين .

« أنا راووت » ، قال الواقف المتقوس ، مسترسلاً في النقر بأنامل
يده اليسرى على غلاف الكتاب الضخم . جلس . « أعتذر » ، تتم
مشيراً بذراعه اليمنى إلى خلاء الدهليز . « لا كراسي هنا لأدعوك
إلى جلوس . لم أفهم الحكمة من خلوّ المكان من كرسي آخر سوى
الذي لي » . هز رأسه أسفاً . تأمّل المرأة الواقفة أمامه طويلةً على
نحافة بلا إسراف . ارتفع صوته في تدرّجٍ بالكلمات نزولاً من
وضوحٍ إلى غمغمة :

- أتريدين ماضيكَ؟ .

«ماضيَّ؟!»، تساءلت بيتاليا باستهجانٍ ملجومٍ من هذا الاستهلال في المحاورَة بينهما . «ماذا تعني؟» .

«أتريدين أن أعيدَ إليك ماضيكَ تفعلين به ماتشائين؟» ، قال راووت وهو يكشف غلاف الكتاب عن صفحته الأولى .

«عفواً ياسيد . .» ، تمتمت بيتاليا ، فبادرها الرجل الشيخ إلى استكمال جملتها :

- راووت .

«أأنت ، ياسيد راووت ، مديرُ جناحٍ آخر من سجن النساء هنا؟» ، ساءلته ، فردَّ ذو الأنف المحدث ، الغائر العينين الشرهتين ، المتفرَّستين :

- أيشبه هذا المكان مكتبَ مدير؟ .

تَحَيَّرَت بيتاليا موزَّعةَ النظرات على الكتاب بين يديَّ الرجل المتقوس ، والرسوم الطاحنة عراكاً على الجدران . استجمعت لسانها ، ثانيةً ، بالسؤال الذي لن تتفاداه :

- من أنت؟ لماذا أنا هنا؟ .

«ماضيكَ» ، تتمم راووت محاصراً وجهها الأبيض البشرة بعينه الشرهتين .

قلَّصَت بيتاليا جفني عينها اليسرى حتى كادت تغمضها :

- أأنت ماضيَّ؟ .

«لا . لا . لستُ ماضيَّ أحد» ، قال راووت . «أحاول تذكيرك بما عرضتُ عليك» .

«أوه» ، تمتمت بيتاليا ، مبقيةً على إغماضة عينها اليسرى . «أنت مستقبلي ، ربما ، ياسيد راووت» .

ابتسم راووت :

- لستُ مستقبلَ أحدٍ أيضاً . ماضيك ؛ أتريدنه هنا ، معك الآن ؟ .

«ألا تعرّف إليه ، ياسيد راووت؟ أعرف ماضي . لستُ فخورة به ولا متخجّلة منه . ماضي انتهى مذ دخلتُ سجنَ جبل آييانو الشرقي» ، قالت بيتاليا بصوتها المخشوش من أثر الكحول القوية فيه .

«سأعيده إليك» ، قال راووت .

«لا أريده» ، ردت بيتاليا بدفع من يدها كأنها تسدُّ باباً .
«لا تستطيع إعادته إلي . ولو استطعت فأنا لا أريده» .

بقي راووت صامتاً على النظرة ذاتها التي تطوّق وجه بيتاليا المربع .

تفحّصت بيتاليا ، فجاءةً ، نفسها بحثاً عما يُرى وعمّا لا يُرى :
«أخبرني ، ياسيد راووت ، لماذا ثيابنا البرتقالية اللون هذه بلا جيوب؟» .

«لا تحتاجين جيوباً» ، ردّ راووت همساً . أغلق غلاف الكتاب على صفحته الأولى :

- اعتذار صغير قد يعيد ماضيك حاضراً . ربّيه كما تشائين . مزّقيه وخيّطيه .

بدت المحاورّة ، في فهم بيتاليا ، لعبةً . ابتسمت . لكنّ خيالها توجّس من لسان راووت مكرّاً في الكلمات . عقدت ذراعيها تحت ثدييها متوازيتين :

- أعتذرُ إلى مَنْ ؟ .

«إلى من تعتقدين أنه جدير باعتذارك» ، ردّ راووت .

«لا أحد» ، قالت بيتاليا .

خفض الرجل المتقوس بصره . تتم كالمرتل : «الميزانُ الأعظمُ
ميزان الخوف . كل شيء يبدأ من الخوف وينتهي إلى الخوف .
الخوف فنٌ . الإيمان فنٌ . الإلحاد فنٌ . الرمادي فنٌ . أنا في الرمادي ،
ياسيدة بيتاليا» ، قال راووت . فتح الكتاب على منتصفه وهو ينظر
إلى المرأة ، لا إلى الكتاب ، بعينه الشرهتين :

- هنا ما لا يستطيع أحدٌ تفاديه .

نفخت بيتاليا من فمها الصغير ، الممتلئ الشفتين ، هواءً على
الهواء ، متطلعةً إلى رسوم القروء :

- يخامرني أنك ركبت سيارتي مرة .

«هه» ، ، أطلق راووت زفيراً خافتاً : «لماذا تقود امرأة مثلك
سيارة أجرة في مدينة سارسيدون الصاخبة؟ أكنت تشتغلين في
الليل أيضاً؟» .

«في الليل أيضاً ، وفق حصص سائقي سيارات الأجرة من
الأوقات» ، ردّت بيتاليا .

«ما الليل؟» ، سألها راووت .

«الليل؟!» ، قتمت بيتاليا مستفسرة . تمهّلت في الردّ مستعينة ،
أول مرة ، بخيال المفارقات :

- ليس ذكراً ، وليس أنثى . هو ، أيضاً ، كالسيارة ليست ذكراً
وليست أنثى .

«لماذا خامرك أنني كنتُ من راكبي سيارتك مرة؟» ، سألها
راووت ، فردّت بيتاليا :

- صوتك ليس غريباً .

«كم راكباً جُلّت به شوارع سارسيدون بسيارتك؟» ، تساءل

راووت . ردَّ بنفسه : «ركابٌ كُثُرٌ ، لا يُحصَوْنَ . أتذكِّرين أصواتهم؟» .
«أتذكِّرين أحاديثهم» ، ردَّت بيتاليا .
«سأفترض أنني كنتُ من ركابِ سيارتك . عمَّ تحدثتُ؟» ،
ساءلها راووت .

«عن يوم ميلادك» ، ردَّت بيتاليا .
«أحدثتُك عن يوم ميلادي؟» ، ساءلها راووت موسَّعاً بين
أجفان عينيهِ الغائرتين ، البنيتين على حمرة .
«لا . كنتُ تحدثُ للشيطان» ، ردَّت بيتاليا بنبرةٍ مَلَلٍ .
«ماذا قلتُ للشيطان عن يوم ميلادي؟» ، ساءلها راووت ،
فردَّت المرأة البادية المَلَل :
«كَلِمَتُهُ بلغةٍ كلغةٍ تسويق البضائع في إعلانات سارسيدون» ،
ردَّت بيتاليا .

«أأبدو كشخص من مدينة سارسيدون؟» ، تساءل راووت وهو
يُطبِّق دَفَّةَ الكتاب على دَفَّةٍ .
«تبدو كشحاذٍ من سارسيدون . هُم ، جميعاً يتسوَّلون بلغة
تسويق البضائع في إعلانات التلفاز» ، ردَّت بيتاليا . أضافت :
- لهم لغة الإله .

«ما لغة الإله؟» ، ساءلها راووت ، فردَّت بيتاليا :
- لغة تسويق البضائع على مضضٍ . هو لا يحبُّ مهنته ، لكنه
يؤديها .

تنحَنح راووت فاهتزت لحيته الطويلة ، الخليقة الشارين :
- أنت غاضبة من شيءٍ ما هنا ، الآن ، ياسيدة بيتاليا؟ .
«أنا غاضبة أبداً» ، ردَّت بيتاليا بصوتها المتآكل من أثر
الكحول .

«كيف يقود شخص غاضب سيارة أجرة؟»، تساءل راووت ،
فردت بيتاليا :

- سائقو سيارات الأجرة أناس هربوا من غضبهم إلى هذه
المهنة . كلهم غاضبون ، يتصنعون هدوءاً معذباً حتى انفجارهم . لا
أحد ، في الأرض ، يشتم كما يشتم سائقُ سيارة أجرة ، لكن
بصوت خفيض . ما من راكب سيارة أجرة ينجو من شتيمة سائقها .
«هكذا إذاً» ، تتم راووت . «ماذا عن اعتذارك؟» .

«أيُّ اعتذار؟ أعتذر إلى مؤخرتي ، لا أكثر ، ولا أقل» . تقدّمت
خطوة صوب المنضدة :
- لماذا أنا هنا؟ .

«من أجل الرحلة» ، ردّ راووت . «ألا تريدان مغادرة هذا
المكان ، ياسيدة بيتاليا؟» .

«سأفتقد منظرَ الشلالات ، ياسيد راووت ، من شرفة السجن
في جناح النساء» ، قالت بيتاليا .

سجن جبل آيايانو الشرقي منحوت في حجره ، من الجهة
الجنوبية الأكثر انحداراً . سجنٌ ممتدُّ باتساع من الغرب إلى الشرق
طبقتين تدلُّ عليه ، من الخارج ، نوافذه الضيقة ، المتجاورة . أسفل
النوافذ شرفةٌ طويلة على قدر امتداد السجن نفسه ، المقسّم فرعين ،
واحد للنساء ، وآخر للرجال . كل فرع جناحان بحسب فداحة
الجنايات ، ومُدد الأحكام ، وخطورة السّجناء . الشرفةُ محفورة
بشكل غائر ، يفصلها عن الفضاء المحيط بها سياجٌ أقواسٌ حديدٍ
كالقفص ، متّصلُ القضبان بالحجر من أعلى ومن أسفل ، بلا أملٍ
لسجين يسوّل له خياله انتحاراً بالقفز إلى السحيق الحجريّ الذي
يتناهشه شلالان كبيران ، مُنحدرًا المُسكبين من ينابيع في جهتيّ

السجن تنحدر مياهها في مسالك ظاهرة ، ومسالك دفيئة في الصخر ، قبل التقائها هادئة على بعد أربعمائة متر ، أو أكثر ، أسفل منتصف الشرفة المديدة ، منفصلةً - من ثم - عن الجبل شلالين يسحقان ، بانحدارهما الجبار ، أقواس قزح في الرذاذ الهائل ، وينحطان ، في الرذاذ الهائل ، أقواس قزح آخر .

السجينات ، والسجناء ، في الساعات المتاحة لحرية أجسادهم خارج الزنازين ، من كل يوم ، يستطيون الوقوف وراء قضبان الشرفة محلقة بهم فوق أقواس قزح ، وأجنحة طيور شتى ترى أسفل ، في عبورها قريبة من رذاذ الشلالين الدخان صاعداً إلى أعلى ، في ارتطام المياه بالخليج المياء . بُزاة ، ونوارس ، وخطاطيف سود ، هي جملة الطيور محوومة في القوس المحيط بمنتصفي الشلالين ، والسجناء يتراهنون بالتبع ، والعلك ، على الطيور البُزاة من ستقنص من الطيور الأخرى - النوارس ، أم الخطاطيف ، أم فصائل من البفن العابر ، البطيء الطيران . المياه تستجمع نفسها ، بعد السقوط ، في مجرى كبير يتوزع ، من ثم ، روافد إلى نهر جون ، الذي ينقسم فرعين من حول مدينة سارسيدون ، في الجنوب الغرب من أهضام جبل آيایانو الشرقي .

كان السجن العالي في مجثمه الحجري كهوفاً من أصول تاريخ الجبل الرمادي ، الأقرب إلى سواد . وُسعت الكهوف تلك تسع مرات في تسعة قرون . لم يختلف المتعاقبون على حكم مدينة سارسيدون في وجوب اتخاذ كهوف الجبل ، هناك ، سجنًا ، حتى غدا على حاله موصوفاً بالسعة ، ذاقعات وساحات للترئُّص ، في الباطن الحجري ، مضاءة بمصاييح عالية ، قوية ، وأوكل النحاتون بجدرانها فأنبتوا الأشكال نافرةً شخوصاً ، أعلاماً من تاريخ الحكمة ،

وتاريخ الرهبة ، وتاريخ الوجود نشأةً للمخلوقات في الكهوف الأولى . والأرجح أن ما من سجين استوقفه خياله معاينةً للتماثيل النوافر من جدران الممرات إلى زنازين السجن ، والساحات الكبيرة : كانت تماثيل سجينةً ، أفسدَ منطقَ الحجر فيها منطقُ إحصارها إلى حلبة اليأس الأخيرة ، ومنطقُ إلقائها في مجرى الوقت مناسباً إلى بستان خرابه .

شاقةً كانت المسالك إلى كهوف الجبل مُذ اكتُشِفَتْ ، في مطاردة الصيادين ، الأكثر عناداً ، لأياثل الكود ، والتَّيَاتِل . عثروا فيها على بَعَرٍ كثير ، وعلى عظام حيتانِ الرؤوسِ السيوف ، فتأوَّلوها أنها الحيتانُ الأصولُ الأولى وُلِدَتْ من سفاد طيور الألباتروس وحيوان الألك . عقداً بعد آخر من السنين اتَّصَلَت الكهوفُ العالية بأهضام جبل آييانو الشرقي عبرَ مدارج لولبية . وسَّعَت القرونُ المدارجَ فغدَت طريقاً واسعاً يربط السجن ، في الأعالي ، بالأرض قريباً من الشلالين . لكنَّ أبقِيَّ على مدرج واحد ، لولبي ، من مَخْرَج السجن غرباً ، يسلكه الحرسُ بالسجناء إلى ردهة كبيرة تفصلها بوابة ضخمة ، حديدٌ ، عن الساحة وراءها ، حيث مرأبُ الآليات لنقلِ المؤن إلى مطابخ السجن ، المتصلُ - بدوره - بساحة محاطة بتماثيل عمال يحملون أكياساً على ظهورهم : عمال تتدرَّجُ أزياءُهم اختلافاً بحسب القرون . والساحة تلك ، تحديداً ، هي مركز جمع السجناء المنطلقين خلف دراجة الدليلين النارية ، في رحلتهم بحففاتٍ من الاعتذار لا يجدون جيوباً في ثيابهم البرتقالية لإيداعها .

هم السجناء ، والسجينات ، يحملون اعتذاراتهم المنتظرةً ، المُحْتَمَلة ، في أيديهم . بيتاليا ، التي واكبها خفيرٌ إلى الساحة ، لم

تعمل اعتذارها ، الذي وعدت راووت ، على مَلَل ، أنها ستقدّمه ،
في يديها ، أو في قلبها . اختارتِ المضيّ في الرحلة اللامفهومة ،
الركيكة الغاية ، إلى جبل آيايانو الغربي . وهي ، في النهار التالي
لرؤيتهم ناراً على بُعد من مجلسهم ، اقتربت من دالومي ، المصبوغة
الشعر أحمر حائلاً ، مّصفوراً :
- مَنْ قتلت ؟ .

ابتسمت دالومي متأملّة ، من عينيها الشهاولين الواسعتين ،
وجه بيتاليا المربع . أدارت ، من ثمّ ، وجهها على قوس من الأفق
الحجري في العراء سلكوه وراء الدراجة النارية ، المترججة بهيكلها
المنطلق في تودة ، بثقة مّا كصوت مُحَرَّكها . استدرت ، فجاءةً ، يميناً
إلى ماهاهون الماشي قريباً منها :
- مَنْ إله الأفعال الأكثر قسوةً ، ياسيد ماهاهون ؟ .

بدا ماهاهون مشوّشاً ، بالرغم من نظرتة ثبّتتها على عيني
دالومي ، المعتدلة الطول ، الممتلئة :
- مَنْ ؟ .

«إله الأفعال الأكثر قسوةً» ، كرّرت دالومي . «أنت ذكرت
إيمانك بإله هذا نوعه» .

«حسنًا» ، ردّ ماهاهون بصوته الرنين ، الخافت في حنجرتة .
وزّع ، بغتةً ، سؤال دالومي على الآخرين ، ماشين على هدوءٍ
مروّض بخير النهر :

- ما الأفعال الأكثر قسوةً ، أيها النبلاء ؟ .
«فلنجعل سؤال صديقنا ماهاهون متعاً ، مثيراً» ، قال جينتالو
بصوته الواثق . فتح ذراعيه على جنبيه مُستحثاً :
- لتكنُ مبارأة بيننا على الجواب الأكثر إقناعاً .

«مباراة على ماذا؟» ، ساءلته سيتون من فمها المكتنز الشفتين ،
فردَّ جينتالو الطويل ، العضلي :

- على تخمين الأفعال الأكثر قسوة .

«ماذا يكسب الرابع؟» ، ساءلته سيتون ثانيةً ، بصوتها
المنسحب إلى داخل نفسها .

«ليس لدى أحد منا ما يمنحه للرابع» ، ردَّ داروم ، لا متطلّعاً إلى
سيتون ، بل إلى أرديلا ذات العينين البنيتين ، الغائرتين من ثقل
الحزن فيهما . «لكنني سأقترح ما يمكن أن نمنحه للفائز . أتقبلون؟» .
«هات البريد الذي تحت جلدك ، ياداروم» ، قال ماهاهون ، فردَّ
الشاب ذو الوجه المتطاوّل ، الحليق :

- نقتطع من ثيابنا ما يكفي جيوباً للفائز .

«بِمَ ستخيط الجيوب إلى ثوب الفائز ، يا حاملَ بريد القتلى؟» ،
ساءله راسيد ، ابن التاسعة عشرة ، الأصغر سنّاً بين أنفار الرحلة .
توقفت الدراجة النارية عن انطلاقتها الهادئة ، المترجرجة ،
الواثقة . نزل ميراس عن مقعد سَوِّقِها . رفع ذراعيه عالياً إلى السماء
وخفضهما ، أربع مرات . «مرفقاي يحوجُّهما زيتٌ ديزل» ، قال
العريض الكتفين . استدار إلى جمهرة الرحلة :

- ما بكم بطيئون كسماء اليوم البطيئة؟ .

«يا سيد ميراس» ، قال داروم متقدِّماً من الدليل بخطى واسعة :

- ألدينا ، بين المتاع ، إبرة وخيط؟ .

«إبرة وخيط؟» ، تساءل ميراس . «أيطالبك شبحٌ من أشباح
قتلى الثمائمات عام بدّين تَدِينُ له؟» .

«سنصنع جيوباً للفائز منا» ، ردَّ داروم . اهتز شعره الأسود
الطويل ، المتماوج ، من نسائم متجاذلةٍ في عبورها .

«لم أفهم» ، قال ميراس وقد صار الآخرون بإزائه .
«نحن في مباراة الآن ، ياسيد ميراس . مَنْ يكن جوابه أكثر
إقناعاً يَفُزْ» ، قال داروم .

«مباراة؟» ، تساءل ميراس ، فردَّ داروم :
- عن الأفعال الأكثر قسوة . والفائز يحظى بقماش نقتطعه من
ثياب كلِّ مَنَّا ، فنفضله جيوباً في ثيابه . ألدّيك إبرة وخيط بين
متاع الرحلة ؟ .

«لستم مضطرين إلى منح الفائز قماشاً» ، ردَّ ميراس . نظر إلى
ماهاهون :

- لا ضرورة لإضافة قطعة قماش إلى الثوب جيباً . الجيبُ
فكرةٌ .

«أهذا من وحي عِلْمِ السجون ، ياسيد ميراس؟» ، ساءله
ماهاهون .

لم يردَّ ميراس مُذِ استدارَ داروم ، فجاءةً ، إلى الشاب الأصغر
سنّاً في أنفار الرحلة ، بصوت عُلّتِ البَحَّةُ فيه :
- أأنت تغازلها ، ياراسيد ؟ .

كان راسيد ، المتوسط الطول ، النحيل ، المعقود الشعر ضفيرةً
وراء عنقه ، يُهاَمِسُ أَرْدِيلاً . بوغت فتراجع خطوةً عن المرأة الكبيرة
الفم بتناسُقٍ . أمسكت المرأة ، فجاءة ، بمعصمه : «لا تبتعد» ، قالت
مبتسمةً في تحديق إلى داروم :
- أهذه غيرة؟ لستَ عشيقِي بعدُ .

عُلّت بعضُ الهَاهَاتِ . صعد ميراس مقعدَ الدراجة النارية ،
إلى جوار نظيره سادوك ، لينطلق ، فاستوقفه داروم :
- ياسيد ميراس . أَلن تشارك في اختيار الفائز؟ .

«لا أفعال أكثر قسوة من قيادة هذه الدراجة النارية في رحلة غير مثيرة» ، قال ميراس وهو يدير مقبض الدراجة . انطلق زفيرٌ من جوفها متشكلاً دخاناً خفيفاً لفظته ماسورة فضية أسفل هيكلها الخزانة . هذا الزفير . رَسَا النبرُّ المعدنيُّ على استواءٍ خافت . مشى الأنفار الثمانية عشر خلفها .

«لم يتبرَّع أحد ، بعد ، بتوصيف فعل أكثر قسوة» ، قال داروم موزعاً بصره في عتب ، على الأقربين إليه ، الذين تجاهلوه . اقترب من ماهاهون :

- أَلن تقول شيئاً؟ .

«عم؟» ، تساءل ماهاهون ببعض الشرود في عينيه السارحتين على الأفق المنزلق أسفل جبل آييانو الغربي ، بعيداً .

«عن الأفعال الأكثر قسوة . أنت أوحيت إلينا فكرة المباراة» ، قال داروم ذو البشرة الصفراء قليلاً .

التفت إليه ماهاهون سائلاً :

- ما تقديرك؟ .

«وددتُ لو سمعتُ أجوبة من الآخرين أولاً» ، ردَّ داروم .

«هذا الصمتُ هو الجواب في تخمينهم الأفعال الأكثر قسوة . ماذا ترى أنت؟» ، ساءله ماهاهون .

تصنَّع داروم أنه يضع يديه في جيبيه وهميين من بنطاله البرتقالي : «سأُخرج ردِّي» ، قال . فتح راحة يده اليسرى يتبصَّرُ التخمينَ الموهوم :

- أكثر الأفعال قسوةً أن نعتقد أننا في رحلة حقاً .

«نحن لسنا في رحلة ، ياساعي البريد ، بل في نزهة» ، قالت بيتاليا المصغية إليه ، من وراء كتفه اليمنى .

آخرَ ماهاهون خطوته التالية قليلاً ليجاورَ بيتاليا . ساءلها :
- مَنْ قتلْت؟ .

حدقت بيتاليا ، الأكثر طولاً منه بقليل ، إلى عينيهِ البنيتين واضحتي اللون خلفَ زجاجتي نظارته . قلّصت بين جفني عينيها اليسرى تستحضر الفراغَ متصوراً جوعاً إلى الصور . أصغت بسمع ذاكرتها إلى ارتطام سيارتها - سيارة الأجرة - بجذع شجرة القيقب الضخمة على طُور الرصيف . كانت مسرعة ، في ذلك الشارع الداخلي من شوارع المدينة ، كأنها على طريق سريع . تعمّدت - هي بيتاليا - أن تنحرف ، بغتةً ، بسيارتها ، وتصدّم الشجرة في عنف صاعق . استدارت بوجهها ، بعد الصدمة ، إلى الفتاة الجالسة يميناً ، مرتدةً على المقعد إثر ارتطام صدرها بالهيكل الداخلي النافر من صدر السيارة . رأت الجرح الطويل في جبهتها نازفاً لا تعرف ماذا أحدثته ؛ رأت عينيها المتألمتين تنفتحان ذهولاً ، وهي تتمتم بصوت نوح خفيض :

- ماذا فعلت؟ .

تراجعت بيتاليا بالسيارة الممعوسة صفيحُ مقدّمها ، من الجهة اليمنى - جهة جلوس الفتاة . سلكت الشارعَ ، ثانيةً ، باندفاع ممزّق الزئير . ضغطت بقدمها مدعسة الدّفع على آخرها . تبادل المشاة على طُوريّ الشارع نظرات الاستهجان من سائقة سيارة الأجرة منطلقةً بها دفعاً مجنوناً . غير أن بيتاليا ، بعد نصف دقيقة ، أو أقل ، من انقذاف الهيكل الصفيح بعويل هادر ، انعطفت ، كفعلها سابقاً ، لتصدّم شجرة بندق ، بالجهة اليمنى من مقدّم السيارة ، في موضع الجرح المعدني الأول ، الغائر في صفيحها . ارتطمت الفتاة ، المتهكّة ذهولاً من صدمة رأسها وصدرها قبلاً ، بالمسطبة اللدائنية

النافرة - الصندوق الداخلي الحافظ لأسلاك مولّد شرارة الدفع بالمفتاح ، والحافظ مكيف الهواء ، والمذياع ، وآلة موسيقى الأسطوانات المضغوطة . أنت متكسّرة الأضلاع باختناق . ارتدت بعد الصدمة جالسة فوق مقعدها متهلّلة الأعضاء ، مرتخية الرأس صوب النافذة .

هزّت بيتاليا الفتاة هزاً عنيفاً : « هيه » ، همست كأنها توقظها . رفعت وجهها من فوق رأس الفتاة المتراخي إلى مشاة هرعوا يتفحصون مَنْ في داخل سيارة الأجرة ، بعيون تعرض العون ، وبأيدٍ سارعت إلى وضع هواتفها المحمولة فوق الأذان تطلب نجدة الإسعاف .

خذلت بيتاليا الوجوه العارضة عونها ، والعيون المتأسيّة مستطلعة ، على التحديد ، أحوال الفتاة الظاهرة الجرح ؛ الظاهرة الإعياء من أنينها المكتوم : أطلقت زئير بوق سيارتها مرفوقاً بضغطٍ لاهوادة فيه على مدعسة الدّفع . تراجعَت السيارة عن جذع شجرة البندق نافثة دخاناً بسطور من فكرة المعدن المحترقة . سلّكت الطريق ، وسط ذهول المقترين المارة ، باندفاع قذفت الحياة رغبة في كسرها من الكاحلين . بعد دقيقة أخرى من هدير انطلاقة السيارة ، أدارت بيتاليا المقود يمينا ، فارتطم مُقدّمها اليمين بشجرة بندق أخرى ، ضخمة . انقلبت الفتاة المنهارة عن مقعدها حتى صدم رأسها الزجاج الأمامي ، ثم ارتدّ جسمها منزلقاً ، في ارتخاء ؛ تكوّم بين المقعد والمسطبة الداخلية للسيارة . أطلقت شخيراً من فمها ، مغمضة العينين في وجهها الهادئ ، الساكن . نظرت إليها بيتاليا متمنّئة ، بعينين مستفسرتين ، لكنّ خاليتين من أيّ أسى أو رهبة . هزّتها . فتحت الفتاة فمها عن فقاعتين حمراوين من نَزف دمٍ

داخلياً اندفع بهواء نَفْسِهَا . فَكَّتْ بيتاليا عن صدرها هي حزام الأمان . نزلت من السيارة . استدارت من أمام مُقَدِّمِهَا لتفتح الباب الآخر ، حيث الفتاة . لم تأبه لأفراد من المارة عَجَلُوا سيرهم إليها مستطلعِينَ . شَدَّتْ الفتاةُ المُرْتَثَةَ ، المتهاككة ، من كتفها . وضعت رأسها في موضع غَلَقِ الباب ، ثم صَفَقَتْهُ على عنقها ، في عنفٍ ، مرتين ، مدمدمةً من فم مُزِيدٍ : «مُوتِي» . أرخت أصابعها عن الباب . نظرت إلى الوجوه ، المندهلة قريباً منها ، لم يحسم أصحابها فكَّ المُلْغَزِ من إقدام السائقة على فعلها الغامض براكبة مهشمة من اصطدام السيارة بشجرة البندق . أطلقت زعيقاً نواحاً من صوتها المتآكل من أثر الكحول فيه :

- ألا ترون؟ إنها لا تموت .

في المساء السابق للحادث ، عمدت بيتاليا إلى كسر عَقَبِ مشطها البلاستيك في شِقِّ الوصلة بين حزام الأمان وقاعدته ، في الجانب اليميني من مقعد سيارتها الأمامي . صباحاً ، حين صعدت الفتاة جالسةً على المقعد ، حاولت إدخال لسان الحزام في مِغْلَاقِهِ . لم تتمكن من ذلك . تأففت :

- مَنْ اخترع الحزام التفاهة؟ .

«أَبْقِي طرفه في يدك . سيبدو الحزامُ موصولاً بمؤخرة القانون» ، رَدَّتْ بيتاليا وهي تشعل لفافة تبغ هي الرابعة بعد كوب القهوة الرابع . نفثت دخاناً صوب الفتاة .

«ألا يُبْدي ركابُ سيارتك امتعاضاً من رائحة دخان التبغ فيها؟» ، تساءلت الفتاةُ الزرقاء العينين .

أخرجت بيتاليا اسطوانة صغيرة من خزانة المسطبة الداخلية في صدر السيارة . ضغطت زرّاً في أعلاها . انبثق زفيرٌ رذاذٌ معطرٌ .

لَوَحَتِ الفتاة براحة يدها كالمروحة تَدْرُأُ عن منخريها الرذاذَ والدخانَ معاً :

- روثٌ معطرٌ .

استنشقت بيتاليا نَفْسَيْنِ متعاقبين ، شَرِهَيْنِ ، من لفافة التبغ ، ثم رمتها من النافذة أرضاً . نفخت ، ثانيةً ، سهماً بسبعة نصالٍ من الدخان صوب الفتاة :

- وُلِدَتْ بجلدٍ عليه رائحة التبغ . إنها نعمة .

قبل ثلاثة أسابيع ، ربما ، من الحادثة ، لححت بيتاليا مشهداً لم يتوقَّف قلبُها عنده ، لأنَّ عينيها كذَّبتا عينيها : في خُلسة منها ، وهي تهيئُ المائدة للعشاء ، جيئةً وذهوباً بين المطبخ والردهة ، رأت زوجها يلزُ ابنتها يائين ، البالغة السادسة عشرة من عمرها ، من ورائها ، لثانية من الوقت لأكثر ، فأبعدته الفتاة دُفعاً بمؤخرتها على فخذه ، كما أبعدت بيتاليا شبحَ فكرةٍ عَبَرَتْ لِحاً برزخَ الشك ، في خيالها . تأوَّلت الأمرَ على محمَلٍ دعايةٍ بين أب وابنته .

بعد أيام من صَدَّ بيتاليا الفكرةَ الشبحَ - الشكَّ رأت ، وهي جالسةٌ بعدُ على حافة السرير بعد نهوضها صباحاً ، من خَصَاصِ بابِ غرفة النوم غير المؤصَّد ، يد زوجها تختطف لمسةً من ردف يائين في خروجها من الحَمَّام ، ودخوله إليه . سريعةً كانت اللمسةُ ، طائفةً خَفَقاً بجناحين من رغبة الذكر . لفافة التبغ ، التي كانت تحية الصباح للصباح بين شفتي بيتاليا ، كادت تسقط في حجرها من ارتخائهما افتجاءً . اعتصرت أجفانها غَمَضاً وفتحتها على الخطوط الزرقاء ، المتوازية ، في المنامة القصيرة على فخذي ابنتها وهي واقفة أمام مرآة الممرِّ ، تدلُّك وجهها بمرهم وقايةٍ من بثور المراهقة .

أنكرت بيتاليا ، لبرهةٍ ، على نَفْسِها ما رأت . لكنها رأت ، قطعاً ،

تلك اللمسة خلواً من دعاة بين أب وابنته . لم يهتد قلبها إلى مدخل ، تلميحاً أو تصريحاً ، لعرض الشرارة اللاذعة على أيٍّ منهما ، استفساراً أو استنكاراً ، لابلسانها ولا بعينها ، اللتين أبقت بصرهما ، يومين متتالين منخفضاً لا تصعدُ به إلى وضوح عيونهما . لكنها كلما كانا في البيت معها ، صباحاً قبل التحاقها بالمكتب سائقةً لسيارة الأجرة ، ومساءً بعد عودتها ، تجوّلت بعينها تحريّاً على حركات أقدامهما ، في عبور البنت والأب أحدهما بالآخر ، واقتفت بسمعهما صوتيهما إن غابا لحظةً عن بصرها في ركنٍ من الشقة الكبيرة في الطبقة الثانية من العمارة .

ظلت ملاحقةً بيتاليا الخفيةً للمشتبهين بهما - ابنتها وزوجها - على ضِرامٍ مُوقّد . هي لم تلاحظ ، في زواجها من تُوْتُور ، الذي يكبرها بثلاث سنين ، وأنجبها ابنتين ، ما يريب منه إلا سكره كسكر بيتاليا نفسها ولعاً بالشراب الكحول . تزوّجته في العشرين . ابنتها الأولى لا يُكَيِّنِي تبلغ التاسعة عشرة ، مقيمة مع صديقها في منزله . الثانية ، يائين في عهدهما بعدُ مراهقةً أكثر من إهمال المدرسة ، شهراً بعد شهر ، لتعمل في نهاية كل أسبوع ، وفي أواسطه أيضاً ، راعيةً لكلاب من يطلبون رعايةً لقاء أجر ، تريّضها مشياً في الحدائق ، واستجماماً ، وتتكلّل ترفيهاً دلالاً . وهي ماتلبث ، كلما جمعت مالاً ، أن تعود إلى أمها ، وأبيها ، خاليةً مفلسة . بيتاليا كمنت للسّر في اختفاء نقود ابنتها السريع ، ولم يطلُ كمينُها : لقد عثرت ، بين ثياب الفتاة الداخلية ، في خزانة غرفتها ، على علبة دائرية ، صغيرة ، يُدار غطاؤها على هيكلها كمطحنة الفلفل : إنها علبة من تلك التي ابتكرتها العقول لتفتيت قطع الحشيشة اليابسة ، فلا تخلو منها بيوت مدخّنيها .

خاصمت بيتاليا ابنتها صراحاً . حجبت عنها أعطياتها المالية مصروفاً ، من دون جدوى : كانت آثار تدخين الحشيشة تبين واضحةً ، من حين إلى آخر ، على بياض عينيها فائض الإحمرار . لكن الأمر جاوزَ حدودَ صرف يائين لما تستحصله من مال بمهاراتها الملتبسة ، والمشبوهة ، فتسلم صندوقُ بريدهم ، أربع مرات متقاربة ، غرامات من الشرطة تستوجب التسديد بلا تردد : إنه العُرف القانوني إذ تقبض الشرطة على مراهقين ، ومراهقات متلبسين بتدخينهم الحشيشة ، أو مشتبهين ، فيُصار إلى فحص بولهم ، على الفور ، بألة يحملونها تخصيصاً . والمذنبون ، في أعمارهم هذه ، لا يُقبض عليهم ، بل تنقذ إلى بريد بيوتهم رسائل غرامات مرغمين على تسديدها مالا مراً . وقد يُضاف إلى سجل أيامهم تشهير إن تلمسوا وظائف ، وأعمالاً .

بعض الآلاف من فئة العملة الكبيرة خرجت من محصول مدخرات بيتاليا المصرفية ، ومدخرات زوجها توتور ، اقتداءً لابنتها الرعناء . مزقت الأم ابنتها بسكاكين الشتائم ، وشفراتها الماضية والصدئة . أما الأب فكان ليئلاً ، متغاضياً ، متساهلاً لم يحمل كلمات التوبيخ أبعد من أسف مبتسم . بل تظن بيتاليا ، بعد ضبطها تلك اللمسة من توتور لردف يائين ، أنه يعوضها كل نقص في المصروف ، مُذ أحجمت الفتاة عن طلب أي مئة ، ولو اقتراضاً ، من أمها ، حوالى أربعة شهور .

غير أن اليقين الساحق ، بعد شكوك الشبهات ، غدا دين بيتاليا : هي أبكرت العودة إلى البيت ، ذا يوم ، لوجع في ركبتيها اليسرى . كانت يائين وحدها . تمددت الأم على أريكة الردهة بطولها مُشعلة لفافة تبغ . طلبت قهوة فأتتها الفتاة بكوب كبير منه ،

مُرّ، كما تشتهي أمها، وعادت إلى شأن في غرفتها . دخل توتور من الباب واضح السُكْر . رمى بسترته على كرسي قرب الباب . خلع حذاءه . لم ينتبه إلى وجود زوجته متمددة على الأريكة في الردهة . نادى : «يائين» . دسّ يده في جيب بنطاله فأخرج محفظة صغيرة سلّ منها أوراقاً نقدًا . جعل النقود لفافةً أسطوانة . نادى ثانية : «يائين» ، فلَبَّت الفتاة النداء بصوتها أولاً ، ثم بإطلالة من جذعها الأعلى مدّته خارج باب غرفتها . همس توتور وهو يضع اللفافة النقود بين أسنانه : «هاتي فمك» . قرّب وجهه منها فتراجعت يائين متممةً بصوت تحذير :
- أمي هنا .

كانت عينا بيتاليا الزرقاوان ، من موضع استلقائها على الأريكة ، مصوّبتين إلى المشهد المُفتَضَح جلياً في الممر بين غرفتيّ النوم والمطبخ قُبالتهما بمدخله الذي لا باب له . استوت المرأة الطويلة ، المائلة إلى نحافة ، جالسةً في بنطالها الجنز . أطفأت لفافة التبغ في كوب القهوة : «هيه» ، غمغمت بالصوت المتآكل من مِرْد الكحول . نهضت واقفة :
- أهى عاهرتك ؟

استدار توتور إليها بلفافة النقود بين أسنانه ، متفاجئاً . ابتسم يُداري ارتباكهُ المتكاسل من سُكْرهِ :
- أتعنين جارتنا أميلين ؟

كسرت بيتاليا ، مساءً ، عقب مشطها البلاستيك في مغلاق حزام أمان سيارتها من الجانب الأمامي الأيمن . نامت ليلتها على صفيّر قلبها - صفيّر الهاوية . شربت ، منذ الفجر ، أربعة أكواب من القهوة المرّة كالصّور المرّة في غسق خيالها . نزلت وابنتها الذاهبة إلى

المدرسة في أسبوعها المُخْتَزَل يومين غياباً عن المدرسة . استقلنا سيارة الأجرة . لم تستطع يائين وصلّ حزام الأمان بمِغْلَاقه . أبقت طرفه المعدن في يدها بحسب ما أشارت به أمها عليها . انطلقت المركبة من مرآب العمارة . خفقت أجنحة السرعة المائة على جنبي هيكلكها المعدن . ارتطمت ، بانعطافٍ فجائيٍّ من بيتاليا ، بجذع شجرة القيقب .

ثلاث مرات صدمت بيتاليا شجراً على طول الشارع ، بالجهة اليمنى من مقدّم السيارة حيث تجلس يائين ، فانقذت يائين من مقعدها ، في المرات الثلاث ، لا يُنْجِدُها حزام الأمان المعطل ، فيما يُنْجِدُ حزام أمها أمها . نزلت السائقة ، بعد المرة الثالثة تنجز ما لم تكمله الصدمات . كسرت عنق ابنتها صَفْقاً بالباب الحديد عليه . استدارت إلى المازّة المذهولين بصوتها المثلوم النائح :

- ألا ترون؟ إنها لاتموت .

بيتاليا لم تردّ على ماهاون جواباً إذ سألها : «من قتلت؟» ، في يوم رحلتهم الثالث . كان مدرّس الرياضيات قد أحرّ خطواته قليلاً ليجاورها ، مبتعداً عن سؤال داروم في شأن الأفعال الأكثر قسوة . حدّق برهةً ، بعينه البنيتين ، من وراء زجاجتي نظارته ، إلى شعرها مصبوغاً شُقرَةً هي اللون الأصل ، لكن بزيادة في ذهبّيته . أدار وجهه ، من جديد ، صوب الأفق المنزلق أسفل جبل آيانيانو الغربي ، بعيداً . فارقها متقدّماً إلى الدراجة النارية .

«مَنْ قتلْت؟» ، لم تكن الكلمات صدى سؤال ماهاون إلى بيتاليا ، بل جاءها من فم المرأة ذات الوجه الرقيق ، العصبي ، ياروزا .

«ابنتي» ، ردّت بيتاليا بنصف إدارةٍ من عنقها ، كأنها تردّ عليها

وعلى ماهاهون ، في البرهة المنفصلة بفارق شبر بين سؤاليهما المتطابقين حروفاً . تنهّدت ياروزا ، لا من فمها حَسْبُ ، بل من مينيها الغائرتين أيضاً : «ابنتك» ، تمت . التفتت إلى ميلادين القصيرة البدينة ، التي من عمرها . كان في وجه ياروزا ماتودّه تعليقاً على تصريح بيتاليا بقتل ابنتها ، لكنها وجدت ميلادين في حديث مع التوأمين المتلاصقين جسداً واحداً ، يومار وديرو ، الذين يكبران راسيد الأصغر سناً في أنفار الرحلة بثلاثة شهور : «ماذا به؟» ، كانت تسألهما إذ ابتعدا عن الشاب ، حامل كرة القدم الرمادية ، في حال مضطربة ، فردّاً معاً بصوت أقرب إلى زعيق خافت :
- إنه سيأكلها .

كانت إشارتهما واضحة إلى راسيد ، الذي حاولَ عضَّ الكرة حَنَقاً من جلدها الرمادي ، القاسي ، المتّصلِ قِطْعاً بسيورٍ بيضٍ ، لكنَّ أسنانه تنزلق .

«أغاضبُ هو؟» ، سألتهما ميلادين ، فردَّ ديرو :

- أثاره داروم . لا أحب داروم .

انضمت بيتاليا إلى الأحاديث :

- هذان الشابان لا يغادران جانبَ آرديلا . ماذا يريان فيها؟ تبدو كأُمهما .

«أحْمَنُ أنهما منجذبان إليها» ، ردَّ التوأم يومار ، ذو الوجه المستدير ، الشاحب .

«لماذا يعض على كرة القدم؟ لِمَ جاء بها معه؟ فليعضْ عنق داروم» ، قالت بيتاليا . تنهدت :

- مَنْ يَهْبِئِي لِفاقة تبغْ أهْبُهُ مايريد .

«تستطيعين ، ياسيدة بيتاليا ، أن تخففي من حماقة هذين

الشابين» ، قال التوأم ديرو متضاحكاً . «أغوي أحدهما . أنت في عمر السيدة أرديلا» .

«لستُ في عمرها» ، ردت بيتاليا بنبرة توبيخ : «فمها الكبير يسع عمر امرأتين» .

لم يسترسل الشاب الأصغر سنًا بين أنفار الرحلة في عضو كُرتِه . ألقى نظرة وعيدٍ فاجرةً إلى داروم واقفاً إلى جوار أرديلا الأيسر .

ماهاون ، مساء يومهم ذاك ، وقد اتَّخذوا ، كعادتهم ، مجلساً حول نار منخفضة الجدال ، انعطف إلى بيتاليا بالسؤال الملقى إليه :
- يسألني السيد جورني إن كانت لديَّ حكاية . ماذا عنك؟ .
«ماذا عني؟» ، ردت بيتاليا بصوتها المنكفئ يأساً من العشور على لفافة تبغ ، أو كوب قهوة .

«كل شخص لديه حكايةٌ ما . الناس تفضِّل ماسمعه من الأجداد ، عادةً» ، قال ماهاون . تتم كالمستهزئ : «جدِّي . جدَّتِي . حدثًا . قالًا» .

«لم أعرف أجدادي» ، ردَّت بيتاليا . أَلقت نظرة من عينيها اللامرئيتين في ظلال وقيهما إلى الدليل ميراس :
- قُتِلتُ جدَّتاي في حرب الثمانمئة عام .
«أكانتا محاربتين؟» ، ساءلها ميراس بصوتٍ تصنَّع وسناً ، فردَّت :

- كانتا عاهرتين .

«وماذا عن جدِّيك؟» ، ساءلها ميراس ، فردَّت المرأة بصوتها البهَّة ، المتأكل من أثر الكحول القوية :
- قد يظهران في حرب الثمانمئة عام القادمة . هما اختفيا .

- توجه جورني الشيخ بطلبه ، ثانيةً ، إلى ماهاهون :
 - ارؤ لنا شيئاً .
- انعطف ماهاهون بالسؤال ، من جديد ، إلى بيتاليا :
 - صوتك مثالي لسردِ حكاية .
- «حكاية» ، تمتمت بيتاليا وهي تضع الغطاء الجلد الرقيق على ساقها جالسةً :
 - قرّر ديكُ زيارة الأراضي المقدسة .
- «أية أرض مقدّسة؟» ، ساءلها ماهاهون ، فردت بيتاليا :
 - لا أعرف .
- «من أية أرض هو الديك؟» ، ساءلتها بيونا الضخمة ، الشخينة العظام ، فردّت بيتاليا :
 - من أرض غير مقدّسة .
- «من أرض مدنّسة ، إذاً» ، علّقت بيونا .
 «ليس بالضرورة» ، ردّت بيتاليا .
- تدخلت سيتون ، أخت بيونا :
 - ديكُ ، وزيارة إلى أرض مقدّسة!! هذه أقصوصة أطفال .
- «ذكرُ ديك ، وأرض مدنّسة ، لايجعلان منها أقصوصة أطفال البتّة» ، قال دايكُ الشيخ .
- «لم أذكر أرضاً مدنّسة» ، قالت بيتاليا تصحّح التحريف .
- ارتفع صوت ميراس المتصنّع وسناً في تمدّده على بُعدٍ من بيتاليا :
 - ماذا جرى للديك؟ .
- ردت بيتاليا بصوت زاد تأكله بحّةً :
 - قرّر أن لا يذهب إلى أيّ مكان .

الفصل الثالث :

ديرو، يومار

تلمل التمثالُ الحجر ، الجالس ، من الذبابة حامت حول رأسه المتصلين بعنق واحد إلى جذعه . صرَّت مفاصله في النهوض عن قاعدته الكتلة الكريّة السوداء . أطلق زفيراً غباراً من مناخيره - زفير الرئة الحجر . لَوَّح بذراعيه ، معاً ، أمامه يطرد الذبابة اللّحوح . طنين صرير حكّ بأظافره الخشنة سمعه . كادَ يصرخ الصرخة ذاتها ، التي يعرف ، بعد برهة من قراره ، أنها لن تنطلق من حنجرتة المغلقة . ينسى التمثال ، أبداً ، فَمَيَّه المغلقين ويتذكّر الصرخة . دارَ على أرجله الأربع من حول نفسه يتبع ، بعينين حدقتين كتيمتين ، حركة الذبابة الحجر مثله ، الصغيرة الجرم . رفيف أجنحتها الصرير لا يشبه طنين الذباب العادي يحطّ عليه بين حين وحين في يومه المعتم كجوف كتلته . إنها ذبابة اليقظة الحجرية ، في الأرجح ، ترغمه على العودة بخياله من رحلة السديم إلى الرغبة في استكنائه الصور منحوتة ، مثله ، على لوح المرثي . وإذ يرجع بخياله من رحلة السديم إلى الصور لا يرى غير تلك الذبابة الحمراء اللون ، الصغيرة ، بأجنحة ثمانية بيض لها صرير في مفاصلها .

لا يريد التمثال ذلك . دار حول نفسه على سيقانه الأربع متتبّعاً طيران الذبابة ، في الشارع المكتنف بأشجار يحسّ ظلالها في انحسارها عن جسده ، أو انتشارها عليه ، من غير أن يراها ، ويحسّ

ورقها صاحباً في السقوط ، مدوّياً إذ يلامسه خريفاً . ضربَ الهواءَ براحتيه مصفقاً كي يسحق الذبابة فأفلتت . ابتعدت ذراعين عنه ، ثم ارتدت إليه سراعاً حين أرخى ذراعيه ، لتحطّ على شعره المتناثر خُصلاً منفصلاً بعضها عن بعض ، بينها فراغات كأنها إيحاء بتساقطه . لطم التمثال أحد رأسيه بيده ، في الموضع الذي حطت عليه الذبابة . ضجّ في أعماقه دويٌّ طبل . طارت الذبابة بارتفاع وانخفاض معاً متسارعين ، متداخلين . مشى التمثال يتبعها . صدم مقاعد على طَور الشارع فهشمها . صدم دراجات هوائية في مواقعها ، مربوطة بالأقفال إلى أقواس حديد ، فراكمها معوسة . ابتعد عن طريقه المارّة بلا دهش ، كأنهم تعودوا منه عبوره الأهوج . عرّج عن الشارع إلى جسر صغير لعبور الأطفال المشاة إلى المدرسة القريبة ، من غير أن يضطروا إلى قطع الشارع . حطت الذبابة على حاجزه القضبان الأيسر . ضرب التمثال الحاجز فأحنى قضيبه العلوي . طارت الذبابة حتى نهاية الجسر القوس . انحدرت أسفل فانحدر التمثال خلفها على الدرجات القليلة . انعطفت الذبابة إلى ظلال أيكة من شجر الصنوبر والتنوب يتخللها ، هرباً إلى النور ، سرخس عال اجتمع على غصونه حبّ أحمر عناقيد كالغُتاب . دخلت الذبابة الأيكة فدخلها التمثال مصطدماً بكل جذع في طريقه . نفّر سنجاب رمادي مذعوراً . تسلّق جذعاً وقفز قفزة الهارب القوية إلى الغصون الخشنة ، المتشابكة للتنوب . اندعرت أرنبان رماديتان .

في دورة مستكملة من دورات المطاردة تلك ، عبّر طَور الشارع ، فالجسر ، فالأيكة ، فساحل بحيرة الأوز الأزرق ، فالنفق القصير إلى جوار القلعة القديمة ، فمعبر المشاة من الحديقة الشاسعة إلى الساحة

الدائرية ، وصل التمثال إلى موضع قاعدته الكرة السوداء ، حيث حطت الذبابة دائرة حول نفسها . تأملها بعيونه الحجرية الأربع ، اللواتي لا يَرَيْن من سديم الفراغ حوله سواها . تأملها بأعماقه الكتيمة - هو التمثال المنحوت هيكليْن متلاصقين في جسم واحد : رأسان بعنق متصل بالذئع . ذراعان . صدرٌ ، فِطْن ، فأربع أرجل . هوى بقبضته على الذبابة . انفلقت القاعدةُ الكرة . انفلق هو . تصدّع هيكله منشقاً من أعلى إلى أسفل ، في دويٍّ طبلٍ . صرخ من فميه الحجريين معاً صرخةً يائسة .

انتفضت أعضاء التوأمين يومار ، وديرو ، المتداخلة في جسد واحد . هبّا جالسين ، مختنقيّ الأنفاس ، فوق البساط الجلد . كانا يحلمان حلمهما الدائم ، المتكرر ، الوحيد ، مُذ بَلَّغا سنَّ الحلم صغيرَيْن . حلمٌ هو ذاته : تمثال على صورتهم ، وذبابة حمراء بأجنحة بيّض ، ودورة مطاردة تنتهي بتهشيم القاعدة الكرة ، وانفلاق هيكلهما . نظرا إلى المصباح خافتاً ، مختبئ الشعلة تحت سماء الليل في هزيعه الأخير ، بالنجوم المعسكرات على ضفاف النهر الأزليّ عالياً . كانت النار مطفأة بين الأثافي : هدوءٌ أنجز طهو الأرواح بتوابله . هدوءٌ بلبلٌ بلا تغريد مُذ فارق الأنفار العشرون النهرَ بانعطاف قافلتهم إلى الشمال الغرب من اتصال العراء باهضام جبل آيايانو الغربي .

في أوّل ليلهم ذاك ، حين الفترشوا الأرض حول النار حلقةً فوق بُسطهم الجلود ، حطّت النارُ الأخرى ، الغربية ، على بُعد من موضعهم لم يَحْمِنُوا مسافته . داروم بادر إلى توكيل الأسئلة بقُدْح أحجارها :

- لماذا لا أستطلعهم؟ من يكونون؟ .

«ماشأننا من يكونون» ، ردّ سادوك الدليل . «لكن ، إن أردتَ
استطلاعهم فامض . إحدِر الأرناب . إنها أرناب مَزَارِع القتلى» .
واقفاً على قدميه ، مدقّقاً في الصور الخفيّة في الأفق الخفي ،
أرسل داروم كلماته :

- لا أظنّ نارهَم أكبرَ من نارنا . أم هي بعيدة أكثر بما اعتقد؟ .
«خذ إليهم رسائل القتلى ياداروم ، وعُدّ بردود منهم» ، قال
سادوك . «اذهب . تحقّق من الأمر» ، مدّ ذراعه صوب الأفق يحثه
على المضيّ من فوره .

«هل لدى أحد رغبةً في مرافقتي؟» ، تساءل داروم الطويل ،
المتوسط اللحم باعتدال .
«أنا» ، ردّ يومار ، أحد التوأمين .

غمغم التوأم الآخر ديرو بنبرةٍ سخرية :
- امضِ معه وحدك .

نظر داروم إليهما جالسَيْن كتلةً مقيّدةَ الجوارح بخطأٍ من حظّ
النشأة ، ثم أدار وجهه إلى أفق النار الغربية ، البعيدة :
- العراءُ الحجْرُ مستوٍ . لماذا لا نرى أحداً في النهار ، وتظهر النار
ليلاً؟ .

«أرواح» ، صاح ميراس بصوته المتصنّع وسناً . مدّ في حروف
كلمته .

«نارُ الأرواح ، التي يشعلونها ، نار خفية مثلهم . أم ماذا؟ هذه
النار تُرى» ، تساءل الشاب رابكين ذو الوجه المتطاوّل ، والصوت
المؤذّن بنبرةٍ وعظٍ : «احذروا نارَ الأرواح التي يشعلونها قدحاً بأحجار
الأنبياء» .

جلس داروم إلى جوار التوأمين ، متخلياً عن فكرته في

استطلاع تلك النار . نظر جانبياً إلى الرأسين التفتا إليه بوجهيهما
قدراً ما يستطيع عنقهما الواحد أن يلتفت . سألاه بصوتيهما الزعيق
الخافت :

- من قتلت ، ياداروم؟ .

«لم أقتل أحداً . انتحرتُ» ، ردّ داروم مبتسماً . حدّق إلى
عيونهما الصغيرة الأربع ، الدائرية متراقصةً من وحشة جسدهما
الواحد :

- ماذا كنتما قبل دخول السجن؟ .

استخرج التوأمان ضحكة مفتّنة من حنجرتهما المتصلة
بفمّين . ردّ فمّ يومار :
- كنا جرساً .

«جرّس مدرسة أم جرس باب بيت؟» ، ساءلهما داروم مستلطفاً
ردهما . سارع مقاطعاً قبل أن يتكلما : «لا تردّأ . سنستشير
الجالسين» . وجّه بصره إلى الأختين بيونا وسيتون المتجاورتين
قُعوداً :

- أ تستطيعان تخمين نوع الجرس الذي كأنه هذان الواحد؟ .

«نحن اثنان ، يادجاجة البريد» ، قال ديرو ، فاستدرك داروم
ثقل مزاحه على مزاج التوأمين : «كان خطأً بصرياً مانطقتُ به» .
عاد بعينه إلى الأختين يستنطقهما جواباً عن سؤاله ، فردّت بيونا
الطويلة ، الثخينة العظام :

- جرس إنذار .

«رائع» ، تتم داروم .

«ماذا كنتَ ، أنتَ ، قبل دخولك السجن ، ياداروم؟» ، ساءله

ديرو التوأم .

«ساعى بريد» ، ردّ داروم المكتنف الوجه بشعر أسود طويل ،
متماوج .

«سألنا من كُنا ، ولم تسألنا مامهنتنا» ، قال ديرو مصححاً
سياقاً من المحاورَة أوقع الكلمات في سوء فهمها .
«أهذا ما فعلت؟» ، تساءل داروم مستنكراً . «أعذر» ، قال .
«ماذا كنتما تصنعان قبل دخول السجن؟» .

«كنا نرسم» ، ردّ يومار .

«رائع» ، قال داروم معقّباً . «ماذا كنتما ترسمان؟» .

«العائلة» ، ردّ يومار - الشقُّ الأيسر من الجسد الواحد .

«عائلة الله ، أم عائلة الشيطان؟» ، ساءلهما الشاب رابكين ،
فرد يومار أخذاً السؤال على جدّ :

- عائلتنا .

هزّ ديرو جسدهما الواحد موبّخاً توأمه :

- لماذا أجبت؟ ما سؤاله هذا عن عائلة إلهية وعائلة شيطانية؟
انظر إليّ .

همهم يومار بلا كلمات .

«انظر إليّ» ، كرّر ديرو - الشقُّ الأيمن من جسدهما الواحد -
طلبه ، فرد يومار :

- كيف أنظر إليك؟ لا أراك إلّا إذا نظرتُ إلى مرآة .

«أعرف ذلك أيها الغبي . هذان يسألاننا أسئلة غبية» ، قال
ديرو محتدماً . خصّ بنظرته كلاً من داروم ، ورابكين ، الذي سارع
إلى تهدئته :

- أعذر منكما .

رئت كلمة «أعذر» ، بحروفها في رأسيّ التوأمين - الجسد

الواحد . هُما وَجَدَا لها مذاقاً كاللون الرمادي متدرّجاً في رسوم القُرود على جدران ذلك الدهليز الذي دخلاه - دهليز راووت ، الذي بادرهما من فوره :

- كم مرة اعتذرتما؟ .

«إلى مَنْ؟» ، تساءل الشقُّ الأيمن من جسد التوأمين الواحد ،

ديرو .

«أعني مُطلقاً . أتذكّر أنكما اعتذرتما إلى أحد؟» ، ساء لهما الشيخ الشاحب البشرة متقوَّساً أكثرَ في انحنائه على المنضدة الخشب ، بعينين على صفحة من الكتاب الضخم أمامه .

قِرْع ديرو بقبضته - قبضة اليد اليمنى لجسدهما الواحد - قرعاً خفيفاً على جبين توأمه يومار ، سائلاً :
- أتذكر أننا اعتذرنا إلى أحد؟ .

لوى يومار رقبة جسدهما الواحد فاستدار رأسهما معاً . أمعن النظر إلى عراك القُرود الرسوم . غمغم ديرو مستاءً . أدار وجهه يستردُّ من توأمه وجهةَ التحديق ، لا إلى الجدار بل إلى راووت . بادله يومار شداً إلى حيث ينظر هو . تبادلَا الشدَّ كلُّ برأسه إلى جهة . صفع أحدهما الآخر : يومار باليد اليسرى التي له ، وديرو باليد اليمنى التي له . رفع راووت عينيه عن الكتاب . تأملهما في عراكهما الثابت يُمرَّر الواحدُ منهما ذراعه أمام وجهه ليصيب براحته وجه الآخر . «اسمعا» ، قال بصوته مرتفعاً بأول الحروف في كلمته منخفضاً بآخرها . «فليَنظُرْ أحكما إليَّ مباشرة ، وليَنظُرِ الثاني بلِحَاطٍ عين ومُؤَقَّ عين إلى الجدار» .

«هذا ما لا نفعله» ، قال ديرو . «ننظر إلى حيث نريد متواقِتينِ

في توجيه بصرنا ، ياسيد راووت . ألا تفعل ذلك؟» .

«أفعل ماذا؟» ، تساءل راووت من بين شفثيه الضخمتين ، المنفرجتين .

«تحدّق مباشرةً إلى حيث تريد» ، ردّ ديرو .

ابتسم راووت . حكّ ذقن لحيته الرمادية ، الطويلة ، الحليقة الشاربين . «لا خيسار لي» ، ردّ . «حين أنظر إلى شيء لا أنظر إلى شيء آخر . عينا الحرباءة ، وحدهما ، تستديران في وقبيهما ، كلُّ واحدة في اتجاه» .

«ألا تنظر إلى شيء أحياناً ، فيما تراقبُ بلحَاظك شيئاً آخر؟» ، ساءله ديرو .

«ربما» ، ردّ راووت . «لكن النظر بلحَاظ العين ليس تحديقاً ، بل اختلاساً» . أغلقَ الكتاب . «ستخرجان في رحلةٍ ، طليقيْن ، لتقديم اعتذار» .

«رحلة؟!!!» ، تتمم يومار ، فتمتم ديرو بدوره .

«تخرجان من هنا في رحلة اعتذار» ، قال راووت . أضاف :
«اعتذار مقابل الحرية» . نهض متقوَّساً :
- مقايضةٌ بخسة .

«نعتذر إلى من؟» ، تساءل ديرو ، فردّ راووت :

- إلى من قتلتما .

هأهأ التوأمان في ضحكة غير مُنَجَّرة .

«عرضك طريف ، ياسيد راووت . من أنت؟» ، قال ديرو .

«أنا الرماديُّ» ، ردّ راووت .

أدار التوأمان وجهيهما إلى الرسوم العراكِ الطاحن يتفتّت منه اللونُ شظايا متناثرة الرماديّ ، أو متلاحمة السواد ، أو ساقطة من أعلى إلى أسفل في بياضٍ متدرّجٍ أُلماً .

«نرسم أفضل من هذا» ، قال يومار . «رسمنا تسعة وستين
«جينا حتى الآن» .

«ربما علينا أن نرسم السيد راووت أيضاً» ، أضاف ديرو .
استدرك :

- رحلة إلى أين؟ ذكرت شيئاً عن رحلة .
«إلى جبل آيايانو الغربي» ، ردّ راووت . أضاف «حيث يقيم
الفتلى» .

«مع من نمضي في الرحلة؟» ، ساءله ديرو ، فردّ ذو العينين
الغائرتين ، الشرهتين :

- مع أنفار آخر ، ودليلين .
حكّ التوأمان معاً صدرهما بأصابع اليدين فوق القميص
البرتقالي . تمتمتا :

- سنرسم ناس الرحلة . ممتع .
«لا آلات رسم في الرحلة . لاشيء تحملانه» ، قال راووت في
وقفته المتقوّسة . «أنتما ، وثيابكما البرتقالية ، وزوجا حذائكما
الرماديين» .

همهم ديرو مخاطباً توأمه :
- هذه رحلة تجريدية ، يايومار .
ابتسم راووت . نقر بأنامله على غلاف الكتاب السميك ،
الحائل اللون من حُمْرة إلى بني :
- ستكونان روحاً تجريدية .

«لِمَ لا نكون روحين ، ياسيد راووت؟» ، ساءله ديرو .
في نزول التوأمين الأدراج ، من جوف العمارة السجن
الحجرية ، إلى حيث الساحة التي يجتمع فيها أنفار الرحلة ،

تباطأت قَدَمَا الشَّقِّ الأيسر من الجسد الواحد - الشَّقُّ الخاص
بيومار ، فتحته توأمه :
- ما بك ؟ .

«ماهذه الحكاية عن قتلى يقيمون في جبل آيايانو الغربي ،
ياديرو؟ ألا تبدو تلفيقاً؟» ، سأل يومار ، فردَّ توأمه :
- ربما يعني راووت أرواحهم .

«كيف يعرف راووت؟» ، تساءل يومار ، فردَّ ديرو :
- لا أعرف . لايهمني . استعجل قدميك قليلاً . الخفير واضح
الضجر .

كان الخفيرُ الحَرَسِيُّ ، الذي يقودهما على الأدراج نزولاً من
جوف سجن الجبل ، باديَ الضجر حقاً ، بشيابه السود ، المفتوحة
أزرارُ سترتها عن صدره ، وقبعته المرخية على عينيه كقناع . يومئ
كلَّ خطوتين إليهما بذراعه حثاً على المسير ، مع غمغمات مصحوبة
بطقطقة من أسنانه .

«أتؤمن بالآرواح ، ياديرو؟ لم يخطر ببالي قط أن أسألك سؤالاً
كهذا» ، قال يومار . فردَّ توأمه :
- أؤمن أن للكلاب أرواحاً .

«وماذا عنّا؟» ، ساءله يومار ، فردَّ ديرو :

- عنّا؟ نحن البشر ، أم أنا وأنت ؟ .

«أنا وأنت» . ردَّ يومار .

«مايقلقك إن كانت لنا روح أم لا؟» ، ساءله ديرو .

«لاقلني عندي . إنه سؤال سألتك» ، ردَّ يومار .

- لو أن لنا روحاً فكيف تريدها أن تكون ، يايومار؟ .

- كسباحة ، ياديرو .

- كَسْبَاحَة؟!

- نعم . كَسْبَاحَة ، يادِירו . نحن لم نَسِبح قط .

- أُمُور كَثِيرَة لم نَفْعَلْهَا ، يادِومار الغِبي . اسْتَعْجِلْ قَدَمِيكَ .

طَقَطَقَ يَوْمَار بِلِسَانِهِ يَلْزِقُهُ بِسَقْفِ فَمِهِ ثُمَّ يَنْزِعُهُ . «اسْمَعْ» ، قَالَ لِتَوَامِهِ . «إِنْ كَانَتْ حِكَايَة قَتْلَى يَقِيمُونَ فِي جَبَلِ آيَايَانُو الْغَرْبِيِّ صَحِيحَة ، فَلْنُقَدِّمِ الْإِعْتِذَارَ بِكَلِمَتَيْنِ . تَقُولُ أَنْتِ : «نَعْتَذِرُ» ، وَأَقُولُ أَنَا : «إِلَيْكُمْ» ، لَا أَكْثَرُ وَلَا أَقَلَّ .

اِحْتَدَمَ دِيرُو :

- اسْتَعْجِلْ قَدَمِيكَ ، وَلَيْسَ صَوْتُ لِسَانِكَ .

«اسْتَعْجِلْ أَنْتِ قَدَمِيكَ ، يادِירו . أَنَا أَفْكَرُ» ، رَدَّ يَوْمَار .

«تَفَكَّرْ؟! مِنْذُ مَتَى تَفَكَّرْ؟» ، قَالَ دِيرُو مُسْتَهْزِئًا . اخْتَلَّ تَوَازُنُهُمَا بَرَهَةً بِالْإِسْتَعْجَالِ وَالْإِسْتِمْهَالِ مِنْ أَقْدَامِهِمَا الْأَرْبَعِ ، ثُمَّ اسْتَجْمَعَا جَسَدَهُمَا الْوَاحِدَ . دَمَدَمَ دِيرُو :

- بِمِ تَفَكَّرَ أَيُّهَا الْغِبي؟ .

«رَبَّمَا كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَرْفُضَ الْأَمْرَ» ، رَدَّ يَوْمَار .

«نَرْفُضُ مَاذَا؟» ، تَسَاءَلَ دِيرُو بِصَوْتِهِ الزَّعِيقِ . «نَرْفُضُ أَنْ

نَعْتَذِرَ؟ إِعْتِذَارٌ مُقَابِلَ حُرِيَة . سَنَعْتَذِرُ لَيْلًا وَنَهَارًا» .

«لَيْسَ الْإِعْتِذَارُ مَا عَنِيتُهُ ، بَلِ رَفْضُ الرِّحْلَةِ بِلَا أَدَوَاتٍ لِلرَّسْمِ» ،

رَدَّ يَوْمَار .

لَمْ يَكُنِ التَّوَامَانُ بَارِعَيْنِ قَطُّ فِي الرَّسْمِ . السَّجَنَاءُ ، الَّذِينَ لَبُوا نِدَاءَ اللَّوْنِ ، وَوَقَفُوا ثَابِتِينَ بِأَتَكَاءٍ عَلَى قَضْبَانِ سِيَاكِ شَرْفَةِ السَّجْنِ الْعَالِيَةِ ، الْمَطْلَةِ عَلَى الشَّلَالَيْنِ وَفُرُوعِهِمَا ، كَانُوا - فِي الْأَرْجَحِ - لَا يَشْقُونَ بِأَشْكَالِهِمْ ، لِذَا لَمْ يَأْبَهُوا لِلْفُرُوقِ الْأَخْطَاءِ وَاضِحَةً بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا يَنْجِزُهُ التَّوَامَانُ رَسُومًا لَهُمْ ، بَعْدَ دَفْعِ وَجْذِبِ مُتَوَاصِلِينَ مِنْ

أحدهم ليد الآخر عن لوح الرسم احتجاجاً على لمسة فرشاة هنا ، أو
خطٌ هناك :

- ليس هكذا .
- بل هكذا .
- لم تمزج اللونين جيداً .
- بل مزجتهما جيداً .
- اضغط الفرشاة قليلاً .
- الأفضل ألا أضغط .
- الظلال داكنة أكثر من اللزوم .
- الصواب أن تكون الظلال داكنة .

هما ، منذ الرابعة عشرة من عمر جسدهما الواحد ، دأبا على
تصوير عائلتهما بالأقلام الملونة ، ثم بالمائي المعجون ، ثم الزيتي .
الأم ديهون ، والأب مأكني ، والأختان ، كانوا أكثر ثقةً بأشكالهم ،
لذا لم يأخذوا التوأمين على محمل الجد وهم يرونهما لا يرتقيان
بيديهما ، سنة بعد أخرى ، إلى أية مهارة في الرسم . كان يومار ،
وديرو ، يطلبان من العائلة ، فرداً فرداً ، أن تمكّنهما من التقاط
الأشكال بحضور أجسادهم ثابتةً . ما من فرد من الأربعة ، الأختين
والأبوين ، أطال المكوث أكثر من دقيقتين أمام بصرهما . علّل
التوأمان إخفاق الرسم ، ومحنة اللون ، ببخل أهلهما في إطالة
المكوث حتى ينجزا رسمهم .

«أنتم متأمرون علينا» : هكذا صرّحاً تعبيراً عن ضيقهما ،
وخيبتهما ، فارتأت الأخت الكبرى تيّرا ، ذات الاثنين والعشرين
عاماً ، أن يقتنصا أوقات جلوسهم ثابتين أمام التلفاز ، أو أمام آلاتهم
الكومبيوترات ، فرفضاً :

- نريد واحدكم جالساً للرسم على التخصيص ، متهيئاً له .
«ما الفرق؟» ، ساءلتهما الأخت الصغرى لِيَكِين ، ابنة الثماني عشرة سنة . «جلوسٌ ثابت هو جلوس ثابت» .
«نريد واحدكم أن يعرف بعقله ، وينظره ، أنه في لحظة رسم ؛ أنه مُلْكُ لُوحتنا» ، ردَّ ديرو .
«فلنعطكم صِوَرَنَا» ، اقترح الأب ماكني ، البالغ نهاية عقده الخامس ، فوافقته الأمُ دِيهُون ، التي تصغره بأربع سنين :
- تولّيا ، أنتما ، تصويرنا واحداً واحداً ، واختارا الهيئة التي تشاءان .

رفضَ ديرو :

- لن نقبل أقلَّ من نُقْل الحياة إلى الرسم مباشرةً .
«هل رسمتما حديقةً مرَّةً؟ ارُسما شارعاً . ارُسما غيمةً ، أو سمكة ، ولو لمرةً . لاتريدان رسمَ شيء ، أو أحد سوانا» ، قالت الأخت تيرا . «ارُسما كراسي المطبخ ، أو خزانة ثياب أختي ليكين المفتوحة الباب ، أبداً ، على مصراعيه . ارُسما كلبها بورجيا . سنصبُّ عليه شمعاً مُذاباً ليثبت فلا يتحرك» .
«سنصبُّ عليك أنت شمعاً مُذاباً ، أو زيتاً مغلياً» ، ردَّت
أختهما ليكين متصنَّعةً قشعريرةً من فكرة الشمع المصهور الهمجية .
صفقت تيرا للكلب الشياواوا النوع البالغ مَبْلَغَه صِغَراً ، وهو يدور حول قدميها مُذ سمع اسمه : «ماذا لو أوثقنا ليكين إلى كرسيٍّ ، أو كمَّمنا فمها؟ ستكون هيئتها جيدة للرسم» .

أصرَّ التوأمان أنهما لن ينتقلا إلى رسم أيِّ شيء قبل إنجاز رسوم لعائلتهما . لكنهما لم يتمكَّنا من ذلك . مامن فرد وقف ثابتاً ، أو جلس ثابتاً ، أمام بصر البياض في أوراق الرسم الخشنة

أكثر من دقيقتين . السجناء منحوهما ما يشاءان من وقتهم المنتحر
قَفَرًا من سياج شرفة السجن العالية إلى المياه الطاحنة في سقوطها -
مياه الشلالين وفروعهما . وهُما ، قبل تلك الحرية التي منحها
السجناء لهما في الرسم ، قرّرا وضعَ حَدٍّ لحرية أهلهما في استعباد
الوقت باختزاله إلى دقيقتين لا تكفيان لفرشاة أن تلتئم ، بفم اللون ،
فَمَ البياض الشهوي .

جَلَبَا سلكاً معدنياً رفيعاً ، بطول ستين سنتيمتراً ، من مستودع
آلات الحديقة في منزلهم . لفَا كُلَّ طرف منه على قضيب خشب ،
اسطوانيّ ، يسع ملءَ راحة اليد : لقد هيئَا الآلة الأكثر بساطةً لَحْنَقٍ
أشبه بالذبح ، وانتظرا يومَ الأحد .

كل سبت تُمضي أختهما ليكن ليلتها عند صديقة ، وترجع
ظهيرةً الأحد أو عصره . أما أختهما الكبرى تيرا فكانت ، في يوم
قلبهما الموعود بحرية القبض على الأشكال ، على سفر قصير ، في
رحلة من رحلات البواخر بين الموانئ لثمان وأربعين ساعة من
استجمام النفوس لهوًا ، وشرابًا ، ورقصًا أيضًا . تحيّنَا خروج الأب ،
كعادته ، إلى الحديقة الواسعة بسياجها الخشب الرقيق ، جزًا
للعشب ، وسقايةً للأزاهير ، والاستلقاء في أرجوحته القماش
موصولةً الحبال بين الشجر مع زجاجات جعته الداكنة . دخلا
الحَمَّام ، الذي هيّأت الأمُ ديهون لنفسها ، في مِغْطَسه ، ماءً بمزاج
زيت الجوز ، مرفّهاً بعصير الصبار . الأم لا تغلق الباب إذ تستحم في
المغطس لأنها - في بساطة - ستنادي أحدَ أولادها ليأتيها بقدر من
النبيذ الأبيض مبردًا ، تركُّهُ على حافة المغطس الخِزَفِ العريضة .
نداؤها سيتكرر ثلاثًا ، في الأرجح ، قبل الانتهاء من رحلة جسدها
في الماء الساكن .

يومار وديرو حملاً قدح النبذ إلى أمهما . وضعا القدح في
يدها وهي منزلقة حتى أعلى ثدييها تحت دثار الرغبة الخفيفة
الزرقة . استدارا من خلفها . طوّقا عنقها بالسلك الرفيع قبضاً
براحتيهما على المقبضين الخشبيين ، وانكبّا جذباً انتعظ منه
ودجّاهما - العرقان حتى انفجرا أو كادا على جانبي عنقهما
الواحد . غار السلك قليلاً في حنجرة ديهون . شقّ الجلد وبعض
اللحم . انتفضت الأم . انتفضت الرغبة هائجة تتمرّع في الحمرة
الدموية .

جلس التوأمان أرضاً خائرين ، لاهثين ، مرتعشين ، حين هدا
جسد ديهون غاطساً حتى الأنف في الرغبة ، بعينين جاحظتين .
كان صدر قميصهما الواسع ، الأصفر ، مبللاً بالماء تناثر عن انتفاضة
الأم ، وكذا طوق عنق القميص وإبطاه من العرق . لم يمكثا طويلاً
في ارتخائهما . خبأ السلك والمقبضين تحت بطن قميصهما لصق
طوق البنطال . نهضا متجهين إلى المطبخ فاستخرجا ، من دُرَج ،
مطرقة اللحم ذات الرأس المعدن المسنّات لتسطيح شرائح اللحوم ،
وتليين أليافها : لقد تحسّبا لعودة الأب من الحديقة فلا يُباعَتا بل
يُباغَتان . ذهبا مستطلعين من النافذة الكبيرة . كان الأب ينفذ
عن ركبتيه العاريتين في بنطاله القصير شيئاً علق بهما ، قبل أن
يجمع زجاجات الجعة الأربع الصغيرة الفارغة ، ويرجع إلى
الداخل .

انتظر التوأمان قرب المنعطف إلى باب المطبخ . دخل الأب
ماكني . نظر إليهما لحظة في وقفتهما المتراخية : « أين أمكما؟ » ،
تساءل ، فرد ديرو :
- تستحم .

اتجه الأب إلى المطبخ فتيّعه . وضع الرجل الزجاجات الفارغة على المنضدة قرب دجاجة نيئة في صحفة ، ثم استخرج زجاجة جديدة من البرّاد . أرخى بصره إلى يد يومار المسككة بالمطربة . ابتسم جالساً على كرسيٍّ من كراسي المنضدة المستطيلة الأربعة :
- لا أرى شرائح لحم . ام ستسحقان الدجاجة بهذه المطربة ؟ .

وضع يومار المطربة على المسطبة الصفيح ، قرب مغسلة المطبخ . دار التوأمان من وراء ظهر أبيهما متجرّعاً جعته الباردة . أخرجا السلك من حيث خبأه تحت قميصهما . انتظرا أن يُبعد الأب الزجاجاة عن فمه . عاجلاه فطوقاً عنقه بالسلك . صبّاً عليه مايملكان من قوّة جذباً - هُما القصيران على بدانة . جاهداً الأب ، بشخير متقطع ، أن يحرر عنقه من يدي ابنه . لم يستحكم ، مُدّ غار السلك في لحم عنقه الممتلئ . تقارعت قدماه في جلوسه على الكرسي منزلقاً يكاد يسقط ، لكنّ جذب التوأمين للسلك ، من ورائه ، أبقاه لا يسقط ولا يستقيم . حكّ بعقبَي قدميه ، في الجوربين الأسودين ، الأرض الخشب الصقيل حكاً متسارعاً ، يائساً ، مذعوراً وجعاً . طوّق عنقه بيديه ، مراراً ، بحثاً عن منفذ لأصابعه تحت الطوق السلك . برز لسانه من فمه . سقطت الصوّر عن لوح عينيّه ، وغشاهما البياض الذي لا نقش فيه أو رسم . هداً الوجود إلاّ من شهيق معدنيٍّ في حنجرة التوأمين .

جلس ديرو ويومار ، أرضاً من جديد ، خائرين ، بالسلك مدميٍّ في يديهما ، قريباً من الكرسي تراخى الأب عليه بساقين ممدودتين . نظراً إلى زجاجتين سقطتا عن المائدة من ركل الأب الهواء مختنقاً . نهضاً إذ استردّ شيئاً من مفقودات الهواء . أعادا الزجاجتين واقفتين إلى جوار أخواتها الثلاث الأخريات على

المنضدة . سارعا إلى قدح ملاء ماء من الصنبور . ارتشفا منه ،
بالتناوب ، رشفاً متعاقباً . غصّاً بالماء فسَعَلَا .

ظهيرة يومهما ذاك ، بعد نقل الجثتين إلى غرفة نوم أبويهما ،
وتنظيف بعض ماتوجِبَ تنظيفه ، تناول التوأمان شرائحَ خبز مدّهنةً
بخليط التونا والمايونيز ، مرتدين بنظالاً قصيراً بأربع أرجل حتى
ركابهما ، ومنتمعين زوجين من الأحذية الطويلة الأعناق - أحذية
الثلج . وضعا مطرقة اللحم على الأريكة قربيهما ، وانغمسا في لعبة
من ألعاب الفيديو .

في الساعة الثالثة ، تحديداً ، دخلت الأخت الصغرى ليكن
إلى البيت ، بعد ليلة نوم عند صديقتها . سبقها كلبها الصغير من
نوع الشيووا ، الملقَّب بـ «بورجيا» ، الذي لا يفارقها قط غابت عن
البيت أمٌ حضرت . اتجه ، من فوره ، صوبَ باب غرفة نوم الأبوين
الموصد ، بخطمه ملامساً الأرض يتنفس ، ككل كلب ، فوحاً من
حدائق الأب الأول للنوع - حدائق الزهر الفرو ، والعشب الشعير ،
والشجر الوبر . خمش الباب بيديه مهرهراً بلا نباح . هرعت الأخت
إلى الحمام . اختفت برهة وعادت مستريحة الماثنة .

«أين أمي ، وأبي؟» . ألقت ليكن السؤال كأنما إلى لا أحد .
اتجهت إلى المطبخ ، ثم استدركت فتوقفت . تأملت التوأمين في
جلستهما بالأحذية الطويلة الأعناق في أقدامهما الأربع . مطت
شفتها السفلى استغراباً . أكملت عبورها بلا تعليق .

نهض التوأمان بالمطرقة في يد تومار . مشيا إلى المطبخ خلف
ليكن ، التي بدتْ ، في وقفتهما أمام المنضدة ، منشغلة الخيال بعدّ
الحقائق النائمة : «أشربتما هذه الجعة؟» ، سألتهما وهي تحمل
إحدى الزجاجات الخمس فتهزُّ بقاعدتها الدجاجة النيئة لم تزل

في الصفحة . استدارت مبتسمة :

- أتهينان لظهو شيء ما؟ .

وضع يومار المطرقة على المنضدة . أشار على أخته ، التي أخرجت من مُجمّدة الشلاجة قشدة بمعجون الكاكاو ، مغلفة بورق ذهبي : «اجلسي» ، قال .

حدقت الأخت إلى وجهيهما في تساؤل مترقّق كاللّمع على حدقتيهما الخفيفتيّ الزرقة . قضمت مضغة من الحلوى المجلّدة ، ثم جلست على كرسيّ منضدة المطبخ في تظاهرٍ بالخضوع :

- لا تقولاً أنكما سترسماني الآن .

«لا» ، ردّ ديرو . أردفَ : «أغمضي عينيك» .

أغمضت ليكن عينيها في توقّع لمفاجأةٍ ما لم تعهد أخويها ابتكراً لها واحدة من قبل . فتحتهما جاحظتين . سالت الحلوى البنية الذائبة من زاوية فمها . تخبّطت على الكرسي . صدمت بقدميها المرفرفتين المنضدة فتساقطت الزجاجات الخمس أرضاً . نبج الكلب الصغير نباح اللعب في دخوله المطبخ راكضاً مستثاراً . دار من حول ليكن واقفاً على قدميه ، بلسان يتلمّس مُنبّت الدعابة في جسدها المنتفض وهي تخمش عنقها بأظفارها ، حيث أحكم السلكُ المعدنُ طوقه القاتل . انتصبت أذناه مصغياً إلى خرير خافت في حنجرة الفتاة .

ركل ديرو الكلب . نبج بورجيا نباح المستنكر فظاظة الركلة . نقل التوأمان الجثة إلى غرفة أبويهما ، اللذين مدّاهما ، قبلاً ، على السرير الواسع . ألقيا بها مجاورةً للجثتين الآخرين . ركلا الكلب من جديد فأخرجاه . أوصدا البابَ خارجين يعدّان على أصابع الفراغ المبتورة ماتبقى من ساعات عودة أختيهما الكبرى تيرا

من رحلتها - رحلة الباخرة بين الموانئ .

عادت تيرا إلى البيت مساء اليوم التالي ، في صخب من جرّ حقيبتها الصغيرة على عجلتين . رحّب بها الكلب بورجياً متعلّقاً بساق بنطالها المخمل ، البني ، الضيق . مشت في الممر إلى غرفتها . رأت التوأمن جالسين على الأريكة في بنطالهما القصير السيقان ، والأحذية ذات الأعناق . زمّت حاجبيها تساؤلاً :

- أتستعدّان للتزلج على ثلج الصيف؟ .

فتحت باب غرفتها . دخلت بنصفها ثم تراجعت متوجهةً ببصرها إلى أخويها :

- هل من أحد في البيت سواكما؟ .

«بورجيا» ، ردّ يومار وهو يشير بمقبض مطرقة اللحم إلى الكلب دائراً حول نفسه دورة الفكرة الحيوانية حول نفسها .

دخلت تيرا غرفتها . تبعها التوأمان بالسلك حجبته يد ديرو خلف ظهرهما . وقفا في الباب . لم تُعرهما تيرا التفاتاً وهي تجلس راکعة تفتح غطاء حقيبتها الصغيرة . أخرجت ملابس وضعتها على حافة سريرها . التفتت بوجهها نصف التفاتة إليهما : «لم أجد في سوق ميناء تُوُسْ قُبَّعتين من الطراز الذي طلبتُما» . استرسلت في إفراغ حقيبتها بظهرها إليهما . رفعت ذراعها اليسرى عالياً من غير أن تلتفت :

- هذا لكما .

تقدم التوأمان من خلفها يستطلعان يدها المسكة بمنشار خشب صغير جداً كدُمى الأطفال في ألعاب النجارة . تمتت : «إنه من سوقْ بالُوكْ - مدينة النجارين» . تناول ديرو المنشار الدمية من يدها :

- ماذا نفعل بهذا المنشار؟ .

«قد ينفعكما لتنفصلا» ، ردت تيرا .

أسقط ديرو المنشارَ الدمية ، من عليائه واقفاً ، في حقيبة أخته .
المفتوحة . انحنى جسدُ التوأmin الواحد عليها . أحكم السلكُ طوقاً .
فانزلق خيال أختهما إلى عمائه الكليّ بعينين جاحظتين ، وفم مزبد .
لم يتسع سرير الأبوين للجثث الأربع . أنزل التوأمان أختهما
الصغرى ليكن أرضاً . أسندا ظهرها ، جالسةً ، إلى جانب السرير
العالي . قفز الكلب بورجيا إلى حضن جسدها الساكن . لعق
شفثيها بلسانه .

جاءت أوراق الرسم الخشنة على لوح نصبه التوأمان على
قاعدته ، قريباً من السرير . جلسا على كرسي واطئ يستلهمان
الأجساد الأربعة : ثلاثة متكئة بظهورها على الحائط من جهة
الوسادتين ، وواحد إلى جانب السرير . غمغما برهةً وهما ينظران
إلى بورجيا ذي اللسان الحالم بالتقاط مذاق لا يعرضه الهواءُ إلا كلَّ
ألف عام لكلب واحد . نهضا . اتّجها إلى أريكة الردهة . جلبا
مطرقة اللحم ، التي تركاها هناك مُذُ تتبعا أختهما داخله غرفتها .
عادا إلى معرض الجثث في غرفة الأبوين .
«بورجيا» ، نادى ديرو الكلبَ الصغير .

اقترب الكلب منتعشاً مَرَحاً . ألصق بطنه بالأرض . زحف
شبرين قبل أن ترتعش قوائمه ارتعاشة قصيرة من ضربة المطرقة
على يافوخه .

حمل التوأمان الكلب من ذيله . وضعاه جثةً مدمّاةً في حضن
ليكين . تراجعا يتأملان المشهد محسوباً الأبعاد يمكن تطويقه
بالجنود اللون .

«المطرفة» ، تتم ديرو .

«ماذا عنها؟» ، تساءل يومار ، فردّ توأمه :

· فلنضعها على حافة السرير . ستكون عنصراً من لوحتنا .

في مساء قافلة الأنفار العشرين ، يومهم ذاك ، سأل جورني

« : يخ التوأمين :

- من قتلتما ؟ .

«قتلنا كلباً» ، ردّ ديرو ، مستنداً هو ويومار إلى صخرة بظهرهما ،

، بياً من ياروزا النحيلة ، المتوسطة الطول ، الحامل في شهرها الثالث

، ر البادي .

ترقرق صوتُ ياروزا المتماذي رقةً :

- جريمة قتلُ كلب .

«مَنْ قتلْتِ أنتِ؟» ، ساءلها يومار .

حادت ياروزا عن سؤال يومار بتعريفٍ لمهنتها :

- أنا طبيبة كلاب .

«أينفع طبُّ الكلاب للبشر أحياناً؟» ، ساءلها جورني الشيخ

مداعباً ، فردّت ياروزا :

- ينفع دائماً .

«سأسالك ، إذاً ، عن عوارض تنتابني ، ياسيدة ياروزا» ، قال

جورني الهادئ . «كلّما كنتُ مع امرأة أحسستُ بالحاجة إلى

الكذب بلا داع» .

«هذه ليست عوارض تنتابك وحدك ، ياسيد جورني . الإنسانُ

مكيالُ الله يملأه كذباً من نهرٍ ليصبّه في نهرٍ آخر» ، قال رابكين

بصوتِهِ النبرة الوعظِ .

«أأنت مبشّر ، يارابكين؟» ، ساءله جورني . «لصوتك نبرة

كاهن مبتدئ لم يهتد ، بعدُ ، إلى احتراف الخيانة ديناً .

«الخيانة؟!»، تتم رابكين الشاب مستغرباً ، فردَّ جورني :

- الخيانةُ الحَذَقَةُ كما يُعَلِّمُهَا إِلَهُ .

«لا إِلَهَ يُعَلِّمُ الخيانةَ» ، قال رابكين .

«هو يفعلُهَا . هو يخون» ، ردَّ جورني . «انظرْ إلى التوأمين ،

يارابكين» .

مطَّ التوأمين عنقهما المتداخلَ الواحد برأسين . لهما بعضاً من

وجه الشيخ المستدير . ساءله يومار :

- ماذا عَنَّا ، ياسيد جورني ؟ .

رمى جورني غصناً صغيراً إلى النار فتطاير شررٌ خجول . أدار

وجهه صوبهما :

- لماذا لم تعقدا صفقةً مع الله ؟ .

«ماذا؟» ، تساءل ديرو .

رفع ماهاهون صوته من مكانٍ ما في حلقة الأنفار العشرين :

- سؤال كهذا يوجَّه إلى عالمِ السجون ميراس .

«أدر السؤالَ صوبي ، ياسيد جورني» ، قال ميراس بصوته

المتصنَّعِ وَسَنًا . «أطلقْ سؤالَكَ عليَّ» .

انبرى ماهاهون متدخلًا قبل أن يتكلم جورني . سألَ الدليلَ

ميراس :

- مالشترك بين صفقة وسجن ؟ .

«السجنُ صفقةٌ» ، ردَّ ميراس .

«بين من ومن؟» ، ساءله ماهاهون ، فردَّ الدليل :

- بين الإنسان وخلوده .

«قاطعتني ياماهاهون» ، ردَّ جورني . «سالتُ التوأمين لماذا لم

«ماذا صفقة مع الله؟» .

«اسألني أنا لماذا لم يعقدا صفقة مع الله» ، قال ماهاهون .
«أسألك أنت ، أم أسأل التوأمين ، أم أسأل ميراس؟» ، تساءل
جورني الشيخ بصوته المتقطع قليلاً .

«الرياضيات صفقة» ، قال ميراس . رفع صوته الوسنان :

- اسأل معلّم الرياضيات ، ياسيد ياجورني .

التمعت صورة ضوء المصباح والنار ، معاً ، على زجاجتي نظارة
ماهاهون . تكلم كأنما من عينيه وراء الحجاب الذهبي :

- الصفقة تعني أن يكون الطرفان متعادلين ، قادرين على أن
يأخذ أحدهما من الآخر قدر ما يُعطي . فماذا باستطاعة هذين
التوأمين تقديمه لله؟ صفقة على ماذا ، ياسيد جورني؟ .

«صفقة على الضّعف» ، ردّ جورني القصير الممتلئ . مدّد
ساقيه على بساطه الجلد : «كُنْ ضعيفاً يَكُنْ إلهك ضعيفاً . هذّدهُ
بضعفك . توعدّه أنك ستكون ضعيفاً إن لم يحذرك . هكذا سيقبل
الإله عقد الصفقة معك» .

لم تُكْمِلْ آية لسان جورني طريقها إلى الأفهام تماماً منذ قاطعها
صوت أرديلا بنبرة مَرَحٍ عالية :

- راسيد يعرض الزواج عليّ .

«ماذا؟» ، تساءل داروم باستهزاء . خاطب الشاب الأصغر سنّاً

بين أنفار الرحلة :

- أعترف كيف تغلي ماءً ، يا صاحب الكرة ، لتتزوج أرديلا؟

لماذا هذه الكرة معك؟ ما من أحد منّا اصطحب شيئاً معه .

ردّ جورني من مكانه البعيد عنهما نيابةً عن الشاب :

- الكرة صفقته .

«عُدنا إلى الصفقات» ، قال رابكين متبرِّماً ، فعَلا صوت
جورني من جديد :

- ما الذي تبشِّر به ، يارابكين؟ لصوتك نبرُ الواعظين .
«أبشِّرُ بإله خلقَ آلهةَ ليقايضها» ، ردَّ رابكين .
«بِمَ يقايضها؟ إلهك غير مفهوم» ، علَّقَ جورني ساخراً .
«إلهي إحساسٌ ، وليس إيماناً» ، ردَّ رابكين .
ضحك ماهاهون :

- أيشبه الموسيقى ، أم الرِّسمَ التجريدي ، أمِ النِّكاح؟ كلها
إحساساتٌ بلا تفسير .
«أنا كنت سأقول هذا» ، تكلمَ جورني . أضاف : «سبقَتنِي
ياماهاهون» .

تلمَّسَ ماهاهون صخرةً أعلى قليلاً من مستوى الأرض الحجر .
وضع بساطه عليه وجلس : «سأكلُم النجوم» .
«أستكلُمها بصوت الرياضيات؟» ، ساءله ميراس .
«بل سأكلُمها بصوت جُذْجُذِ الليل» ، ردَّ ماهاهون . رفع ذراعه
اليمنى بإشارة إلى لا أحد :

- راسيد ، داروم ، مغرمان بالسيدة الرائعة آرديلا . مَنْ مِنَ
السيدات معجبة بأَيِّما رجل هنا ، شيخ كالسيد جورني ، أو شابٌ
مثلي؟ .

«تعني مثلي» ، قال الشاب سولكي ، ذو التسعة والعشرين
عاماً .

«وماذا عني؟» ، اعترض جينتالو الطويل ، العضليُّ .
«ضربتُ مثلاً ، لا غير . كلُّكم شبان» ، قال ماهاهون . «أردتُ
أن أستدرج سيدةً فاستدرجتُ الزرازير» .

«دعنا من هذا الاستدراج . السيدات لا يُسألن سؤالاً كهذا ،
«ماهاهون . اروي لنا حكايةً وقد اعتليت عرشك الحجري» ، قال
ورني .

«حكاية» ، تتم ماهاهون يقلّب صفحاتٍ من صوّر خياله .
سبّقه ميراس بصوته المتصنّع وسناً :
- فلنسأل التوأمين عن حكاية .

تقاطعت همهمات الموافقة . وجّه ماهاهون صوته إلى يومار ،
وديرو :

- أنا واثق أنكما متخمان بالحكايات .
«لم يرو لنا أحدٌ حكاية» ، ردّ ديرو .
«بل روت جدّتي حكايةً ، مرّةً واحدة» قال يومار .
«متى كان ذلك؟ أكنت وحدك معها؟» ، ساءله ديرو مستهزئاً .
صفع براحته توأمه : «كل الذي نعرفه حكايةٌ عن جدتنا ، وليس
حكاية روتها جدّتنا» .

«أتعني تلفيقك أن جدتي أكلت كلبها؟» ، تساءل يومار .
صفع ديرو توأمه : «دعني أكمل» ، قال . أردف : «عاشت
جدتي في كسوخ على طرف حديقة دارنا . رفضت إلحاح أبي
الذهاب بها إلى مأوى العجزة . هدّدته بحرمانه من الإرث .
انفصلت عنّا كلياً تتدبّر لنفسها ولكلبها البوليدوغ نوستراداموس
الطعام ، حتى عثرت أُمي ، يوماً ، في حاوية القمامة على عظام
كلبها . أكلته» .

صفع يومار توأمه ديرو :
- هذا اختلاق منك ، وتلفيق . لقد آمنت جدتي أن كلبها
نوستراداموس يتنبأ لها بنباحه ، فكيف تأكله؟ كيف تأكل نبيّها؟ .

«حكاية تافهة . ألا ترون؟» ، قال ديرو . صفع توأمه :
- عشر أبي على فكّ جدتي أمام باب الكوخ . أكلها كلُّها
نوستراداموس .
سَمِعَ نَقْرُ حَجَرٍ مِنْ بَعْدِ . أَصْغَى لَأَنْفَارِ الْعَشْرُونَ ، ثُمَّ وَجَّهُوا
أَبْصَارَهُمْ إِلَى الْفَرَاغِ الْأَبْعَدِ مُحْتَضِنًا بِيَدَيْهِ نَارًا خَافَتَةَ تَزَاحِمِ نَارِهِمْ
عَلَى السَّوَادِ الْكَبِيرِ .

الفصل الرابع: آرديلا

«عشر القضاة الهاربون على كهف أخيراً ، بعد تيه في العراء ستة أيام لم يتوقف مطرُها . كانوا جائعين ، مرهقين ، مذعورين ، لم يستحصلوا غذاءً لأجسادهم غير بعض الماء تجرّعوه من الحُفَرِ مستلقين على بطونهم» ، قالت آرديلا ذو الفم الكبير ، المتناسق ، والذقن الناتئ قليلاً في وجهها المستدير .

«هذا ليس مدخل حكاية» ، أسرّ سولكي بصوت عالٍ إلى ياروزا ، رفعت آرديلا صوتها :

- لا تستمع إلى حكايتي بعينك اليسرى ، بل بأذنك .
تحسّس سولكي صدغه ، قرب عينه اليسرى الأصغر من اليمنى حجماً . اعترض على خدشها حياء قلبه من ذلك اللاتناسق في صورة عينيه : «مَنْ قَتَلْتِ؟» ، ساءلها كأنما يخدش ، بدوره ، شيئاً ما في مُحْتَجَبِ أعماقها .

تدخل ماهاهون : «دعها تكمل ، أيها الشاب» ، قال ، ثم وجّه الكلمات إلى المرأة :

- ملاحظته ، أنا أيضاً ، ليس انتقاصاً لما سترويته ، ياسيدة آرديلا . لكن عنّ لي أن أسأل ، منذ كلماتك الأولى : من هؤلاء القضاة؟ مَنْ يهربون؟ .

«هم قضاة عشروا على كهف» ، ردت آرديلا . «تطلبون سرّاً

حكاية ، وتعترضون على وقائعها» .

هأهأاً رابكين ذو اللحية الشقراء ، الخفيفة جداً ، المشدَّبة بإتقان كالرسم حول وجهه . وافقَ أرديلا :

- نعم . البشر كلهم هكذا . مهمتهم الاعتراض على الوقائع بعد حدوثها .

صفَّق جورني الشيخ تصفيقاً خفيفاً ، مُلفتاً أسماعهم إليه ، في ليلتهم تلك على مرمى صرخة من أهضام جبل آيايانو الغربي :

- قلبت الأمور ، أيها المبشِّر المبتدئ ، رأساً على عقب . الصوابُ أن البشر لا يعترضون على شيء . بل تعترض الوقائع ، التي يصنعونها ، عليهم .

«تعترض الوقائع على صانعيها؟!» ، تساءل رابكين ، محرَّكاً يده اليسرى على رفيف الكلمات ، فردَّ جورني ذو الشاربين الرفيعين :

- نعم .

«كيف تعترض؟ ألها لسان؟ إنها ظواهر» ، قال بصوت المنطق الخافت تحت طبقة صوت المبشِّر الخافت فيه .

«لها أقدام ، وأيدٍ ، وأحشاء» ، قال جورني . «وهي تعرف كيف تعترض على بشر أوجدوها ، عند إلهك غير المفهوم ، الذي ابتكرَ آلهةً ليقايضها» . نظرَ ، في الظلام المشروخ بشعاعات النار والمصباح ، إلى الوجوه . أحاطَ بنصف دائرة منها :

- إلهٌ يُقايض آلهةً من صناعته . بِمَ يقايضهم؟ على ماذا يقايضهم؟ .

غمغم الدليل سادوك : «قضاة . كهف . وقائع تعترض . إله يقايض . ماذا بعد؟» ، تساءل . أطلق صوته عالي النبرة :

- أكملني ، ياسيدة أرديلا . أغلقي الكهفَ على القضاة .
«هذا ماسيفعلونه» ، قالت أرديلا .

مسح ماهاهون زجاجتي نظارته المستطيلتين بحاشية قميصه
البرتقالي :

- قضائُك يستعجلون انتحارهم ليختزلوا الحكاية .

«رفاق الرحلة يدفعونني إلى اختزالها» ، قالت أرديلا .

«المرافعات ، في المحاكم ، تستمرُّ سجالاتٍ سنينَ ربما . حكايات
نقض ، وحكايات تأييد ، ياسيدة أرديلا . أنتم المحامون مَهرةٌ في
الاستطراد» ، قال ماهاهون . «لكن انتقامك من القضاة صاعقٌ
باختزاله» .

«لا إطالة تُعادل أن يغلق قُضاةٌ كهفهم عليهم منتحرين» ، ردت
أرديلا . «هذه الحكاية لا تُستنفد إن تفكرتَ فيها» .

باغتت ياروزا بصوتها الرقيق ، الذي لا يتناسب مع وجهها
العصبي ، راوية الحكاية أرديلا . ساءلتها :

- مَنْ قُلت؟ .

صفر جورني الشيخ مقاطعاً :

- أين ذهبت الحكاية؟ .

لقى ميراس غصنين إلى النار . تشقق الضياءُ برهةً ثم التحم .
دحرج صوته : «حبذا لو استبدلت السيدة أرديلا حكاية القضاة
بأخرى» ، قال . «أنت محامية . في ملفات القضاء حكايات بلا
حصَر . هاتي واحدة طريفة» .

«خذوا واحدة طريفة» ، قالت أرديلا ، ذات الأنف المعتدل ،
المنتفخ العرنين قليلاً :

- غضب نبيٌّ من إلهه . أعاد إليه مطرقتَه ، ومساميره ،

ومِسْحَاجَه ، وَكُؤْسَه ، ومِسْطَرْتَه ، وغِراءَه .

قاطعتها ياروزا طبيبة الكلاب :

- أهذه حكاية من ملفات القضاء ، والمحاكم؟ مَنْ قَتَلَتْ ياسيدة أرديلا؟ .

تنهَّدت أرديلا . نظرت جانبياً إلى المرأة العصبية الوجه ،
المنمَّشة البشرة :

- أَحَبَّكَ قَبْلَ دُخُولِ السِّجْنِ ، أَمْ فِي السِّجْنِ؟ مَنْ قَتَلَتْ؟ .

أبعدت ياروزا رأسها إلى الخلف قليلاً دلالة استهجان :

- فِي السِّجْنِ؟ مَا تَلْمِيحُكَ هَذَا؟ لَمْ أَخْبِرْ أَحَدًا بِأَمْرِ حَبْلِي
حَتَّى الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ رَحَلَتِنَا هَذِهِ . أَنْتُمْ وَحْدَكُمْ تَعْرِفُونَ .

«لَمْ يَتَّصِلْ بِكَ أَحَدٌ فِي السِّجْنِ؟» ، ساءلتها أرديلا ، فردَّت
ياروزا :

- لَا .

«مَنْ قَتَلَتْ؟» ، أعادت أرديلا سؤالها .

«أخبريني أَنْتِ مَنْ قَتَلَتْ؟» ، ردت ياروزا .

ضرب ميراس أَخْمَصَيْ حِذَائِهِ الْبَنِي أَحَدَهُمَا بِالْأَخْرِ
مستنكراً :

- مَاذَا جَرَى لِلنَّبِيِّ ، ياسيدة أرديلا؟ أَهوَ نَبِيٌّ أَمْ نَجَارٌ؟ .

«نَبِيٌّ ، وَنَجَارٌ» ، ردَّت أرديلا .

«مَاذَا قَالَ إِلَهُهُ حِينَ أَعَادَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ آلَاتِ نَجَارَتِهِ؟» ، تساءل

ميراس .

«لَا شَيْءَ» ، ردَّت أرديلا . «تَسَلَّمُ الْإِلَهُ الْمَسَامِيرَ الَّتِي هِيَ مُلْكُهُ ،

والمِطْرَقَةَ الَّتِي هِيَ مُلْكُهُ ، والمِسْطَرَّةَ الَّتِي هِيَ مُلْكُهُ» .

«مِمَّ كَانَ النَّبِيُّ غَاضِبًا؟» ، ساءلها ميراس .

«من أمرٌ ما يتعلق بالقضاة الذين لجأوا إلى الكهف ، وأوصدوه بالحجارة عليهم» ، ردت آرديلا .

«أكان لدى القضاة الجائعين ، المذعورين ، المرهقين ، قوةً ، بعد ستة أيام تيهاً ، تمكّنهم من وُصْد الكهف بالحجارة عليهم؟» ، تساءل ميراس .

«القضاة لا يُستَنفدون حتى الرمق الأخير» ، ردت آرديلا .
نهض دايك ، ذو الأربعة والخمسين عاماً ، الأكثر صمتاً في أنفار الرحلة . انحنى يُعَين البساطَ الجلد الذي يجلس عليه :
«أُحسستُ شيئاً ما قُربى» ، قال . رفع وجهه صوب الدليلين :
- أتوجد أفاع في هذه الأنحاء؟ .

«أيّها تعني : أفاعي السماء ، أم أفاعي الأرض؟» ، ردّ سادوك بنبرة مُداعبة .

لَمْ يُماحِكْهُ دايك الشديد البياض ، الأحمر الأذنين . عاد جالساً . أصدر صوتاً كأنما يكلم نفسه :

- الموكّلون يكذبون على محاميّهم . المحامون يكذبون على المحلّفين . المحلّفون يكذبون على القضاة . القضاة يكذبون على القانون . القانون يكذب على الجرائم . الجرائم تكذب على الله .
«حسناً . حسناً» ، صاح الدليل سادوك :

- إلى أين سنصل بهذه الحلقة؟ .
«إلى حكاية السيدة آرديلا» ، ردّ ماهاهون متطفلاً ، فاعترض دايك :

- بل إلى خزانة العقود المبرّمة مع الموت .
«مَنْ أبرمَ العقود مع الموت ، ياسيد دايك؟» ، ساءله ماهاهون ، فردّ الرجل المطوّق الصِّلعة بشعر طويل ، مُرسل ضفيرةً خلف رقبته :

- كلُّ من يشاء إبرامَ عقدٍ مع الموت يعقده .
صفق داروم مقتحماً المحاورَةَ . رفع صوته :
- أينَ عقودُنا ، ياميراس؟ أهى بين أمتعة الرحلة؟ نريد أن نقرأ
بنودها .

غمغم ميراس . طوى ساقه اليمنى وبسطها يُريح عضلةً
منكمشة فيها . تصنّع نعاساً في صوته :
- أين أوصلتنا ، ياسيدة أرديلا؟ .
«إلى النبيِّ الغاضب ، الذي أعاد آلات إلهه إليه» ، ردت
أرديلا .

- أيعني ذلك ، ياسيدة أرديلا ، أنه استقال؟ .
- نعم . استقال ، ياسيد ميراس .
- ماذا سيفعل النبيُّ المستقيل بنفسه ، ياسيدة أرديلا؟ .
- سيجد عملاً عند إله آخر ، ياسيد ميراس .
ضرب جورني براحتيه على فخذه تصفيقاً يُلفتُ الأسماع :
- مامصدر هذه الحكاية ، ياسيدة أرديلا؟ .
«الكتب» ، ردّت أرديلا .

«أية كتب هذه؟ لا أظنني عثرتُ قطُّ على حكاية تشبه
ماتروينّه» ، قالت دالومي ذات العينين الشهلأوين ، الواسعتين ،
والصوت الخفيض الهادئ .

«أكنت مديرة في مكتبة سارسيدون؟» ، ساءلتها أرديلا ببعض
الخشونة في نبر صوتها .

«هي طيبة نفسانية» ، قالت سيتون مستبقةً ردّ دالومي .
«هُوه» ، تمت أرديلا . «أنتِ تقرئين الناسَ ، لا الكتبَ ،
ياسيدة دالومي» .

«قرأتُ الكثير قبل قراءة الناس . لكن ، مامصادر حكايتك؟» ،
ساءلتها دالومي من جديد رغبةً في إرباكها ، فردّت أرديلا :
- كتبُ الفيزياء ، أولاً ، ثم كتب القانون .

تزوجت أرديلا ، المحامية ، للمرة الثانية قبل أربع سنين من
ر حلتها هذه . زواجها الأول دام ثلاث عشرة سنة أنجبت فيها ولدين
انتحرا ، بمضاعفة المتعة في المخدّر الذي حَقَّنَا به عضديهما ،
أحدهما عن سبعة عشر عاماً ، والآخر عن خمسة عشر عاماً . لطالما
ذلت المرأة نفسها على تمام في تسيير حياة الشابين المراهقين توجيهاً
ببلاغة اختبارها الحياة في المحاكم ، لا تهدأ . تريح وتخسر . يلعنها
سوكّل خذله حظّه ، ويمتّن لها موكلّ أنجده حظّه . لم تلحظ مايريب
من ولديها الهادئين ، المطيعين ، حتى اليوم الذي أبلغت فيه ، على
هاتف جيبها ، وهي في الطريق بين أروقة مبنى المحكمة للمرافعة
عن مَصْرَفٍ مفلس ، أن ولديها ، وصديقاً لهما ، وُجِدوا جميعاً ، في
بيت ذلك الصديق ، جثثاً تحوم أرواحها في النشوة خالصةً بلغت
بأجسادهم نهاية المنعطف إلى الأبدية . جرعة زائدة من المخدّر
وضعت أسماءهم على السطر الأول من صحف البلد ، ووضعت
قلبَ أُمِّي المراهقين على السطر الأول الذي لن يدوّنه أيُّ حبر .
انهارت أرديلا . انهار زوجها . هشم تبادلُ الاتهام بينهما بالتقصير
زجاجاتِ سنين زواجهما المرصوفة على رفّ الحقائق . انفصلا
طلاقاً .

لم تعد أرديلا إلى مهنتها في أروقة القضاء ، وبين السلاالم إلى
القاعات ، سنتين غذّت فيهما خيالَ دمها بحبوبٍ مهدّئة ، وحبوب
منومة تقضمها كالسكاكر . وهي لم تتوقف عن ذلك ، على أية
حال ، حتى دخولها السجن ، لكن بجرعاتٍ مضبوطة على إيقاع

الوصفة القانونية لطبيبها ، البارح في توجيه النفوس على مسالك
الكلمات إلى غير رجعة . طبيبٌ نفساني . يُصغي فيستدرج مرضاه .
ينطق فيستدرج مرضاه . لا دقيقة زائدة ، لا دقيقة ناقصة في المقدار
المُقتطع من وقته جلوساً على أريكته المريحة قبالة المرضى . صمته
يزنُ ثمناً . همهمته تزنُ ثمناً . شروده بين إصغاء وآخر إلى ثرثرة
مريض ، يزنُ ثمناً . والدفع إما نقداً ، أو إيصالاً مصرفياً . وقد
عوّدهم ، في برهة تطرّيز المريض إيصالَ الدفع بإمضائه ، تحت رقم
المال ، ألا ينظر إليهم ، بل إلى قدح الماء الطويل بين راحتي يديه
مرفوعاً لا يشرب منه ، ولا يضعه على المنضدة الصغيرة ، الواطئة ،
بينه وبين زائره المعتكر النفس ، أو المتعثر النفس بأحجارها المموّهة .
عادت حياة أرديلا المترنحة في أعماقها إلى سلوك أكثر اتزاناً ،
لكن بجرح كبير يرى في عينيها . تنقلت من جديد بين أروقة
المحكمة ومكتبها - الشقة المجاورة لشقة سُكناها ، في الطبقة الثانية
من العمارة . مصادفةً جرّت نفسها على بطنها ، كحشرة السُرّة ،
حين توكلت مسألة طلاق . أنجزت الصفقة للزوج ، الذي تولّت
دفاعاً عن مقادير التعويضات لزوجته بحضور محاميها . خرج
الزوجان من العاصفة الصغيرة برضوض يُستهانُ بها . لكنّ علاقتها
بموكلها الزوج الطليق مؤزّتراف لم تنته بانتهاء إنجاز طلاقه . تواعدا
في مقهى ، ثم في مطعم ، ثم في بيتها مرة وبيتها مرة . كانت في
الأربعين ، وهو في التاسعة والثلاثين وسيماً ، متوسط الطول ، يعمل
وكيلَ توريد للفاكهة إلى متاجر كثيرة في مدينة سارسيدون . تزوّجا
زواجاً مرفهاً بالرغبة .

صديق زوجها الأقرب إليه ، عشيره كيدل ، الطويلُ الأنيق ،
كان زائرهما الدائم مع زوجته ديلدا ، أو مُضيفهما ، أواخر كل

أسبوع ، وبعضَ أواسطه أيضاً ، كلما سنحت فرصة التقاء سَمَر في بيت أرديلا وزوجها ، أو بيتهما ، أو في مطعم ، أو في دار أوبرا ، أو في معرض رسوم ، مُد كان كيدل صاحب أربع قاعات لعروض الفن في أنحاء سارسيدون الواسعة .

بعد سنة من ذلك التداخل المتشابك لعلاقات الزوجين أرديلا ومورتاف بصديقيهما الزوجين كيدل وديلدا ، زحفت مصادفةً اللمسة الماكرة من يد كيدل إلى يد أرديلا ، على بطنها كحشرة الشُرْفة ، عند إسرعه إلى وضع منديل ورق بين أناملها إذ سالت قطرات من النبيذ الأبيض على ذقنها النَّاتئ قليلاً في وجهها المستدير . وسَّع الزمنُ اللمسةَ تلك على عجل . تفتَّحت مساربُ من نبض قلبها على نبض قلبه ، وتراكت الغيوم على جسديهما فامطرت الرغبة . تواعدا همساً من هاتفيهما المحمولين . التقيا خلصةً في فندق . ثم التقيا فيه ، مراراً ، كلما سنحت ساعة ، أو ساعتان من وقتهما مُقْتطَعاً من أشغال النهار .

ككل غرام مُختَلَس كان لا بد لبرهة استكناه العمق ، واستقرائه ، وتمحيصه ، وقياسه ، أن تجلس مع العاشقين على طرف سريرهما ، بعد تشابك الصرخات الخفيضة لذَّةً ، فانفصال الجسدين . كان لا بد للبرهة تلك من مساءلات حول مستقبل الرغبة ، وحدود مستقبل الرغبة ، وموائق مستقبل الرغبة ، وخطوطه .

«أسنستمر هكذا ، يا كيدل؟» ، سألت أرديلا عشيقها ، وهو يمسح بطرف ملاءة سرير الفندق عرقاً من صدره فإبطيه .
«أضجرت؟» ، ساءل كيدل سؤالها .
ضربت أرديلا صدره بظاهر يدها :

- ليس قبل آخر نفس فيك .

«غرفة مريحة هذه» ، قال كيدل كأنما يستبق سؤالاً بات يلتمع ، أكثر فأكثر ، على شفطي أرديلا . إنه يخمّن أن يكون موجزاً ، مثل : «ثم ماذا؟» . وهاهو يستبق ذلك : «هذه غرفة مريحة» . أي أن تستمر الأمور بينهما على حالها تلك يلتقيان في الفندق ، حين يستطيعان سرقة وقت من جيب الوقت .

«ماذا لو عرف زوجي مورتراف؟» ، ساءلته .

«لستُ خائفاً» ، ردّ كيدل .

«ماذا عني؟» ، ساءلته .

- أأنت خائفة ، يا أرديلا ؟ .

«ليست مسألة خوف ، بل بدء الحرارة في مآزق» ، قالت أرديلا ، فعاجلها كيدل ، بلا توطئة ، بخبر أحسّت منه برداً في ركبتيها :

- زوجتي ديلدا على علاقة بزواجك مورتراف .

تأملت أرديلا وجه عشيقها بعينين نبضتا في محجريهما كقلبين :

- منذ متى؟ كيف عرفت؟ .

- منذ الشهر الثاني لزواجكما ، يا أرديلا .

«أتعرف ديلدا أنك تعرف؟» ، ساءلته بصوت تخمّشه الكلمات .

«لا» ، ردّ كيدل .

«لا أفهم . أنت على دراية ، كلّ هذا الوقت ، ولم تفعل شيئاً؟» ، ساءلته أرديلا وهي ترتدي قميصها .

«ربما يكون اعترافي لك غريباً ، يا أرديلا . لم أحسّ بشيء حين

عرفتُ . جزءٌ مّا من انفعالاتي في سُبّاتٍ شتائيٍّ لن ينتهي . أنا زوج منذ تسع سنين . أنجبت ديلدا مني طفلةً ماتت في عامها الأول . لارغبة عندي أن أكون أباً ، قال كيدل . وضع راحةً يده على ظهر يد أرديلا :

- أمهمُّ أن أخبر ديلدا أنني أعرف؟ .

«ماذا عن مورتراف؟ كيف اهتديتَ إلى علاقته بزوجتك؟» ، ساءلته أرديلا ، فردَّ كيدل :

- زوجتي ليست حذرة كفاية . أعذارُ غيابها ، منذ أول مرة ، باديةٌ الخلل في سياق التبرير . ليست ديلدا كذابة حاذقة . رصدتها . تتبعت سيارتها بسيارتي حتى مَبْعُدَةٍ من هذا الفندق . كان مورتراف في انتظارها . دخلا معاً .

«هذا الفندق؟» ، تمتت أرديلا وهي تضع قدمها اليسرى في الحذاء . سقط الحذاء من يدها . كرَّرت : «هذا الفندق؟!» . استدارت إليه مفتوحةً الفم ، واقفةً .

زحف كيدل على السرير . جلس على حافته . ردَّ :
- هذا الفندق .

«مالذي تفعله ، ياكيدل؟ ماذا لو صادفناهما هنا؟» ، تساءلت أرديلا مبهورةً .

«عند زوجك ، الآن ، مفتاح شقة صديق له . لم يعد يتردّد مع ديلدا على هذا الفندق» ، ردَّ كيدل . نهض واقفاً قبالتها يزُرُّ قميصه المخطّط زرقاً على بياض :

- كيف ستتصرفين وقد عرفتِ ما عرفت؟ .

تناولت أرديلا سترتها عن مشجبٍ في الغرفة مرتبكة الخيال :
- كيف عليّ أن أتصرف؟ .

«الأفضلُ كتمانُ الأمر» ، ردَّ كيدل .

«ماذا لو لم أكتمه؟» ، تساءلت أرديلا بصوت بارد .

«ربما لاشيء . مأزقٌ صغير . لك علاقة بي . له علاقة

بزوجتي . ستخرجان من المأزق بسهولة» ، ردَّ كيدل .

«أكلُ الأشياء سهلة في منطقك ، يا كيدل؟» ، ساءلته أرديلا ،

فردَّ الرجل الوسيم ، الطويل ، الأنيق في ربطة عنقه السوداء
أحكمها طوقاً :

- كل شيء سهل إن أردناه سهلاً ، وصعب إن أردناه صعباً ،

حتى الموت نفسه .

«أخنتَ زوجتك قبلاً ، يا كيدل؟» ، ساءلته أرديلا .

ابتسم كيدل . مدَّ ذراعيه يهيمٌ باحتضانها .

تراجعت أرديلا . تمتمت :

- لم تجبني .

«أخنت ، أنت ، زوجك ، قبل علاقتنا؟» ، ردَّ كيدل على

سؤالها بسؤال .

«لم أخن مورتراف . لم أخن زوجي السابق» ، ردَّت أرديلا .

حاول كيدل تطويقها بذراعيه متودِّداً . أطراها إطرأً ركيكاً :

- النساء أفضل من الرجال .

«لأفضل . لأسوأ . هل خنتَ زوجتك سابقاً؟» ، ساءلته ، فردَّ

مترجعاً عن معانقتها . «ربما» قال . ابتسم مغمضاً عينيه : «قد
أتذكر لاحقاً» .

«أكنت تحضر عشيقاتك إلى هذا الفندق؟» ، ساءلته ، فردَّ

كيدل يهزُّ رأسه نفياً قاطعاً :

- لا . أبداً . رسّامتان التقيتهما في بيتيهما . نحّاة التقيتهما

من بيتها . لا . ليس في هذا الفندق .

شيءٌ مما من ذلك الجرح المتراجع قليلاً في أعماق أرديلا ، مذُ
تالكت نفسها بعد موت ابنيتها فأوقفت الحياة ، ثانيةً ، على قدمي
الحياة ، قبض بيد خشنة على أحشائها . تمتت ، وهي تدور بعينها
على بعض أثاث الغرفة ، حفنةً من الحبوب المهدئة . لم تنظر إليه .
القت كلماتها مجروحةً :

- أنت تنتقم من مورتراف ؟ .

« المتألمون ينتقمون ، يا أرديلا » . ردّ كيدل . « لا ألم عندي » .
« ألا يؤلمك شيء ؟ ألا تُجرح أو تُهان ؟ » ، ساءلته أرديلا في
برهتها التي أحسّته غريباً ، فردّ كيدل بصوتٍ يحاول تطويق صوتها
عناقاً :

- نبرْتُكَ المنكسرة تجرحني .

أكملت أرديلا ارتداء سترتها . تنكّبت حقيبتها الجلد البنية ،
الفضفاضة بما تحويه :

- متى ستخونني ؟ .

« أنت تركضين على شفرة صوتك . ما هذا ؟ » ، ساءلها كيدل
بصوت تصنّع إشفاقاً وتوبيخاً معاً . خلّل بأصابع يده اليسرى شعرها
الأسود ، السَّبَط ، مُرسلاً حتى كتفها : « سأخونك معك » ، قال .

في اليومين التاليين على لقائهما ذاك ، أكثرت أرديلا من تجرّع
المهدئات حبوباً مع نبيذها . أبلغت مساعدتها في المكتب أنها
متوَعكة . لازمت البيت متهدلة الروح ، متراخية الجوارح ، منتقلةً
بكوّوس نبيذها الأبيض إلى السرير التعتّج إليه بالعطالة الكبرى
في جسدها . تأسّى لها زوجها مورتراف . حثّها على لقاء طبيبها
النفساني في جلساتٍ بفواصل أقصر مما تفعل ، مُدّ باتت لا تزوره إلاً

مرة كل شهرين . جالسها مراراً على حافة السرير مظاهرةً بالرعاية .
أغدق عليها غزلاً لم تر فيه أرديلاً إلا ظلال كلمات قالها ، في
الأرجح ، لعشيقته ديلدا . اقتربت منه مرة ، بعد غيابه ساعات بلا
تبرير . تشمّمته ، خلّسه ، تستجلي أثراً من عطر خائن . كمنت له ،
مساء اليوم الثالث ، بحكاية إذ هما جالسان في غرفة النوم ، هو
على كرسي تستخدمه أرديلاً لتزويق وجهها أمام المرأة ، وهي متكئة
بظهرها إلى الوسادة ممدودة الساقين على السرير ، بكأس نبيذ في
يدها : «أتدري امرأة في توكيل محير قليلاً» ، قالت . «سألتها أن
تمنحني وقتاً كي أجد المدخل إلى بناء قضية تليق بطرحها أمام
القاضي» .

«لا شيء يحير المحامين في عصرنا» ، قال زوجها مورتراف .
«ما المحير في أمر قضيتها؟» .

«مقايضات اللذة» ، تمت أرديلاً بحروف تخفق همساً .
حدّقت ملياً إلى وجه مورتراف : «مقايضات اللذة» ، كرّرت الجملة .
«املاً كأساً» . مدت ذراعها بالكأس إليه ، فملأها مورتراف من
الزجاجة الملتزمة حضورها على طاولة زينة أرديلا .

«تبادل زوجات ، وتبادل أزواج» ، قالت أرديلا مستطردهً في
الشرح بعد كلماتها الملتبسة الأولى . «هي وزوجها يشاركان صديقاً
لهما وزوجته مقايضات اللذة ، مرة في بيتها ، ومرة في بيت
الآخرين» .

«تعني أن الزوجين يبادل أحدهما الآخر زوجته بزوجته» ،
شرح مورتراف لنفسه ما لا يحوجه شرح من رواية أرديلا . «أين
مكمن الذهاب إلى القضاء في هذا؟» .

«العقدة في المسألة برمتها أن صديق زوجها لازوجة له ، بل

يُخَضِّرُ عَاهِرَةً» ، قالت آرديلا . «المرأة التي تريد رفع دعوى ترى في مقايضات اللذة هذه إهانةً . زوجها يبادلها صديقه بعاهرة» . تجرّعت الكأس حتى منتصفها متراخية الجفون من مزيج الشراب والحبة المهدئة في أحشائها . «موكلتي هذه تريد مقاضاة زوجها» .

«تقاضيه على ماذا؟» ، تساءل مورتراف ، فردّت آرديلا :

- على إهانتها . تدّعي أن زوجها يقسرها على ذلك ، لكنني لا أجد مدخلاً إلى بناء قضية للمرافعة أمام القاضي .

هاهاً مورتراف بنبر ساخر :

- فلتطلب من زوجها أن يُقنع صديقه بالزواج . سيتكافئان ، بعد ذلك ، إن تبادلا زوجتيهما .

لم تنظر آرديلا إليه . أبتت بصرها منخفضاً إلى الكأس في يدها . ساءلته سؤال المكر :

- ماذا ترى في أمر تبادل الزوجات ؟

«مسألة رائجة» ، ردّ مورتراف .

«أين هي رائجة؟» ، ساءلته ، فردّ :

- أسمع بذلك .

«سألتك ماذا ترى في مقايضات اللذة هذه؟» ، قالت ، فردّ :

- أراها مثيرة . الرغبات تعرف كيف تحتال .

«أتخيّلت نفسك مرة في موقف كذاك؟» ، ساءلته .

حمل مورتراف نفسه والكرسيّ ، معاً ، إلى لصق السرير .

انحنى بصدرة صوب آرديلا :

- أتخيّلت نفسك في موقف كذاك ؟

«نعم» ، ردّت آرديلا بحروف سهلة المخرج ، منزلقة زيتاً على

لسانها .

ارتدّ مورتراف من جراءة الجواب بظهره إلى مسند الكرسي .
تتم يكرّر مانطقته :
- نعم؟! .

«نعم . ماذا لو أقنعنا صديقنا كيدل وزوجته ديلدا بمقايضات
من هذه؟» ، ردّت أرديلا مستديرة إليه بوجهها ذي الذقن الناتئ .
بدا مورتراف مذهولاً لبرهة من جراءة زوجته . تمالك خياله
المُجفّل :

- أأنت جادة ، يا أرديلا؟ .

«جادة كنبيزي» ، ردّت أرديلا مرتشفة جرعةً من كأسها .
اتصلت أرديلا عصراً بعشيقها كيدل ، متراخية الصوت خدراً
من حبة مهدئة :

- عَقَدْتُ صفقة مع مورتراف .

«صفقة؟!» ، تساءل كيدل .

«هلاً حضرتَ غداً مساءً إلى بيتنا ، وحدثك؟» ، قالت ، فسألهما
كيدل :

- ماالصفقة؟ .

«مقايضاتُ المتعة» ، ردّت أرديلا .

مساء اليوم التالي مزجت أرديلا أصنافاً قوية من الأشربة
الكحول ، في الوعاء الزجاج مضافاً إليها نبيذ أحمر شديد الحلاوة .
نقعت في الخليط الطيب المذاق حفنات من التوت البري والكرز
الأسودين . طحنت ستاً وعشرين حبةً من منومها بعقب قدح فوق
قماشة . أضافت المطحون إلى الشراب الذي أغدقت عليه بالكثير
من مكعبات الثلج . وضعت الوعاء في البراد ، وانتظرت .

جاء زوجها . تبعه كيدل قادماً بعد نصف ساعة . تبادل الثلاثة

همهمات تحيةً على خفق كثير من ابتساماتهم المتساوية أبعاداً .
رسموا بعيونهم صورَ الاتفاقِ الصامت ، ريثما يتمكنون من بسطِ
العقدِ أمام أبصار قلوبهم ببنوده المتوهجة إثارةً .

دخلت أرديلا المطبخ وحدها . أفرغت في جوفها نصفَ قدح
ماءٍ على ثلاث حبوب منومة ، دفعة واحدة . حملت الوعاءَ الزجاجَ
بالشراب القويّ محلّىً بالنبيذ الأحمر ، ومُنكّهاً بالتوت والكرز
الأسودين ، مبرّداً . حضّرت الأقداح ، والمغرفة للسّكب في
الأقداح .

أرديلا أثرت نبيذها الأبيض . رفعت كأسها نخبَ العبور إلى
يقين الأجساد متوثبةً تستعرض الغنائم الآتية - غنائم الوصلِ
مباحاً . تتمت ببعض النعاس في صوتها من دبيب خدرِ الحبوب :
- لن تمنع ديلدا .

«لن تمنع» ، أكد كيدل واثقاً .

«لِمَ لم تأتِ بها؟» ، ساءله مورتراف ، فتطلّع كيدل إلى أرديلا
ملتصع العينين بوميض الصفقة :
- طلبتني وحدي . غداً آتي بها .

تبادلوا محاورات خفيفة التّبرّ عن تاريخ مقايضات المتعة ،
وحقوق الرغبة ، ورفع اللذة فوق القانون والعرف . استعرضوا شذراً
من منطق القائلين بحصر الأخلاق في الملذات تسمو كلما تضاعفَ
حصادُ الجسد منها . كيدل لم يشه ، في صعود الأثير المخدر من
أحشائه إلى لسانه ، عن لمس يد أرديلا الجالسة إلى جواره على
أريكة الردهة قبالة مورتراف على الأريكة الأخرى ؛ بل وضع راحته
على فخذه أيضاً .

بعد نصف ساعة ، لا أكثر ، كانت أجفان الرجلين في سباقٍ

إلى الكسل ، بعد تبادل متعاقب للأنخاب احتفاءً بولادة الخفيّ المعلن . أرديلا ، بالرغم من الحبوب الثلاث ، ظلت مغالبةً أن تنزلق إلى ارتخاء مُذْ خَفَضَتْ رشفَ نبيذها ، وقَلَصَتْ الجرعات . نقلت بصرها كثيراً بين وجهي الرجلين تتعقبُ الثَّمَلَ والوَسْنَ قادمين إليهما . لم يَطُلْ رصْدُها الهادئ مبللاً بنعاس هادئ : بات الرجلان يتكلمان همهمةً بلسانين ثقلين . باتت نظراتهما سائلةً من أجفانهما المنطبقة .

وضعت أرديلا كأسها على المنضدة الواطئة . نهضت بتراخ . قصدت خزانةً منخفضةً ، بواجهة زجاج ، في جدار الردهة ، صُفَّتْ على رفوفها الزجاج قواريرُ شراب متدرّجة بالكحول القوية ، أو المتساهلة فيها . مدّت يدها إلى زجاجة شراب لالون له . تنبّهت ، من عينيها الكليلتين خَدْرًا ، إلى يدين أُخريين امتدّتا إلى الزجاجاة ذاتها . استدارت . رأت ابنيها المراهقين محيطين بها ، مبتسمين . كادت تُفَلِّتْ الزجاجة من يدها لتعانقهما . تلاشى هيكلهما بغتةً . ارتجفت شفتها السفلى من وجع كالسهم . نظرت صوب الباب . كان المراهقان هناك يرتديان معطفيهما البنين ، ويغطيان رأسيهما بقلنسوتي المعطفين . استدارا إليها بوجهيهما مُعتمِئِن لا يُرَيَان . تمتت : « لا تتأخرا » . أغمضت أجفانها الثقيلة . فتحتهما على فراغ .

عادت أرديلا بالزجاجة إلى حيث تراخى رأسا الرجلين على مسنّديّ الأريكتين . فتحت الزجاجة المלאى بتمامها . سكبت من الشراب الذي بلا لون على رأس مورتراف . تحركَ مورتراف في خمول لا يُقاوِم . فتح أجفانه أو كاد ، ثم أغمضها مُسْتَنْزَفًا بخموله . سكبت نصف الشراب الباقي على رأس كيدل . لم يتحرك كيدل

إلاّ يده اليسرى زحفت قليلاً على الأريكة ثم هدأت ، كأنها عثرت على الخواء الذي يُمسك .

أخرجت أرديلا قدّاحاً ذا زناد طويل الماسورة كإصبع . قربت الماسورة من رأس كيدل . ضغطت الزناد فانقذف لهب صغير . استدارت إلى مورتراف بالقدّاح ذي اللسان النار فاشتعل رأسُ مورتراف . تراجعت أرديلا .

نهض الرجلان مصعوقين - شمعتين آدميتين برأسين فتيلتين مشتعلتين . أصدرَا عواءً . تخبّطَا . صَدَمَا الأريكتين . استنجدَا بالأيدي لإطفاء اللهب عن رأسيهما فأبعد اللهب المتوقّد الأيدي بلفحه . نبجا . قَأَقَا كدجائتين مذعورتين . سقطَا أرضاً . تمرّغا على البساط الكثير النقوش . هُذَا ، برهة بعد أخرى ، إذ أنضجت النار طهو دماغيهما .

أسقطت أرديلا القدّاح من يدها . ازدادت أجفانها انطباقاً . جرّت قدميها ، في هدوءٍ يقطرُ خَدَرًا ، إلى غرفة النوم . استلقت على السرير . انحدر خيالُها من سفح أعماقها إلى الهاوية المعتمة ركضاً وراء ابنيها الراكضين ، مرتدين معطفين من لهبٍ لهما قلنسوتان .

رَنَ صوتُ حجارة ، من مبعَدة عن مجلس الأنفار العشرين ، ليلتهم تلك ككل ليلة يُسَلَمون فيها أعماقهم المطفأة إلى مصباح يضيئونه وسطهم ، وإلى نار يضرمونها ، لاطلباً لدفع في أواخر الصيف ، بل استئناساً بالظلال تنقسم أعشاراً على ملامحهم .

نبضت صوّر من رنين ذلك الصوت الحجريّ ، في خيال أرديلا : إصبع راووت ناقرأ نقرأ رنيناً بأغملته على غلاف الكتاب الضخم إذ مثّلت حاضرةً في حضرته .

«أعتذر»- تلك كانت كلمته الأولى . «لاكرسي آخر في هذا المكان» ، أضاف .

«مكتبك ، أيها السيد راووت ، أشبه بغرفة إعدام» ، قالت أرديلا ، المتوسطة الطول ، القوية الجسد . تطلعت إلى القروود الرسوم في أبديتها من اللونين الأبيض والأسود يستولدان الرمادي نسلًا من سفادهما :

- هؤلاء شعب بلا قضاة .

نقل راووت بصره ، بدوره ، صوب جدار الرسوم الأيمن :

- هؤلاء شعب يعيش في منخلة اللون ، وليس في المكان .

لمست أرديلا قذالها تردُّ بعض الشعر عن رقبتها :

- الأمكنة لا تتسع للشعوب أحياناً ، والشعوب لا تناسبها الأمكنة أحياناً . اللون حلٌ وسطٌ كمكان .

هز راووت رأسه علامة قبول للمنطق ذاك . حصرها بعينه الغائرتين ، الشرهتين ، المتفرستين :

- ما العدالة ، ياسيدة أرديلا ؟ .

«واجهته متجرجاجية ، كلُّ عابرٍ يلمح صورته عليها» ، ردَّت أرديلا .

نهض راووت المتقوَّس واقفاً في كسلٍ واضح . أرخى بصره إلى الكتاب الضخم أمامه ، على المنضدة :

- تريدن ، بالطبع ، مغادرة هذا المكان .

ابتسمت أرديلا جائلةً ببصرها على المكان قبل إثباته على الرسوم :

- من دهلينك ، أم من اللون في معركة القروود ؟ .

«منهما ، ومن سجن جبل آيايانو الشرقي» ، قال راووت .

بلّلت أرديلا شفيتها الممتلئتين بلسانها ، كعادتها . تتمت :
- عرفتُ اسمك قبل دخولي عليك . لكن لم أعرف من أنت .
«الرماديُّ» ، تتم راووت بدوره . «أنا المَخْرَجُ منه» . ابتسم من
بين شفّتيه الضخمتين ، المنفرجتين . أضافَ : «أنا المَدْخَلُ إليه» .
اقتربت أرديلا من منصدة راووت حتى لامستها ببطن قميصها
البرتقالي . تفرّسته :

- أشمُّ رائحةَ عَرَضٍ مَّا .
«نعم . عَرَضٌ بسيطٌ حتى أنه لا يشبه عَرَضاً» ، قال راووت .
عادت أرديلا من رحلة خيالها إلى الصوت الحجري . أبعدت
شبح راووت وعَرَضَه - عَرَضَ الرحلة . مازحت الشابَّ دارومَ :
- ألن تستجلي هؤلاء الضيوف الغرباء على العراء الذي
يخصّنا؟ .

«نعم» ، أكّدت دالومي بصوتها الخفيض الهادئ : «هذا العراء
يخصّنا» .

«أثير جملةٌ كهذه شيئاً من علوم طبّية نفسانية؟» ، سألت
أرديلا المرأة ذات الصوت الخفيض الهادئ ، فردّت دالومي :
- لكلِّ كلمة قلقها . والقلقُ مثيرٌ .
نادى ماهاهون الدليلَ ميراس :
- تدخّلْ ، يا قارئ السجون .

«فيمَ تريدني أن أتدخل؟» ، ساءله ميراس بصوته المتصنّع
نعاساً .

«نحن أمام علوم القلق» ، ردّ ماهاهون .
«إسأل السيدة دالومي عن الفرق بين الرياضيات والقلق» ، قال
ميراس .

«اسألها أنت»، ردّ ماهاهون . وجّه بصره إلى دالومي :

- ما الفرق ، أيتها السيدة دالومي ، بين الرياضيات والقلق؟
ميراس يريد اختبار اللغة .

«اللغة فوضى» ، قالت دالومي ذات الأنف المتقوس قليلاً .
«اللغة عدالة الفوضى ، لذا تبتكر المحال» .

«أهذا من شرع علوم النفس ، ياسيدة دالومي؟» ، ساءلها
ميراس ، فردّت :

- إنه الجواب الذي أردته .

«جواب عمّ؟» ، ساءلها ميراس .

«عن الفرق بين الرياضيات والقلق» ، ردّت دالومي .

«لم أفهم» ، غمغم ميراس ، فردّت دالومي المصبوغة الشعر
حُمرةً :

- اللغة قلقٌ ، والرياضياتُ عدالة .

«ضاع الفرق» ، قال ماهاهون .

عَلا بغتةً تلاسنَ بينَ راسين وداروم ، الجالسين على قُرْبٍ من
أرديلا . حاولت المرأة تهدثتهما . رفع ماهاهون صوته :

- تزوّجي الاثنين ، ياسيدة أرديلا .

«الكاهن رابكين جاهز» ، قال جورني مقتحماً .

نهض داروم . جال بعينه على الفراغ المقضوم بأسنان ضوء
الذهب ، وضوء المصباح ، كأنه يتحَيَّن بقعةً مآ مثلومةً ينثر فيها بزور
غضبه . أرسل بصره إلى النار الغريبة البعيدة تحطُّ على البُعد نفسه
من مجلسهم كلَّ ليلة . غمغم حائقاً :

- أين يختبئ مشعلو النار هذه نهاراً؟ .

«إذهب واستطلعهم» ، قال ميراس الدليل بنبرة ساخرة أيّدها

الشاب راسيد ، ذو الوجه المستطيل البارز عظام الحنكين :

- سيستطلعهم داروم في نهاية الرحلة .

لكز داروم الواقف عَجَزَ راسيد ، من خلف ، بمقدّم حذائه :

- لارحلة . لا شيء . أنتم بريدٌ بمغلفات فارغة فارغة لارسائل فيها .

«أهؤلاء يتبعوننا؟» ، تمتت أريديلا مرسلّةً بصراً إلى البعيد ،

فردّت دالومي :

- يتبعون حكاية النبي الغاضب في كتب الفيزياء .

حمحم راسيد مستاءً من لكز داروم على عَجْزِهِ . نهض . مشى

حتى ابتعد عن حلقة الجالسين أمتاراً . وضع كُرَّتَهُ أرضاً . راز الظلام

الرماديّ من فوق الأنفار التسعة عشر بميزان عينيه . تراجع خطوةً .

رَكَلَ الكرةً بقدمه اليسرى فانقذفت ، في صفيرٍ ، من فوق رأسيّ

التوأمين يومار ، وديرو .

شَقَّتِ الكرةُ الهواءَ بشفرة الهواء الذي في جوفها . صفعت

وجهَ داروم الواقف . زَعَقَ داروم .

الفصل الخامس:

دايك

«عيناك قويتان ، لكنَّ يدك عمياء» ، قال وَاْمُؤُن الشاب ، ذو العشرين عاماً ، لجدّه دايك . أضاف :
- مقصُّك أعمى .

طقطقَ دايك بمقصه يقطع الهواءَ خُصَلاً . قرَّبَه من عيني حفيده مهذِّداً بقطع أهدابهما توبيخاً . غمغم في تحدٍّ :
- ستبقى يدي مُبصرةً مائة عام .

كان الجدُّ وحفيده وحدهما مساءً ، بعد انصراف آخر زبُونة من دكان الحلاقة . تبادلا نظراتٍ واثقةً من اقتدارهما على إرضاء كل من يدخل مسرحَ استعراضهما - مسرحَ نَقْلِ الشَّعر من حالِ اعتلاله إلى حالِ عافيته ، ونقلِ الشَّعر من فوضى الوقت المتراخي إلى نظام الوقت الأنيق ، ونقلِ الشَّعر من حالِ تراجعِ دفاعاته جَمَلاً إلى انتصاره جمالاً .

الحفيد وامون ترعرع ، في زياراته الدكان ، أسبوعاً بعد آخر ، على يدي جده دايك الراقصتين بمقصه حول الرؤوس المستسلمة ، وفوقها . وإذْ بلغ الرابعة عشرة ضمَّه الجدُّ إلى دكانه واثقاً منه ، في أيام نهايات الأسابيع ، ثم ألحقه به حلاًقاً في السادسة عشرة ، مع تأكيد متساهل أنه سيعيد الحفيدَ إلى إكمال دراسته حين ترتأي أمه أن يعود إليها ، منذ لم يُبدِ الشاب في صغره ، وصباه ، وبقاعته ،

إِلَّا خُذْلَانٌ عَقَلَهُ لِلدَّرُوسِ ، وَتَذَمُّرُهُ مِنْ نَهْوِضِ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، كَأَمِهِ سَانِيسٌ تَمَاماً ، فِي نَشْأَتِهَا صَغِيرَةً ، وَصَبِيَّةً ، وَيَافِعَةً التَّحَقَّتْ بِأَبِيهَا دَايِكُ حَلَّاقَةً بِدَلِ الْعَامِلَةِ الْمُسْتَقِيلَةِ مِنْ كَثْرَةِ الشُّغْلِ . وَلَمَّا ضَمَّ الْجَدُّ الْحَفِيدَ إِلَى دِكَانِهِ ، خَرَجَتْ هِيَ مِنْهُ إِلَى افْتِتَاحِ مَشْجَرِهَا الْخَاصِّ بِهَا - مَشْجَرِ نَدَاءِ الرِّينَةِ : أَسَاوِرِ النِّسَاءِ ، وَعُقُودِ هُنَّ ، وَعُطُورِ هُنَّ ، وَأَصْبَاغِهِنَّ ، وَقُبْعَاتِهِنَّ .

لَمْ يُغْدِقْ دَايِكُ عَلَى حَفِيدِهِ الْكَثِيرِ مِنْ حَنَانِ الْجَدِّ ، أَوْ مِنْ حَنَانِ الْأَبِ عَلَى ابْنَتِهِ سَانِيسَ ، الَّتِي أَثْقَلَتْ عَلَيْهِ بِمِرَافَقَتِهَا النَّزَقَةَ ، ثُمَّ أَغْمَدَتْ طَعْنَةً مِنْ حَبْلِهَا - حَبْلِ الْفَتَاةِ الْخَمْسَةِ عَشَرَ عَاماً - فِي صَدْرِ سَنِينَ أَبِيهَا ، الَّذِي حَبَلَتْ صَدِيقَتُهُ - أُمُّ سَانِيسَ - مِنْهُ وَهْمَا بَعْدُ فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةَ ، فَعَاشَا مَعاً فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ بِلَا زَوَاجٍ قَطُّ ، حَتَّى اسْتَقَلَّ حَلَّاقاً ، وَارِثاً دِكَانَ أَبِيهِ ، مِنْ غَيْرِ إِكْمَالٍ لِدِرَاسَتِهِ .

سَيَرُهُمَا ، مُتَطَابِقَةً الْجَدَاوِلَ انْسِيَاباً إِلَى نَهْرِ الْعَائِلَةِ ، جَمَعَتْ صُورَةَ حَالِ الْأَبِ شَاباً صَغِيراً ، وَصُورَةَ ابْنَتِهِ شَابَةً صَغِيرَةً عَلَى نَحْوِ أَقْرَبٍ إِلَى نَسْخٍ ؛ وَضَمَّتْ ، مِنْ ثُمَّ ، قُصَاصَاتٍ مِنْ صُورَةِ حَالِ الْحَفِيدِ ، الَّذِي لَمْ تَنْجِبْ أُمُّهُ سِوَاهُ مُذْ لَمْ تَرْغَبْ فِي زَوَاجٍ ، وَلَمْ يَنْجِبْ جَدُّهُ وَلَدًا آخَرَ سِوَى أُمِّ حَفِيدِهِ سَانِيسَ «الْعَذْرَاء» - كَمَا تَصِفُ نَفْسُهَا .

صَمُوتاً كَانَ دَايِكُ ، ثَرْتَاراً بِمَقْصِهِ . ثَرْتَاراً كَانَ الْحَفِيدُ ، صَاخِبَ الثَّرْتَرَةِ بِمَقْصِهِ وَبِمَجْفَفِ الشَّعْرِ ، مُخْتَلِلاً فِي نِصْفِ دَائِرَتِهِ وَرَاءَ الْكُرْسِيِّ حَيْثُ تَجْلِسُ الزُّبُونَةُ ، مُسْتَعْرِضاً يَدَيْهِ فِي الْمَرَاةِ ، وَوَجْهَ الزُّبُونَةِ ، وَشَعْرَةَ هُوَ الْحَلِيقُ قَصِيراً جَدّاً عَلَى اسْتِدَارَةِ رَأْسِهِ ، طَوِيلاً عَلَى الْيَافُوخِ مُنْتَصِباً كَزَعْنَفَةِ ظَهْرِ السَّمَكَةِ بِقُدْرَةِ الْهَلَامِ الْغِرَاءِ الْمَعْطَرِ .

دايك تتبّع ، مراراً ، نظرات حفيده متنقلة بين رؤوس الزبونات
ورأسه هو ذي الزعنفة الشّعري في المرأة .

لم يحب دايك تلك النظرات من حفيده المُبالغة اختيالا
وسامة لا يراها فيه ، ويؤمن أن لا زبونة ترى ذلك أيضاً في امرأة
لا تتواطأ مع الجمال أو ضده ، أمانةً في حيادها .

«أنت لا تنظر إلى الرأس ، بل إلى نفسك يا وامون . إنس
المرأة» ، قال له الجد ذلك اليوم موبخاً ، على مسمع غاسلة الشّعري
العاملة في الدكان ، فردّ الحفيد :

- يداي تريان .

«لا تُبالغ في حذقك ، يا وامون» ، قال الجد ذو الأربع والخمسين
سنة . «هذه مهنة تُلزمُها ، أولاً ، عينان تريان» .

«أأخطأت مرة ، فخبّبت زبونة؟» ، ساءله وامون .

نقر دايك بمقصه على مشط ظاهر من جيب صُدْرته القصيرة
الزرقاء . قَرَّبَ المقص من عيني وامون :

- إن خبّبت زبونة خبّبتك .

«لماذا تهددني كل مساء قبل انصرافنا؟» ، تساءل الشاب ، فردّ
دايك بمتعضاً :

- «إن سألْتُك الحذر ، والانتباه ، رأيتَ في الأمر تهديداً؟
فهمك أعمى . كان فهمك ، أبداً ، أعمى ، لذا لم تكمل دراستك .
«هذه دراستي» ، ردّ وامون مطلقاً زفير الجحيم من مجفّف
الشّعري المعلق إلى خُطاف قرب المرأة الثالثة . «لن تُجاريني في إرضاء
زبوناتك . أرى نجاحي في الدراسة على وجوههن إذ يخرجن من
الدكان» .

هزّ دايك رأسه الأصيل ، المطوّق من جهاته بشعري مُرسَلٍ

طويلاً ، معقوداً خلف رقبته كذيلٍ مُهَرٍّ . غمغم غمغمة الخيبة :

- ربما يداك تريان ، لكنَّ لسانك أعمى .

تفرَّس الشاب في وجه جده المتطاوّل ، الخليق . غمغم بدوره :

- عيناك قويّتان . يدك عمياء . مقصك أعمى .

«أنتَ ابْنُها ، حقّاً» ، تتمّ الجدُّ في إشارة إلى ابنته سانيس ،
فردّ وامون :

- أنت أبوها ، حقّاً .

ترك دايك للعاملة غاسلةً شَعر في دكانه ترتيب فوضى آخر
النهار . قاد سيارته في صمت حتى عمارةٍ سُكنى ابنته . ترجَّل
حفيده ، فيما أكمل الطريق إلى داره الموحشة - الهيكل الخشب
البناء على أرضٍ تفصلها عن دور من مثيلاتها بشجر البتولا من
ثلاث جهات ، إلّا واجهتَها ذاتُ السياج بإطلالة على الشارع
الضيق ، الريفيّ ، الذي لاتعبّره إلّا دراجة البريد النارية ، وشاحنة
القمامة الصغيرة .

دارٌ موحشةٌ الموضع ، ولها وحشةٌ أكبر إذ يدخلها دايك . للردهة
رائحة الموت . للأثاث رائحة الموت . للنوافذ ، مغلقةٌ أو مفتوحةٌ ،
رائحة الموت . زوجته ميّفوس تنتظره شاحبةً ، حمراءَ الجفون ، برأس
عارٍ من الشَّعر أسقطت مضاداتُ سرطانٍ الثدي كلّهُ ، فاستعاضت
عنه بشعرٍ مستعار ، منفوش فوضىّ تنسى تثبيته على رأسها في
اتجاه صحيح ، أو لاتكترث . صوّتها شاحب في استقباله . كلماتها
مُنْهَكة شاحبة . نظراتها شاحبة . خيالها شاحب ، منذرٌ من
أحلام الليل تترك آثاراً من مخالبتها على نهار المرأة إذ تستيقظ :
«رأيت بيتنا قائماً على حافة شديدة الإنحدار من جبل آيايانو
الغربي ، وأنا متدلية من النافذة خارجاً ، تؤرجحني عاصفةٌ كلُّ

ما فيها شعْرٌ . ماذا يعني ذلك؟» .

يتأمل دايك صوتها إذ تروي أحلامها المنكوبة . لا تأويل من عقل الحلاق فيه لمناماتها . زوجته ميفوس تهوي - هذا هو كل شيء : دار على حافة الجبل . عواصفُ شعْرٌ . تخرج من البيت ناسية أن ترتدي جلدها : «كنتُ أحمل ثيابي في يدي ، بلا جلد على لحمي» ، قالت مرةً . «تفتح أنتَ فمي عنوةً كي أبتلع فرشاة الشعر . كنتُ جالسة على الأريكة وأسمع صوتي آتياً من المطبخ . صوتي لم يكن معي . أفتحُ البراد فأجد فيه آلة التداوي بالأشعة . الممرّضات يسحبن سريري فارغاً إلى حديقة المشفى ، وأنا أتمدّد على الأرض في الرواق ، بين أقدام الأطباء العابرين . ماتأويل السرير الفارغ ، يادايك؟ أنا ميتة . لا تأويل آخر» .

دايك يتأمل صوتها قبل خروجه من البيت ، وعبر الهاتف أثناء عمله ، وحالَ رجوعه إلى البيت مساءً ، ممتلئ الغضل بشعر من كل لون ، وبرياح من آلات تجفيف الشعر القوية ، وبصدى ثمرات حفيده مع الزبونات عن الأقمشة ، أو آخر المُبتكرات من آلات إزالة الشعر ، أو عن دهون البشرة ومراهمها . «أأنتَ خنثى ، أم لوطي؟» ، يردّد الجدّ تخمينه عن حال حفيده صامتاً ؛ كما يردد ، في أعماقه ، تخمين الوقت الذي يُنضج موت زوجته على نارٍ وقودها المطاطُ بدخان كثيف سُخام .

«أنا أتعسُّ السعداء» ، تقول ميفوس بلسان المنطق في انكسار جسدها . دايك لا يرى مدخلاً للفهم إلى تقديرها هذا عن نفسها ، أو تقديرها في المفارقة الأخرى : «أنا أسعدُ التعساء» . أحلامها تتداخل مع حقيقة ثديها المتأكليّ الخلايا : «رأيت ، من النافذة ، جسدي في الحديقة» . أسقطت من سردها أحلامها لزوجها أنها

أحلامٌ . باتت تحدّثه بلسان الوقائع حاصلةً : «رأسي بلا عظام . دماغي ظاهرٌ ، يادايك . التلافيقُ ، والأغشيةُ ، والعروق الحمر ، كلها ظاهرةٌ . لمسُ الهواءِ لجزءٍ من دماغي ثقیلاً ، لكنه غير محسوس إن لمس أجزاء أخرى . مالمسر؟ هناك مَنْ أطمعَ أشخاصاً شرائعَ من أدمغتهم مقليةً ، بعد نزع أقحافهم وهم أحياء . لا يموت المرءُ إن نُزعَ قحفُه بأناة كنزع القشرة عن جوزة الهند ، لكنه يحسُّ لذعاً لا يُحتمل إذ يمسُّ الهواءُ الدماغَ . سمعتُ بذلك ، أو رأيته في مكانٍ ما ، يادايك . أكلُ الإنسانِ جزءاً من أعضائه سيغدو شائعاً . ثمت نساء يطلبن حفظ مشيمهنَّ ، بعد الولادة ، في المجلدة ، كي يأكلنها لاحقاً ، إقتداءً بطبع الحيوان في أكل مشيمته بعد الولادة . مالمطريقة الأفضل لطهو مشيمة بشرية ، يادايك؟» .

خوفٌ ميفوس من خيانةٍ ثدييها حياة جسدها يتراءى هذياناً هادئاً في الكلمات ، صاخباً في الصُّور : «لو أن لك مشيمة ، يادايك ، وأردت أكلها ، فعلى أيِّ نحوٍ تأكلها طهواً؟ مقلية؟ مسلوقة؟ مشوية؟ مملّحة؟ مجففة؟» .

«مدخنة» ، يردُّ دايك . «مثل السُّلمون» .

«ماذا أفعل بثديي إن استئصلا ، يادايك؟» ، تسأله ميفوس ، فيردُّ دايك :

- ليس بعدُ ، ياعزيزتي . قد ينجح العلاج بالأشعة .

«ماذا لو بات استئصالهما ضرورةً لأحيا؟» ، تسأله ميفوس . «هما متأكلان ، لا يصلحان للطهو ، يادايك» .

يتخيل دايك ، في برهاتٍ من انزلاق وجوده مستقلاً عن كيانه ، لو اختطف ثديي زوجته بمقصه خطفاً لا يُحسُّ كفعله بالمقص عبوراً على شعر زبوناتِه . لقد أثر أن يحتفظ بالمقص اليدوي

الصغير ورثه عن أبيه ، في الدكان ، ومنح حفيده واحداً مثله ، فلا يستخدمان المقصات الكهربائية إلا إذا تعدّر الإنجاز بسواها ، كأن تطلب مراهقات جز الشعر على جهة واحدة من رؤوسهن ، أو حولها ، جزاً حتى بيان الجلد واضحاً . كلاهما - دايك وحفيده - في تبار بخطف مقصيهما الشعر كعبور النسائم . يدهما تتحركان بالمقصين راقصتين ، من غير أن تقتربا من شعر زبوناتهما ، لكن الشعر المقصوص يتساقط على القماش المحيط بأكتافهن . برهانُ القص هو سقوط الشعر بلا لمس . هكذا خالَ لهما أن يتباريا ، في صمت إلا من تبادل نظرات الرضا في التحدي .

«أنجز» ، يقول دايك للزبونة إذ ينتهي من رحلة يده حول رأسها . وهي كلمة وامون أيضاً : «أنجز» ، باختزال لا تُضاف إليه كلمة أخرى .

هما ليسا دائماً في اشتغال على قص الشعر . الكثيرات يقصدنهما للغسل والتلميس ، وللصِّبغ أيضاً . عاملتهن الشابة في الدكان تتولى الغسل ، والصِّبغ . التلميس من اختصاصهما . لكن ، في القص وحده تتراءى المنازلة الحَذِقة . تحدّ هادئ نما بفروعه بين الحفيد والجد ، في مملكة الشعر الصغيرة ذات الثلاثة الكراسي . تحدّ هادئ ، وصارم ، حتى كتمان النفس أحياناً قبل إطلاق زفير الرضا : «أنجز» . يضربان مواعيد لزبونتین ، معاً ، متواقفتي الحضور ليبدأ ، في برهة معلنة من ميثاق أيديهما ، حصاد النصر خفيفاً كالشعر في انحداره عن الرؤوس صريعاً . لكن ذلك اليوم ، الذي أيقظت ميفوس زوجها صباحاً برؤى عن أطباء تُدِيّ كلبة ، لن يكون كأي آخر : «لي ثمانية تُدِيّ» ، قالت المرأة ذات الكلمات الشاحبة . «أرُضعت ثمانية جِراء» .

لم تحدّثه عن رؤاها كمنام ، بل كحادثٍ تَوًّا . «انظر إلى أثدائي
الشمانية» . كشفت عن صدرها وقد تراصفت بُقعُ ناتئةٍ من اللحم
حُمْرُ كَأَزْزار ، متقابلة على جهتي صدرها حتى البطن . هاتَفَ دايك
ابنته سانس لتوافيه في المشفى : «الأمرُ طارئٌ» ، قال لها . انطلق
بزوجته في السيارة إلى المبنى الأكثر شحوباً في تاريخ العمران ، من
إحدى ضواحي سارسيدون : «مبنى سرطان اللون» تسمّيه ميفوس .
نُقِلَت المرأة إلى التشخيص فور وصولها مصحوبةً بابنتها
وحدها ، مُذ اعتذر دايك عن عدم البقاء معهما : «سانس .
ستزورني زبونة عزيزة جداً ، وابنتها ، هذا الصباح . حين أنتهي
منهما سأعود . هاتفيني إن استدعى الأمرُ ذلك» . غادر إلى دكانه
بابتسامة مشدوخة على شفّتيه الحمرّوين ، الرقيقتين ، القى بها
إلى شحوب الكلمات في فم زوجته :

- دايك . أخطأتُ العدّ . عندي تسعة تُديّ ، لاثمانية .

أخرج دايك مقصّه من جيب صُدْرته القصيرة الزرقاء . أخرج
وامون مقصه . مزج كلُّ منهما الصُّورَ في المرأتين أمامهما بابتسامات
على مقاس الودّ للمرأة الزُّبون وابنتها . دايك تولّى شعراً المرأة ،
وتولّى حفيده شعراً ابنتها .

تنفّس المشيطان القصيرا الأسنان في يديهما اليسريين ،
واستحال المقصان ، في يديهما اليمينين ، فراشتين ملتفعتين
بخيالهما المعدن .

دار دايك نصف دورته المعتادة من وراء ظهر الكرسي العالي -
مجلس المرأة عليه . دار وامون نصف دورة من وراء ظهر الكرسيّ -
مجلس ابنتها عليه . تبادل الجدُّ والحفيد ، منذ الخفقة الأولى من
قلب لمستيهما لشعريّ السيدتين ، نظراتٍ مراوح .

أطلق وامون سِرْبَ كلمات ، في الحَيِّز الذي يشغله الكرسي من إدارة مقصه ومشطه لشؤون الشعر ، ويقين الشعر ، ورغبات الشعر . بقي الجذُّ صامتاً كعادته ، مستغرقاً في طواف يديه حول رأس زبونتته . سمع جملتين ، لأكثر ، من المحاورة بين حفيده وابنة المرأة العزيزة عليه :

- لماذا الهوى؟ لِمَ نحبُّ؟ .

- كي نكون بلا أسرار ، سعداء بالتخلي عن أسرارنا .

لم يكن السؤال والجواب من حفيد دايك . وامون لا يتعدَّى ، في أحاديثه الثرثرات ، أبعد من متاع زينة النساء . ابنة الزبونة هي التي ساءلت نفسها ، وأجابت عنها . لذا غمزت المرأة الأم حلاقها دايك ، في المرأة ، مُرْفَقَةً غمزتها بتعليق صغير ، خافت :

- إينتي في سباق . مرَّةً تسبق قلبها ، ويسبقها قلبها مرَّةً .

نذت غمغمة من المرأة الإبنة . توقفت يدا وامون عن تحليقهما حول رأسها . استدار دايك إليهما : كانت الإبنة تبدي اعتراضاً خفيفاً على جز الحفيد أسفل خُصلةٍ نَّما ينسدل حول أذننها اليسرى ، وأتبع اعتراضها بحركات تقيس بها ، في المرأة ، أبعاد الشكل المتناسق لكتلة الرأس بما عليه .

لم يكن اعتراض الإبنة ليؤخذ على محمل الخطأ في الجز . هفوة لا تُحتسب من المقص الحذق في يد وامون . هفوة لا تُلحظ . حتى أن المرأتين ، إذ غادرتا الدكان ، غادرتا راضيتين ، إلَّا دايك ، الذي أثقل حفيده بالنظرات العقاب الصامت ، لاعتن توبيخ منه لحفيده ، بل شماتة صغيرة تُذكر الحفيد ، نظرةً نظرةً ، بسيادة مقص الجذُّ على المكان . تتم همساً :

- خذلت مقصك .

أخرج دايك هاتفه من جيب بنطاله . كلّم ابنته سانيس عن حال أمها . هزّ رأسه مرتين . غمغم مرتين . مرّ وامون من خلفه . أحسّ الجلد عبورَ نسمة وراء عنقه ، لا أكثر . أعاد الهاتف إلى جيبه . استرعى بصره وجه الفتاة العاملة بالدهش ظاهراً في عينيها المتقلبتين بينه وبين حفيده ، مفتوحة الفم .

أحسّ دايك ريبةً من ذلك الدهش الطارئ ، المفاجئ . وهو لن يعرف ، قط ، لماذا لم ينظر إلى أيّ شيء آخر ، في دكانه ، إلّا أرضها . سقطت عيناه من محجريهما إذ رأى إضمامةً طويلة من الشعر متكوّمة على نفسها حياءً ، أو مهانةً . مدّ يده اليمنى إلى رقبته يتحرى شعره الذيل . سقط خياله كسقوط قلبه في فراغ نهش .

منذ أربع وعشرين سنة لم يجرّ دايك من ذيل الشعر إلّا القدر الذي لا يجعله زائداً عن شبرين طولاً . انحسر شعره الأشقر عن قلّة رأسه ، فعوّض رأسه بالشعر على محيطه مُرسلاً يجمعه صغيرة مرةً ، أو حرّاً مُسدلاً مرةً ، أو عقيصةً أحياناً بمشبك مطاط .

يحب أن يستيقظ صباحاً مطوّق الوجه بفوضىٍّ من الشُقرة استحالت رمادية بعض الشيء في سنيّه بعد الخمسين . زوجته ميفوس تضع شبكة رقيقة على رأسها يكتنف شعرها الأشقر كلّ حين تنام ، كي لا تزحف خُصل منه إلى وسادة دايك . هي تفعل ذلك منذ أيام زواجهما الأولى بلا عقْد . أبدى دايك رغبةً في أن تحتبسَهُ إمّا ربطاً ، أو تطويقاً بعصابة ، أو جُمّاً بالمشابك الصغيرة الحديد . لكنه ، مذ أطلق شعره ذيلًا وراء عنقه ، لم يعمد إلى جُمّه ، حين ينام ، ربطاً ، أو تطويقاً بعصابة ، أو أسراً مضموماً بمشبك مطاط . شعره مضمومٌ بعنايةٍ نهاراً ، حرٌّ في الليل طليقٌ

بجلال الفوضى المتدبرة قواعدَها الأليفة .

دايك هادئ الحركة بعامة ، صموتٌ بطبعه . لكنَّ آيَّةَ التفاتة من رأسه تضاعف الحركة بانتقال ذيله لمساً من كتف إلى كتف . شعره مُطلقٌ ذيلًا في المشاهدة بالعين ، أمّا هو فيجد فيه جناحاً لرأسه مرفرفاً طائراً ، أو مُرتقاً كأنَّ سيّطير ، أو مضموماً على بيّض بشرته الشديدة البياض . شعره يتحرك حتى لو لم يتحرك دايك . شعره لمسةٌ من يدٍ ما لا يريدُها أن تتلاشى . شعره اليدُ التي أحَبَّها أن تكونَ ثالثَةً بعد اثنتيه - اليدُ المداعبة بخفّة كخفّة مقصه .

«شعري مرّاتي . كلما لمستُه رأيتُ ما أريدُ أن أراه» ، قال لزوجته ميفوس إذ تمّت ، مرةً ، عودته إليها بشعر كالذي كان له حين تعرّفت إليه .

«ماذا كنتَ ترى ، إذاً ، قبل إطالته هكذا؟» ، ساءلته ميفوس ، فردّ :

- لاشيء .

«أكنتَ لا ترى شيئاً؟» ، ساءلته مستنكرة . «ماذا عني؟» .

«عرفتُك لمساً . بعد إطالة شعري عرفتُك صورةً» ، ردّ دايك .

«أيُّ حال كانت الأقرب إلى قلبك : أن تحسّني لمساً ، أم تراني؟» ، ساءلته ميفوس ، فردّ دايك بشرح ، محايداً لا ينحاز إلى مفاضلة :

- حين أستيقظ صباحاً ، ياعزيزتي ميفوس ، بشعرٍ متناثر على عينيّ ، أراكِ من خلال الخُصلِ موزّعة الصورة على جمالٍ يليق بك .

- وماذا إذ تُزيح خُصلَ شعرك عن عينيّك ، يادايك؟ كيف تراني؟ .

- متحدة الصورة في جمال يليق بك ، ياميفوس .

- ما الفرق إذا ، يادايك ؟ .

- أستطيع رؤية صورتك على حالين ، ياميفوس .

لم يكن مقنعاً منطق لسانه - ذلك ما أكدته ميفوس ، مراراً ، بهز رأسها . لا يهم . دايك لن يتوسّع في برهان منطقته . شعره الطويل مطوّقاً رأسه الأصلع هو برهان التعويض المُقنع بلا شرح . يتذكّر جملة لا يعرف كيف تحصّلت له . لاسياق لها في خياله الحلاق ، لكنها جذيرة بتكرارها : « لا تثق بالموتى . ثق بقبورهم » . وهو يحرفها على نحو غير متطابق مع النسخ . غير أن التحريف يرضيه :

- لا تثق بصلعك . ثق بالشعر على جسدك أينما كان .

شعره الطويل ، المرفّه بزيت السنين ، كان متكوماً على أرض الدكان ذلك اليوم . لقد جُزّ من الموضع المطوّق بمشبك مطاط ، أسفل قذّاله بأغلة . شعر صريع هو برهان وامون أنّ يده لا تخدله في عبورها خطفاً بالمقص ، إلى درجة لم يحسّ بها الجذّ . شرخ صاعق فلق كرهة السنين ، التي علّقها بخطاف من شمع نقي إلى شعره الذيل . تكسرت المرأة الثقة بالشكل ضمّه دايك خرزة خرزة بخيط من رضى قلبه . جمع قبضته على مقبض مقصه . استدار إلى وامون المشيح عنه على نحو شامت ، في الأرجح ، متصنّعاً تنظيف فرشاة أمام إحدى المرايا الواسعة . وهو لو رفع وجهه قليلاً لرأى يد جده مرتفعة كما لم يرها قبلاً قط ، ثم تهوي بنصل المقص على رقبته .

لربما استطاع أن يتفادى الضربة لو رفع عينيه ، المتظاهرتين بانشغالهما ، إلى المرأة . كان مبتسماً رضى من جدارة يده في تفنيد إهانة الجذّ له أنّه خذّل مقصّه . لكنه تأخر في رفع بصره إلى المرأة .

وإذ رفعه لم ير صورته . لم ير شيئاً . غار المقص صاعقاً في قذّاله ،

أسفل القمّخدوة . شُلَّ عصبُ الحياة فيه من فوره . سقط ميتاً لم ترتعش خلية واحدة فيه .

صرخت الفتاة العاملةً مصعوقةً منبهرة . تصاكّت ركبّتاها ، ثم انقضت خارج باب الدكان هرباً . ترنح دايك قليلاً من ارتداد قوّته في الضربة عليه . لم ينظر أسفل إلى حفيده منطرحاً أرضاً . توجه إلى واحد من الكراسي الثلاثة العالية . جلس عليه متطلّعاً إلى الأبعاد المتقوّضة في الأشكال كلها . رنَّ هاتفه .

حلّق دايك رؤوساً عديدة في سجن جبل آيايانو الشرقي ، قبل دخوله الدهليز المغطى الجدران برسوم القُرود في عراكها الخالد . حدّق إليها قبل انتقال بصره إلى راووت ، الذي بادره معتذراً :
- لا كرسيّ آخر هنا ، يا سيد دايك . أنت حلاقٌ ، إذاً .
«نعم» ، قال دايك .

«قليل الكلام» ، تتم راووت كالمستعرض سجلّ الحلاق الشخصي .
«إنها إشاعة . أكلم نفسي كثيراً» ، ردّ دايك .
«ماموضوعك المفضّل إذ تُكلم نفسك؟» ، ساءله راووت ناقرأ بإصبعه السبابة على غلاف الكتاب الضخم ، فردّ دايك :
- النباتات .

«إنه موضوع السّحرة ، يا سيد دايك» ، قال راووت محدّقاً إليه بعينيه الغائرتين الشرهتين .

«بل موضوع الحلاقين ، يا سيد راووت . كلُّ حلاق يفكر بنبتة حين يقص شعرَ زبونه» ، قال دايك .

«ما الذي يشغلُ خيالك ، تحديداً ، من أمر النبات ، ياسيد دايك؟» ، ساءله راووت قائماً عن كرسيه ، شابكاً يديه خلف ظهره المتقوس قليلاً .

«ذاكرته» ، ردّ دايك بصوت عال لا يناسب هدوءَ حركاته .
«ماذا عن ذاكرة النبات؟» ، ساءله راووت ، فردّ الحلاق :
- كلُّ نبات ينمو في مكان بسبب ذاكرته عن المكان . الأمكنة التي لا يعرفها نباتٌ لا ينمو فيها .
«أظنّك تقصد المناخ الذي يلائمه» ، قال راووت . أردفَ :
«المناخ هو كل شيء . المناخ هو ما يلائم وما لا يلائم» .
«هذا خطأ» ، ردّ دايك . «المناخ هو ذاكرة النبات . مقدار الحرارة ، ومقدار الريح ، والرطوبة ، والجفاف : كل هذه العناصر اللازمة لنموّه هي ذاكرته . له ذاكرة حرارة ، وذاكرة ربح ، وذاكرة رطوبة ، وذاكرة جفاف ، وذاكرة صوت أيضاً . ينمو النبات حيث تلائم ذاكرته نموه» .
«ماذا لو عكسنا منطقك ، يا سيد دايك ، ألا نستحصل النتيجة ذاتها؟» ، ساءله راووت . «النبات ينمو حيث يلائم ذاكرة الريح ، ويلائم ذاكرة الرطوبة ، وذاكرة الحرارة ، وذاكرة الجفاف . الخ» .
«لا» ، ردّ دايك . «ذاكرة كل نبات توجد قبل نموه» .
«هذا تقديرٌ منفصل عن معقوله ، يا سيد دايك» ، قال راووت .
«النبات لا يأبه لما تأبه أنت له ، يا سيد راووت» ، ردّ دايك .
«تنبت ذاكرته أولاً ، ثم ينمو النبات في ذاكرته» .
«أيصحّ هذا التقدير ، المنفصل عن معقوله ، في شأننا أيضاً ، ياسيد دايك؟» ، ساءله راووت ، فردّ دايك :
- شأن مَنْ؟ .
«نحن» ، تتمم راووت .
«نحن مَنْ؟» ، ساءله الحلاق متفرساً في راووت بعينه
الزرقاوين .

ابتسم راووت صامتاً . أرخى بصره إلى الكتاب الضخم على
الصفحة برهة . فتح غلافه عن ورقته الأولى ، ثم أطبقه . رفع عينيه
المنفرستين إلى وجه دايك . لم يتكلم .

«من أنت ، ياسيد راووت؟» ، ساءله دايك .

ألوى راووت عنقه صوب جدار يتقرئ رسومَه المتدرجة من
:رح سواد إلى جرح بياض ينزفان الرمادي من فتقيهما .

غمغم دايك تعليقاً على صمت راووت . تكلم :

- تحوُّجك حلاقة . كلُّ شعرة فيك على مقاس الأخرى .
الأفضل تشيتُ التساوي بينها .

«مالذي خطر ببالك إذ دخلتَ هذا المكان؟» ، ساءله راووت ،

فردَّ دايك :

- لماذا لم يُخلَق شعْر هذه القروذ قبل رسمها؟ .

«يُخلَق شعْرها؟!» ، تساءل راووت مبتسماً من بين شفثيه

الضخمتين ، المنفرجتين . أضاف غمغمةً بحروفٍ تُقرأ إلى كلماته
السابقة :

- الرسامون لا يحملون مقصات معهم .

«معهم مقصاتُ اللون» ، ردَّ دايك .

جلس راووت . قَرَّبَ الكتابَ الضخم من صدره . تكلم من غير

نظر إلى الحلاق :

- سألتني ، ياسيد دايك ، مَنْ أكون .

«نعم» ، قال دايك .

«أنا مدبِّر الرحلات الأخيرة في الرمادي» ، قال راووت .

تأمل دايك كلمات الرجل الطويل ، الشاحب البشرة . كانت

مغلقة أمام فهمه - فَهَمِ الحلاق . تتمم :

- رحلات في الرمادي؟! هل الرمادي مكانٌ ، يا سيد راووت ؟ .

«كلُّ لون مكانٌ مياهُ ، أو يابسة . كلُّ لون ميناءٌ رحلةٌ ، أو محطة رحلة ، ياسيد دايك» ، ردَّ راووت .
لمس دايك ذيلَ شعره المُرسَل طويلاً شبرين . ساءل الرجل الجالس إلى منضدته :

- أنتَ فيزيائيٌّ ، يا سيد راووت ؟ .

«أهكذا يتكلم الفيزيائيون ، يا سيد دايك؟» ، ردَّ راووت .
أطرق دايك ليعرف ، هو نفسُهُ ، مدخلاً إلى المطابقة بين كلمات راووت عن الرمادي وبين لغة الفيزياء . لقد نطق حُكمهُ في صيغة التساؤل ارتجالاً ، لأكثر . أدار لسانه في اتجاه آخر ، مبتعداً عن فحْخ اللون :

- النباتات مجنونة في البيوت التي يسكنها معتوهون نفسياً .
جملتُهُ هذه ، المركبة من تقدير غامض ، كرَّرها على مسمع الطيبة النفسانية الدومي ، متقدِّمينَ - هُمُ الأنفارُ العشرون - في الخلاء الحجر الأقرب إلى مطلع سفح آيايانو الغربي .
«لم يأتني أحد من زائري عيادتي بنبتة معه ، بعدُ ، يادايك» .
ذلك مقالته الدومي للحلاق ، فعلق دايك بمأزحاً :

- اطلبي من زائريك أن يحملوا معهم نباتات مفضَّلةً .
«أسألُهُم ، أحياناً ، عن نباتاتهم المفضلة في منازلهم» ، قالت الدومي . «لم يخبرني أحد منهم أن نبتةً تصرَّفت على نحوٍ مريب» .
توقفت القافلة إذُ ترجَّل الدليلان سادوك ، وميراس ، عن مقعد الدراجة النارية ، بعد ظهر يومهم ذاك .

«لا عجلة الآن» ، قال ميراس . «نحن نقترَّب من مطلع

السفح». تمطى . قرفص ونهض مرتين يُريّض مفصلي ركبتيه . أشار بيده اليسرى إلى القمم الثماني للجبل منادياً :
- رابكين .

ألقى الشاب ، ذو الصوت النبرة الوعظ ، بصره حيث ينظر الدليل في السماء بُدِيَّ ثمانية تُرضع القمم الثماني :
- ماذا ، ياسيد ميراس ؟ .

«أتمرد الملائكة؟» ، ساءله الدليل من غير أن يتطلع إليه .
أعاد رابكين ، المشدّب اللحية حلاقةً مدروسة الرسم ، بصره إلى ميراس . قلّص بين أجفان عينيه اللتين تخالطت في حدقتيهما زرقه وصُفرة :

- لا ملائكة عند إلهي . لم يستعبد ملائكة .
«أوه» ، تتم ميراس . «إلهك خالقُ آلهةٍ أخرى ليقايضها» .
تطلع إلى الشاب متأملاً :
- لماذا تتخذ الآلهة ملائكة ؟ .

«هذا مأزق الرياضيات» ، قال ماهاهون متطفلاً على حوارهما :
«أنا أرجح ذلك» ، علّق ميراس على ردّ المعلم . أعاد تسديد كلماته إلى رابكين :

- إنْ تمردت الملائكة سيكون الإله وحيداً ، أعزل ، في مجابهتها .

«ليس ذلك حَسْبُ» ، قال ماهاهون . أضاف : «ستكون القيامة كما لم يقدّرْها إله ، أو يتخيّلها . ستكون القيامة متاهةً في جذور الأرقام» .
«تعني أنها ستكون لوغارتماً» ، قال ميراس .

«القيامة اللوغارتم . نعم . آخر لوغارتم» ، أكد ماهاهون .
صفرت كرة راسيد فوق الرؤوس إذ ركّلتها . تطلّع الأنفار إليها
مُلغِزةً الهدف ، ثم أداروا وجوههم إلى الشاب الأصغر سنًا في
القافلة الراجلة .

«لماذا ركّلتها بعيداً هكذا؟» ، ساءل دايك الشاب راسيد ، فردّ :
- كي تستطلع الكرة لنا أولَ سفح الجبل .

«كرتْك تشبه الكون ركّلهُ إلهٌ ما» ، قال دايك . لمس كتفَ
ماهاهون :

- أمضحك أن أتخيّل حلاقينَ بين الأفلاك؟ .
رفع ماهاهون كتفيه مُذْ أشكل عليه الجزمُ :
- ليس مضحكاً في الأرجح ، ياسيد دايك . لكنّ عالمَ
السجون ميراس قد يؤكّد مايزهد إليه خيالك .
«خيالٌ مَنْ؟» ، قال ميراس الذي لم يلتقط الكلمات كلها ، فردّ
ماهاهون :

- خيال دايك .
«ما به خيالك ، ياسيد دايك؟» ، ساءله ميراس الحليقُ الشعر
على بكرته ، فردّ الحلاق الأحمر الأذنين والشفيتين :
- حلاقون يجوبون الأفلاك . أخيلي في مأزقٍ ، ياسيد
ميراس؟ .

«الأفلاك في مأزقٍ ، ياسيد دايك» ، ردّ ميراس . رفع بصره ،
من جديد ، إلى قمم الجبل الثماني :
- الأفلاك أكثر الأمكنة التي تنزلق عليها الأقدام .
«أقدامُ الحلاقين؟» ، تساءل دايك مبتسماً ، فردّ ميراس :
- أقدام الآلهة .

مسح ماهاهون نظارته المستطيلة الزجاجتين بحاشية قميصه .
منهم مرددًا : «أقدام الآلهة» . أثبتَ نظارته على أنفه . حذق إلى
ميراس الطويل ، العريض الكتفين :

- أين لا تنزلق أقدام الآلهة ، إذاً ؟ .

«في مكانين هما الأكثر أماناً لعبورها حافيةً ، أو مرتدية
أحذيتها» ، ردَّ ميراس . صمتَ . فاستحثه ماهاهون :

- أيُّ مكانين تعني ؟ .

«خيالُ الإنسان ، وهلعُ الإنسان» ، ردَّ ميراس .

صفرت كُرة راسيد ، ثانيةً ، فوق بعض الرؤوس مُذ استردَّها
بعد قذفها بعيداً . ركض إليها التوأمين المتلاصقان جسداً واحداً ،
يومار ، وديرو ، فتعشرت أقدامهما . ترنَّحا قليلاً . لم يسقطا . مشيا
إليها فأدركاها . مالا برأسيهما أسفلَ يستطلعان الكرة . تناوبا على
نقرها ، بلا قذف ، بأقدامهما الأربع . هتف بهما راسيد :

- أرياني مهارتكما .

«أنا سأركلها» قال ديرو ، فجذبه نصفه الآخر - نصف يومار :

- بل سأركلها أنا .

جذب كلُّ نصف من جسد التوأمين الواحد نصفه . تناكفا
شداً . بلغهما راسيد . اختلس الكرة من بين أقدامهما الأربع فثبَّتْها
على مشط قدمه اليسرى ، ثم رمى بها عالياً فاستقرت على رأسه .
مشى بالكرة على رأسه صوب الأنفار الآخرين .

«تشبه نبتةً ، ياراسيد» ، قالت آرديلا ، فساءلها سولكين ذو

العين اليسرى الأصغر من اليمنى :

- يشبه الفُطر ؟ .

«بل نبتة الماء الضاحك» ، أكَّدت آرديلا .

«ماذا؟»، تساءلت دالومي القريبة منها ، بصوتها الخفيض الهادئ .

«نبته الماء الضاحك» ، ردت آرديلا .

«هل من نبته بهذا الاسم؟» ، ساءلتها دالومي .

«نخترع الأسماء فيقرؤها تاريخُ النبات» ، قالت آرديلا .

تدخلت الأختان بيونا ، وسيتون ، في المحاوره : «أستطيع ابتكار اسم ، منذ الآن ، لنبته لم تُكتشف بعد» ، قالت بيونا .

«مثل ماذا؟» ، ساءلتها آرديلا ، فردت بيونا :

- عشبة رقصة الدجاج .

«ليس اسماً طريفاً» ، قالت أختها سيتون : «نبته سكة

القطار» . تأملت آرديلا المبتسمة : «ألا يليق هذا الاسم بنبته ماثلة ، ياسيدة آرديلا؟» .

تبارت النساء الأربع في توليد الأسماء لنباتات لم تُكتشف

بعد . انضمت إليهن ياروزا طبيبة الكلاب الحامل في شهرها

الثالث ، وروثا المتخصّصة في صباغ شعر النساء ، وميلادين الموظفة

في دائرة الضرائب . تسابقن في ابتكارات خيالهن :

- نبته الغيوم .

- نبته الفجر الخائف .

- نبته الكاتدرائية الطائرة .

- نبته قديس الأموال الزرقاء .

تدحرجت كرة راسيد بين أقدامهن . التقطتها ياروزا : «ابتعدن

قليلاً» ، قالت للأخريات ، فابتعدن عنها خطوات . «تلقّفيها

ياميلادين» . ركلت الكرة بقدمها اليمنى .

تلقّفت ميلادين ، القصيرة البدينة ، الكرة الرمادية ، المرتقة

الغلاف بسِّيُورٍ بِيضٍ . صاحت : «وَسَّعَنَ الحلقة» ، ثم ركلت الكرة صوب سيتون ، فانحنت سيتون متحاميةً أن تصيب الكرة رأسها المَكْتَنَف بشعر أسود طويل . ابتعدت الكرة .

جورني الشيخ ، ذو الستة والستين عاماً ، أوقف زحف الكرة الهاربة . نادى : «هَيْه» ، متوجهاً بصوته المتقطع النَّبْر إلى ميراس : «أنت بارعٌ كفايةً؟ خُذْهَا» ، قال .

«أنا حارسٌ مرمى المجهول ، لاحارس مرمى كرة قدم ، ياسيد جورني» ، أجابه الدليل . «لا تمتحني . أنت الفائز حتى لو لم تَرُكَل الكرة» .

«استهدفني أنا ، ياجورني» ، قال ماهاون ، فهرولت بيتاليا صوب الرجل الشيخ . صاحت به :
- هاتها ، أرني براعتك .

ركل جورني الكرة بالزاوية الخطأ من مقدّم حذائه . دارت الكرة على نفسها منعطفةً قوسياً . ركضت ميلادين ، ذات العينين البنيتين الواسعتين ، إلى الكرة مهتزةً اللحم على خديها . ركلت الكرة فتلقفها جينتالو الطويل العضلي بيديه .
«أنت تستخفُّ بالقواعد ، ياجينتالو» ، قالت ميلادين . «يداك ليستا قدميك» .

قذف جينتالو الكرة صوبها بقوة ذراعيه معاً كفعل لاعبي كرة السلة . أصابت الكرة صدرها . ضحك ماهاون : «أخطأت الهدف ، وأصبت عمودَ السلة ، ياجينتالو» .
اختطف داروم الكرة إذ ارتدّت عن صدر ميلادين المكتنز . دحرجها ، في أناةٍ ، إلى أرديلا ، فدحرجتها أرديلا ، بدورها ، إلى راسيد .

لم تُعجب الثقلة الشاب داروم من قدم أرديلاً إلى قدم راسيد ركض سريعاً فاخطف الكرة . ركلها قدراً ما يستطيع بعيداً عن الجماعة الأنفار . غمغمت النساء استياءً .

في ليلة يومهم ذاك ، نقر ماهاهون ، بأنامل يده الممدودة الذراع ، على ركبة دايك ، الجالس إلى قُرب منه :

- يُحكى عن سلالات الحلاقين براعتهم في القصص . ماذا عنك ، يا سيد دايك؟ .

«ماذا عني؟» ، ساءله الحلاق .

«حكاية» ، قال ماهاهون . «ألدبك حكاية تُروى؟» .

«لا» ، ردّ دايك باقتضاب .

ارتفع صوت ميراس المتصنّع نعاساً :

- أنا سأروي لكم واحدة .

ترقّبت الظلالُ في أوقاب عيون الجالسين لسانَ ميراس . ترقّبت الضياءُ المبعثر من المصباح ، والنار الموقّدة الواهنة ، لسانَ ميراس . تكلم ميراس : «كان جايان كُونوس ، أحدُ الأقوياء في مدينة سارسيدون ، جالساً في ردهة منزله الفاره وحده ، محتسباً شرباً من عصير الفراولة ، بعينين على أسطر من صحيفة صغيرةٍ مقاساتُ ورقها . دخل عليه أحد حراسه الشخصيين .

- هنالك رجل في الباب يريد لقاءك ، ياسيد كونوس .

- أأعرفه؟ .

- لا أظن . لم أره قبلاً ، ياسيد كونوس .

- ماذا يريد؟ .

- سألتته فردّ أنه قادم لأمر خاصّ بك ، ياسيد كونوس . أأرجع

إليه؟ .

غادر الحارس الشخصي الردهة عائداً إلى الزائر الغريب . غاب
لفلوات ليرجع إلى سيد المنزل مبتسماً :

- رجل أنيق . وسيم . هادئ . واثق النظرات . لا يبدو مجنوناً ،
ياسيد كونوس ، لكنه تكلم كمجنون .
- ماذا يريد؟ .

- أن يقتلك ، ياسيد كونوس .

- يقتلني؟ هكذا في بساطة؟ .

- نعم ، ياسيد كونوس .

- يبدو ظريفاً . أدخله .

- لن أجازف ، ياسيد كونوس . الخطرون هادئون عادةً .

- مَنْ يطلب إذنًا بالدخول على شخص ليقتله ليس خطيراً .
أدخله .

مضى الحارس جالِباً الزائر الغريب الأنيق . واكبَه حذراً بيده
اليمنى على صدره ، تحت السترة ، حيث المسدس . وقف الغريب
مواجهاً سيد المنزل . وقف الحارس خلفه متأهباً .

رفع جايان وجهه عن الصحيفة الصغيرة المقاس . أثبت عينيه
على وجه الزائر الغريب بابتسامةٍ مُحْتَجِبةٍ في يَبْؤُيَهما :
- أأنت هنا لتقتلني؟ .

- نعم ، ياسيد كونوس .

- أتعرف من أنا؟ .

- نعم . جايان كونوس .

- هذا اسمي . ماذا تعرف عني؟ .

- عندك تسع عمارات في أربع من ساحات سارسيدون
الكُبريات ، وشركة بحرية للنقل . عصبيٌ . لا تشرب الكحول . تحب

صيد السمك في حوضٍ حديقة بيتك المحصَّن بنظام إنذارٍ شديداً
التعقيد . أخيرةٌ عشيقاتك انتحرت . في سيارتك المصفحة مسدسُ
ذهبُ الطلاء ، بطلقات مغلفة ذهباً . تنام ساعتين لأكثر ، قبل
المغيب . لم يسمعك أحدٌ تتحدث عن موسيقى . لاتسجيلات
موسيقية في بيتك .

- تعرف الكثير عني . من أنت ، أيها الغريب ؟ .
- جئت لأقتلك ، وأقتل حفيديك ، ياسيد كونوس .
طوى جايان كونوس الصحيفة . ابتسم ، ثم اختزل ابتسامته
المُرْفَقة باستغراب :

- ستقتل حفيدي أيضاً ؟ .
- نعم ، ياسيد كونوس .
- تعرف الكثير عني أيها الغريب ، ثم أكاد أشك أنك تعرف
شيئاً عني .

- كيف ، ياسيد كونوس ؟ .
- ماحكاية حفيدي؟ لم أتزوج قط . من ذلك علي ؟ .
- أنت ، ياسيد كونوس . هذا اتفاقك معي .
- أنا؟ لم أرك قبلاً . لا أعرفك . من أرسلك إلي ؟ .
- أنت ، ياسيد كونوس .
- واتفقتُ معك على قتلي ، أيها الغريب ؟ .
- نعم ، ياسيد كونوس .
- وعلى قتل حفيدي الوهميين ؟ .
- نعم ، ياسيد كونوس .
- وجددتني ، أيها الغريب . أين ستجد حفيدي ؟ .
- سأجدهما ، ياسيد كونوس .

- أمعك مسدس؟ .

- نعم ، ياسيد كونوس .

- أرنيّه .

أبعد الغريب شقّ سُترته يُري جايان مسدسه مطوّقاً بحزام
البنطال ، فبادر حارس جايان إلى وضع فوهة مسدسه هو على قذّال
الزائر الغريب محذراً .

حدق جايان إلى الزائر الأنيق :

- أستطيع قتلك الآن بدعوى الدفاع عن النفس . دخلت بيتي
مسلّحاً .

- لا تستطيع ، ياسيد كونوس .

- من يقدر على إيقافني؟ .

- ماذا ستفعل باتفاقك معي ، إن قتلتني ، ياسيد كونوس؟ .

- أيّ اتفاق ، أيها المعتوه؟ مامشكلك حقاً؟ .

- لا مشكلة عندي ، بل عندك ، ياسيد كونوس .

حدّق أحدهما إلى الآخر في ثباتٍ ، قال ميراس . أوقفَ سردَ
حكايته .

انتظر الأنفازُ عودة الدليل إلى تصريف الوقائع غير المنجزة في

حكاية زائر غريب ورجل من أقوياء مدينة سارسيدون .

«ثم ماذا ، ياسيد ميراس؟» ، غمغم دايك .

انقلب ميراس على جنبه الأيسر ، فوق بساطه الجلد ، متهيئاً

للنوم . ردّ :

- سردتُ حكاية نيابة عنك ، ياسيد دايك . أكملها .

«ليس هذا عدلاً ، ياسيد ميراس» ، قال دايك . «سِرتَ

بالحكاية إلى مأزقٍ لا مخرجٍ منه» .

«جربوا إخراج الحكاية من المأزق . أمامكم وقتُ الرحلة كُلُّه» ،
قال ميراس ، منسحباً بصوته إلى النعاس بلا تصنُّع .
«ماهذه الحكاية ، ياسيد ميراس؟» ، ساءله دايك ، فردَّ الدليل :
- إنها أصلُ كلِّ حكاية منذ اكتشف الإنسانُ الآلهةَ المأزقَ .

الفصل السادس:

سيتون، بيونا

لأشهر طويلة غالبت سيتون فضولها القويّ إلى تحرّي الأرقام في هاتف زوجها المحمول . حملته مراراً ، في خلسة منه ، موشكة الكشف على سجلّ اتصالاته ، لكنها لم تفعل . هي مصمّمة عقود وقلائد للنساء ، في فرع من متاجر الزينة في سارسيدون . بارعة في مزج الطُّرُزّ بإلهام من خيال الموسوعات الحديثة براعةً ، وخيال المُقتنيات الأثرية في متجر زوجها أميلو الشهير بلقب «كاردينال التَّحَف» .

تنضيد الأحجار ، الكريم منها والمقلّد ، كلّ في إقليد من المعادن ، نفيسها وشبيهة النفيس ، أمرٌ من مقتضى الحيلة القوية ، ودُرْبَةِ الخيارات . نَظْمُ الأحجار ، والخرز بتجاور في البناء على أشكال عقود ، هو تحصيلٌ من فقه اللون : للمتنافر طباعه ، وللمتآلف طباعه . هذا ما يعرفه المصمّمون الحذاق . لكنهم ، بالمكر الذي يلهمهم استخراج المتنافر من المتآلف ، والمتآلف من المتنافر ، يشرّعون للذوق سعة في المفارقات الجذابة ، كالمناسك التي وطّد عليها مشرّعو الأدب لمصكوكات في لغة التوصيف كريمة ، مُبتكرة ، مُلفتة ، واضحة النفور من تراكم اليقين ذوقاً ، وساروا بها إلى ألفاظ متعارضة الربط والوصل : جمالُ القبيح ؛ جمالُ القتل ؛ جمالُ السقوط ؛ جمالُ الموحش ؛ جمالُ المهجور ؛ جمالُ الصخب ؛ جمالُ البكاء .

سيتون من اللواتي استنبطن عقوداً برتقالية السلاسل والأقاليد من كيمياء اللون المحترق على المعدن لَفْحاً بالنار . وهي ، في سيرتها أُمينةٌ للتصاميم ، أُمينةٌ لا تقتحم شؤون هاتف زوجها تطفلاً . لذا إن هَمَّت ، بعضُ الآناء ، باستنطاق الآلة الصغيرة عن أرقامها ، أحجمت : لا يليق بمهارة يديها في ابتكار المصاغِ زينةً أن يُثْلَمَ شرفها باختلاس مافي هاتف زوجها .

رغبتها المترددة ، الملجومة تلك ، كانت صندوقاً فتحه إهمال أميلو لها ، وانكفاء رغبته فيها ، لأكثر من الثلاث السنين الأخيرة من رحلة زواجهما . هي في التاسعة والثلاثين ، وهو يكبرها بعامين . أنجبت من زواج سابق صبياً في الثانية عشرة ، وعند زوجها صبيٌّ من زواج سابق في الثالثة عشرة ، بذقن ناتئ كأبيه ، وأذنين شديديتي الانتصاب تُثيران حَنَقَه من سُخرية أقرانه بهما . لكنَّ لهما مُشْتَرَكاً من زواجهما طفلتين في التاسعة ، والسابعة ، بذقنين فيهما نُقرتان كذقن أمهما .

على أية حال تعرف سيتون أن اقتحام خلوة الأرقام المستورة في هاتف أميلو لن يعود عليها بمكنون . مهاتفاتُ يومه الواحد شاسعة الشواطئ . ثمَّ ماذا إن تكررت أرقامُ تحمل أسماء إناث من جنسها؟ أتصل بهن مستفسرةً مستوضحة؟ مهنة زوجها «كاردينال الثُحف» تقتضي عرضاً من صور موروداته على رُبْنه يلتقطها بعين هاتفه نفسه ، ويسوقُها ، بتأثير الكشوف الخلوية ، إلى كلِّ هاتفٍ آخر .

الريبة القاسية ، والذعر من فكرة طلاق ثانٍ ، حملتهما سيتون على كَتْفَيِّ هواجسها إلى أختها الكبرى بيونا ، المطلقة بدورها ، في إحدى زيارات بيونا لها :

- لديَّ شعورٌ ماقبل العاصفة ، يابيونا .

«ربما تتوهمين ، ياسيتون ، أرايتِ من أميلو ما يُقلِقُ؟» ، ساءلتها
أُمُّها الطويلة ، الشخينة العظام .

«كلما لمستُه يجد عذراً للهرب» ، قالت سيتون . «يحتضنني
أحياناً . يكلمني ، بالطبع ، عن تجارته ، ووارداته الجديدة من
السحف . يمتدح ثيابي ، وزينتي ، وعطري ، وتسريحة شعري ،
وملهوي . لكنه لا يراني يا بيونا . أحسُّ عينيه تنظران إلى شخص
آخر وليس إليَّ إذ ينظر إليَّ . لم يعد يراني» .

«كلُّ زواجٍ مأزقٌ ، يا أختي العزيزة» ، قالت بيونا . «والمتزوجون
هم في بحثٍ مُضنٍّ ، طوال زواجهم ، لإثبات أنه ليس مأزقاً ،
ببرهان الحب ، وبرهان إنجاب الأولاد ، وبرهان دوام الزواج حتى
الموت . البعض يتراجع ، والبعض يستمر» .

بيونا من اللواتي تراجعن عن إكمال بحثهن المضني لإثبات أن
الزواج ليس مأزقاً . طَلَّقت زوجها بعد سنين عديدة من شراكة
السريـر الواحد ، وتجزم أنها لن تجرَّب الأمر ثانيةً . لديها ابنتان في
السادسة عشرة والثالثة عشرة ، وصبيٌّ في الحادية عشرة . أخت
بيونا وسيتون ، الثالثة الصغرى ذات الإثنيـن والثلاثين عاماً مطلقة
أيضاً . الطلاقُ فسَّقُ الأخوات قشَّرنه والتهمنه جالسات على أحفَّة
أعمارهن ، الموزعة بين عقد ثالث ، ورابع ، من قياسِ السنين .
سيتون ، التي تراجعـت عن السعي إلى تأكيد أن الزواج ليس مأزقاً
بطلاقها ، عادت إلى امتحان نفسها بالبحث المضني لإثبات أن
الزواج ليس مأزقاً ، فتزوجت من جديد . وهاهي بعد إنجاب طفلتين
تستشعر الإنذارَ بعاصفةٍ مَّا :

- ماذا يريد الرجل من زوجته؟ .

«أن تكون بسبعة أجساد» ، ردَّت بيونا .

«ماذا تعنين؟» ، ساءلتها سيتون ، فردت أختها :
- لا امرأة تكفي رجلاً . لا رجل يكفي امرأة .
«لماذا يتزوج البشر ، إذا؟» ، ساءلتها سيتون باستنكار ، فردت
بيونا :

- يختبر البشر ولاءهم ، ويختبرون إرادتهم .
«لم أعرف أن عملك في الكازينو يُلهم الفلسفة» ، قالت سيتون
باطراء خفي في نبر صوتها .
«فلسفة؟» ، تساءلت أختها همساً . «أهكذا هي الفلسفة؟» ،
قالت بنبر فخور في صوتها الرقيق ، السريع الكلمات .
«ربما هي هكذا . توزيع للكلمات» ، ردت سيتون .
«أنا أوزع الأقدار ، وأجمع الأقدار ، في الكازينو» ، قالت بيونا .
«أوزع الورق في لعبة البوكر على اللاعبين ، وأجمع نقود الخاسر
للرايح . أعطيهم الترد ، على طاولة الروليت ، وأجمع النقود . توزيع
أقدار وجمع أقدار . الكازينو فلسفة ، يا أختي سيتون» .
«هذه أول مرة تتحدثين إليّ هكذا» ، قالت سيتون مبتسمة من
وراء كآبتها .

«دائماً أتحدث إليك هكذا» ، تمتمت بيونا مستغربة ما اكتشفته
أختها من حديثها ، فأبدت سيتون اعتذاراً خافتاً :
- لم أكن أسمعك ، في الأرجح .
«اسمعيني الآن ، إذا» ، قالت بيونا ذات الأنف الطويل ،
والوجه المتطاول بوجنتين عاليتين . «لاتصغي إلى وساوسك» .
«ماذا أفعل بها؟ هي هنا» ، قالت سيتون وهي تنقر بأناملها
على صُدغها الأيمن .
«سُدِّي أذنيك ، ودعي وساوسك تثرثر قَدَر ماتشاء» ، ردت بيونا .

وضعت سيتون راحة يدها اليسرى على فمها مبديةً دَهْشاً :
 - أهذه حكمةٌ من تربية الكازينو؟ .
 نهضت بيونا ، في لقائهما ذاك ، منصرفةً :
 - أحسِم الأمرُ الآن؟ .
 «أيُّ أمر؟» ، تساءلت سيتون واقفةً تواكب أختها المنصرفة .
 أمسكت برُذن قميصها :
 - قولي شيئاً ، يابونا .
 فتحت بيونا عينيها البنيتين الواسعتين أكثر من معتادهما ، في
 تساؤل واضح :
 - بعد كل ماقلته لم أعد أعرف ماذا أضيف . أرى نفسي غبيةً
 في هذه اللحظة .
 «كنت فيلسوفة قبل قليل» ، قالت سيتون متشبثةً الأصابع
 بردن قميص أختها ، فردّت بيونا :
 - كان ذلك قبل قليل ، وليس الآن .
 تفاقت وساوسُ سيتون . «قلبي ذكيٌ . عقلي ليس كذلك» ،
 قالت لأختها ، مراراً ، من الهاتف ، في الأيام التالية لاعترافها
 بالوساوس . كانت تبرّر ، بكلماتها ، أنها لا تملك عوناً من عقلها على
 فهم انحدارها إلى تلك الحال ، لكن قلبها واثقٌ من أن زوجها يغذي
 وساوسها بسماد كثير من إهماله لها : «لا يراني» ، تُردّد سيتون .
 «أنا ، أيضاً ، لم أعد أرى نفسي» ، تضيف في مرارة المنكسرة كأنما
 انفرط عقدٌ من الذي تصنعه ، فتناثر حجره وخرزه في نهر .
 نامت الوساس وأفاقت . خرجت وعادت . بردت وتلظت .
 ضحكت وعبست . استلقت واستقامت . تمدّدت وانكمشت .
 سلخت جلودها وارتدت جلوداً آخر . أثمرت ، أخيراً ، ثمرتها

المنتهكة في يوم ميلاد الفتاة ديسا السابع عشر ، بكر أولاد بيونا .
حفلاً صاحب أدار صحن الكعك المحلى بالقشدة على العقول
قبل الأفواه . أولاد سيتون الثلاثة ، وابن زوجها أميلو ، انضموا إلى
أولاد بيونا الثلاثة ، وصديقات ديسا الأثيرات الخمس . بعد إطفاء
الشموع على أغنية الإحتفال الرتيبة أملاً بسعادة الفتاة ، وسعادة
يوم ميلادها ، انتحت سيتون بأختها ، بعيداً عن الأولاد ، في ركن
من المطبخ تحديداً ، محتسيتين ، في أمسيتهما ، جعة باردة .

بادرت سيتون أختها بسؤال مثير قليلاً :

- هل تأملت وجه شأيد ، ابن زوجي ؟ .

«وجه شأيد؟» ، تمتت بيونا . مالت برأسها مسددةً بصرها ،
من باب المطبخ المفتوح ، إلى الردهة حيث الصبي شأيد ، ذو الثلاث
عشرة سنة ، في هيئة يقلد بها شخصاً ما ، والفتيات يتضاكن
قربه . أعادت بصرها إلى وجه أختها :

- وسيم . لن تكون له مشكلةٌ تُذكر مع الحياة .

غمغمت سيتون كأنما تنبه الأخت إلى مافاتاتها من سبب النظر
إلى الصبي . تمتت :

- من يشبه ؟ .

«يشبه أباه» ، ردت بيونا رافعةً حاجبَ عينها اليسرى تساؤلاً .
خفضت سيتون رأسها محدقةً إلى قدح الجعة . تكلمت بلسانٍ
أدار الكلمات إلى اتجاه اختلط على أختها :

- كم بلغت لودي ، ابنة أختنا هايلو ؟ .

«بلغت سنتين . مابها؟» ، تساءلت بيونا .

«باتت ملامحها واضحة أكثر» ، ردت سيتون .

أختها الصغرى هايلو ، طبيبة الأسنان ، المطلقة ، أنجبت من

زوجها طفلاً بات في الرابعة . ثم ألحقت به طفلةً ، بعد طلاقها ، بلغت الثانية من عمرها . لم تصرِّح قطَّ عمَّن يكون من استولدها ملفلتها . ما من أحد يستطيع أن يُقَسِّرَها على البوح ، على أية حال . حبَّلت فاحتفظت بالجنين ، ثم أنجبت الجنين في الشهر الثامن من حبَلها . وهاهي سيتون ، في اختلائها بأختها بيونا ، تُقحم الطفلة في حديث الوسوس :

- من تشبه الطفلة لُودي ؟ .

تراجعت بيونا بظهرها إلى مَسْنَد الكرسي ، في المطبخ . حدَّقت ملياً ، في صمت ذي أسنان ، إلى عيني سيتون البنيتين على سواد غالب ، بأهدابٍ يُلَفَّتُ النظرَ طولُها . انفرجت شفاتها المستطيلتان لحظةً بعد لحظة . تراخى فكُّها الأسفل قليلاً . نهضت . مشت خطوتين حتى باب المطبخ . وقفت تتأمل الصبيَّ شايد . رجعت إلى الطاولة الصغيرة حيث تجلس أختها . حملت قَدَح الجعة . تجرَّعته عن آخره . أطلقت زفيراً مصحوباً بتمتمة تُسَمَّع حروفُها :

- أتمنى أن تكوني منخطئة ، ياعزيزتي سيتون .

«مَنْ في عائلتنا له ذقن ناتئ ، وأذنان شديدتا الإنتصاب؟» ، ساءلت سيتون أختها .

«إبنة هايلو الطفلة» ، ردت بيونا بصوت توثَّق فيه لذاكرتها مالم توثَّقه قبلاً . حدَّقت من جديد إلى عيني أختها تحديقاً ثقيلاً . ردَّدت كلماتها :

- أتمنى أن تكوني منخطئة ، ياسيتون .

«ليتني أكون» ، قالت سيتون . أغمضت عينيها بقسوة : «ليتَ لم يكن لزوجي أميلو ذقنٌ ناتئ ، وأذنان منتصبتان كأذنيَّ

الخفّاش» . نهضت . عمدت إلى خزانة فاستحضرت زجاجة مفلطحة من البراندي ، وكأسين واسعتيّ الجوفين .

«لم أستاذذك ، يا عزيزتي . أأسمحين؟» ، ساءلت أختها الموافقة المتأخرة على اقتحامها خزانة الشراب في المطبخ .

استرسلت المرأتان رشفاً متلاحقاً من كأسيهما ، في صمت لا تخرقه إلا غمغمات بلا حروف ، وهمهمات متأكلة . صخب الأولاد ، في الردهة ، ومرحهم الفائض ، لم يوقفا نزف خياليهما من المطابقات بين سحنة أميلو وسحنة طفلة هايلو . هزت بيونا رأسها بدعوى الخروج من شرود :

- اعتذرت هايلو في آخر لحظة من عدم المجيء إلى حفل ابنتي .

«أوه» ، أطلقت سيتون زفيراً ملجوماً : «كنت سأسألك عنها . ظننتها تأخرت ، لا غير» ، قالت .

«لا . لن تأتي» ، تتمت بيونا .

قرعت الأختان إحداهما كأسها بكأس الأخرى ، نخب طوفان من السعادة للفتاة ديسا ، وعمر من السنين على عدد عصافير القُرُقف في مدينة سارسيدون .

«أين أميلو» ، ساءلت بيونا أختها .

«يزور صديقاً في المهنة» ، ردّت سيتون . أخرجت هاتفها من جيب بنطالها الأسود الواسع . لمست قدّم الجنيّ الجاثم في الآلة فلبّأها مستحضراً ، من فوره ، رنيناً في الطرف الآخر من مطلوب مرادها . أصغت برهةً ، ثم أقفلته : «هاتفه منتحر» ، قالت . أردفت باستياء :

- لماذا يُميتُ هاتفه ؟ .

عينا بيونا البنيتان ، الواسعتان ، ترقرتا مكرراً أثاره الشراب :
- فلنقم بزيارة مفاجئة إلى هايلو .
أوقفت سيتون الكأس ملتصقةً الحافة بشفتيها . أدركت المكر
الذي في صوت أختها . استحسنته :
- مجازفة أن تقودي سيارتك ، ياببونا . شربت كحولاً .
«لن اطلب سيارة أجرة» ، ردت بيونا . «متع قيادة السيارة مع
بعض الثمل» .

سارسيدون مدينة متشددة في تغريم من يقودون مركباتهم ،
بعد شراب كحول ، إن استنطقت دوريات الشرطة أنفاسهم بالآلات
التي لا تخطئ . بيونا حالفها حظها . قادت سيارتها حتى شارع
سكنى أختها هايلو غير البعيد . ركنت المركبة إلى طوار الرصيف .
مشتا ، بعد ذلك ، بضع خطوات إلى باب العمارة . استقلتا
المصعد . قرعتا ، معاً ، الباب المرصود بالرقم الأربعة عشر .
طال وقوفهما ، فأعادتا القرع أقوى . مضت لحظات قبل
سماعهما خطئ في الممر وراء الباب . فُتح الباب موارباً لا يسمح
برؤية أكثر من عينين . شهقت هايلو متفاجئة :
- ماذا جاء بكما؟ .

أمعنت الأختان نظراً إلى عيني أختهما الثالثة المبالغتة . دفعت
بيونا الباب بأناملها دفعاً رقيقاً ، فأبقت هايلو جسدها سداً .
«إنها تُمطر في عمارتكم» ، قالت بيونا سخريّة . «ألن تُدخلينا؟
ابتللنا» .

لمست سيتون كتف بيونا ، مائلةً الجسد قليلاً من أثر الشراب .
تمتت :
- لسنا على الرَّحْب ، ياببونا . فلنرجع .

«ماذا تفعلان هنا؟» ، ساءلتهما هailو بصوت خافت ، مذعور :
«أأنتما سكرانتان؟» .

نفخت بيونا في وجه أختها الصغرى أنفاساً بنكهة البراندي :
«ليس بعد ، يا هailو» ، قالت مبتسمة . «سنسُكّر عندك . دعينا
ندخل» . مالت برأسها مستطلعةً ، من الخصاص الضيق بين دفة
الباب وإطاره ، فوق رأس أختها ، عبورَ شبح سريعاً في عمق
مَسكنها . «مَنْ عندك؟» ، تمتت .

«لا أحد» ، ردّت هailو في ضيق . قلّصت فُرجة الباب كأنّ
ستُغلقه في وجهيهما ، فقاومت بيونا دفعاً كي لا ينغلق . همست
محدقة إلى سيتون :

- عند أختنا رَجُل .

على نحو من تلقاءٍ وساوس سيتون دفعت سيتون البابَ
بكتفها فأطاحت بأختها هailو . دخلت الأختان . عبرتا الممرّ إلى
ردهة البيت الواسعة ، حيث جلس طفلان في خيمة حمراء
لاعبين بدمى عرائس ، ودمى رجال محاربين بالبنادق . لم يعبرا
خالتيهما التفاتاً مذّ ضغطا مربّعاً في كُرة أصدرت غناءً مُرنماً ،
تصحبه ضحكات متقطعة .

كانت هailو في رداءٍ مابعد الاستحمام ، القطنيّ ، الطويل
حتى الركبتين ، الأزرق مخططاً أحمر ، محزوماً بوشاح من قُمّاشه .
شحب لونُها الأبيض ، وارتعشت عيناها بانتقالهما المتسارع بين
وجهيّ أختيهما . بيونا رجعت خطوات فاغلقت باب البيت ، فيما
توجهت سيتون ، باندفاع من بوح وساوسها ، صوب العُرف
تستجلي الرجل ، الذي زعمت بيونا أنها رآته . لم تُفاجأ وهي
تلتقط ، في التفاتة منها صوب المطبخ ، صورة زوجها بتمام جوارحه

الحية ، حافياً منسدلَ القميص ، في إهمال ، فوق بنطاله الرمادي ،
مفتوحَ الفم قدْ بوغت . مدتْ ذراعها اليمنى صوبه : «تعال» ،
تمت . استدارت عائدة إلى الردهة وهو يتبعها . أشارت إلى
الأريكة : اجلسْ . التفتت إلى هailو بالنبر ذاته في صوتها :
«اجلسي» ، فجلسا متجاورين .

هailو ، وأميلو ، كانا مفعمين استسلاماً ، بلا دفاع في
عيونهما ، أو في حركاتهما الهادئة ، أو المشلولة . جلست بيونا على
كرسي فخم بمتكأين وسندٍ ظهر وثير الحشو تحت القماش السميك .
ظلت سيتون واقفة في سترتها الواسعة الرمادية وبنطالها الأسود .
صفقت تسترعي انتباه طفلي أختها . نادى الصغيرة لودي :
- تعالي يا عصفورة الجنة .

هزت الطفلة رأسها بالشعر البني المتماوج ، الكثيف ، رافضةً .
أعادت عينيها عن خالتها إلى دُماها الناطقة إنْ دُغِدِغت خواصرها .
دارت سيتون لتستقر واقفة وراء ظهر هailو . وضعت راحة يدها
على كتفها : «مَنْ تشبه لودي ، يا أختي العزيزة . أتشبهك أم . .» .
صمتت . وضعت راحة يدها الأخرى على رأس أميلو ، الذي مال
بعنقه قليلاً يتفادى اليد فلم يستطع . أكملت المرأة الطويلة ،
المتناسقة ، جملةَها :

- أم تشبه أباهما؟ .

مدَّ أميلو يده اليسرى جانبياً يزيح يد زوجته عن رأسه ،
فتشبَّثت اليدُ برأسه أكثر .

تشقَّق الصمتُ والتحم ارتباكاً بين الأربعة . بيونا بدت شاحبة
أكثر من هailو نفسها ، متراخية الجفون أسىً ثقيلاً في تحديقها
التواصل إلى أميلو . تمت بانكسار :

- يلزمني شراب .

- ارتفع صوت سيتون موبخاً :

- ذؤبى هايلو في أسيد واشربيهها .

رفعت بيونا بصرها إلى وجه سيتون واضحة الرغبة في شراب ،
حقاً . تتبعت حركة أختها وهي ترفع يدها عن رأس أميلو ، ثم
تستدير من خلف الأريكة لتواجه الاثنين : «متى ستتزوجان؟» ،
قالت مبتسمةً . ارتدّ العبوسُ القلقُ إلى سَحنَتها إذ همّت هايلو
بالنهوض : «إلى أين؟» ، ساءلتها بصوت منسحب إلى حنجرتها مع
الشهيق منكهاً باللوعة .

«أنا متعبة» ، تمتت هايلو بلسان منكسر الحركة في فمها .

«اجلسي» ، قالت سيتون لأختها الصغرى أمةً . جلست هايلو
محدقةً إلى وجه بيونا المترهل تحت ثقل البرهة تلك .

انحنت سيتون قليلاً على الطاولة وسط الأرائك الثلاث ،
والكرسيين الفخمين ، الوثيريّ الحشو . لمست تمثالاً نحاساً لفيل
جالس على مؤخرته ، رافعاً يديه وخرطومه إلى أعلى : «لم أر هذا
التمثال قبلاً ، ياهايلو . أهو آخر هدايا أميلو؟» .
«لا» ، تمتت هايلو . «ليس أثرياً» .

حملت سيتون التمثال من خرطومه : «إنه ثقيل» ، قالت .
ابتعدت خطوات عن الطاولة . نظرت إلى بيونا :

- ألا يبدو هذا الفيل أثرياً ، ياأختي؟ .

«لا أعرف» ، ردت بيونا ، معيدةً بصرها إلى وجه أميلو الخالي
من أي أثر للموقف ، كأنما أفرغ الرجلُ وجوده .

وقفت سيتون بالتمثال المعدن في يدها وراء ظهر أميلو . تمثال
من صور العقل في حيلته العريقة ، أو في فخه العريق ، حيث

للمكان ، في حيلة العقل وفخه ، متَّسِعٌ للآلهة التي بلا مزاحمات .
كلُّ إلهٍ يدير كونه في الفلك الآمن - حصن الأكوام كلها : إلهٌ قردٌ .
إلهٌ طاووس . إلهٌ نمر . إلهٌ عجّل . إلهٌ أفعوان . إلهٌ جرادة . إلهٌ بأبعاد
ومن دونها . إلهٌ فيل .

في كل مكان متَّسِعٌ للآلهة بلا مزاحمات ، مُذ يعرف كل إله
سعة طاسته - طاسة الشحاذ ، أو سعة لغته التي يستدين بها من
الإنسان نقودَ خياله ، في تهذيب ، كي يتسوّق غداً الإنسان من
متَّجِر الوجود . سيتون كانت تمسك بتمثال الحيوان الإله - سليل
المعجزات البشرية في كشف الحُجُب عن آلهة في مرايا الشكل
الحيوان . رفعتة عالياً تستطلع ، على قاعدته ، توقيع الصُّناع . لم ترَ
توقيعاً ، أو نقشاً يؤرِّخ بزوغ تلك الكتلة من أمِّها الفلزات النحاس .
هوت بالتمثال على رأس أميلو . رفر الفيلُ الإله بأذنيه فأثار غماماً
رماداً على الجُصور الأخيرة من خيال أميلو . أُجفلت روحه . تخبطت
في ممرات العماء بحثاً عن مَخْرَج نجاة بنفسها . وجدت منفذاً .
خرجت من جسده ، ومن مسكن هايلو في العمارة ، ومن العمارة ،
ومن مدينة سارسيدون ، تجرُّ وراءها ذيلاً من صفقات لم ينجزها
«كاردينال الثُحف الأثرية» ، لكن ربما ينجزها المتَّجِرون بالأرواح
الأثرية في منعطفات السماء .

كمِثْل روح أميلو المنقذفة مصعوقةً ، انقذف جسداً بيونا وهايلو
واقفتين مصعوقيتين ، مشلولتي اللسانين استهوالاً . تقوَّستا منحنيتين
كلُّ بيدٍ على فمها مكذبةٌ ما ترى . قدما أميلو ارتعشتا قليلاً
باستنفاد العصب فيهما آخر استعاراته الحية ، فيما أعادت سيتون
التمثال المدمى القدمين جالساً بقاعدته على طاولة الردهة .

استعادت بيونا ، باقتراب الطفلين في حالٍ بين الفضول

والخوف ، لسانها ناطقاً نطقاً يشقُّ الكلمات :
- ماذا فعلت ؟ .

بدت سيتون متهدلة الوجه ؛ متهدلة الكيان ؛ متهدلة الصمت
تستعرض على قلبها سيرة يدها ، التي هوت بالتمثال على رأس
أميلو . شهقت بيونا باستعادة أنفاسها سياق الهواء متصلاً في
رئتيها . حدقت إلى أختها الصغرى الممزقة اللون :
- لماذا لم تقتلي هايلو ، ياسيتون ؟ .

نقلت سيتون بصرها بين وجهي أختيها . تمتمت :
- قتلتُ الخنزير .

«اقتلي العاهرة» ، صرخت بيونا ناظرة إلى الطفلين مرتجفين في
تحديقهما إلى رأس أميلو المهشم . أمسكت بصُدرة رداء هايلو
القطني . جذبتها ثم دفعتها ساقطة فوق جثة القتيل . قبضت
براحتها اليمنى على خرطوم التمثال . رفعته عالياً تتوعد به أختها
الصغرى برهة . تراجعت عن تهديدها . التفتت إلى سيتون . قرّبت
تمثال الفيل الإله من وجهها مزمجرةً بنبرة طاغية الحسرة :
- لماذا قتلت أميلو وليس العاهرة ؟ .

تراخى ذراع بيونا بالتمثال . غمغمت على نحو منتحب :
«أميلو» . بدت كأنّ ستسقط ، لكنها دارت على نفسها نصف دورة
لتنهال بالفيل النحاس على جبين هايلو . كررت الضربة . قوس من
الدم تتابع قطرات من قاعدة التمثال في الهواء . نهضت هايلو عن
الأريكة بعد سقوطها . دارت عيناها في وقبهما دورة النظر إلى فراغ
أبيض . تراجعت حتى صدمت طفليها المذعورين بوجه في قناع دم .
بسّطت ذراعيها على جانبيها كأنها تدفع عن نفسها جدارين ينطبقان
عليها . خارت جاثية قبل أن تهوي بصدرها على الأرض بلا حراك .

عويلٌ منكسر من حنجرة سيتون مزَّق أرجاء الردهة . اندفعت ملتحمةً بأختها بيونا تحاول سلبها التمثال . تعاركتا يائستين عراكاً لا تستحكم إحداهما الأخرى . بيونا جاهدت أن تنتزع ذراعها الحاملة تمثال الفيل الإله من يد سيتون ، وجاهدت سيتون أن تنتزع التمثال في رغبة أن تضرب به رأس أختها على قتلها صغراهما هايلو . دارتا متعانقتين . تبادلتا عضاً على عنقيهما مصحوباً بصراخ الطفلين . تراختا متخدرتَي العضل ، مستنزفتَي الأنفاس في الرثات . اختنقتا أو كادتا . جثتا أرضاً إحداهما قبالة الأخرى على عياطٍ من وراء باب الشقة أطلقه بعض جيران هايلو متذمرين ، متهددين ، ومتسائلين : «ماذا يجري؟» .

في جناح النساء من سجن جبل آييانو الشرقي ، بعد افتراق طويلٍ لا تكلم إحداهما الأخرى ، اقتربت بيونا ، يوماً ، من سيتون الواقفة أمام سياج الشرفة المديدة ، المطلة من صخر الجبل على الشلالين وفروعهما . استندت بصدرها إلى القضبان الحديد على مقربة من أختها . أطلقت جملةً من بين شفثيها المستطيلتين لاتدري كيف ابتكرها خيالها في تلك اللحظة :

- أشمُ رائحة الذهب .

التفتت سيتون إليها بعينين خاليتين من حقد أو حَنَق :

- لسقوط مياه الشلالين على الأرض رائحةُ الذهب .

اقتربت بيونا من سيتون أكثر . أشارت بيدها إلى الأفق منقسماً على نفسه :

- أترين السماء فوق الفرع الجنوبي من نهر جون؟ إنها رمادية . لكنها زرقاء فوق الفرع الغربي .

لم تعقّب سيتون على الملاحظة ، بالرغم من تحديقها المتصل

إلى وجه بيونا ، التي تحيَّنت لحظة الهدوء الثقيل :
- ماذا كنتِ ستفعلين لو انتزعتِ التمثال من يدي ، ذلك
اليوم؟ .

«كنت سأقتلك» ، ردت سيتون .
غمغمت بيونا بلا نطق ، ثم ترجمت غمغمتها :
- لبيتك فعلت .

تراجعت سيتون عن سياج الشرفة جالسةً على مقعد حجر ،
نصف قوس ، اقتعدت طرفيه نساءً أخريات . تراجعت بيونا بدورها
واقفةً أمام أختها :

- ماذا لو أعرفت لكِ شيء لن تحتلميه ؟ .
«أتريدين استشارتي؟» ، ساءلتها سيتون .
«لا» ، ردت بيونا . «عندي مالم يعد يعينيني أن يظل سرِّي
وحيدي» .

«لماذا تتوقعين ألا أحتمله؟» ، تساءلت سيتون ، فردت بيونا :
- لأنك لو عرفت به ، ذلك اليوم ، لأكلت يدي كي تنتزعي
التمثال مني وتقتليني .

«ألن أسعى إلى قتلِكَ الآن لو بُحتِ بسرِّكَ الذي لا يُحتمَل؟» ،
تساءلت سيتون ، فردت بيونا :
- لا أظنك ستقتلين ثانيةً .

«حسناً ، جرِّبيني» ، قالت سيتون ذات الذقن الموسوم بنُقرةٍ
عميقة فيه .

«كانت لأميلو علاقةٌ بي» ، تمتمت بيونا متطلعةً من عليائها ،
وقوفاً بعدُ ، إلى وجه أختها الجالسة . صممت تستجلي رنينَ
كلماتها في السقوط على قلب سيتون .

«أنتِ وأميلو؟!!» ، ساءلتها سيتون بصوت جاف . حدّقت
طويلاً من وجهها المستدير إلى وجه بيونا المتطاوّل ، المرتفع
الوجنتين .

انحنّت بيونا على أختها في تذللٍ :

- اخنقيني بيديك .

«لا ذراعان لي . لا يَدانٍ . لا قلب» ، تمتمت سيتون في
انكسار . أردفت متسائلةً :

- منذ متى كنتما على علاقة؟ .

«قبل أكثر من ثلاث سنين . ألسنة الأخيرة لم تكن على
مايرام . قلب أميلو وجسده لم يكونا على مايرام . كان واضحاً أنه
يهجرني» ، ردت بيونا . «أولّ مرة أخبرتني بوساوسك أدركتُ أنك
تستدينينها مني . هي كانت وساوسي أيضاً . أمّا ما لم يخطر
ببالي . .» ، سكّنت . استقام جذعها بعد الانحناء على أختها .
استرسلت هامسةً : «هايلو؟ لماذا هايلو؟» . تراجعت خطوة إلى الوراء
تحصر وجهَ أختها تحديقاً :

- كم تكرهيني الآن؟ .

«لماذا قتلتِ هايلو؟» ، ساءلت سيتون أختها ، فردت الكبرى
سناً :

- لم أزل أحب أميلو .

نهضت سيتون في تمهّل عن المقعد الحجر . مشّت صوب حاجز
الشرفة المديدة بعينين على طيور ارتفعت من الأسفل السحيق
لا هيةً . ألصقت وجهها بقضيب أفقي . جاورتها أختها فاعلةً مثلها .
زحفت يد سيتون على القضيب الحديد حتى لامست يدَ بيونا .
احتوتها في رفق :

- أكرهك .

يومَ دخلت الأختان مكتبَ راووت الدهليزَ بادرهما الرجلُ الشيخ بكلماتٍ ليست على مقاس خياليهما . كان ينظر لآليهما بل إلى رسوم القروء في عراكها الخالد :

- هذا امتنانُ الرمادِ الهَرَمِ للرمادِ الفتِيّ .

تطلعت سيتون وبيونا ، بدوريهما ، إلى الرسوم متمرّغةً في صمت اللون ، قبل أن تنقلا بصريهما إلى راووت مائلاً بصوته المرتفع الكلمات ، والمنخفض بها في الآن ذاته : «أنا الرماديُّ» ، قال . وضع راحة يده اليسرى على صدره معتذراً :

- لاكرسيٍّ آخرَ هنا .

«أنت الرماديُّ؟!» ، ساءلته بيونا بصوتها الرقيق مستفسرةً .

ابتسمت من غرابة تعريفه لنفسه .

«هذا ماقلته . نعم» ، ردَّ راووت وهو يفتح الكتاب الضخم على منتصفه .

«وأَيُّ لون نحن؟» ، ساءلته بيونا ممازحةً .

«أنتم اللون الذي يزداد كلُّ شيء فيه هَرَمًا : الفكرة . الرغبة . الخيال . وحده الخوف يزداد شباباً في اللون الذي هو أنتم» ، ردَّ راووت .

«تعني نوعنا - نحن البشر - ياسيد راووت» ، قالت بيونا .

«سألتك إن كنتَ الرماديَّ فأَيُّ لون نحن؟» .

«سأخبرك حين أتذكر الألوان الأخرى» ، رد راووت .

«لِمَ نحن هنا ، أنا وأختي ، ياسيد راووت؟» ، ساءلته سيتون من بين شفطيهما المكتنزتين .

أطبق راووت الكتاب الضخم . نظر يساراً إلى رسوم القروء .

بلغت قافلة الأنفار العشرين - في رحلتها إلى جبل آييانو الغربي باعتذارات في ثيابها التي بلا جيوب - أول السفح السهل مرقىً . صعدته بتمهّل على صوت الدراجة النارية متأكلاً في عجيجه على الصخور السود . لم يكن المسلك وعراً بعدُ . كرة راسيد صدمت بعض الحجارة المنتصبة بقذف من يديه ، ثم ارتدت إليه فالتقطها . أمسكت أرديلا بذراعه كأنما - هي القوية الهيئة - ترضي نداءً شبابه بتظاهرها الاعتماد عليه في الصعود ، فسارع دارووم إلى شَبْك ذراعه بذراعها الأخرى . ابتسمت أرديلا رضىً . ابتسمت دالومي الماشية إلى قُرب منها . ساءلتها بصوتها الخفيض ، الهادئ ، على نحو ليس مدخلاً ، في الأرجح ، إلى محاورة :

- كيف كانت الحكمة ، ياسيدة أرديلا ، قبل ظهور الإنسان؟ .
مدت أرديلا عنقها قليلاً من الجهة اليسرى لصدر دارووم ، كي تحصر وجه دالومي ببصرها . تساءلت بنبرة استغراب :

- الحكمة قبل ظهور الإنسان؟! .

«نعم» ، أكدت دالومي المعتدلة الطول ، الممتلئة ، سؤالها .
«ياسيد ماهاون» ، نادى أرديلا معلّم الرياضيات يسبقها بخطوات ، محدثاً التوأمين ، فالتفت إلى الوراء . انتظر أن توضح المرأة سببَ ندائها .

«كيف كانت الحكمة قبل ظهور الإنسان؟ سأبني قضية للدفاع ، في المحكمة ، عن غدر الحكمة» ، قالت أرديلا .
«كانت في عهدة الحيوانات» ، ردّ ماهاون . «أجلبي الديناصورَ شاهداً إلى المحكمة» .

أعادت أرديلا ببصرها إلى دالومي : «أهذا جواب مقنع؟» ،
ساءلتها ، فردت دالومي المضمومة الشعر الأحمر ضفيرةً :

- كانت نظيفة قبل ظهور الإنسان ، وباتت قذرة بعد ظهوره .
«الحكمة نفسها تعويضُ قدر من مخالفات الوجود للقواعد» ،
قال ماهاهون .

«أقرأت كتباً غير الرياضيات ، ياسيد ماهاهون؟» ، ساءلته
دالومي ، فردَّ ماهاهون مبتسماً :

- قرأت كلَّ ماقدرتُ الحصول عليه من كتب عن الله .
«كثيرةٌ كانت قراءاتك ، إذاً» ، قالت دالومي ، فعقَّب
ماهاهون :

- كنتُ على وشك أن أكون ممن أغلقوا الحياة عليهم بأبواب
ورق .

«أبواب يمكن تمزيقها ، على أية حال» ، قالت دالومي . التفتت ،
استطرداً من إثارتها المحاورات على نحوٍ مستنطقٍ ، أو لاهٍ ، إلى
بيتاليا الطويلة . ساءلته :

- ماذا تعلَّم الكتبُ ، ياسيدة بيتاليا؟ .
فوجئت بيتاليا بسؤال دالومي . مطَّت شفتها السفلى ،
وأغمضت عينها اليمنى المستديرة :
- لاشيء .

«ماذا تعلَّم قيادةُ سيارةٍ أجرةٍ ، يابيتاليا؟» ، ساءلها ماهاهون ،
فردت المرأة ذات الفم الصغير :

- تعلَّم دفع النقود بحسب الدقائق ، وتعلَّم كراهية الوقت ،
وتعلَّم العبودية ، وتعلَّم استراق النظر على الركاب ، وتعلم
الحقد .

«ماهذا يابيتاليا؟» ، تساءلت دالومي رافعةً صوتها الهادئ
قليلاً . «لماذا اتَّخذتِ سيارةَ الأجرة مهنةً؟» .

«لأنني أحب النظر ، في المرأة الصغيرة أمامي ، إلى الجالسين على المقعد الخلفي» ، ردّت بيتاليا .

«ما الممتع في ذلك؟» ، ساءلتها دالومي ، فردت بيتاليا ذات الصوت المتأكل من أثر الكحول القوية فيه :

- ممّتع أن أراهم ضئيلين ، يرتدون ثياباً لاتناسبهم .
مساء يومهم ذاك ، جالسين بتفرّق على السطح المتناثر الصخر ، إذ لم يجدوا مكان ممهداً يسعهم حلقة أجمعين ، رفع جورني الشيخ صوته :

- هل حلم أحدكم حلماً ملوناً منذ أول السير في هذه الرحلة ؟ .

«أنا» ، ردّ سولكي الطويل الممتلئ ، ذو العين اليسرى الأصغر من اليمنى .

«ماذا كان حلمك؟» ، ساءله جورني ، فرد سولكي الأحمر البشرة منمّشها :

- لم أعد أتذكر تحديداً . ربما كان حلماً عن كلاب لها نباح برتقالي .

ضحكت بيونا ضحكة متشظية كضوء المصباح متشظياً في ارتطامه بعوائق صخور من حوله :

- ظننتُ أن الخاسرين في مقامرات الكازينو وحدهم ينبحون نباحاً برتقالياً .

«حبذا لو باحت سيّدة بحلم» ، قال ماهاهون ، فأجابته دالومي متطرّفة :

- أحلامي واسعة إلى حدّ لا يتسع لها سرّد .
«وأنا كذلك» ، قالت روثا العريضة صفحة الوجه ، الصهباء

الشعر ، فأكدت ياروزا ، بدورها ، حال أحلامها المماثلة اتساعاً
لأحلام المرأتين :

- أصبح مفقودة ، ضائعة ، في كل حلم بسبب سعته ، منتظرة
أن يعثر عليّ أحد .

صفرت بيتاليا مقاطعةً :

- ألا أحد سواي يحلم أحلاماً ضيقة ؟ .

« كم هي ضيقة ؟ » ، ساءلها جورني في خُبث ، فردت :

- كجرح بشفرة .

« دعونا من أحلامكن » ، قال ميراس . « ألدی الأختين سيتون
وبيونا حكاية تروى ؟ » .

ألقت بيونا بعض الأعشاب الجبلية إلى النار الصغيرة موقدةً
في حلقة متكسرة من سبعة أنفار :

- وضع ملكٌ تاجاً صغيراً على رأس ابنه البالغ خمسة أعوام .

« ستكون وريثي » ، قال له ، فالتفت الطفل إلى قطته . وضع التاج

على رأسها . غضب الملك . قتل القطّة متشائماً بضربة من أعلى

تاجه ، ذي المسنّات المنتهية بفصوص اليواقيت ، والجواهر .

« أليس الأفضل ، ياسيدة بيونا ، أن يحتبس الملكُ القطّة أياماً

حتى تجوع ، فيطلقها على ابنه فتأكله ؟ » ، تساءل سولكي ذو الأنف

المرتفع القصبة مماحكاً .

« ربما إن كنتَ من يروي الحكاية ، ياسولكي » ، أجابت بيونا .

أردفت : « أنت دموي » .

« الحكايةُ الأجمل حكايةُ دموية » ، قال ميراس .

« الحكايةُ الأجمل حكايةُ ترفيه عن فقراء » ، قالت روثا

المتخصّصة في صباغ الشعر .

«هم أحياءٌ موتى مرفّهون ، بالطبع ، ياسيدة روثا . لاثحوجهم
حكايات عن طبيين وأشرار» ، قال الدليل سادوك من موضع تحجبه
صخرة . «هم أنفسهم حكاياتٌ ترفيه عن البؤس . الفقراءُ مزاجٌ
مريحٌ» .

عاد ميراس إلى توصيف اختياره ثانية :

- الحكاية الدموية هي الأجل .

«أفضل حكايات آباء يزوجون بناتهم من أصدقائهم هم» ،
قالت بيتاليا ، فاعترضت ياروزا :

- الأجل هي حكايات الجنون .

«ماالجنون ، ياسيدة ياروزا؟» ، ساءلها جينتالو مدرّب الرقص
الرياضي ، فردّ ماهاون قبل أن ترد المرأة طبيبة الكلاب ، ذات
الوجه الرقيق العصبي :

- الجنون هو النهاية التي يسرّها جمالٌ أخرس .

غمغم ميراس بصوته المتصنّع نعاساً :

- فلنعدّ واقعيين . الحكاية الأجل هي الدموية : التماذي في
الذبح . التماذي في تقطيع الجثث وأكلها . التماذي في الخيانة .
التماذي في الإهانة . احتقار مَنْ يستأهل ومن لا يستأهل .
اغتصاب العائلة لأفراد العائلة . التماذي في تكريم التاريخ .

«التاريخ حمار الإنسان» ، قال ماهاون ، فعقّب ميراس :

- أتعرف عدد الحكايات عن الحمير؟ تفوق قصص الأنبياء ،
والملوك ، والشحاذين الحذّاق ، والجبابة . الحمارُ مثلُ عقلانيّ
أخطأت الخرافة الطريقَ إليه . الحمارُ خرافةُ الحقيقة .

صرخ جورني من موضعه معترضاً ذلك الإستطراد المجحف ،
الذي قاطع به البعض حكاية بيونا :

- عودي بنا ، ياسيدة بيونا ، إلى الملك وقطة ابنه .
«هذه حكاية يائسة» ، عَقَبَتْ ياروزا على طلب جورني ،
فتساءلت بيونا :

- ما اليأس فيها؟ .

«طريقة سرديك للحكاية» ، رَدَّتْ ياروزا .

«إطمئني إذاً . لن أزيد يأسَكَ» ، قالت بيونا .

«لستُ يائسة» ، تَمَتَّتْ ياروزا ذات الشفتين النافرتين .

تَحَسَّستْ بطنها البالغَ شهره الثالث من حَبَلها غير الظاهر . خَفَضَتْ
بصرها إلى حيث وضعت يدها . كَلَّمَتْ الجَينَ :

- لا تَقلُقْ . لستُ يائسة .

نهض جورني عن الأرض جالساً فوق صخرة ، مرسلأً بصره
إلى البعيد حيث أنبعثت نارٌ خفيفة الجدال كأنما على صخرة عالية
وليس بين الصخور كمِثْل نارهم : «هاهم يتلصَّصون علينا» ، قال ،
فلم يوافقهُ الشاب رابكين :

- لو أرادوا التلصَّص عليك لاقتربوا . إنها المسافة نفسها بين
نارهم ونارنا كلَّ ليلة .

على نحو مفاجئ رفع جورني الشيخ ، الهادئ ، صوته بغياطٍ :

- هووو . أيها المبشُّرون .

استوى ميراس قاعداً بعد تمدُّد :

- مابك ، ياسيد جورني؟ لِمَ تَقْدِيرُكَ أَنهم مبشُّرون؟ .

التفت جورني إلى رابكين : «قد يكونون من طائفتك» ، قال .

«أترافقني؟ فلنأخذِ المصباح معنا» .

«خُذْ داروم معك ببريد الخلود» ، رَدَّ رابكين ذو الصوتِ النَّبْرِ

الوعظ .

«استريحوا»، قال ميراس متصنعاً نعاساً . تمدّد من جديد .
الهبّ خيالهم إذ رمى الكلمات اللاحقة من لسانه إلى غدير
أقدارهم :

- أنا وسادوك راجعان صباحاً إلى جبل آيايانو الشرقي .
كان الخبر متوقعاً مُذَّ ينتظرون التبليغ من الدليلين أنهم باتوا في
عُهدة أنفسهم لاسواها للعبور بالرحلة ، بلا دليل ، إلى غايتها
الركيكة مرسومة في صوت راووت : «قدّموا اعتذاركم» . لكنهم ،
في البرهة التي أعقبت تصرّيح ميراس ، ارتعشوا . قلبوا صوّر
الممكنات طويلاً كتقلب أجسادهم حتى الصباح .
أفاقوا بأفواه فيها مذاق الغامض قوياً .

الفصل السابع:

جورني

«مَنْ قَتَلْتَ ، ياسيد جورني؟» ، ساءلت ياروزا الرجل الشيخ ،
الأكبر عمراً في أنفار الرحلة ، في مسائهم الأول بلا ميراس
وسادوك ، اللذين غادرا صباحاً .

لمس جورني شاربیه الرفيعين ، الرمادين ، مستشيراً شفتيه أن
تنطقا فلم تنطقا . اكتفى بالقاء نظرة طويلة على وجه طبيبة الكلاب
ياروزا الرقيق ، العصبي سَخْنَةً .

«أنا سألته أيضاً» ، قال رابكين . «أرجّح أنه قتل عشر نساء
وأطفالهن في يوم واحد» . ابتسم من نظرة الرجل الشيخ التي لا تُرى
في ظلام المكان ، بين صخور السفح .

النيران الأربع ، التي توزع حولها الأنفار الثمانية عشر ، لم تفتح
ثغرات في السواد الموصد بالحجارة منتصبَةً حَرَساً على كمالها
الكثيم . حالُ السماء فوقهم كانت على ثباتها ، بعدُ ، منذ رحلتهم
أواخر الصيف . كانت النجوم على مزاجها ذاته كأنها في اليوم
الأول من مغادرتهم ساحة سجن آييانو الشرقي . كان الهواء على
الطبع ذاته منعشاً ليلاً .

«سيتدبّر لكم الجبلُ غداءً» ، قال ميراس صباح يومهم ذاك ،
متهيئاً مع قرينه الدليل سادوك للعودة بدراجتهما النارية إلى محطة

نقل المنتظرين خروجاً باعتذاراتهم إلى القتلَى - قاطني معسكرهم
في جبل آييانو الغربي . «شجر كرز في الطريق . شجر تفاح . تور
بري . فُطر لا يقتل . أم لن تجوعوا ربما؟» ، تساءل مبتسماً من بين
شفتيه المنفرجتين . «ستجدون ، كل صباح ، على شفاهكم ندي
يُروِّي . لن تعطشوا» . التفت إلى سادوك :

- ماذا كان طعام آخر قافلة سبقت هؤلاء؟ .

«كيف لي أن أعرف ، ياميراس؟ لم ألتق أحداً منهم ليخبرني
عن قائمة الطعام دسَّها الجبلُ في جيوبهم» ، ردَّ سادوك ساخراً .
غمغمت ميلادين القصيرة ، البدينة ، بصوتها المتردد كأنها
تدرِّبه على الكلمات الأنسب اختياراً :

- أليس الأمر كله ، على جدِّته ، أشبه بمزاح ثقيل؟ .

«مزاح؟ أيَّ أمرٍ تعنين؟» ، تساءل سادوك بصوته العالي النَّبر .
«هذا الذي نحن فيه ، ياسيد سادوك : أن نتابع وحدنا ، بلا
دليل ، صعود الجبل الذي تبدو كل جهةٍ فيه على صورة الجهة
الأخرى» ، ردت ميلادين .

«لاتعقيد إذًا» ، قال سادوك الشاحب البشرة . «جهات الجبل
متشابهة ، وهذا يوفر عليكم اختبارَ الخيارات وامتحانها . اصعدوا .
لاتفكروا في المسالك الصواب أو المسالك الخطأ» .

دفعت بيتاليا حجراً صغيراً بقدمها فدحرجته :

- لاتعقيد ياسيد سادوك . نعم . لذا لا يرجع أحدٌ من صاعدي
هذا الجبل .

«ماهذا التأويل المُحِيط ، يابيتاليا؟» ، ساءلها سادوك ذو اللحية
القصيرة السوداء ، الرمادية العُنْفَقَة ، بصوت تصنَّع أسيَّ .
«لم تلتق أحداً عائداً قط . أنت قلتها ، وأنا أوَّل ماتقوله ،

لا أكثر» ، ردّت بيتاليا . نظرت عالياً إلى السماء منفرجةً ثمانية شعاب فوق القمم الثماني :
- كلهم مفقودون .

مشى سادوك خطوات ليصير إلى جوار الدراجة النارية حيث يقف ميراس . تتبعته نظراتُ الأنفار الثمانية عشر كلَّ حركة من حركات الدليلين ، في تشبُّث أخير بهما من أبصارهم المغرورة حيرةً . ماهاهون ، الذي بدا أقلَّ انتكاساً بعد حالهم في الليل متماسكين ظاهراً ، متخبّطينَ قلوباً ، انبرى يذوّب موقفَ الوداع في ماءٍ من تشاغلِ الكلمات بالكلمات :

- متى بدأت حرب الثمانمائة عام ، ياميراس ؟ .
«لم تنته بعد» ، ردّ ميراس ، وهو يضع خوذةً على رأسه الحليق لم يعتمرها طوال قدومهم إلى جبل آييانو الغربي .
«سألتك متى بدأت؟» ، كرر ماهاهون قوله .

استعرض ميراس الأنفار ببصره ، ثم سرَّح عينيه إلى الأعالي :
- بدأت حربُ الثمانمائة عام في أيِّ وقت يظن إنسانُ أنها بدأت ، وستستمر ثمانمائة عام من تلك اللحظة في تقدير بدّئها .

«أنعشتَ ذاكرتي ، ياميراس» ، قال ماهاهون ذو الحنكين البارزين . نقر بأنامله على صدغه الأيمن : «سجِّلْ هذه الحرب كله هنا» . أدار بصره على جميع الأنفار : «ستكون لي لغة حرب الثمانمائة عام في غياب صديقينا الدليلين» .

«لا تنسَ التفاصيل» ، قال ميراس . «لاتنسَ قواعدَ التقديم والتأخير في الوقائع . لاتنسَ أفعالَ المستقبل الناقص» .
«ما أفعالَ المستقبل الناقص؟» ، تساءل ماهاهون مبعداً نظارته عن عينيه ، متفرساً في زجاجتيها المستطيلتين .

«الوقائع التي تحتل أربع خواتيم» ، ردّ ميراس .
«ربما أسأت فهمي ، يا ميراس . قلتُ ستكون لي لغة حرب
الثمانمائة عام ، لا المعرفة بوقائعها ، أو سردها على أحد . لم أسمع
من سواك بهذه الحرب» .

«اللغة» ، نفسُها ، وقائعُ حروب ، ياماهاون» ، عقّب ميراس .
«أحببتني . لأستطيع اللحاق بما تعرف ، يا عالمَ السجون» ،
قال ماهاون معترفاً بقصوره عن مواكبة خيال ميراس ، فاجتهد
الدليل في توضيح لم يَبْدُ توضيحاً :
- الوقائع في حرب الثمانمائة عام كالرياضيات ، ياماهاون .
الأرقام فيها تتفاقم ضخامةً بعد الصّفر - سيّد احتمالات اللاشيء
الذي هو كل شيء .

«هذا نزولٌ إلى الجحيم ، ياميراس» ، قال ماهاون ، فعقّب
ميراس :

- بل صعودٌ من رفاية في الجحيم إلى رفاية في الجحيم .
«ما الجحيم؟» ، تساءل ماهاون ، فردّ ميراس :
- أن تكون وحيداً مع الله لم يُوجدْ سواك بشراً آخرون .
ثبّت ماهاون نظارته على أصل أنفه . قرع بقبضته قرعاً خفيفاً
على العجلة المطاط للدراجة النارية :
- هل الإنسان محظوظٌ بوجود الجحيم ، أم الجحيم محظوظٌ
بوجود الإنسان ، ياميراس؟ .

«هذا سؤال المسألة الأولى في الرياضيات» ، ردّ ميراس .
«ما الأكثر شقاءً؟» ، تساءل ماهاون ، فردّ الدليل :
- اللانهائي .

«ما الأكثر سعداً؟» ، تساءل ماهاون ، فردّ ميراس :

- اللانهائي .

تقدم التوأمان ديرو ، ويومار من سادوك . ساء لاه بصوتهما
الزعيق الخافت في إشارة إلى ميراس وماهاون :
- ما الذي يتحادثان فيه ؟ .

«يحلان بعض المسائل الرياضية قبل رحيلنا» ، ردّ سادوك .
صعد مقعد الدراجة النارية . أدار محرّكها الناطق بالحروف الدخان
المعدن في اشتعال جوفه ، فاعتلى ميراس المقعد ، بدوره ، إلى جوار
سادوك . مال بجذعه من الباب الذي لادفّة له . وجّه بصره وصوته
إلى ماهاون :

- لا تنظر إلى عينيّ الشر . إنه لا يحب التحديق إليهما .
على مهل حذر ابتعدت الدراجة النارية ، متعرّجة السير بين
صخور السفح . شهيّق وزفير لامسموعان واكبا فراق الدليلين من
رئات الأنفار الثمانية عشر مستسلمين للصباح الأشعث لم يسرّح
شعر حقائقه بعد . ضموا تحت أباطهم لفافات الجلود الرقيقة ،
المتخذة بسطاً وأغطية للنوم ، وكذلك الوسائد الأسطوانية الصغيرة ،
الليّنة ، الخفيفة إسفنجة . تبادلوا نظرات من تخمين المجهول
للمجهول . تحركوا صعوداً .

كل اثنين ، أو ثلاثة من الأنفار الثمانية عشر تجاوزوا في
سيرهم ، ثمّ لم تتسع الممرات بين الصخور أكثر من ذلك . أعشاب
قوية الجذور اكتنفت أطوار المسالك الأبقار الوحشية لأثر لعبور
فيها . شجر متناثر طالع الصاعدين فاجتازوه .

سُمع جلياً لهاث التوأمين الملتحمين جسداً . حثتهما بيتاليا
بصوتها المتأكل من أثر الكحول القوية فيه : «كان عليكم أن تجلبا
زورقاً ومجذافين» ، قالت تمازحهما . عاتبت نفسها في سخرية : «ربما

كان عليّ أن أجلب سيارة الأجرة معي . لماذا لم أطلب من راووت السماح لي بجلبها؟» .

«في الرحلة القادمة لاتنسي ذلك ، ياسيدة بيتاليا» ، قال يومار - النصف الأيسر من جسد التوأمين الواحد .

«أتعني أنني ، ربما ، سأقتل شخصاً آخر ، يايومار؟» ، ساءلته مبتسمة . وزّعت بصرها على بعض الأنفار :
- مَنْ تقترح ؟ .

«نصفي الآخر . أنقذيني من هذا النصف اللامحتمل» ، ردّ يومار بإشارة من يده إلى توأمه ديرو .

صفعه ديرو صفعاً بلا عنف . انتهره :

- أنت محظوظ ، يايومار .

«لماذا لم ترجع مع الدليلين؟» ، ساءله يومار ساخراً ، فردّ ديرو همساً :

- سأخنقك ذات يوم وأنت نائم . اخذرني .

سرّع يومار مشيه بغتةً في استياء من توأمه ، الذي تعثرت قدماه فترنّح جسدهما الواحد . دفع أحدهما الآخر من جهة الشقّ الذي له . أمسكت بيتاليا بظهر قميصهما ضاحكة :

- ظاهرٌ أن وحشة الرحلة لم تبدأ بعد .

سمعها داروم القريب منها ، مجاوراً دالومي وماهاون . رفع صوته البحة الخفيفة :

- هذه ليست رحلة ، ياسيدة بيتاليا . نحن مغلفات فارغة لارسائل فيها .

«أعلمتُك مهنّتُك كساعي بريد مالم يعثر نبيٌ على وصف كوصفك؟» ، ساءله ماهاون . ردّد :

«مغلّفات فارغة . نعم . نسي الجميع تضمينها الرسائل التي كتبوها» .

«أأنت مؤمن ، ياماهاون؟» ، ساءلته دالومي ، فتأملها معلم الرياضيات ، جانبياً ، في تحديق طويل :
- سُئلتُ هذا السؤال قَبْلاً ، مطلعَ الرحلة . جوابي هو ذاته :
نعم . أوْمن بإله الأفعال الأكثر قسوةً .

«الإيمان تعزيزٌ لشعور الحلم بفشله» ، قالت دالومي ذات الفم الممتلئ الشفتين ، والشعر المصبوغ أحمر .

طار دُرَّاجٌ من وراء سرخس قصير بخفقٍ قوي من جناحيه .
توقف ماهاون يتقرى ظلالَ الكلمات في عيني دالومي . تساءل :
- شعور الحلم؟!!

«نعم» ، ردّت دالومي . «للحلم مشاعر مثلنا ، وأعضاء كأعضائنا . الحلم يعضُّ ، ويعتصر ، ويلتهم ، ويركُلُ ، وينظر ، ويرتدي الثياب التي يشاء . قد يكون قوَّاداً ، أو راهباً ، أو صيدلياً» .

تنصتت سيتون إلى لسان دالومي المسترسل . تطفّلت على الحديث بإضافة :

- أو مدرّبٌ رقص ، أو معلم رياضيات ، أو سائق سيارة أجرة .
«هه هه» غمغمت بيتاليا : «مالكِ تذكّرين سائقي سيارات الأجرة ، ياسيتون؟» .

أشارت سيتون برأسها إلى دالومي :
- اسأليها .

حكّت بيتاليا رأسها مُكْتَنَفاً بالشعر الأشقر ، الطويل ، المتماوج ، تستثير الأسئلة عالقة تحت فروتها :

- مارحلة الاعتذارات السخيفة هذه؟ .

«كوني ممتنة لهذه الرحلة ، يا بيتاليا» ، قال ماهاون . «أنت خارج السجن الآن ، وذلك يكفي» .

لم تبدُ بيتاليا مقتنعة وهي تنقل لفافة الجلد والوسادة من إبط إلى إبط :

- لهذه الرحلة نكهة الإقامة في سجن مفتوح .

«سجن مفتوح أفضل من سجن بجدران» ، قالت سيتون ، فاحتدمت بيتاليا قليلاً :

- مافكرة هذه الرحلة أساساً؟ من هو راووت وقروده؟ .

«راووت» ، قال داروم مقرباً أكثر لما اتسع المعبر بين الصخور .
أضاف :

- أسأل أحد منكم نفسه من هو راووت؟ .

«هو جزء من السجن ، فلم نسأل أنفسنا من يكون» ، ردّ ديرو التوأم النصف الأيمن من جسد التوأمين الواحد .

«لاشبه لمكتبه بجزء آخر من السجن . دهليز ، ورسوم قرود ، ومنضدة ، وكروسي واحد ، وكتاب ضخمة فارغ» ، قالت بيتاليا ، فسألتها دالومي :

- أكان الكتاب فارغاً؟ .

«يفتحه راووت ويتصنع النظر إليه» ، ردت بيتاليا . «لم يكن ينظر إلى صفحاته» .

«مأدراك؟» ، سألتها دالومي ، فردت بيتاليا :

- لا أعرف . الأمر كله مزاح من تلفيق راووت .

«كيف يكون مزاحاً ونحن هنا ، على سفح هذا الجبل؟» ،
سألتها دالومي .

«نعم» ، ردت بيتاليا بثقةٍ مَنْ حَلَّ لغزاً . «نحن هنا ، نعم ، بلا دليل . هذا فخ» .

«فخ ذئاب ، أم فخ عناكب؟» ، تساءل داروم ، فأثار سؤالاً جاداً النبرة من فم بيتاليا :

- كيف هي فخاخ العناكب؟ .

في مسائهم الأول بلا دليل ، توزَّع الأنفارُ الثمانية عشر فسحات بين الصخور . أوقدوا نيراناً صِغاراً . اقتعدوا بُسْطَهم الجلودَ الرقيقة كُلُّ بضعة أنفار حلقه .

سألت ياروزا ، طبيبة الكلاب ، أكبر المترافقين سنّاً :

- من قتلت ، ياسيد جورني؟ .

لمس جورني شاربیه الرفيعين صامتاً ، فاستعجله ماهاهون في أمرٍ صرفه عن الجواب عن سؤال ياروزا :

- لديك ، قطعاً ، حكايات ، ياسيد جورني . سلّنا بواحدة .

«لا تخرجني» ، ردّ جورني الشيخ . «لم أفعل ذلك حتى لأولادي» .

«كم ولداً عندك ، ياسيد جورني؟» ، ساءلته ياروزا ، فردّ :

- لم أنجب بعد . ربما في نهاية الرحلة . هل من امرأة منكن تتزوّجني؟ .

«هات حكاية» ، ياسيد جورني ، قال ماهاهون يختزل

استطراداتهم ، فأقحم داروم نفسه في السياق :

- لديّ حكاية .

«كم طولها؟» ، ساءله ماهاهون ، فرد الشاب ذو البشرة على

صُفرة :

- قصيرة .

«هاتها» ، تمتت ياروزا .

أرخی داروم جسده على بساطه . جمع صوته البحة على
حروف الحكاية :

- قررت أُمي أن تعود شجرة .

قاطعته بيتاليا :

- أكانت أمك شجرةً لتقرر أن تعود شجرةً؟ .

«نعم» ، ردَّ داروم .

«وماذا أنت؟» ، ساءلته .

تصنَّع داروم تفكيراً في جواب لم يأت على لسانه ، بل على
لسان طبيرة النفس دالومي :

- هو ظلُّ ثمرة ظلَّ معلقاً إلى الغصن . سقطت الثمرة ولم
يسقط ظلُّها .

تأملت بيتاليا كلمات دالومي مرفرفةً في إبهام خيالها . ربت
على كتف داروم :

- ماذا جرى لأُمك ، يا إمبراطور البريد؟ .

ردَّ داروم الطويل ، المتوسط اللحم اعتدالاً ، من فوره :

- عادت شجرةً بعد إنجاب ستة أولاد .

«أين هي؟» ، ساءلته بيتاليا ، فردَّ :

- في الحديقة الكبرى حول مبنى بلدية سارسيدون .

غمغم ماهاون تعقيباً على نحوٍ مُستخفٍّ بما رواه داروم . مال

إلى جورني :

- هاتِ حكاية ، ياسيد جورني .

تردَّد جورني . لمس شاربيه صامتاً . «ليكنْ» ، تتمم :

- سأروي حكاية عن خيَّاط .

«أأستَ خياطاً؟ أحدهم أخبرني أنك خياط» ، قالت ياروزا ،
فردَّ جورني :

- نعم . لكن حكايتي عن خياط أتخيله وليس عني .
«أرجو أن لا يكون خياط ملك» ، قالت بيتاليا ، فساءلتها دالومي :
- ما الفرق؟ . خياطُ ملك ، أو خياطُ شحاذ .
«الشحاذون ، في سارسيدون ، لهم لغةٌ تسويق بضائع الملوك» ،
قال ماهاون .

تأملته بيتاليا في الفراغ الرماديّ متسائلةً :
- أنا قلتُ شيئاً مثل هذا لراووت . أسمعتهَا منه؟ .
تأملها ماهاون بدوره من عينين محتجبتين في الظلال القلقة
ألقتها النارُ إلى زجاجتي نظارته :
- لا بدَّ أنه تخاطرُ بيني وبينك ، ياسيدة بيتاليا . لكن إن كانت
الجملةُ لكِ فهي لكِ .

«هه» ، غمغمت بيتاليا رضىً : «هي لي» . أرسلت صوتها
المتأكل قليلاً من أثر الكحول فيه إلى جورني :
- مثيرةٌ قصص الخياطين . أكملُ ياسيد جورني .
أسند جورني ظهره إلى الصخرة العالية خلفه . أرسل صوتَه
متقطّعاً :

- قتل خياطُ زوجته بعد طلاقها بعشر سنوات . قتلها بالملعقة
الشوكة .

ارتفع صوت من حلقةٍ في الفسحة بين صخور خلفهم . كان
صوت ميلادين :

- أأسمحن لي أن أروي حكايةً قد تعيد المزاجَ رائعاً في مساء
هذا اليوم بلا دليلين؟ .

«ارفعي صوتك أكثر» ، قالت بيتاليا ، فرفعت ميلادين صوتها بالحكاية من فورها :

- دخل عصفور دار الأوبرا حاملاً ساطوراً .
«حاملاً ساطوراً؟ من أيّ جزار سرق الساطور؟» ، تساءلت روثا ، المتخصصة في صباغ الشعر ، من حلقة أخرى على قُرب .
أردفت بنبرة هزة :
- خففي المبالغة ، ياميلادين . كيف يحمل عصفور ساطوراً؟ .
«يحمّله بالطريقة التي تستطيعين تخيلها ، ياروثة» ، ردّت ميلادين .

«بيده؟» ، تساءلت روثا .
«لتكن للعصفور يدُ إضافة إلى جناحيه» ، ردت ميلادين .
صفّق داروم مقاطعاً اقتحام روثا للسرد . كلّم الموظفة في دائرة الضرائب :
- حسناً ، ياميلادين . ماذا فعل العصفور بساطوره؟ .
«وقف على خشبة عرض الأوبرا» ، قالت ميلادين المستديرة الوجه بلا تردّد . استرسلت : «أمسك بعنق مغنيّة السوبرانو البدينة ، الضخمة» .

ارتفع صوت روثا مقاطعاً من جديد :
- لماذا مغنيات الأوبرا بدينات ، ياميلادين؟ .
تدخل داروم :
- كي تستوعب أجسادهن نصفَ طنٍّ من الصوت .
علا صوت الشاب راسيد من مكانٍ ما واقفاً :
- في أيّ متجر يبيعون أطنان الأصوات ، ياداروم؟ . أدخلت متجراً لبيع الصوت؟ .

«نعم» ، ردّ داروم ساخراً ، فسأله راسيد :
 - بكم الغرام الواحد؟ .
 أبدت بيتاليا امتعاضها . أطلقت زفيراً :
 - ألاحظتم أنّ مامن أحد ينهي حكايةً يبدأها؟ الكلُّ يقاطع
 الكل . لا تسردوا حكايات بعد الآن ، يأولاد راووت .
 ضحك ماهاون : «هذا نَسَبٌ يليق بنا» ، قال . توجّه بصوته
 إلى ميلادين :
 - ماذا طلب العصفور من مغنية الأوبرا؟ .
 «أن تعيره صوتها» ، ردت ميلادين .
 «ماذا كان ردُّ المغنية؟» ، سألها داروم ، فأجابت ميلادين :
 - ماالذي تتوقعه منها؟ العصفور يهدّدها بساطوره .
 «تعين أنها أعارته صوتها» ، قال داروم .
 رقيقاً ، متسائلاً ، في نبرة هزءٍ هادئة ، عبر صوتُ روثا إلى
 مسمع ميلادين :
 - في أي جيب وضع العصفور صوتَ المغنية؟ .
 «حمله بيده» ، ردت ميلادين .
 «كم يداً لعصفورك هذا؟» ، تسألت روثا ، فردت ميلادين :
 - تخيليه يحمل الساطور في يد ، وصوت المغنية في يد .
 «ألم يتدخل أحد لإنقاذ صوت مغنية الأوبرا من العصفور
 المتوحش ، اللص ، السفّاح؟» ، تسألت روثا . أضافت إمعاناً في
 السخرية : «العصفور المستعبد ، سليل شهود يهوه ، المتخرّج مديراً
 من مصلحة الضرائب» .
 لم تأبه ميلادين للإستطراد السخرية . ردت على سؤال المرأة
 المتخصصة في صباغ الشعر :

- لم يتدخل أحد لاسترداد صوت المغنية المسروق . لم يتصل أحد بالشرطة .

«حسناً» ، عَقَّبَتْ روثا . أضافت : «افعلي أنتِ شيئاً ، ياميلادين . هذه حكايتك . أضيفي إليها ما ينقذ صوت المغنية من العصفور المغتصب» .

«لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً ، ياروثا» ، ردت ميلادين .
«لقد جرت الوقائع فوق شجرة البتولا» .
«ماذا عن دار الأوبرا؟» ، تساءلت روثا .

«مبنى الأوبرا نفسه فوق شجرة البتولا» ، ردت ميلادين .
تابعت بِنَفْسٍ متلاحق : «المقاعد فوق شجرة البتولا . مدينة سارسيدون فوق شجرة البتولا . جبل آيايانو الشرقي ، وجبل آيايانو الغربي فوق شجرة البتولا . نحن ، وهذه الرحلة ، فوق شجرة البتولا» .

«ماحجم شجرة البتولا هذه؟» ، تساءل ماهاهون مبتسماً ،
مدرِكاً أن ميلادين انعطفت بحكايتها إلى منحى الإفراط في السخرية استياءً من مقاطعة البعض لها مراراً .
«تخيِّلها كما تشاء» ، ردت ميلادين .

غمغمت بيتاليا مستيقظة من شرودٍ ما وسط الاستطرادات .
أعادت تذكير خيالها برسوم البرم القوية : «فقدت الرغبة في أي اعتذار» ، قالت تجادل نفسها في الأرجح . مزجت برمها بالسخرية :
- سأعود إلى سارسيدون ، فوق شجرة البتولا ، ياميلادين .

«حكايتك مخيَّبةٌ للأمال قليلاً ، ياميلادين» ، قال ماهاهون ،
فسارع داروم إلى التقاط الخيط في صوت معلِّم الرياضيات :
- نعم ، ياماهاهون . كلُّنا في خيبة . هذه رحلة أملٍ ملعون .

لكزت بيتاليا خصر داروم منتهرة : «ياسيد جورني» . نادى الرجل الشيخ : «عُد بنا إلى حكاية الخياط الذي قتل زوجته» .
«نعم» ، تمتم جورني . وضع صوته على ركائز الحكاية :
- قتل خياط زوجته . خياط شيخ مثلي ، ربما في السادسة والستين ، أو أكبر بسنة .
«لماذا قتلها؟» ، تساءل داروم .

«لأنها تثرثر مثلك» ، ردت بيتاليا . حضت الشيخ أن يكمل :
- لا تتوقف حتى لو قوطعت ، ياسيد جورني . سأقف إلى جانبك .

«لا تقفي إلى جانبي ، بل إلى جانب الحكاية ، يا بيتاليا» ، قال جورني .
«أنا إلى أي جانب تريده . أكمل حكايتك ، أو إنسها» ، ردت بيتاليا متبرمة .

«ماذا تريدن ، تحديداً ، يا بيتاليا؟» ، سألها جورني الهادئ بنبرة استرضاء ، فردت بيتاليا :
- أكمل ، وقُل لماذا قتل زوجته .
«لأنها زوجته ، ربما» ، ردت ياروزا ساخرة .
«أيقتل كل خياط زوجته؟» ، تساءلت ميلادين ، ذات الصوت المتردد ، ببعض المماحكة ، فرد جورني :
- ربما .

«ما هذه الرِّبما؟ أتعرف لماذا قتل الخياط زوجته أم لا؟» ، تساءلت ميلادين باستغراب ، فرد ماهاون نياة :
- هذه مشكلة الحكاية ، ياميلادين . على الحكاية أن تعرف ، وليس جورني ، لماذا قتل الخياط زوجته .

«أخبرينا ، يا حكاية السيد جورني ، لماذا قتل الخياط زوجته؟» ،
تساءلت ميلادين مستحثةً الرجلَ الشيخ . مطّت عنقها صوبه :
«أقتلُ ، أنت ، ياسيد جورني ، زوجةَ الخياط ، واقتلِ الخياطَ أيضاً» .
«هذا أول خياط عرفت أنه قتل زوجته» ، قال جورني .
«كيف كانت طباعها؟» ، ساءلته طيبة النفس دالومي ، فردَّ
جورني :

- قاسية . لئنة . خجولة . ماكرة .

«هذه المرأة تستحق القتل حقاً» ، قالت بيتاليا .

«لماذا؟» ، ساءلتها دالومي بصوتها الخفيض الهادئ .

«لأنها زوجة خياط» ، ردت بيتاليا .

«لاقتل . لاشيء . جورني لا يعرف من حكايته إلا سطرها

الأول» ، قال داروم .

«لو كنت أنت من يرويها ، ماذا سيكون السطر الثاني ،

ياداروم؟» ، ساءله راسيد من مكان ما متربصاً ، راصداً للمحاوَّرات
كلها .

«كنتُ رتبت السياقَ كالتالي : قتل خياطَ زوجته ، وأكل

الجمهور لاعبَ كرة القدم» ، ردَّ داروم .

أعادت بيتاليا وضعَ خريطة لتسديد سَيْرِ جورني بحكايته :

- قتل الخياط زوجته بالشوكة ، ياسيد جورني . أكانا يأكلان

في برهة شجارهما؟ .

«لم يكونا في شجار» ، ردَّ جورني . «كان كلُّ شيء هادئاً .

يحتسيان كأسين من النبيذ الأبيض ، ويتشاركان اقتسامَ سمكةٍ
اسْقُمريٍّ كبيرة» .

«أكانا منسجمين ، متوادعين؟» ، تساءلت بيتاليا باستغراب .

«جداً» ، ردَّ جورني . «اجتمعا ، أخيراً ، بعد طلاق عشر سنين
لم يوفِّر الخياط فيها واسطةً لاستعادة زوجته» .

«لِمَ كان طلاقهما؟» ، ساءلته ياروزا ، فردَّ جورني :

- تلك مسألة غير مفهومة .

«مامهمة الحكاية إن لم تكن سرِّداً لأُمور مفهومة؟» ، ساءلته

ياروزا .

تدخلت ميلادين :

- ربما كان يخونها ، أو تخونه . ماعمرهما؟ .

«أهذا هو الأمر ، ياسيد جورني؟» ، ساءلته بيتاليا ، فردَّ

جورني :

- ليس تحديداً . لم يخُن الخياطُ زوجته .

«هذا هو السببُ قطعاً» ، قالت دالومي . «قتلها لأنه لا يريد أن

يخونها» .

«لا هذا . لا ذاك . إنني أنزلق بالحكاية إلى ما ليس فيها» ، قال

جورني ، فانتهرته بيتاليا تصوّب تقديره :

- أين الحكاية حتى تنزلق بها إلى ما ليس فيها؟ قلتَ جملةً

ونصفَ الجملة ، لا غير ، يا جورني .

جرَّ ماهاهون صوته إلى بستان الأصوات :

- أين الحكاية ، يا جورني؟ . احسمْ أمرك .

في موضع من السفح أعلى قليلاً من موضعهم ، بزغ ضياءٌ

شظايا من نار بعيدة أضرمَتْ بين الصخور . بضعة أنفار ، في

الحلقات المنفصلة المتقاربة ، ألقوا أبصارهم إلى الوجود المُعلن لبشرٍ

آخرين في رحلة مثلهم ، ربما . غمغموا فضولاً لم يفتّر منذ مسائهم

الأول رأوا فيه نارَ الغرباء . وهي ذي النارُ تسير مع نارهم كلَّ ليلة ،

على بُعد هو ذاته مقداراً .

أطلق جينتالو ، الطويل العضلي ، عواءً مديداً : «نحن ذئاب» ،
قال بصوته الأمر ، الواثق ، مخاطباً أشباحاً لا ترى .

«أنت مدرّب رقص ، يا جينتالو» ، كلمته سيتون من حلقة
الأنفار معها بين الصخور : «بي رغبة أن أتعلم الرقص» .

«هو مدرّب الرقص الرياضي ، لا الترفيهي» ، ردّت آرديلا .
قاطعتهما بيتاليا بصوت عال :

- فليدرّب جينتالو حكايةً على الرقص الشرقي . كل
الحكايات هنا بدينة ، مفرطة في بدانتها ، تبدأ حركةً أولى ثم
تنهار .

«ربما لدى الغرباء أولئك حكاية مثيرة ليست كحكاياتنا . ربما
هم من زمن آخر» ، قالت ياروزا . «هم من زمن الحكايات الأصل» .
«منْ أبدع كلمة «زمن»؟» تساءل ماهاهون بصوت وزّعه على
من يراه ومن لا يراه في البستان الضيق لضياء نارهم . فأجابته
دالومي :

- أوّل إنسان أشفقَ على نفسه .

«يالذاكرته المنجزة» ، قال ماهاهون بإعجاب ، فأضافت
دالومي :

- ذاكرته ألهمته أن يجمع قرائن هائلة عن التتابع ، بلا
انقطاع ، في انهيار أعضائه . جسده المتخاذل شيخوخة ، بعد
شباب ، طلع عليه برؤيا سمّاها «الزمن» .

«أين موضع الذاكرة ، ياسيدة دالومي؟» ، ساءلها دايك
الخلق ، فأبدت دالومي نبرة البداة من صوتها :
- في الدماغ .

«لا»، ردَّ دايك قاتلُ حفيده . «الذاكرة ليست في الدماغ . لكل عضو ذاكرته : ليد ذاكرتها . للسان ذاكرته . للشفة ذاكرتها . للعنق ذاكرته . للقدم ذاكرتها» .

قاطعته ياروزا :

- ماذا لو بُترَ عضوٌ ، ياسيد دايك؟ .

«عضوٌ آخر يرث ذاكرةَ العضو المفقود» ، ردَّ الحلاق .

«سأنام» ، تمتمت بيتاليا بمتعضةٌ . صرخت : «نَمْ ، ياسيد

جورني» .

«لَمْ؟ لانعاس عندي بعدُ» ، قال جورني .

«نامت حكايتُك . نَمْ أنت أيضاً» ، غمغمت بيتاليا .

«لاتغضبني ، يابيتاليا» ، قال جورني . وضع لسانه على سكة

السرد بتصميم في نبرة صوته : «كان الخياط يجالس زوجته على

مائدة العشاء ، بعد عشر سنين من طلاقهما . جمعتهما ، أخيراً ،

ابنته ذات الأربعين عاماً بجهد لا يُوصَف . خياطٌ هادئ الطباع ،

عتيق في المهنة ، جمع في حانوته أربعة عمال معاونين من عمره ،

ذوي خبرة ، يُرشدهم في تطبيق الخطط تفصيلاً للقماش ، ويسترشد

بمقترحاتهم . زُبْنُهُ رجالٌ ممن يحفظون لهيئاتهم حقوقَ الخطوة ببزاتٍ

اختاروا ألوان قماشها ، وأزرارها ، ومواضع الجيوب في ظاهر البزات

وفي بطاناتها . زوجته لم تكن هادئة كهدوئه الذي ورثه من مهنة

الخياط الجامعة ، بأناة ، لقصاصات الأقمشة ، بادية الدُرُز اتساقاً ،

ومخفية الدُرُز . زوجة عنيدة كقرارها طلب الطلاق فجاءةً . لم تنتظر

جواب زوجها المنذهل ، البالغ الخامسة والخمسين آنثذ . حملت

حقائبها ورحلت إلى مزرعة أمها شمال سارسيدون - مزرعة جياذ

صغيرة الجسوم . ذهلت ابنتهما بدورها . لم تنفع وساطاتُ الأصدقاء

المشتركين ، ولا إغراءات الخياط بأن يفعل ما تريد هي ، حتى لو خيّرته بين رجوعها إليه وبين ترك المهنة فسيترك المهنة» .

«هذا كثير» ، عقّبت روثا الخبيرة في أصباغ الشعر . «أيترك المهنة بعد ذلك العمر؟» ، تساءلت باستنكار . أدارت صوتها إلى جورني : «أقتلها؟» .

«نعم . قلتُ ذلك» ، ردّ جورني .

«سمعتُك . أريد مضاعفة حقدتي عليها . هي تستأهل أن تُقتل مرتين : مرةً يقتلها الخياط ، وتقتلها أنت مرةً في الحكاية» ، قالت روثا .

«ما أحاسيس رجل شيخ يقتل زوجته بعد إنجابها أولاداً؟ أهينُ على رجل شيخ أن يقتل؟» ، تساءلت ياروزا طبيبة الكلاب . فردّ جورني :

- عندهما ابنة واحدة .

تمدّد ماهاون . وضع رأسه على الوسادة الأسطوانية الصغيرة ، اللينة . تصنّع نعاساً في صوته :

- ما علاقة الأعمار بالقتل ، ياسيدة ياروزا؟ كل الأعمار مناسبة لارتكاب جريمة .

«ربما هو يأس الشيخوخة» ، علّلت بيتاليا جريمة الخياط . خصّت جورني بسؤالها : «أتحسّ يأساً وأنت في السادسة والستين؟» .

«لا يأس ، لكنّ الأمر مُحِيطٌ» ، ردّ جورني .

«لماذا لم تقاوم؟» ، ساءلته بيتاليا مبتسمة .

«أقاوم ماذا؟» ، ردّ جورني بسؤال على سؤالها .

«أن تكبر» ، قالت بيتاليا ، فردّ جورني :

- كلُّ بزةٍ فصلّتها لزبون كانت مقاومةً . كل خيط كان

مقاومة . كل درزة كانت مقاومة .

«أيهرم الموت؟» ، تساءل داروم متصنعاً المكر ، فردت دالومي :
- نعم . يكون متهدلاً ، مرهقاً ، ذا وساوس ، إذ يزور الكبار في
العمر .

«ماوساوس الموت؟» ، ساءلها ماهاون ، فردت دالومي :
- إنه لم يعدّ جديراً بعمله إزاء أناس شاخوا كثيراً . هم
سيموتون ، على أيّ حال ، جاء الموت أم لم يجئ .
«أكمل حكايتك ، ياسيد جورني» ، قالت بيتاليا وهي تتمدد ،
بدورها ، على بساطها الجلد ، وتتوسّد وسادتها .

الأنصار الآخرون في حلقة جورني تمدّدوا أجمعين على
بسطهم . تمددت السماء أكثر ، من عزف النجوم على ناياتها
الطويلة ، المظلمة ، عزفاً تنصّت إليه الأكوان التي وراء المطلق ببعد
محسوب . قسم الظلام خبزّه الأزلّي على أطفاله فأشبعهم ، وتجرّع
من قذحه ، في رضى ، مكنات السماء مذوّبة في مكنات الأرض .
«كان حديث الخياط وزوجته ، وابنتهما ، ذلك المساء الهادئ
كالعافية ، عن هجرة البط وأنواعه» . بهذه الكلمات مهدّ جورني
المدخل الجديد إلى ما انقطع من حكايته الكثيرة الرتوق . صمت
برهة يصغي إلى أنفاس المتمدّدين . «غبطة الابنة ، التي تركت
ولديها في عهدة زوجها ذلك المساء ، والأب - تحديداً - بالتقاء
شملهم عائلة كعهدهم في السنين الخوالي ، كانت تقطر من
حركاتهما في خدمة الأم بتقديم المملحة إليها ، وبملء كأسها نبذاً ،
وبالمرق السميك من زيت الصويا ممزوجاً بالخل ، والفلفل الحريّف ،
يُدار سكّاباً رقيقاً على لحم سمكة الأسقمريّ الأبيض في صحنها .
كانت الزوجة موفورة الدلال في حضورها . لقد تنازلت عن

عنادها ، أخيراً ، فانتقلت ، من جديد ، إلى بيت زوجها ، الذي وعد بشيء لم يفعله قبلاً لامرأة : سأفصل لك بزةً ، قال . قرع الثلاثة كؤوسهم بعضها ببعض نخب الشمل الملتئم .

تنفس جورني هواءً ملوئاً من صور حكايته . جال ببصره على الأنفار المتمددين غمرهم سكونٌ رؤوف . وضع رأسه على وسادته : « نهضت ابنة الخياط إلى المطبخ تجلب زجاجةً نبيذ أخرى . نهض الخياط واقفاً إلى جوار زوجته الجالسة . مرَّ يده اليسرى على شعرها الأسود القصير في حنان . رفعت بصرها إليه مبتسمةً فألفت عينيه مغرورتين بالدمع . مدت إليه منديلاً ورقاً لي مسح ماخالته دموع غبطة بعودتها . لمحت يده الأخرى تنجذب إلى عنقها خطفاً بالملعة الشوكة . شدَّ رأسها فألصقه بخاصرته . طعنها بالشوكة طعناً متلاحقاً في حنجرتها التي أصدرت شخيراً قوياً ، فعواءً متقطعاً .

عادت الابنة من المطبخ . لم تستوعب ، لوهلة ، حركة يد أبيها السريعة . كانت قادمة من وراء ظهريهما . لكنها ، إذ جاورتها ، سقطت زجاجة النبيذ من يدها وهي ترى الدم متناثراً خيوطاً طويلة على المائدة ، وخيوطاً تنقذف من الشوكة ، في الهواء ، كلما ابتعدت يد الأب عن عنق زوجته بعد الطعن . سقطت البنت أرضاً مذ تراخت أعصابُ ساقها خدراً من ثقل الصدمة وهولها .

زفر جورني حسرةً لحقت بالكلمات . رفع رأسه قليلاً عن الوسادة يتقرئ وقع الحكاية على الأنفار المتمددين . استوى قاعداً في خيبة من صمتهم . « أين أنتم؟ » ، تتم .

تقلبت بيتاليا على بساطها . تنفست عميقاً من رثيها النائمتين .

أدرك جورني أنه خذل . زفر ثانيةً من بين شفثيه المزمومتين .

لمس شاربويه الرفيعين بسبابة يده اليمنى وإبهامها .
«اسمُها دُولَانْتا» ، قال همساً . «زوجتي دولانتا . تمنيتُ قتلها
مذ تزوجتها . تمنيت قتلها بعد إيجاب ابنتنا . تمنيت قتلها كلما حلَّتْ
مناسبةُ زواجنا . أتعرفون لماذا؟» . سكتَ يتدبَّر الجوابَ الأنسبَ :
«لأنها زوجتي» .
تمدَّد . شهقَ شهقةً خفيضةً : «قتلتُها لأنني لم أعد أعرف ماذا
أفعل من دونها» . مسح غمامةً أسيَّ عاصفٍ عن عينيه المحدثتين
إلى السماء المطحونة . تتمم :
- أظنني قلتُ ذلك للسيد راووت .

الفصل الثامن:

دالومي

ريحُ التهمت نفسَها في الهبوب ، بعزيفٍ لامرکزٍ لدائرتِه ،
فقدفت بالمطر قوياً جاوز حاجز الشرفة في منزل دالومي فأصابَ
زجاجَ بابِ الردهة . اصطفَقَ البابُ الزجاجُ النصفُ بالرغم من
تثبيتِه بأمانٍ تتيحه دورةُ المقبض . كان موارباً غير مغلق ، يسمح
لدخان لفافآت القنب الهندي المشتعلة أن تتسلل خارجاً مع
الضحكات المعتَصرة طرباً ، لامن موسيقى الجاز العالية ، بل من
نبش الأرواح مدافن حنينها إلى اللامعقول في أجساد الأربعة
الجالسين : ثلاثة على أريكتين ، وامرأة على الأرض ، فوق البساط
السميك محتضنةً وسادةً تُتخذ مسندَ ظهرٍ على الكرسي .

نهضت دالومي عن الأريكة التي يشاركها ابنُها مؤمُولٌ
جلوساً . أثبتت ، من جديد ، فُرجةَ الباب الفاصل بين الردهة
والشرفة الواسعة في شقتهم العالية أربع طبقات من العمارة
الطبقات العشر . «لماذا لا تدخل الريحُ فتجالسنا؟» ، قالت ثم
قهقهت . واكبت قهقهتها قهقهاتٍ أخرى من الثلاثة الآخرين :
زوجها كيردي ، وابنها مومول ، وأخت زوجها مايرامين المقتعدة
الأرض في بنطالها الأسود ، والوشاح الرمادي المرقط رُقْطاً سوداً
حول عنقها .

«فليدخل السيدُ المطرُ أيضاً» ، قالت مايرامين ذات الشعر البني

القصير . «قودي المطر من يده إلى الكرسي ، يا دالومي» . خبطت
براحة يدها اليسرى على صدرها تبعث الضحك المتزاحم في رثيها
اللاهيتين بالدخان المخدّر من حشيشة القنب الهندي .
«ماشرابُ السيد المطرِ المفضّلُ؟» ، تساءل كيردي الكبير الفم .
أجاب عن نفسه مقهقهةً :
- الجعة السوداء .

لم يكن الأربعة في حاجة إلى توليد فكاهة ، أو تحوير فكاهة ،
أو تلمّس المدخل إلى فكاهة : كانت القهقهة ناضجةً تتدلى من
كل حركة فيهم كي تُقَطَف . قهقهةٌ للقهقهة . قهقهةٌ قبل القهقهة
وبعدها . دخانُ عشب القنب الهندي المدغدغُ ، رسولُ الآلهة المرحّة
مختبئةٌ في زهرة النبات العريق ، يكفي للقبض على السماء ككرةٍ
من خيطان صوف فتلهو بها هرةٌ أو جرّو هرةٌ . دخانُ أنزل السماء
على أريكةٍ في ردهة بيت دالومي ، وجمع الأرض على كرسيٍّ في
الردهة . اللّفاتُ المتقلّة من أنامل إلى أنامل ، بين الأربعة ، لم
تهداً اشتعالاً منذ المغيب الصارم مستلهماً قوانينَ الريح . في أناةٍ
كانت اللّفات تنتقل ، بالرماد متطاولاً على جمرها ، بين الأربعة
على العكس من انتقال الضحك صاحباً كالنفخ بالمنفاخ على
طحين . آلة التصوير المركونة إلى جوار فنّخ مايرامين اليسرى لم
تهداً أيضاً . كانت ترتفع وتنخفض في يدها بلا تصويب من عينيها
على ماتريد اقتناصه . تصويرٌ خاطفٌ ، على وقع القهقهات
الخاطفة ، لأنصاف وجوه ؛ لأيد ؛ لأقدام ؛ للكراسي الثلاثة ،
وللأريكتين ، وللدخان حلقاتٍ أو متشرّداً . وقد تدّعي مايرامين ،
محترفةُ التصوير للصحافة ، أنها تمكنت ، أخيراً ، من التقاط مالم
يلتقطه مصوّرٌ قبلاً : صورة صوت ميدوزا ، المرأة العقرب الفاتنة ، في

• بهورها بين الخرائب ظاهرةً في مرايا الدخان الساحر - دخان
مشيشة القنب الهندي .

صَفَرَتِ الرِّيحُ . رَشَّاشٌ قَوِيٌّ مِنْ الْمَطَرِ صَاحِبَ الصَّفِيرِ قُرْعاً عَلَى
زجاج باب الشرفة النصف الزجاج . قطراتٌ شاردة اقتحمت حافة
أرض الردهة من فُرْجة الباب .

«لماذا لا نجلس على الشرفة؟» ، تساءل مومول ، ابن دالومي ،
البالغ عشرين عاماً .

«أين الكراسي؟ فلننتقل» ، غمغمت مايرامين بصوتها الممتلئ
الحروف . قهقهت واقفةً . اقتربت من باب الشرفة . ظلَّت الزجاج
بيديها كي يتمكن بصرها من اختراق الظلام المشوش ، الغريق ،
رصدًا للأشكال : «أرى سيارات تمشي على ماء البحيرة ،
يادالومي» .

شرفات عمارة دالومي تطلُّ ، شرقاً ، على بحيرة سارسيدون
الصغرى . مايرامين ، التي لم تكن تلمح سوى بعض الأضواء
المنتحرة قلقاً ، كان في مستطاع خيالها ، السارح على غمامة دخان
عشب القنب ، أن يعيد ترتيب البحيرة ، المتشظية في العاصفة ،
بشواطئها البعيدة المتعرجة الدائرية ، وبرصيفها المقابل لشارع
العمارات العالية ، حيث زوارق النزهات الصغيرة ، والجدال المتصل
بين سلاطات الإوز ، وقبائل البط ، وكذلك الست السفن بأسماء
واضحة على ألواح تعلو جوانبها - السفن الثُلُ بغيرها الضيقة ،
ومشارف هياكلها يرصد النزلاء منها ، جلوساً إلى مناوئد دائرية ، أو
وقوفاً عند حواجز محيطها ، زمن مدينة سارسيدون العريق ،
لاكبراعة من هندسة العمران ، أو كأطوار الحياة الرفاه سلالَةً عن
سلالة ، بل كمياه .

«سيارات تمشي على مياه البحيرة» - قهقهت دالومي . «أما من قطار ، أو حافلة ركاب أيضاً ، يامايرامين؟» .

«بلى» ، ردت مايرامين وهي تلصق جبينها أكثر بزجاج الباب : «أناسٌ على زحافات تجرها الكلاب فوق مياه البحيرة . أناس يحملون مشاعل ، يادالومي» . تراجعَت عن الباب إلى عمق الردهة كسولة النظرات من أثر الدخان المخدِّر . استلقت أرضاً على البساط ، قرب قدمي دالومي وقدمي ابن أخيها . رفعت رأسها متفاجئة : - أسمعتم؟

«سمعتُ اصطدام القطار بسرب الأوز فوق مياه البحيرة» ، قال شقيقها كيردي الأصلع ، ذو الحركات المتهمة .

«نباح كلب» ، تمنت مايرامين . «كلب أنهى تدخين لفافة الحشيشة تَوًّا» ، أضافت مقهقهة .

«لماذا لانقتني كلباً ، ياعزيزي كيردي؟» ، تساءلت دالومي . «نعلمه تدخين هذا العشب كما علّمتونني» .

مايرامين ، في زعم دالومي ، هي التي اجتاحت منزلها بعشب القنب الهندي المخدِّر . أوقعت زوجها في مصيدة الدخان أولاً ، ثم ابنها . لم تكن الشابة ، المصوّرة للصحافة ، تكثر باعترافات زوجة أخيها الطيبة النفسية وهي تشعل لفافات القنب الهندي كلما زارتهم . دالومي تكره رائحة العشب المحترق : «إنه يلتصق بالجدران ، وبشعري» ، تقول موبّخة . زوجها وابنها لا يدخان التبغ حتى . لكنهما كانا يفيضان مرحاً من حال مايرامين كلما تنشقت الدخان فأتقد خيالها بالصور المضحكة ، وأتقد لسانها بالمنطق مذهولاً طائشاً في فكاهاته . كانا يضحكان ملء عظامهما وجيوبهما من الخفة تستبد بمايرامين ، على العكس من دالومي التي تنقبض ،

ويسايران سرورها المنبعث من أعماق وراء الفهم . ربّما خاصّةُ الوجود أن يكون مضحكاً . ربما وقف الإنسانُ الأول ، من مشارف تأملاته الأولى ، على صخرة اللامعقول الهاذي بالمفاجآت المضحكة : الفكر ؛ الصُّور ؛ العناصر ؛ الحضور المزلزل للقلق ، وكذلك الخوف ، كلّها لا تُربِّك ، بل تُضحك . قهقهةُ الإنسان الأول يتردّد صداها في عظام سُلالاته حينَ يرونَ إلى الحقائق كما هي في الأصل الخفّة . كلّ شيء خفّةٌ حينَ يتخفّف الإنسان من صرامة أغرق الوجودَ في كيفياتها المحترقة . مايرامين أسلمت نفسها لحشيشة القنب كي تستعيد الأمّ الأصل ، الأولى ، راكضةً وراء قطع الآلهة الراكضة خوفَ أن تعترف أنها اختلست من الإنسان مكره ، وخُدعته . الأمّ الأصل تظهر بهيئتها جليّةً على صورة مايرامين كما في مرآة . أخوها كيردي بلغ به الفضولُ درجته التاسعة والتسعين إلى استشراف شيء من حال أخته في برهاتها المستعصية على اختبار التحليل ، والتأويل ، والتفسير . كلّ حركة ؛ كلّ صوت ؛ كلّ كلمة بلا معنى ؛ كلّ جملة من فكاهة رثّة ، مُستَكَمَلَة أو منقوصة ؛ كلّ صمت أو نطق ؛ كلّ قيام أو قعود ؛ كلّ نظرة ؛ كلّ كلّ هذا يشير القهقهة في حنجرة مايرامين ، الغارقة حتى أذنيّ يقينها في غرام النساء دون الرجال .

كيردي استعار لفافة القنب الهندي من أخته مرة . أعاد الكرةَ فالكرةَ حتى استوى له شيء من مدخل الوجود ملموساً كباب ، لا كفكرة . دخل كيردي الوجودَ من ذلك الباب . جلس إلى جوار أخته في القهقهة ؛ في سرّها كما رسمته الأيدي حَفراً بالصوّان على جُذُر الكهوف ، وترصّدهُ البصرُ بين الأفلاك فحصر النجوم في صور المخلوقات : كوكبةُ الكلب الأكبر . كوكبةُ الكباش . كوكبةُ

السرطان . كوكبة السلوقيين . كوكبة الدب الأكبر . كوكبة النُشابة .
صورٌ كُثِرَ لمجامع النجوم في الأعلى - القهقهة .

نَقَلَ كيردي بيديه الأفلاك من مَجْثَمٍ إلى مَجْثَمٍ ، وأعاد ترتيب
الكونِ مشتعلًا في لِفَافَةٍ حَشِيْشَةِ القِنْبِ . بات سميرَ أخته تأتي
بِغَلَّةٍ من العشبة الأزلية لِكُلِيهِمَا فيَتَفَجَّرُ غضب دالومي هادئًا
كصوتها . هَدَّدَتْ زوجها أنها سترمي بنفسها من الشرفة . هددت
أختها مايرامين أنها لن تدخل بيتهم ، لكنها تتراجع كلما قرعت
مايرامينُ البابَ : «أوه دالومي الرائعة» ، تقول فاتحةً ذراعيها لزوجها
أخيها ، فتستدير دالومي من غير أن تعانقها : «ادخلي ، ياغاز
الخرذل» .

رويداً رويداً انزلت قَدَمًا مومول على الدخان فسقط على
رصيفه الممتد بين أبيه وخالته ، اللذين أَرْخِيَا لَهُ العبورَ إلى قواعد
القَهْقَهة ، في برهات انحذارهما إلى عافية الفراغ العظيم . دالومي
ولَوَلَّتْ إذ رأت اللفافة بين أنامل ابنها ، في المرة الأولى . اختطفتها
منه وألقت بها في كأس نبيذ خالته . عَلَّتْ صيحةً استنكاراً من
كيردي ومايرامين معاً : «هذا هو الكفر ، يادالومي» ، قال الزوج ،
فواكبته تعقيباً : «هذا هو التجديف بعينه . لقد قتلت النقاء
البشري» . قهقهها . قهقه مومول ، الطالب في قسم التشريح ، من
سبب لا يدره .

في نصف صخب أعلنت دالومي أن الأمور بلغت منتهاها
بانجراف ابنها ، أيضاً ، إلى مساكب الخيال المنحرف . هددت
زوجها :

- إِمَّا تتوقف أختك عن زيارتنا بسمومها ، أو أرحل أنا . ماحياة
مومول بعد الآن؟ .

«اهدأي يا عزيزتي دالومي» ، قال زوجها برحابة في صوته .
«حشيشة القنب أخفُ المحظورات . الشبان ، في عمر مومول ،
يحقنون أوردتهم ، على مائدة الإفطار ، بزيت الموت ، ويستنشقون ،
على مائدة الغداء ، طحينَ الشيطان . أمّا عشاءً فلا أحد يعرف ماذا
يلتهمون . ربما يلتهمون صحوناً من أقراص السُّلخ الروحي ،
يادالومي ، ومن حبوب الهذيان . كلُّ مافي الأمر أن مومول يكتفي
من شرور العالم بلفافة أو اثنتين . أنت تبالغين في استيائك» .

دالومي هادئة الطباع عادةً . إترانُ يجمع بين روحها وكلماتها
مذْ تعودت في المهنة ، كطبيبة نفسية ، أن تمشي على شفرات من
مشاعر زوار عيادتها بقدميَّ الإصغاء ، وأن تتخير ، في شرح احوالهم
لهم ، المُخترَل الأنقى من توضيح الخلل ، وترشيد المسالك تخفيفاً
لاحتقانٍ يختلسهم من حيواتهم ، وتليناً للحصر تلبث فيه ارواحهم
عالقَةً بين صخورها المتلامسة . زاثروها عصبليون أو مستشارون ، أو
حساسون حتى الإغماء . خجلولون . متكثمون على سرائرهم
الملتهبة . وعليها ، هي ، أن تستدرجهم ، بأناة الرأفة ، إلى تسليمها
مفاتيح خزائنهم الدفينة تحت الأنقاض ، لتعيد إليها شيئاً من كنوز
الإنسان .

هددت دالومي زوجها بالرحيل عنه . وازنت في خيالها
الخسارات المُحتَملة وما ليس خسارات ، ما دامَ لاربَحَ قطُّ ، إنْ
نقّدت تهديدها . انعطف خيالها عن سكة العزم غير المُنجَز .
توعدت زوجها وعيداً أشبه بالهرب وقوفاً :

- إذا لم تُوقف احتلالَ أختك لحياتنا سأزحف ، أنا ، إلى
حشيشة القنب .

- أجادّة أنت ، يادالومي ؟ .

- جادّة أنا ، ياكيردي .

«ليكن» ، قال كيردي ، الموظف في دائرة الرقابة الصحية على الأطعمة ، بين متفاجئ ومُرحّب .

رحّب دخانٌ حشيشة القنب بالوافدة الجديدة إلى حظيرته المقدسة . مَنَحَ دالومي ، في استنشاقاتها الأولى من اللفافة الأولى المشتعلة ، سوطَ ترويض المخطور ، ومبراةَ الكشف عن رصاص الأقلام الرصاص لتدوّن الطيبة النفسية مجدّد خيالها الثاني - خيال النظر إلى الوجود بعينيّ القهقهة ، واستقرائه بيديّ مبالغاتِ المرح الهادي .

«سمعتُ نباحَ كلب» ، قالت مايرامين في مسائهم المتقلب على سرير الريح العاصفة . تجاوزَ الضحكُ سطوراً في ردهة البيت . الكلاب تنبح بين وقت وآخر ، وهي تقود وراءها بشراً في أرسان لا تُرى . ينبح بعضها بعضاً إنّ تصادفت كتحية للتذكير بأنها كلابٌ تمتلك حدودَ المسالك التي تعبرها ، وتمتلك خدماً يقفون إذ تقف كلابهم ، ويتأملون مراتبَ الكون إذ تتبول كلابهم ، وينبحون في أعماقهم ، أيضاً ، إذ تنبح كلابهم ، ويسيرون خلفها بأرسانٍ في الأيدي تدلّهم بها كلابهم على صواب الطُّرق .

الكلابُ المرفّهة بخدمة مالكيها لها تنبح في عبورها رصيف عمارة دالومي . لكنّ نباحَ كلب ، في مسائهم ذلك اليوم ، كان نفيراً من وحي العقل الكلّي في مسمع مايرامين - العقل المتدلي من دخان حشيشة القنب كجوز النخيل . أصغت كأنها المرة الأولى تسمع نباحاً كإنسان النشأة الأصل أصغى ، أول مرة ، إلى الرعد فقلّده بقرع الطبل . قلّدت مايرامين الكلبَ بعد قهقهة : «عو . عوو» . نبح الثلاثة الآخرون مُدّ استنزفوا استنشاقاً تسع لفافاتٍ في

ساعة حتى المليمتر الثاني من أعقابها .
تكرّر النباح خارج العمارة ، فتكرّر النباح في ردهة بيت
دالومي ، التي استحضرت علومها :
- المشي وراء الكلاب علاج نفسي . اقتناء الكلاب علاج
نفسي .

«علاج نفسي لمن؟ للكلاب أم لأصحابها؟» ، تساءلت
مايرامين ضاحكة .
«للاثنين» ، ردت دالومي . «ألا تفكرين باقتناء كلب؟» ،
ساءلت أخت زوجها .

«إن اقتنيت فسأقتني كلبة ، لا كلباً» ، ردت مايرامين ذات
النظارة بإطار فضي ملتصع .

غمغمت دالومي محدقة إليها بأجفان منكسرة خدراً .
ابتسمت ابتسامة التلميح الخافت إلى مذهبها المبشر بالنساء لذّة :
- أما نسمعه نباح كلب ، أم نباح كلبة ، يامايرامين ؟ .
«كلب خنثى» ، ردت مايرامين الطويلة ، الممتلئة .

«سأسأله» ، قالت دالومي . نهضت ذاهبة إلى باب الشرفة
تتبعها قهقهات الثلاثة الآخرين . فتحت الباب الموارب غير
الموصد . نفذت سهام مكسورة من المطر إلى الداخل . مشت حافية
على الأرض العارية البليلة : «شعري» صرخت . عادت مهرولة
تترنح إلى الداخل . «أتني بقبعة ، يامومول» .

«جئها بورق جرائد تلف أمك نفسها بها» ، قال أبوه كيردي ،
فانطلق لسان أخته أيضاً :
- جئها بمصفاة المعكرونة .

نهض مومول نصف مترنح . غاب لحظات ليعود إلى أمه بقبعة

جلد سوداء مستديرة المشارف .

«هذه قبعتي» ، قالت مايرامين المتراخية جلوساً على البساط

«لا ترمي بها إلى الكلب ، فهي واسعة على رأسه» .

اعتمرت دالومي القبعة . عادت إلى الشرفة . صفرت الرِّيحُ

صفراً كيردي بوضع إصبعين من يده اليسرى في فمه . صاح :

- لاتنسي أن تعطي الكلبَ بطاقتك - العنوان ورقم الهاتف .

«وكذلك تحياتي ، وقبله من مومول» ، أضافت مايرامين . لمست

قدم ابن أخيها : «لا بأس بقبلة . قد يصير هذا الكلب زائراً دائماً

لعيادة أمك» .

هزَّ مومول الهادئ الصوت كأمه رأسه موافقةً . صاح :

- قبلتان للكلب مني ، يا أمي . قبلتان .

أسندت دالومي صدرها إلى الشرفة ذات الحاجز العريض من

فوق ، مقعراً في بعض أجزائه لتثبيت أصص نباتات الصيف

وزهوره . وضعت يدها على القبعة المرفرفة وهي تنحني قليلاً

لتستجلي الكلب ، فرأته في ضوء مصباح الشارع شبهاً ضئيل

الحجم يتنشق الأرض دائرياً ، ويتشممها ثم يسترسل في النباح

كأنما تهديداً لمغتصب مُلكه ، وإلى جواره شخص في معطف واقٍ

من المطر ذي قلنسوة . صرخت طيبة النفس من فوق :

- أحرصوا كلبكم .

صوت امرأةٍ بادلها صراخاً ، من أسفل ، رافعةً وجهها إلى

الأعالي :

- أوقفني نباحك .

«نباحي؟!» ، تمت دالومي مستظرفةً ردَّ المرأة . صرخت من

جديد :

- كلبك جائع ، أرضعيه ياسيدة .

تراجعت صاحبة الكلب خطوتين إلى حافة الرصيف
تستوضح ، ببصرها إلى الأعلى ، صورةَ المرأةِ الأخرى على الشرفة -
مسورةَ الدومي . وضعت يدها على قلنسوة معطفها إذ اجتاحتها الريحُ
نفخاً من أسفل ، في اصطدام الريح بالأرض ، فاستدارتها بعد
الصدمة صعوداً . صاحت بدورها :

- أنت بائعة حليب ، أم بقرة؟ .

«نباحك أقوى من نباح كلبك» ، صاحت الدومي من شرفة
الطابق الرابعة . أردفت جملتها بأخرى :

- ماذا عن البقرة؟ ماذا قلت؟ .

«أنت بقرة؟» ، ردّت المرأة من أسفل صياحاً . وجّه كلبُها
نباحه ، مُرفقاً بكلمات صاحبتة ، إلى الأعلى أيضاً ، مستثارة من
المحاوَرَة الصراخ في الريح .

«أنا بقرة؟» ، صاحت الدومي مررودةً سخرية المرأة منها بنبرة
استياء . «تَلُوّحين لي كبرميل في معطف . افتحي صنوبر البرميل
ليشرب كلبك . إنه جائع . أخرسيه» . تلفتت من حولها تستعرض
أرضَ الشرفة عسى تجد ماتقذف به صاحبة الكلب . لم تجد شيئاً .
صاحَت بصوتٍ سدّته إلى أسفل :

- انتظريني .

رجعت الدومي مبتلّةً بتمامها إلى الردهة تترصدّها أبصارُ
الثلاثة الجالسين متقطّعي القهقهات . «أنا بقرة؟ أأبدو كبقرة؟» .
أشارت بيدها إلى جسدها الممتلئ المعتدل الطول . توجهت إلى
المطبخ . رجعت حاملة سلة القمامة بين يديها .
قهقهه كيردي :

- أعثرت على من يشتري سلة القمامة ، يادالومي ؟ .
قهقهت مايرامين بوجه غارق في الدخان :
- إنه الكلب ، يادالومي . أليس كذلك؟ بيعيه وشاحي هذا ،
أيضاً .

خبط مومول الأرضَ بقدميه ابتهاجاً . نهض . مشى مترنحاً
إلى أمه . وضع لفافة حشيشة القنب في فمها :
- استنشقي نفساً ، يأمي .

امتصت شفتا دالومي الممتلئتان عَقَبَ اللفافة طويلاً . كتمت
نَفْسَهَا برهةً قبل إطلاق سراح الدخان الحالم . أكملت طريقها إلى
الشرفة . نظرت إلى أسفل حيث الكلب على حاله من النباح
متقطعاً ، وحيث صاحبتُه تشدُّ مقودَه الرَّسَنَ فلا يطيعها .
«لقد رجعتُ» ، صاحت دالومي .

رفعت المرأة ذات القلنسوة وجهها عالياً . تراجعت مُذْ أبصرت
أشياء متناثرة في نزولها . قليلٌ من النفاية ، أصابها ، فيما انحرفت
الريخُ بالبقية صوب الكلب فأصابته . صاحت دالومي من الشرفة :
- أطعمي كلبك ، ياسيدة .

هَدَرَ صوتُ المرأة المنتفخة المعطف حول جسدها . صاحت
بدورها :

- يا عاهرة .

«ماذا؟» ، تساءلت دالومي بصوت صائح . أحست يداً على
كتفها . التفتت لترى مايرامين إلى جوارها ، حافية القدمين إلا من
جوربيها الأبيضين .

«صراخك منعشٌ» ، يادالومي» ، قالت مايرامين متلقفةً شبكةً
من المطر دفعة واحدة .

كانت دالومي أشبه بخارجة من مغطس استلقت فيه بكامل ثيابها . تراجعت عن حاجز الشرفة قليلاً بقلبٍ وخيالٍ أيقظهما المطرُ قليلاً من غفوة الحذر المستيقظة . تقدمت مايرامين مُسندةً صدرها إلى الحاجز بـبصر إلى أسفل :

- كم كلباً هناك ، يادالومي ؟ .

«كلبتان» ، ردّت دالومي . وضعت سلة القمامة المعدن ، مطليّةً أبيض ، أرضاً يتناقرها المطر بمناقيه ومناقير فراخه . ارتعشت كتفها اليسرى ، أول مرة ، من بردٍ سرى به البللُ إلى لحمها ، في الثلث الثالث من ربيع سارسيدون ، الذي لم يشهد قبلاً ، قط ، عاصفة مثل تلك .

«هيّة» ، صاحت مايرامين من الشرفة . «أأنتِ امرأة؟» ، سائلة صاحبة الكلب ، التي ردّت صياحاً :

- أأنتك شرفة أم زريبة بقر؟ .

«أردتُ أن أتأكد ، لاغير» ، قالت مايرامين بنبرة مَرَح ، وهي تمسح ماءً انحدر من أنفها إلى شفثيها . أضافت : «أرسلني كلبك في المصعد إلينا ، وسنعيده إليك سنجاباً» .

«انزلي أنت» ، صاحت بها صاحبة الكلب . «انزلي أنت والبقرة الأخرى . كلبتي ستعلمكما أصول النباح مجاناً» .

«هي كلبة إذاً . حسبناها كلباً» ، قالت مايرامين ، فردت المرأة في الأسفل :

- هي مثلك تماماً . لكنها محترفة في النباح ، وأنت مبتدئة .

«أهذه مهنة كلبتك ، ياسيدة؟ أهـي معلّمة نباح؟» ، ساءلتها

مايرامين ، فردت صاحبة الكلبة :

- هي متسكعة حالياً ، تنتظر التكليف بتدمير

المفاعلات النووية في العالم .

التفتت مايرامين إلى زوجة أخيها مبتلةً مثلها :

- يلزم كلبتها طيبة نفسية .

ضحكت دالومي : «أنا جاهزة» قالت . مسحت وجهها بكم

قميصها . مسحت مايرامين وجهها براحتي يديها ، وأرسلت

بصرها ، من جديد ، عن حافة حاجز الشرفة إلى أسفل . صاحت :

- أين تلقت كلبتك علومها ، ياسيدة؟ .

«من معهد الأبحاث الذرية في سارسيدون» ، ردت المرأة

الكروية في معطفها المنتفخ .

بغثةً اعتلت مايرامين حاجز الشرفة العريض من فوق . جلست

عليه منحنية برأسها إلى أسفل :

- لم أسمع بمعهد القلوب الذرية ، ياسيدة .

«ماذا؟» ، صاحت صاحبة الكلب مستفسرةً . «قلوب ذرية؟» .

اقتربت دالومي خطوةً من مايرامين . حدقت إليها من شبكة

المطر مهتزةً قليلاً في جلوسها على الحاجز كلما التفت الريح على

نفسها فوق الشرفة . لمسةً من حقدٍ ما مسّت قلبها ، صاعدةً من

استياءٍ تراكم حين اجتاحت مايرامين بيتها بحشيشة القنب .

تراجعت مجفلةً من بزوغ حقدِها إلى مدخل الردهة . نادى ابنها :

- أعطني منشفةً ، ولفافة .

نهض الابن بتكاسلٍ طاحن عن الأريكة . خلع قميصه ماشياً

صوب أمه : «المنشفة بعيدة . خذي قميصي» ، قال وهو يمدُّ

القميص إليها بيد ، ولفافة حشيشة القنب بيد .

مسحت دالومي وجهها بقميص ابنها ، وجففت يديها .

تناولت اللفافة منه . تنشّقت أنفاساً متلاحقة من الدخان المجتهد

في تأليف دستوره : أعادت عَقِبَ اللُفافة إلى ابنها المصغى ضاحكاً إلى خالته في صياحها :

- أأنت عاطلة عن العمل ، ياسيدة؟ .

«عاطلة عن العمل؟» ، تساءلت صاحبة الكلب بصوت طغى على نباح كلبتها . «من تقف على شرفة ، في مساء كهذا ، هي عاطلة عن العمل ، يا عاهرة» . تصنَّعت بحثاً بعينها عن عابرين : «لازُبْنَ لك هنا» .

استدار مومول مقهقهةً ، فاستدارت إليه خالته من الشرفة : «مومول» ، نادته . «هات آلة التصوير» .

جاء مومول المفعم كسلًا في مشيه ، بآلة التصوير . وضعها في يد أمه :

- خذيها إلى خالتي . لن أخرج إلى الشرفة .

تناولت دالومي آلة التصوير من ابنها . اجتازت الباب إلى الشرفة بقدميها الخافيتين . وضعت الآلة بين يدي أخت زوجها ، التي صاحت بالمرأة صاحبة الكلبة :

- سأصوركما . قفي إلى جانب كلبتك .

«ماذا؟» ، صاحت المرأة من أسفل متسائلة .

«سأصوركما أنت وكلبتك . سأصور نباحها أيضاً» ، قالت

مايرامين . رفعت صوتها أكثر :

- أمعك مشط؟ .

«مشط؟!» ، تساءلت صاحبة الكلبة ، فردت مايرامين :

- سَرَّحي شَعَرَ كلبتك . مشطِّي ذيلها .

قهقهه مومول الواقف ، بعدُ ، قريباً من باب الشرفة . كاد يستدير عائداً إلى الردهة في البرهة التي تهيأ له أن يد أمه اندفعت بغتة

إلى خاصرة حالته الجالسة على حاجز الشرفة العريض . لم يرَ حالته بعد ذلك . جاهد أن يفتح أجفانه المثقلة بخدر الدخان الحالم ، لكنه لم يعثر على هيكل حالته ، بل على صراخ هادر ، صاعد من الشارع إلى الشرفة متبوعاً بعويل .

التفتت دالومي صامتةً من موضعها على الشرفة صوب ابنها المقرب هامساً :

- أين خالتي ؟ .

ظلت دالومي على تحديقها الصامت ، عبر شبكة المطر ، إلى وجه ابنها ينزف ماءً من ذوابات شعره البني الفاتح ، الطويل ، محدقاً بدوره إليها مفتوح الفم عن قهقهة ملجومة بالمفاجأة . كرّر سؤاله :

- أين خالتي ؟ .

انحنى دالومي بوجهها إلى أسفل حيث الصراخ والعويل متصلان من حنجرة صاحبة الكلبة . لمس مومول حاجز الشرفة بصدرة ، ملقياً بصره أسفل ، إلى هيكل حالته المنطرحة على رصيف الشارع ، فيما المرأة ذات المعطف المنتفخ تحاول إزاحة هيكلها عن الكلبة الصامتة . رأها تخرج الجسد الحيواني الصغير من تحت حالته أخرس بلا نباح ، أو أنين ، ثم تنهار جالسةً ، مُطلقةً عواءً .

تراجع مومول عائداً إلى الردهة يقطر ماءً . نادى أباه :

- طارت خالتي .

قهقهه كيردي ينفث دخاناً عجولاً . سعل قبل أن يسأل ابنه :

- طارت إلى أين ؟ .

«إلى الشارع» ، ردّ مومول وهو يحاول أن يستعيد من الخدر صورا أكثر يقظةً . «إلى الشارع» ، كرّر رده .

«من أين جاءت بالسُّلَم؟»، ساءله أبوه .
«لا حاجة إلى سُلَم»، ردَّ مومول كأنه مقبل على قهقهة نسيها
برهةً ثم تذكَّرها . أضاف : «ارتفع الشارع إلى أعلى . تستطيع لمس
الرصيف ، يا أبي ، من الشرفة بيدك» .
«لماذا طارت خالتك؟» ، تساءل كيردي فردَّ ابنه :

- لتأتي بالكلبة ، أو لتصوِّرها ، ربما .
نهض كيردي عن الأريكة متقدِّماً ، في كسل ، إلى باب
الشرفة . تأمل بعينه المتراخيتيَّ الأجفان زوجته صامتةً ، ملتصقة
الشعر بوجهها . غمغم مبتسماً :
- أين مايرامين؟ .

نفخت دالومي خيط الماء سائلاً على شفثيها الممتلئتين .
ارتعشت قليلاً من صعود العويل قوياً من أسفل العمارة .
تقدَّم كيردي إلى حاجر الشرفة . انحنى بجذعه يستطلع أرضَ
الشارع : بضعة أنفار كانوا متحلِّقين حول هيكل امرأة منطرحة
أرضاً ، وامرأة مستديرة الشكل تحمل بين ذراعيها هيكل حيوان
صغير ، مشيرة بوجهها ، وبصراخها ، إلى الأعلى . التفت كيردي
برأسه إلى دالومي يستجمع ، بلا اقتدار ، خرزَ المُلغز في خيط
فهمه . اعتلى ، بغتةً ، حاجر الشرفة العريض جالساً عليه . صرخ
بصوت أرسل نبرةً كسولاً إلى أسفل ، يسأل - على نحوٍ فقير المنطق
- أولئك الأنفار سؤالاً متبلِّداً :
- هيَّة . أنتم . أتلک مايرامين؟ .

اقتربت دالومي من زوجها المنحني جلوساً على حافة الشرفة .
وضعت راحة يدها اليمنى على كتفه اليسرى . دفعته بهدوء فاختلَّ
توازنه . استدار إليها بعينين تستجليان مقدارَ الحلم من الحقيقة في

شبكة المطر . هوى إلى أسفل .

«ماذا فعلت؟» ، تساءل مومول بصوت منكسر ، كسول . كرّر :
«ماذا فعلت ، يا أمي؟» .

أصواتُ سلّخت الأصواتَ ، في أسفل العمارة ، بشفراتٍ من
تَبْرِها المَحْدَر ، المنذهل : «ابتعدوا» ، قال بعض الأنفار وهم يلمحون
جسداً يهوي . «إنهم ينتحرون» .

صاحبة الكلب المتكورة الجسد في معطفها المنتفخ ، لم يتسنَّ
لها تحليل الموقف المُلغز من نزول بشرٍ من شرفة في الطبقة الرابعة
من العمارة بلا سلالم . فتحت فمها مستنجدة ، وهي تحتضن جثة
كلبتها ، بعد فوات الأوان : سقط كيردي فوقها .

بعد ستة شهور من مكوث دالومي في سجن جبل آيايانو
الشرقي ، قادتها امرأةٌ شبح إلى باب دهليز راووت . دخلت دالومي
الدهليز محتشداً برسوم القروود في عراكها الخالد . حدقت إلى
الرجل الشيخ ، المعتذر عن عدم وجود كرسي آخر . ساءلته من
فورها ، هي العارفة اسمه مُذِّقاً اقتيدت إليه :
- أtnام ، ياسيد راووت؟ .

«ماذا؟» ، تساءل راووت فضولاً من مدخل لقائهما .
«كلُّ هذا الصنخب من حولك» ، قالت دالومي في إشارة إلى
الرسوم . أردفتُ : «كل هذا العراك» .
أبقى راووت بصر عينيه الغائرتين ، الشرهتين ، على وجه
دالومي المستدير . تتمم :
- أنا لا أنام .

«عرفتُ ذلك» ، قالت دالومي ، التي لم تبدُ معتدلةً الطول في
ثيابها البرتقالية - القميص والبنطال بلا جيوبٍ . «كأنك في حلم

طوال عمرك ، بلا توقف . أتحنُّ إلى الموت؟» .
«لم أعشِ الموت ؛ لم أصاحبه ، فكيف أحنُّ إليه؟» ، ردَّ
راووت .

«نحنُ ، أحياناً ، إلى أمكنة لم نرها ، وإلى أزمنة سحيقة كأننا
عشناها . أمكنة ، وأزمنة بمذاق على لسان خيالنا . كان الموت نظيفاً
فيما مضى . بات وسيخاً الآن» ، قالت دالومي .
نقر راووت بأنامل يده اليسرى على غلاف الكتاب الضخم .
تتم :

- بل الموتُ أكثرُ أناقةً الآن .
هزت دالومي رأسها بالشعر الأحمر مضموماً ذيلاً ، لاتوافقه :
- كان الموت شريفاً فيما مضى .
«ماشرفُ الموت؟» ، تساءل راووت ، فردت دالومي :
- حنينه إلى أناس لا يقاومونه .
نهض راووت متثاقلاً . وقف بجسده المنحني قليلاً عاقداً يديه
خلف ظهر قميصه الأسود الفضفاض :
- هل الحقيقةُ قديمة ، أم جديدة؟ .
«إنها مرتجلةٌ ، بنتُ برهتها» ، ردت دالومي .
«لماذا اخترتِ الطبَّ النفسيَّ مهنةً ، وأنت تعرفين أنْ لاحقائكِ
تُرشدنَ نفوسَ زائريك إليها ، ياسيدة دالومي؟» ، سألها راووت
بصوته المنخفض والمرتفع بالكلمات بلا داع .
«اخترتها لأنها مهنةٌ ابتكار الحقائق المرتجلة ، ياسيد راووت» ،
ردت دالومي . رفعت سبابةً يدها اليسرى تستوقفه عن سَوْقِ سؤالٍ
آخر :
- تشبه بعضَ زائري عيادتي .

«ماوجه الشبه؟» ، ساءلها راووت ، فردت دالومي :
- أنا وزائرو عيادتي كنا متواطئين ، معاً ، على التلفيق .
«أأنا متواطئ معك ، الآن ، على تلفيق شيءٍ مَّا ، ياسيدة دالومي؟» ، ساءلها راووت ، فردت دالومي :
- أرى ذلك في عينيك .
حك راووت حرقدته تحت لحيته الطويلة ، الحليقة الشاربين .
تتم :

- وماذا ترين ، أيضاً ، في عيني؟ .
«لا أرى أبعد من التلفيق فيهما . عينك رماديتان» ، ردت دالومي .

غمغم راووت بلا كلمات . جلس على كرسیه . فتح الكتاب الضخم على صفحةٍ عشواء ، في الأرجح . رفع وجهه صوب رسوم القروء :

- تحتاجين إلى رحلة ، ياسيدة دالومي .
«ألا تراني؟ أنا رحلة ، ياسيد راووت» ، قالت دالومي . مسحت بيدها حاجبها الأيسر : «مُذ دخلت السجن وأنا في رحلة» .
«رحلة أبعد من السجن» ، تتم راووت . أشار بيده اليسرى إلى غمامة خلف رؤوس بعض القروء الهائجة .
في ظهيرة يوم من أيام رحلة الأنفار الثمانية عشر ، استرعت دالومي جملةً كررها يومار في مشاجرة بلا عنف مع توأمه ديرو :
- ستّ مرات مرّقت معطفي .

«معطفك معطفي» ، قال ديرو - الشقّ الأيمن من جسد التوأمين الواحد .

«المعطف الذي أحبه تمرّقه . معطفي ليس معطفك» ، دمدم

يومار ، فتدخلت دالومي الماشيةُ قربهما في مسالك الجبل :
- ألا تختاران ثيابكما ، التي ترتديانها ، بالتفاهم ؟ .
«ليس دائماً» ، ردّ ديرو .

«ليس دائماً؟!» ، عقّب يومار ، النصفُ الأيسر من جسد التوأمين الواحد ، بنبرة تكذيب : «لم يحصل مرة أن تفاهمنا على اختيار ثياب نرتديها ، إلا ثياب السجن البرتقالية هذه» .
«ألهذا لم يمزقها أحدٌ منكما؟» ، تساءلت دالومي مبتسمةً .
حدّقت جانبياً إلى وجه يومار : «أحبُّ المعاطف؟» .

«معطفي ، الذي مزقه ديرو الشرير ستّ مرات ، من جلود سبعين حنكليساً نهرياً ، بكُمّين من جلد الدلفين» ، ردّ يومار .
«معطف من جلود أسماك؟!» ، تساءلت ياروزا القريبة منهما ، بنبرة استغرابٍ ساخر ، فانبرت دالومي باستعراضٍ تحليل موجز :
- إنها رغبتهما في حياة يكونان فيها سمكةً .

«سمكتان» ، قال يومار معترضاً . كرّر : «سمكتان ، ياسيدة دالومي . واحدة في بحيرة سارسيدون الصغرى ، والأخرى في نهر جُون» .

«لا بأس» ، قال ديرو موافقاً توأمه . «تكون أنت سمكة في نهر جون ، وأنا سمكة أتسكّع ، مائة سنة ، مع العقاعيق في شوارع سارسيدون» .

«التسكّع مع العقاعيق علاجٌ نفسي» ، قالت دالومي . أدارت رأسها قليلاً صوب ياروزا : «كالتسكّع مع الكلاب» .
رفع ماهاون صوته ، فجاءةً ، على قُربٍ من المرأتين ، بسؤال يخصّ كلّهم ولا يخصّهم :
- من زار منكم طبيباً نفسياً؟ .

عاجله راسيد الشاب ، صاحب الكُرة ، بجوابٍ ساخر :
- داروم .

«لستُ مجنوناً كمُعْتَنَقِي دِينِ كرة القدم» ، ردَّ داروم عابثاً
بغصن شجرة سرخس فتية .

«لم يَزُرْني مجنون ، بعدُ ، ياداروم . يزور أمثالي العقلاء» ، قالت
دالومي ، فخفَّ داروم إليها بسؤال :
- لماذا يزور عاقلٌ طبيباً نفسياً؟ .

«لأن الزائر في مأزق نفسي؟» ، ردت دالومي .

«ما الفرق بين الجنون والمأزق النفسي؟» ، ساءلها داروم ، ذو
الأنف الطويل ، العريض القاعدة .

ردت دالومي ببعض السخرية واضحاً في نبرِ كلماتها :

- الجنونُ يبدأ قبل بدءِ المأزق النفسي . الجنون لا يمر بمأزق
نفسى . الجنون مستقلٌ لا يحتاج إلى وسيط . إنه كالرياضيات .
«هُوْوه» ، تتمم ماهاهون مُذْ رأى في نبرِ دالومي تلميحاً يخصه .
سألها :

- ما الفرق بين الرياضيات والجنون؟ .

«تبدو اليومَ مرتدياً قناع الدليل ميراس» ، قالت دالومي .
أضافت رداً على سؤاله : «لا فرق بينهما . الرياضيات سباقٌ في
أرقام اللانهائي ، والجنونُ سباقٌ في عددِ الأرقام حتى تعب العقل» .
اقتربت بيتاليا من الثَّلة في المسلك الواسع ، قرب شجرات
الكستنة الجبلية :

- في الأرجح أنني مجنونة ، يادالومي .

«لماذا؟» ، ساءلتها دالومي ، فردت بيتاليا بصوتها المتأكل قليلاً
من أثر الكحول فيه :

- لأنني لم أزل ، منذ توقفي عن العمل سائقةً لسيارة الأجرة ،
أحصي النقودَ التي أجنيتها من ركاب وهميين طوال الطريق ، من
سجن آييانو الشرقي حتى سفح هذا الجبل .

«كم جَنَيْتِ من النقود حتى الآن؟» ، ساءلتها دالومي ، فردت

بيتاليا :

- ما لأستطيع حمله .

تأملتُها دالومي بعينيها الشهلأوين ، الواسعتين ، متظاهرةً نفاذاً

إلى داخل خيالها :

- أنتِ محبَطة . خائبة . يائسة . لا بأس بكل ذلك .

سأساعدك .

«نعم» ، تتمت بيتاليا . «أنتِ مصيبةٌ ربما . أنا خائبة . محبَطة .

يائسة . غاضبة . حاقدة . لا تأنيبَ ضميرٍ في داخلي . كل ذلك

صحيح ، ياسيدة دالومي . لكن لماذا تظنين أنني أريد التخلص

منها؟ إنها أحاسيسٌ تجعلني سعيدة» .

مساءً يومهم ذاك ، حين عثر الأنفار الثمانية عشر على موضع

يتسعهم جميعاً ، تحت لفيف من شجر الصنوبر ، أوقدوا نارهم المعهودة

كبيرةً قليلاً . افترشوا بُسْطَهم الجلودَ . تأمل كلُّ أيامه في الرحلة ببصرٍ

من قياس المسافات بين موضعهم وبين أقرب مكان من ملتقى قواعد

القمم الثماني ، حيث يخمّنون أنه محطة النهاية . لكن لم يستطع

أحدٌ منهم أن يستجمع خياله على لقاء بقتلى هناك . لم يصرّح أحدٌ

منهم للآخر بتصورٍ ما عن لقاء بقتلى هناك . هم يصعدون وفق

ماتتيحه الممرات لصعودهم ، بأعينٍ إلى أعلى أحياناً ، وإلى أسفل

السفح أحياناً ، وقد بدت الأرض الصخرُ ، التي عبروها ، سطوراً سوداً

تتقاطع هنا ، أو هناك ، حول مجرى متفرّع من نهر جون .

«أنت طبيبة نفسية ، ياسيدة دالومي» ، قال جورني الخياط
«حكايات زائري عيادتك تلهبُ الخيالَ في تخميني . هاتي
حكايةً» .

«نعم» ، غمغم ماهاهون مؤيداً رغبةَ جورني الشيخ .
«أنا ملتزمةٌ كتمانَ مايبثنيهِ زائرو عيادتي من هواجسهم ،
وقلقهم ، وسلوكهم ، ومازقهم الواقعية والموهومة» ، ردت دالومي .
«أنا أنكفُلُ لك مَخْرَجاً أمام القضاء» ، قالت أرديلا المحامية ،
يجالسُها ، عن جنبِها ، راسيد صاحب الكُرة ، وداروم فقيهُ البريد .
تدحرجت كرةُ راسيد ، بغتةً ، من عبث يد داروم بها . غمغم
الشاب الأصغر سنّاً في أنفاس الرحلة بنبر محتقرٍ :
«سمعتُ إشاعةً عن أنك لم تزل حياً ، وأنا أنتظر من يبدّدها» ،
قال ، فردّ داروم عليه :

- وأنا ياراسيد ، سمعتُ إشاعةً عن أنك متّ ، وأنتظر من
يؤكد الأمر .

ضربت أرديلا براحتي يديها ، عن جنبِها ، فخذ كلّ منهما
ضربةً رقيقةً :

- فلنسمعُ حكايةً من السيدة دالومي .

«إن أردتموها فخذوها» ، ردت دالومي . وضعت وسادتها
الصغيرةَ الأسطوانةَ في حجرها . أثبتت مرفقيها فوق الوسادة :
«طوال سنة دار شريكان بتّينهما على أسواق الرمال شرق
سارسيدون لبيعهاه» .

قاطعتها روثا الطويلة ، الضخمة العظام :

- متى كانت هناك رمالٌ شرق سارسيدون ، يادالومي ؟

«كانت الأرض كلها رمالاً شرق سارسيدون ، في الزمن الذي

دار الشريكان بتتنيهما لبيعه في الأسواق هناك» ، قالت دالومي مبتسمة .

«أكملي ، ياسيدة دالومي» ، قال ماهاهون باستياء خفيف من أن تُقاطعَ حكايتها ، فاسترسلت دالومي : «ذات ليلة ، إذ نام أحد الشريكين ، هرب الآخر بالتَّين . مضت سنونُ لا يعرف الشريكُ المخدوعُ شيئاً عن شريكه اللص وتَّينهما ، حتى جمعتهما المصادفةُ ، ذات يوم ، وجهاً لوجه ، في سوق الرمال غرب سارسيدون . فوجئ أحدهما بالآخر . قال المخدوع لشريكه اللص ، جاذباً إياه من خناقه : ساكل قلبك . فادَّعى الشريكُ اللص المسكَّنةَ متوسلاً : من حَقك أن تحق عليّ ، لكنني لم أبع التَّين . هاهو معي» .

«مانوع التَّين ، يادالومي؟» ، ساءلتها أرديلا ، ذات الفم الكبير المتناسق . أضافت : «إذا اضطررتُ للدفاع عنك أمام القضاء فعليّ توثيقُ نوع التَّين» .

«من النوع الذي يقرأ كتباً حجرية ، ويكتب بلغة الرمال» ، ردت دالومي .

«هل اقتتل الشريكان؟ بأي سلاح؟ عليّ توثيق ذلك ، أيضاً» ، تساءلت أرديلا بصوت دعابة ، فردت دالومي : «في الواقع أنهما تصالحا كيائسين من بيع التَّين . قال المخدوعُ لشريكه المُخادع : - فلنترك التَّين هنا ، ولنرجع إلى موطننا ، يا شريكي نُورُك . ردَّ المخادعُ اللص : لقد تقدَّمتنا طويلاً في الطريق ، يا شريكي تَارُون .

قال تارون : فلنرجع ، ولنُتدبِّر تجارة مختلفة عن بيع التَّنانين ، يا شريكي نُورُك .

ردَّ نورك : علينا الاستمرار قُدُماً لأن العودة خطأً طويلاً على الطريق الخطأ لبيع التين ، يا شريكى تارون .

قال تارون : ماذا ينفَعُنَا إنْ مضينا قُدُماً ، يا شريكى نورك ؟ .

ردَّ نورك : لقد تبقى القليل من الطريق الخطأ لنصل إلى نهايته ، يا شريكى تارون .

قال تارون : سنعود إلى موطننا ، إذاً ، بعد أن نبلغ نهاية الطريق الخطأ ، يا شريكى نورك .

ردَّ نورك : لن يتبقى وقتٌ للعودة ، يا شريكى تارون .

قاطعَ ماهاون ساردةَ الحكاية دالومي :

- أهذه من أقاصيص الرمزيات النفسانية ؟ .

همَّت دالومي بالرد ، فقاطعتها ماهاون ، من جديد ، بسؤال مُلَحَق : «ما التحليل النفسي لتلك النار؟» ، أشار بيده إلى البعيدِ اتَّقَدَّتْ في سواده النارُ ذاتُها ، التي تواكب نارهم كلَّ ليلة ، فردَّتْ دالومي :

- هناك مَنْ يُقْنِعُنَا أننا وحيدون .

الفصل التاسع:

روثا

«تلزملك صباغةُ شعر ، ياسيد راووت» ، قالت روثا ، ذات الصوت الرقيق غير المتناسب مع الغضب في عينيها ، إذ دخلت الدهليزَ المُعْتَصِرَ برسوم القروود يقطرُ منها السوادُ والرماديُّ صراخاً صامتاً .

«أيُّ لون تفضّلين ، ياسيدة روثا؟» ، ساءلها راووت .
«أفضّل ما يناسب وجهك ، ونظرتك ، وحركة رأسك» ، ردت روثا الطويلة الأنف .

تأملها راووت قليلاً بعينيه الغائرتين ، الشرهتين :
- لالون يناسب شعري ، إذاً ، سوى لونه .
تقدمت روثا في ثيابها البرتقالية من منضدة راووت . أرخت بصرها إلى الكتاب الضخم ، ساءلته :
- ماذا كان لون غلافه تحديداً؟ .

«هذا هو لون غلافه مُدْ وُجِدَ الكتاب» ، ردّ راووت .
«لاأظن» ، قالت روثا . «القِدَمَ أحالَ الأصلَ الأحمر إلى بنيّ باهت» .

«هذا هو أصل لونه» ، كرّر راووت تأكيده .
«يصلُحُ لونا لشعرك» ، قالت روثا .
نقر راووت بأنامل يده اليسرى على غلاف الكتاب ، متتبّعاً

أنا مله ببصره في نقرها :

- لم اخترت مهنة صبغة الشعر ، ياسيدة روثا ؟ .

« لا أعرف » ، ردّت المرأة الطويلة ، الضخمة العظام .

« لماذا تظنين أنني في حاجة إلى صبغة شعري ؟ ألا بدوّ أفضل

مرأى ؟ » ، ساءلها راووت ، فردت روثا :

- لا أعرف .

رفع راووت بصره إليها . غمغم :

- لا تعرفين ، بالطبع ، لماذا أنت معي ، هنا .

« أمهم أن أعرف ؟ » ، ساءلته روثا .

« لا » ، ردّ راووت . نهض عن كرسيه . حرك جذعه الأعلى يمنةً

ويُسرةً يُليّنُ عضلَ خاصرته . تكلمَ همساً :

- ما المشترك بين الكبار في العمر ؟ .

بدت روثا غير معنية بالتفكير في جواب . انتظرت أن يتكلم

فتكلم :

- الزمن ، لذا يعرف أحدهم الآخر من غير أن يلتقيه ، أو

يسمع به .

« أنا كبيرة في العمر إلى هذا الحد ، ياسيد راووت ؟ » ، تساءلت

روثا ذات السبعة والثلاثين عاماً ، فرد راووت :

- لا .

« من التقيت ، ياسيد راووت ، فعرفته ، من فورك ، وأنت لم

تسمع به ، أو تره قبلاً ؟ » ، ساءلته روثا فردّ راووت :

- الرمادي .

قلّصت روثا بين أجفان عينيها الرماديتين على خُصرة ،

مستشفّةً خلاً في المنطق :

- كلنا سمعنا بالرماديّ ، ورأيناه إلاّ العمّيّ .

«ليس الرمادي الذي أنا فيه» ، عقّب راووت . «أنا الرمادي» .

«أنت ، إذّا ، علبةٌ داخل علبة ، ياسيد راووت» ، قالت روثا .

«مديّ يدك ، ياسيدة روثا ، والتقطي من العلبة صرخات هذه الرسوم» ، قال راووت مشيراً بوجهه إلى جدران دهليزه . أثبت عينيه على عينيها : «مَنْ تتذكرين أكثر في حياتك الجديدة هنا؟» ، ساءلها ، فردت روثا :

- أخي ثيان .

تراجعت الصورُ في الدهليز عن بصر روثا ، لتستردّ ببصر قلبها صورَ بيت أبيها آخرَ مرّةٍ كانت فيه . دخل أخوها ثيان مع صديقه لُوبا ، مرتدياً بعدُ بُرّةَ الشرطي الداكنة الزرقة . عانقها . عانق زوجته أبيه البدينة قليلاً . أوماً إلى أبيه بكلمات تحيةً . نزع حزامه العريض ، المستوفى العُدّة لشرطي مثله بتمام المستلزمات : المسدس ، والقيد ، والهاتف اللاسلكي ، والهراوة المطاط ، ومصباح اليد . وضع الحزامَ الثقيل على كرسي من الثلاثة قرب مشجب الثياب ، في مدخل الشقة . تنفس منتعشاً بعد التخفُّف من ثقل أحمال القانون . وضعت صديقه حقيبتها لصق الحزام . جلسا على أريكة قصيرة ، في الردهة ، متلاصقيْن وقد مالت لوبا عليه تكاد تتكئ برأسها على كتفه .

«لماذا أنت صامتة؟» . كانت تلك كلمات الأب كُوسَمَانُو إلى

زوجته بورنا ، الطاهية في مدرسة ابتدائية ، تزوجها قبل أربع سنين ولم يُنجبا . وجّه بصره إلى ابنه مضيفاً :

- هي تخبئ شيئاً ، كعادتها حين تصمت .

«إنّ تكلمت بورنا اتهمتها . إنّ صمتت اتهمتها ، ياأبي» ،

قالت روثا العريضةُ صفحة الوجه بنبرٍ متذمّرٍ ، فحدّجها الأب بنظرة استنكار . نتم :
- محامية الملائكة .

ماتت أمُّ روثا قبل خمس سنين ، من نزفٍ في الرحم لم يفهم . تزوج أبوها المرأة الطاهية ، الحزينة العينين السوداوين ، بعد لقاءين بينهما ، لا غير . أقام حفلاً صامتاً ضمّ ولديه ، وأمَّ بورنا العجوزَ ، وثلاثة من سائقي القطارات مثله ، حضروا بحقائب العمل معهم ، كأنهم ذاهبون تواً إلى تبديل المناوبات في الأنفاق ، تحت سارسيدون . ثيان ، البالغ الثالثة والثلاثين ، غادر البيت مذبات شرطياً للسكنى مع صديقه في شقة صغيرة . روثا ظلت مقيمة عند أبيها وزوجته حتى يومهم ذاك ، وهي في السابعة والعشرين من عمرها .

هيأت بورنا ، الهادئة الحركات ، المائدة بأناة لعشاء العائلة ، فيما وزع الأب الشراب الفودكا بليمون على الجميع ، في كؤوس صغيرة الحجم تجرعوها حتى آخرها ، دفعةً واحدة . أصدرُوا زمجرات من حناجرهم اعترافاً بقوة الشراب ، كأنهم قضموا فلفلاً أحمر حريفاً خمشاً أمرتهم . سارعوا إلى الجعة الباردة يرتشفونها فأطفأوا الجمر السائل .

«من يفعل هذا بنفسه؟» ، دمدم كوسمانو ، ذو الأربعة والستين عاماً ، ناظراً شزراً إلى الجهة اليسرى من عنق صديقة ابنه لونا ، التي اتخذت على جلدها وشماً لنمر سايبيري .

هزَّ ثيان رأسه مستثقلاً نبرة صوت أبيه ، لكن روثا اعترضت :
- كم مرة ذكرت ملاحظتك هذه ، يا أبي؟ لن يأكلك النمر .

التفت الأب إلى ابنته يتأملها في حنقٍ مكتوم :

- لماذا تقيمين معي بعد؟ .

ضرب ثيان فخذه براحة يده اليسرى مستاءً :

- كن كريماً . أنت أبوها .

استدارت صديقة ثيان بوجهها إليه ، فاستدار بوجهه إليها .
طوّق عنقها ، في جلسته ، بذراعه : « مسكننا صغير . لكن إن
أرادت روّنا الإقامة عندنا مؤقتاً فهي على الرحب » ، قال بصوت
متناسب مع رأسه الخليق الكبير .

تصنّع كوسمانو الطويل ضحكاً شاحباً . غمغم بصوت
مستغرب النّبر :

- ما بكمما؟ مزاجكما لا يحتمل مزاحاً .

تقدمت بُورّنا ، ذات الأربعين عاماً ، من الأربعة الجالسين :
« المائدة جاهزة » ، قالت مبتسمة بعينين حزينتين ، مرحّبتين ،
فنهض الأربعة بكؤوس الجعة إلى المائدة . اقتعد كلُّ كرسياً . رنّت
الملاعق في أول مناوشة لها مع الصحون .

« متى ستقتل أحداً؟ » ، بادر الأبُ ابنه بسؤاله الخشن ، وهو
يمضغ لقمته الأولى . هأهاً من فمه المقفل .

« لا أتمنى قتلَ أحد » ، ردّ ثيان الطويل ، الرياضي الهيئة ، الخليق
الرأس تماماً .

« ثمّنتَ ، في كل مكان ، أحداً ما يستأهل أن يُقتل » ، قال
الأب . « كثيرون أتمنى قتلهم في الطريق إلى العمل » .

غمغمت بورّنا ، زوجة الأب ، في تهذيب ثلّفت الرجل الشيخ
إلى وعورة حديثه في مستهلّ عَشائهم . أوقف الأب مضغَ لقمته :
« ماذا؟ » ، ساءل زوجته على مالم ينطق به لسانها بل عينها :
« أأنت طيبة إلى الحد الذي لاتتمنين قتلَ أحد؟ » . ازدرد المضغّة

محرراً فمه كي يقذف بكلمات أخرى : «ألم يخطر ببالك أن تقتليني؟» . ضحك .

نظرت روثا إلى أخيها بوجه مقفل القسمات ، ثم إلى صديقه . ابتسمت لها كأنما تعتذر عن خطأ ما يَعرِّق منه المكان . قرعت كأسها بكأس لوبا :

- أظنني سأزور من صنع لك وشم النمر .

«هه» ، غمغم الأب مستنكراً :

- أتفكرين في ذلك حقاً؟ .

لم ترد روثا ، بل بورنا زوجته ، بصوت هادئ :

- وشم جميل .

قرع الأب ملعقته بسكينه استخفافاً بتقدير زوجته :

- منذ متى صرت خبيرة في الوشوم الجميلة؟ أم تخبئين عني مالا عرفه عنك؟ .

«ياأبي» ، تتم ثيان . «خفف عن بورنا وطأة انتقادك . أرحها» .

«نعم . أرحها» ، تمتت روثا مؤيدة قوله أخيها .

«هكذا ، إذًا!!!» ، ردَّ كوسمانو الطويل ، الأقرب إلى نحافة . ملأ

كأسه جعة من الزجاج الصغيرة . رفع كأسه نخب ابنته متبوعاً بوخز من اللسان :

- من سيربحني أنا؟ .

«أنت . أرح نفسك» ، ردت روثا .

«أنا مرتاح مني» ، قال الأب بابتسامة تصنعت طولاً يفوق

المائدة . أضاف :

- من يربحني منك ، ياروثة؟ .

ألقت روثة بملعقتها ، وسكينها ، في الصحن إيداناً بامتناعها

عن متابعة الأكل . حدّقت إلى أبيها :
- لن أمكث هنا طويلاً . لا أعرف كيف احتملتُ البقاء معك
بعد موت أُمِّي .

«ياأبي» ، غمغم ثيان محرّضاً أباه على اعتذارٍ من أخته .
ضحك الأب . مدّ يده فأمسك بمعصم روثا :
- ياطفتي . يا حديقتي . لن تغادري هذا البيت قبل أن أرمي
عظامي من الشرفة .

عادت الملاعق والسكاكين إلى خلط رنينها بأصوات المضغ ،
وارتشاف الشراب . لم تَدُم الهدنة إلاّ دقيقة . «أتسمعون؟» ، قال
الأب بإصغاء إلى طنين مّا في الطبقة الأعلى من طبقة سُكناهم .
«ثلاثة شبان يتشاركون الشقة ، ولديهم زائرات رَتُلٌ من مدخل
العمارة حتى بابهم . أتمنى الدخول عليهم بمسدسك ، يا ثيان» .
«أنت تبالغ» ، قالت بورنا بصوتها الهادئ . «هم مهذبون لانكاد
نسمعهم» .

«أأنت ، أيضاً محامية الملائكة؟ لماذا لاتأخذين حقائبك
لتسكني معهم؟» ، تسائل الأب مستفزاً من ردّها . حدّق إلى عيني
ابنته المتوعدتين الرماديتين على خُصرة ، وقد اكتست نظرتُهما وعيداً .
«ربما يناسبك ، ياروثا ، أن تنتقلي إلى مسكن هؤلاء» ، قال بإشارةٍ من
سكّينه إلى أعلى . «اجمعي ثيابك الداخلية ، وانضمّي إليهم» .
«ياأبي» ، غمغم ثيان .

«ماذا؟» ، ردّ الأب . «أأنا أزعج روثا؟» . رفع كأس شرابه نخباً
ابنته :

- اغفري لي حرّص الأب فيّ على ثيابك . خذي أحذيتك
فقط ، وانضمّي إليهم .

«يا أبي»، غمغم ثيان من جديد . «لِمَ لا تنضم أنت إليهم ،
وتتركنا نكمل عشاءنا في سلام؟» .

فتح الأب فمه كأنما فوجئ . تصنّع ابتسامةً وسَّعَ المائدة :
«فلنُدْعُهُم لينضموا إلينا» ، قال . وضع يده اليمنى خلف أذنه
منصتاً :

- أسمعهم يقطّعون خضاراً في المطبخ . بعد قليل سنسمع
الأسرة تتخلّج .

روثا تتقن صبغ الشعر بالمقادير المطلوبة ، والمرغوبة ، من زبونات
الحل الذي تعمل فيه . لكنها لم تشغل خيالها ، قط ، بحصافة
المواءمة بين لون بشرة امرأة ولون شعرها . لا تكتثرت لاستعراض
المتحدلقات في قوامين المؤلفات بين لون البشرة ولون الشعر . لماذا
يناسب الأسود ، أو الأشقر ، أو البني ، أو الأحمر ، من الشعر ، رأس
امرأة ، دون سواه؟ التناسق تلفيق ، ربما - تلك قناعتها . ادّعاء
التناسب ، والتناسق بين ألوان البشرات وألوان الشعور تلفيق . تجزم
روثا ، أحياناً ، بلا تزمت في القناعة ، أن حركة امرأة - حركتها
تحديداً - قد تستوجب اختيار لون مّا بعينه ، وتفضيله على سواه ، من
غير إقحام للون البشرة ، وللون العينين ، في موجبات الاختيار ،
والتفضيل ، والاستحسان . ادّعاء التناسب ادّعاء تلفيق في يقينها .
أطوال الوجوه ، أو استداراتها ، وأطوال الأعناق ، وكذلك النحافة
والسمنة ، أمور لا تستوجب ربطها بألوان تناسبها ، وتناسقها ،
وتوائمها ، وتلابسها . لا يهم : امرأة سوداء بشعر أشقر ، أو أحمر أو
أزرق ، أو فضي . لا يهم : امرأة ناصعة البياض ، أو أقل بياضاً ، بشعر
أخضر ، أو أصفر ، أو أسود . لا يهم : امرأة سمراء ، أو صفراء ، أو
شاحبة ، بشعر ذهبي ، أو نحاسي ، أو برتقالي . كلُّ الألوان ، أصيلةٌ

أو متمازجة ، تصلح لشعر امرأة واحدة . لذا أجازت روثة لشعر زوجة أبيها بورنا مزجاً - كلُّ خصلة بلون . وقد رضيت بورنا بذلك ، بالرغم من تمادي كوسمانو في دَحْضِ الخيارِ تسفيهاً ، وتسخيلاً ، وتهديداً بلغ به أن جمع ثيابَ ابنته في كيسين كبيرين من أكياس القمامة السود ، فوجئت روثة بهما في عودتها ، ذات يوم من العمل :
- ماهذا؟ .

«ثيابك» ، قال الأب . «أترين؟ أخفيتُ ألوانَ ثيابك بغلافٍ أسود . ألا يناسب لونُ الكيسين ألوانها؟» .
«سأرحل حتى لو نمتُ في حانة؟» ، قالت روثة .
ضحك كوسمانو ضحكة شاحبة ، فاتحاً ذراعيه يتصنّع جَبَرَّ خاطرها :

- لم أعنِ ذلك ، ياطفلي . أردتُك ، فقط ، أن تكوني مستعدة للمغادرة . ثيابك مرتاحةٌ في الخزانة كأنها ستمكث فيها إلى الأبد .

منذ ذلك اليوم لم تُعدِ روثة تعليقَ ثيابها في الخزانة ، ولم تمدّدها في الأدراج . أبقتهما في الكيسين الأسودين ، في غرفتها .
الأب كوسمانو أشار إلى الكيسين ، في العشاء الذي ضمَّ العائلةَ مساءً ذلك اليوم :

- متى تستفرغينهما ، ياروثة؟ .

«ماذا؟» ، تساءلت روثة ، فردَّ الأب :

- أعني الكيسين .

«حين أرحل» ، ردَّت روثة .

«ضعيهما مؤقتاً أمانةً عند جيراننا» ، قال كوسمانو مشيراً بعينه إلى أعلى .

«ياأبي»، غمغم ثيان للمرة الثالثة . نظر إلى أبيه في وعيد :
 - أتريدني أن آخذ روثا معي الليلة ، لتسكن معنا؟ .
 «بشرط واحد» ، قال الأب . لم ينتظر ردّ ابنه . أضاف : «أن
 تأخذ بورنا أيضاً» . قهقهة وهو يلمس كتف زوجته براحة يده .
 «سأخذها أيضاً» ، ردّ ثيان .
 تصنّع الأب مرحاً برفع كأسه نخب الأربعة الآخرين . وضع
 كأسه على المنضدة . لمس كتف زوجته الجالسة إلى يمينه بيده . رفق
 صوته مستجدياً إشفافاً :
 - أستركيني وحيداً؟ .
 بادلته زوجته لمسة كتفها بلمسها يده . ربت عليها في
 صمت . ضحك الأب مبادراً ابنه بدعابة :
 - لا تفرّق شمل العائلة ، يا ثيان . خذني معهما .
 كانت لوبا ، صديقة ثيان ، الأولى المنتهية من وجبتها .
 شكرت بورنا على طهوها ، وأطرتها . رفع الآخرون كؤوسهم نخبها .
 بعد دقائق باتوا ، جميعاً ، جالسين في الردهة بكؤوس نظيفة في
 الأيدي ، وثرثرات هي ذاتها على لسان كوسمانو : «ذات يوم لن
 أوقف القطار في أيّ محطة . سأظل أسوقه حتى يهترئ حديد
 عجلاله» ، قال . «سأقفل خطّ الاتصال بيني وبين المراقبة في المركز ،
 وسأستمع بصراخ الركاب ، وصياحهم ، وقرعهم بالأيدي على باب
 مقصورتي الموصد» . هأهأ بصوت احترف أن لا تعني الهأهأة شيئاً :
 «سأخذ معي ، ذلك اليوم ، إلى مقصورة القيادة ، كلّ طعام أشتهيه ،
 في حقيبة ، وصندوقاً من الجعة في حقيبة» . جال ببصره على
 الجالسين . تتمم : «ممتع» .
 نهضت روثا في هدوء . توجهت إلى الكرسي الذي أودعه

أخوها حزامه العريض ، الأسود ، مكتمل العُدَّة ، في الممر .
أخرجت المسدس من جرابه . عادت أدراجها .

لمح ثيان المسدس في يد أخته . ابتسم :

- هذا ليس دمية ، ياروثا . إحدري .

«أهو ملقَّم؟» ، ساءلته روثا ، فردَّ ثيان مطوِّقاً كتفي صديقه
بذراعه اليسرى ، الطويلة :

- لا .

«أهكذا تُلقَّم الطلقة؟» ، تساءلت وهي تشدُّ بيدها اليسرى
القسم العلوي من المسدس ، فانزلق المعدن إلى الخلف ، ثم اندفع
إلى أمام إذ حرَّرت روثا من يدها . رنَّ المعدن الأسود .

«انتبهي» ، تتم ثيان . ألقى رأسه الكبير ، الحليق ، صوب لوبا
محدِّقاً إليها في حنان . «المسدس جاهز للتدخين» ، قال بنبر
المحرَّض صديقه على مرافقته لتدخين لفافة تبغ على الشرفة . عاد
ببصره ، من جديد ، إلى أخته الواقفة متطلعة إلى أبيها بعينين
هادئتين . كرَّر كلمته : «انتبهي . هذه الآلة ليست دمية» .

دوى السكون الأكثر صخباً في انفجاره مع صوت الطلقة
خرَّقت رأس الأب كوسمانو . غمام غطى الوجود كثيفاً - غمام
العماء المحرَّض على تسخير العدم سائقاً للقطارات في أنفاق الثور
الصغرى . تصادمت القطارات . خرجت عن سبكها . انمعدت
المقطورات كعُلب ورق .

سقط المسدس من يد روثا على الأرض أحرَس ، صامتاً ، وديع
المعدن .

في يوم من بلوغ الأنفار الثمانية عشر موضعاً دائرياً ، منخفضاً
قليلاً ، لحوا على الأرض كرات صغاراً سوداً ، كحبات العنب ،

كثيفةً في أركان ومتناثرةً في أركان أخرى . خَمَنَّ جينتالو النحيف ،
الطويل العضليُّ ، نوعَها وهو يعمس كُرَّةً بحذائه الرمادي ، الرقيق
الجلد :

- أهذا فطرٌ أسود؟ .

تمعَّن سولكي ، ذو العين اليسرى الأصغر من اليمنى ، في
الكرة الصغيرة الممعوسة :
- هذه بَعْرَة .

«بَعْرَة؟!»، تتمم جينتالو ، مدرَّب النساء على الرقص
الرياضي . نقلَ بصره على المكان :
- أهذا كلُّه أبعاد؟ كيف خَمَّنت ، ياسولكي؟ .

«هو خبير معجَّئات الإفطار . خبير الفطائر» ، بادرته سيتون
بالجواب . «بعضُ الأفران ، في متاجر سارسيدون ، لم يزل يستخدم
روث البهائم وقوداً لإنضاج الكعك» ، أضافت .

«واضحُ أنك خبيرة أيضاً ، ياسيدة سيتون» ، قال سولكي ،
الذي أمضى أربع سنين أخيرة ، قبل دخول السجن ، عاملاً في
مَتَجَر متخصص في الخبز ، والمعجَّات للإفطار على أنواعها .

«أنا خبيرةٌ كلُّما استشرتُ قلبي ، لاعقلي . قلبي ذكي ، وعقلي
ليس كذلك . أعترفُ لك ، ياسولكي» ، ردَّت سيتون . أكملت :
«أتعرف لمن تعود هذه الأبعاد؟» ، مشيرةً بيدها إلى الكُرَات السود ،
والْبُنْيَة ، في أركان ذلك الموضع المنخفض قليلاً .

هزَّ سولكي ، ذو البشرة الحمراء ، المنمَّشة ، رأسه تخميناً :

- بعْرُ ماعز جبلي .

«لاماعز في جبال آيايانو كلها ، ياسولكي» ، عقَّب جينتالو
بصوته الواثق . «قد يكون بعْر دُبٌّ» .

«بعرٌ دُبٌّ؟!» ، تتم سولكي . أدار وجهه على بعض الأنفار :
«اللدّبة أبعاد؟» ، تساءل ساخراً . نظر ، من جديد ، إلى جينتالو
البرونزيّ البشرة يستحصله لوناً من التعرّض للأشعة الصناعية :
«أسمعت بحيوان اسمه الدبُّ؟» .

«هذا بعرٌ غزالٌ» ، قال دايك الشيخ . وطأ بعرةً فسحقها .
«بل هذا بعرٌ وعِلٌّ» ، قال جورني الخياط . حمل بعرةً وقذف
بها راسيد هاتفاً :
- سجّل هدفاً .

حمل داروم أيضاً بعرة يابسة بين سبّابته وإبهامه . تأملها
ساخراً :

- من أين خبراتكم في جنس البعر ، أيها السادة؟ هذه أبعاد
أرانب .

ركل راسيد بمقدّم حذائه كومة صغيرة من الكرات السود
الصغار . غمغم ساخراً من داروم :
- ربما أنت على صوابٍ إن كانت الأرانب في حجمك ،
ياداروم .

«ربما هي في حجم أمك» ، ردّ داروم في فظاظة .
«لا تذكر أمي» ، قال راسيد متوعداً .
«احشُرْ أمك في مغلف من الحجم الوسط . سلّمنيه لأسلمه
يداً بيد إلى . .» ، لم يكمل . أصابت كرة راسيد فمه ، بركلة قوية
من قدم صاحبها . صرخ داروم وجعاً . تحسّس فمه براحة يده
اليسرى . زمجر : «سأطعمك وأطعم أمك هذا البعر» . هرول صوب
راسيد ، فاعترضته أرديلاً :
- داروم . أرجوك .

لجم داروم وثبته الوشبكة على راسيد . لجمه الثبر المتوسل في صوت أرديلا ، فانكفاً مغمغماً في حقد ، مرسلأً بصره سهماً لها إلى راسيد الأصغر سناً بين أنفار الرحلة .

راسيد لم يعبأ بوعيد داروم . مشى يستعيد كرتة . تتم وهو ينظر إلى داروم بعينيه الغائرتين ، السوداوين :
- أنا أجزم أنه قتل أمه .

«ماذا؟!!» ، ساءله داروم بصوت غاضب . كرر : «ماذا قلت؟» .
«من قتل؟» ، غمغم راسيد بصوت انفلت واضحاً من بين شفثيه العاديتين .

«لم أقتل بعد . لكنني جاهز الآن؟» ، رد داروم دمدماً .
«نحن مجموع قتلة» ، قالت بيتاليا جالسة على صخرة صغيرة في حافة الموضع المنخفض - موئل حيوانات ما . «أرخ فضولنا ، ياداروم . من قتل؟» .

احتدم داروم المتطاول الوجه . رد بصوته البحة :
- لماذا شكوككم هذه في أنني قتل أحداً ؟ .
هأهأت بيتاليا بنبر ساخر :
- لأننا مجموع قتلة ، ياملاكي .
«لم أقتل» ، قال داروم في حزم ، محدقاً إلى بيتاليا بعينين واثقتين مما يقول .

«أنت تزيد الشكوك في أنك قتل أكثر من خمسة ، ربما» ،
قالت بيتاليا مبتسمة ، فرد داروم محبطاً :
- سأزيد شكوككم ، إذاً ، بإنكاري أنني قتل .
لمست أرديلا كتف داروم مهدئة :
- لاشكوك عندنا لتزيدها ، أو تنقصها ، ياداروم . نحن هنا بلا

شكوك ، أو يقين . كلُّ مانعرفه أننا نصعد الجبل .
«صوتك حزين ، ياأرديلا» ، قال ماهاهون ، ناظراً إلى غيمة صغيرة ، بيضاء ، مترددة في حسم اتجاهها .
«الحزن عقل الحياة» ، عقبَ دالومي . «الحزنُ مُقنَعٌ» .
«أوه» ، تتم ماهاهون في رضى من سلوك الخيال بدالومي إلى التوريات الحاملة . اقترب منها :
- هل السُعداءُ خطأ في تعبير المنطق عن نفسه ؟ .
«السعادة تعبيرٌ خطأ عن الرياضيات» ، ردت دالومي من مسحة الجمال الأخيرة في سنينها الثماني والأربعين . ابتسمت من الدعابة في ردّها .
«لَمْ لا؟» ، تتم ماهاهون مبتسماً . «هذا فهمٌ يستعير من نقيض نفسه ما يُعزّزه» .
سرّحت دالومي بصرَ عينيها الشهلاوين ، الواسعتين ، في مراقبي الجبل . تتممت بدورها كأنها لا تخاطب أحداً :
- الفهمُ إحساسٌ ، وليس تجربة .
«تلجأين إلى المخالفات» ، قال ماهاهون . «مالذي تحاولين تأكيده ، الآن؟» .
«لا شيء . لا أريد تأكيد شيء ، أو دحضه ، مادمننا نستطيع أن نفهم لا مبالة إنسان الكهوف بتاريخنا» ، قالت دالومي .
«ماذا؟» ، ساءلها ماهاهون بنبرة استغراب ، فردّت دالومي كأنها اختارت كلمة عشواء بلا سياق :
- المستقبل .
ابتسم ماهاهون . ثبتَ نظّارته ، بعد انزلاقٍ ، على قاعدة أنفه .
ساءلها :

- ما المستقبل ؟ .

«جرحٌ احتياطيٌّ» ، ردت دالومي .

مساءً ذلك اليوم حثَّ جورني الخبيرةَ في صبغ الشعر على سرِّد
قصةً :

- ألدّيك حكايةٌ مّا ، ياسيدة روّثا ؟ .

«لديّ ما قرأتُ في الكتب الرائجة» ، ردت روّثا .

«لا» ، قال جورني . «أعني حكاية من اللواتي بلا نظام» . مطّ
عنقه بسؤال لا سياق له :
- أأنت في العشرين ؟ .

«أنتنظر شكراً مني على إنقاص سبع سنين ، ياسيد
جورني ؟» ، ردت روّثا .
«أنتنظرُ حكايةً فتيّةً» ، قال جورني .

«قرر مغامر» - هكذا بدأت روّثا الحكاية بنبر كئنا تترجّل
ماترويه : «قرر أن يعيش فصلّي الصيف والخريف في الغابة الشمالية
وحيداً ، في عزلة ، مع النمرور ، والدببة ، والفيلة ، والتماسيح» .
قاطعتها بيتاليا متضاحكة :

- لافيلة ، لانمرور ، لاتماسيح ، في الغابة الشمالية . تجولتُ فيها
بسيارة الأجرة مئات المرات وأنا أنقل الدببة إلى كهوفها المدفأة
شتاء .

«ماذا تقاضيت من الدببة أجوراً لقاء ركوب سيارتك ،
يا بيتاليا ؟» ، ساءلها يومار - التوأم النصف الأيسر من الجسد الواحد .
«دعوا روّثا تكمل حكايتها» قال جورني بصوت عال . وجّه
بصره إلى روّثا يحثّها في البريق الخافت لنار المساء ، فاسترسلت
المتخصصة في صباغ الشعر : «في الغابة الشمالية نمرور ، وتماسيح ،

وفيلة ، وغزلان ، ودببة ، وأرانب ، تعيش جميعاً في ونام . أهذا كثيرٌ في هذا العالم؟» ، تساءلت باستياء .

«لا . أبداً» ، ردَّ ديرو - التوأمُ النصفُ الأيمن من الجسد الواحد . عادت روثا إلى حكايتها : «أكلَ المغامرُ فطراً مسموماً ، وسَمَكاً من أنهار الشمال المسمومة ، وورقَ شجر مسموم . كلُّ حيوان تصيِّده كان مسمومَ اللحم ، وقد أكلَ جميعَ ماتصيّده . أكلَ المغامرُ من السموم مالا تتحمله أمةٌ من الطاعون في القرون الوسطى» . «مات المغامر» ، عقبت بيتاليا .

«لم يمِت» ، خطأتها روثا . «تصميمه على العودة إلى سارسيدون مكَّنه من مقاومة كلِّ سمٍّ» .

«لماذا ترك سارسيدون ، إذا؟» ، ساءلتها بيتاليا ، فردَّت روثا : - ليعترف لأهلها بشيءٍ ما بعد مغامرته المذهلة .

«ما المذهل في مغامرته ، ياروثة؟ ذهب إلى الغابة ليأكل سموماً ، ورجع» ، قالت بيتاليا . استدركت : «أرجع إلى سارسيدون؟» .

«نعم . ليعترف كم حنَّ إلى الناس» ، ردت روثا . «هذه طباعُ الإنسان» ، عقبت ميلادين ، القصيرة البدينة ، الموظفة في دائرة الضرائب .

غمغمت روثة مسترسلةً في إتمام حكايتها بشيءٍ من البتر الواضح في السرد :

- رجع ليعترف كم حنَّ إلى الناس ليكرههم أكثر . «هذه طباعُ الإنسان» ، عقبت ميلادين من جديد . «مالذي ليس من طباعه ، إذا؟» ، تساءلت روثة في استهجان . تلمل الأنفار الثمانية عشر في مجلسهم إذ أطلَّ عليهم ، بغتةً ،

من أكمة على بُعد أذرع قليلة ، شبحُ حيوان واضحاً في المساء ،
الرمادي . ومضت عيناه في الشكل المتقن جسداً مستطيلاً بقرنين
جليلين لهما شعابٌ . حدّق إلى الأنفار يتشمّم الصّور أفوايحَ من
هيئات المخلوقات التي تمشي على قدمين . حدّق الأنفار إليه
صامتين . استدار الحيوان ، في هدوء ، صاعداً مراقي الجبل .

«أعرفتم نوعَ هذا الحيوان؟» ، تساءلت بيتاليا بصوتها المتأكل
النّبر ، فردت روثا :

- إنه نمرٌ بأربعة قرون .

الفصل العاشر:

رابكين

بَدَفَعَ قَوِيٌّ مِنْ يَدَيْ رَابِكِينَ عَلَى ظَهْرِيهِمَا ، هَوَتِ الْمَرَاتَانِ عَنْ حَافَةِ رَصِيفِ النَّفْقِ إِلَى الْأَخْدُودِ الشَّاحِبِ تَلْتَمِعُ فِيهِ السَّكَّتَانِ الْحَدِيدُ مُتَوَازِيَتَيْنِ . عَجِيجُ الْقِطَارِ الْمُسْرَعِ ، وَزَعِيقَةُ الْمَعْدِنِيَّانِ ، التَّهْمَا فِرَاحَ النَّفْقِ ، وَمَرَّغَا كُلَّ صَوْتٍ آخَرَ فِي الرَّمَادِيِّ الْمَهِيمِنِ لَوْنًا عَلَى كُتْلَةِ الْمَكَانِ .

إِمْرَأَةٌ عَجُوزٌ انْتَبَهَتْ إِلَى مَا جَرَى فِي مَقْدَارِ كَالِوَمُضٍ . أَشَارَتْ إِلَى بَعْضِ الْوَاقِفِينَ ، عَنْ بُعْدٍ ، عَلَى حَافَةِ الرَّصِيفِ بِوُجُوهِهَا إِلَى مَقْطُورَاتِ الْقِطَارِ يَنْتَظِرُونَ وَقُوفَهُ لِيَسْتَقْلُواهَا . لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا أَحَدٌ . مَا مِنْ اِكْتِظَاطٍ كَانَ فِي الْمَحْطَةِ النَّفْقِ . سَرِيعًا دَلَفَ الْمُنْتَظَرُونَ إِلَى الْمَقْطُورَاتِ . سَرِيعًا خَرَجَ الْوَاصِلُونَ الْقَلَّةُ مَهْرُولِينَ ، فِي اتِّجَاهَيْنِ ، إِلَى الْخَارِجِ ، غَيْرَ عَابِثِينَ بِإِشَارَاتِ الْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ إِلَى مَا لَا يُفْهَمُ ، وَتَلْمِيحَاتِهَا الصَّرِيحَةِ إِلَى الْحَدَثِ الْمَرْوَعِ ، صَارِخَةً :

- أَحَدُهُمْ رَمَى امْرَأَتَيْنِ تَحْتَ الْقِطَارِ . لَقَدْ صَعِدَ الْمَقْطُورَةَ

الْآخِرَةَ .

رَابِكِينَ ، وَأَخْتَهُ زَارُئُو ، وَصَدِيقَتَهُ أَنْاسَا ، وَصَلُوا الْمَحْطَةَ النَّفْقِ أَوَّلَ الْمَغِيبِ ، مُبَكِّرَيْنَ دَقَائِقَ تَسْعًا عَلَى وَصُولِ الْقِطَارِ . تَجَوَّلُوا عَلَى رَصِيفِ النَّفْقِ الطَّوِيلِ ذَهَابًا ، وَإِيَابًا ، بِخُطُواتٍ بَطِيئَةٍ ، مُسْتَرْسِلِينَ - تَرْجِيَةً لِلْوَقْتِ - فِي نَقْدِ الْغَدْرِ الْإِنْسَانِيِّ بِالْمُنَاخِ . لَكِنَّ أَنْاسَا ، الْقَصِيرَةَ

المتناسقة ، الطفولية الصوت ، كانت متراوحة الموقف من على الطبيعة ، بين غدر الإنسان بها ، وبين شيخوخة الكوكب الأرضي :
- إننا نقرب من اليوم الذي تبتلع الشمس فيه الكرة الأرضية كحبة زيت السمك .

ابتسمت زاريو الأطول من أخيها ، ذات الثلاثين عاماً :
- لماذا مثل حبة زيت السمك ؟ .

«أبتلعُ ، كل صباح ، حبةً من زيت السمك بغلافها . هذا ماستفعله الشمس بالأرض . إنه أقسى مما يفعله الإنسان بها» ، ردت أناسا الجذابة الهيئة .

«لن تبتلع الشمس الأرض ، ياأناسا ، بل ستجرعُها كآخر كأس نبيذ» ، قالت زاريو من فمها الرقيق الشفتين .
«نبيذ أبيض ، أم أحمر؟» ، ساءلها رابكين ، فردت أخته واضعةً يدها على كتفه ، مطوّقةً بذراعها الأخرى عنق صديقه :
- نبيذ أزرق .

أفراد قليلون تقاطروا ، من جهتين إلى نفق المحطة ، بأصوات صدىً من أحذيتهم ، ومن أحاديثهم المعلنة كصوت أناسا المعلن :
- الأرض تشيخ ، والإنسان لايراعي شيخوختها . كرثنا الأرضية ، الرائعة ، ستنقذف كذبابة إلى فم الشمس بعد مليار سنة .

«ذلك يعني أننا ، نحن الثلاثة ، لن نشهد ذلك» ، قالت زاريو ، ذات الشعر الأشقر ، القصير ، الأجد قليلاً ، والعينين البنيتين :
هزت أناسا رأسها أسفاً على الوقت :
- ماالميار سنة؟ تغمض الشمس عينها وتفتحها فتتنقضي المليار .

اعتصرت زاريو عنق أناسا بذراعها في رفق :
 - لاتقلقي . ستدافع الكرة الأرضية عن نفسها بشراسة .
 «ضد الشمس ، ربما ، لاضدّ الغول البشري» ، عقب رابكين .
 انعطف بحديثه من غير تمهيد :
 - لماذا تحتاج الآلهة إلى مبشرين بها؟ .
 «لأنها آلهة» ، ردّت زاريو .
 تأملها رابكين متوسّلاً توضيحاً ، فأجابت أخته نظرتة
 المستفسرة :

- إنها رغبتها أن يكون لها مبشرون مثلك . ألا تتق برغبتها؟ .
 «أثق بي» ، ردّ رابكين . «لذا أبشّر بها» .
 ربت أخته على كتفه براحة يدها اليمنى :
 - متى ستفرغ هذه الحقيبة من أوراق إلهك ، وتملأها فستقاً؟ .
 تحسّس رابكين حقيبة كتفه الكبيرة منتفخة بأوراق التبشير ،
 وكراريس الدعوة إلى إلهه ، الذي خلق آلهة ليقايضها بما لم يُحْمَن
 أتباعه ماهياتها . هو أنشأ آلهةً أُخرَ في حلقة مجلسه اللاموصوف
 من لوعته ، ومنحها من لسانه سلطنة اللاموصوف . أغدق عليها
 ألقاب المطلق ، وسحرَ الضرورات اللاموصوفة . هيأها قوةً بأقدام في
 النور ، وأقدام في الظلام اللاموصوفين . سوّأها أبعاداً لاتزاحمها
 أبعادٌ موصوفة . أجلسها معه على شرفة الشك في كل شيء
 يُبَاسِطُهَا خُطَطَ المُشْكَلِ الأَنقى ، والمَازِقِ الأَنقى ، كي تبتكر تلك
 الآلهة المخلوقة المداخل في هذه الخطط والخارج منها . إله مازق .
 هكذا هو تصريفه في التعريف بين أتباعه . «هو مازق» ، ونحن
 مازق . سيدوم الأمر هكذا حتى اليوم الذي ستبدأ فيه المقايضة ،
 وتُحسم ماهية المتعینات ، التي سيقايض بها إله رابكين الآلهة التي

خلقها بما ستقايضه هي بها . المسألة برمتها هي ، قبل الحسم المنتظر الموعد ، قدسية المأزق ؛ رفاهة المأزق ؛ التسليم بالمأزق ؛ إجلال المأزق ؛ الترفيه بالمأزق عن الوجود لينتعث في خيال الأتباع . أمثال رابكين ، الجريء في اقتحام الكاندرائيات ، والمقاهي ، والمتاجر ، بالأوراق وبالكراريس في يديه يعرضها على الأبصار ، بنداء من صوته الوعظ :

- إلهي لا يريد من أحد شيئاً . لا يعدُّ أحداً بشيء . لا ثواب لاعتقاب . لا يريد متوددينَ إليه رغبةً في مبادلة توددهم بهباته لا يريد مساومتهم على فعل الخير بهدايا خير في الحياة ، أو مابعدها . لا تُعساء ، أو سُعداء في عروض خياله . إله نفق ، ومأزق ، نفق .

«ما الإغراء في الإيمان بإله كإلهك؟» ، يُسأل رابكين أحياناً ، فيردُّ العبارة المصكوكة في كراريس آباء المذهب ، الأخبار المتشرفين بإنكار أسمائهم ، وإغفال إمضاءاتهم على تشريع المُعتَقَد :

- الإيمان بالمأزق اشتراك في الحسم ، جيلاً بعد جيل .
«في حسم ماذا؟» ، يُسأل رابكين أحياناً ، فيستعيد من سجل العِلْم اللاموصوف عبارة الرهبة :

- في حسم المقايضات المذهلة .
رابكين اقترح الوقوف على أول الرصيف في مدخل النفق . عارضته أخته وصديقتة ، مقترحتين ، بدورهما ، الوقوف في وسط رصيف النفق ، وعذرهما أن ركوب مقطورات منتصف القطار يختزل خروجهم من محطة الوصول .

«لا أريد الجلوس في مقطورة مكتظة» ، تعلَّل رابكين .
«لا تكتظ المقطورات في هذا الوقت . غادرت الناس أعمالها إلى

البيوت من ساعة» ، ذكّرته صديقتة ، فعاند رابكين متوقّفاً أنهما ستليّنان :

- اصعدا أيةً مقطورة شتّما . سأستقلّ الأخيرة الفارغة .

توجه الثلاثة بالخطى البطيئة ذاتها صوب أوّل النفق . أحسوا الخريّر الخافت لجداول الصوت المعدن جارياً تحت أساسات الإسمنت . القطار لا يوقف سرعته إلاّ بعد عبور مدخل النفق الطويل يسبقه الهواء المندفع هارباً من صدام الكتلة الهادرة . تلفت رابكين من حوله . أنفاز على بُعدٍ من موضعهم متناثرون . امرأةٌ عجوز كانت الأقرب إليهم ، تتمعّن بعينيهما في صحيفة إعلاناتٍ صغيرةٍ المقاس . تقدّم إلى حافة الرصيف تماماً . انحنى قليلاً يستطلع عمقَ النفق من جهة مجيء القطار . ألقى أضواءً مقدّمة متقدّدة في الظلام الأسطواني المتمدّد طولاً . تكلف النظر ، من علياء الرصيف ، إلى أسفل ، على نحو كالمدقّق في شيءٍ ملفت . أشار بيده إلى أخته وصديقتة أن تشاركاه التدقيقَ ، فاقتربتا من الحافة في فضول . أحنّتا رأسيهما بعيون إلى السكة الحديد شاحبة اللّمع في كمينها . جال رابكين ، لمرةٍ أخيرة ، ببصره على الرصيف : كل شيء على حاله : أنفاز قريبون من الحافة ، عن بُعدٍ منهم ، كلٌّ بتخطيطٍ ليستقلّ المقطورة المنشودة . المرأة العجوز تقرأ الصحيفة ، واقفةً ، حتى الرمق الأخير لسطور إعلاناتها .

استدارت المرأتان إلى رابكين خائبتين لم تعشرا على ما يستوجب التدقيق في الأخدود الفارغ إلاّ من السكة الحديد ، وأخشاب الوصل والربط المتوازية . ألحّ رابكين ، بإشارة جديدة من يده ورأسه ، على التدقيق ثانيةً ، فألقتا بصريهما تدقيقاً تستطلعان الخفيّ ، الذي يراه رابكين ولا تريانه . أعشى عيونهما الضوء الساطع

مندلقاً من مقدّم القطار . عجّلنا إلى لقائه سقوطاً في الأخدود بدفع من يديّ رابكين . قرع الصّدّم الخافت لجسديهما بالحديد .

المرأة العجوز لمحت ذلك في ومضة من التفاتها إلى رابكين ، وقد تماوجَ شعرُها من أنفاس الهواء اللاّث مندفعاً ركضاً أمام القطار . صرخت صرخة تشظّت . توقف القطار . لم يتوقف صراخها . نزل ركابٌ وصعد المنتظرون ركوباً . هروا رجل في زيّ أسود رسميٍّ من جهة مَخْرَج النفق قادماً إلى مدخل النفق . هو الأوحّد أدرك مغزى إشارات المرأة العجوز إلى المقطورة الأخيرة . إنه سائق القطار مُذّلم ما يُريب في ثوانٍ قبل بلوغه أولَ رصيف المحطة . لكن لم يعرف ماذا جرى .

رابكين كان داعيةً ناشطاً من المبشرين بإله خلق آلهة ليقايضها . كل صباح يتردّد على مبنى الإرسالية - الدارِ المستطيلة ، الواسعة ، العديدة الغرف والأروقة ، ليتزوّد بالعدّة الضرورية للمهنة : أوراق بنصوص وسط رسوم الحداثق الهندسية ، وطيور أكالات النحل ، وكذلك الكراريس القليلة الصفحات ، بقصصها عن أساطير الخلق التي لا تشبه أساطير الخلق في أيِّ مُعْتَقَدٍ آخر : « حين مُنَحَ البحرُ عينين صُعِقَ البحر : كانت تماثيل المأزق منتصبّة على كل صخرة في سواحله » .

رابكين لم يأبه للسخریات في نزوله اليومي إلى أية ناحية من سارسيدون يحظى بحشودٍ بشرٍ فيها . عنيداً دخل الساحات . عنيداً وقف على مداخل أنفاق القطارات ، وأبواب المتاجر الكبار ، بهباته من الورق والكراريس . ماهمّه أن يُعرّض الناس عن يده الممدودة ، أحياناً ، في فضاظةٍ من نُطق وجوههم سامةً منه ، أو أن يرى بعضاً يقذفون بما أخذوه من ورقه إلى أقرب سلة مهملات . آلهة كثرٌ من

حولہ ، لہم ظلالٌ مفصّلةٌ من فضلةِ ظلِ الإله الأعظم - خالقِ
الآلہة . أيديہم ملاءٌ بأشیاءٍ لن یخمنہا أحد . لیست کراریس ، أو
ورق تبشیر قطعاً . لكنها هناك - أشیاءٌ ما فی أيدي الآلہة الکثر
المخلوقة . سینجلي عن ماہيتها حجابُ الهیولی لتنکشف المذَرَکاتُ
المحسوسةُ فتقایضُ بها ماسیقایضُها به الإلهُ الأعظم . هي الآلہةُ
المخلوقة تُعرضُ ، مثل رابکین ، أشیاءَها اللامعلومة على خلقِ
لامعلوم ، فی التبشیر بالقیامة المقایضات ؛ عنيدة ، حریصةً ألاَّ
تغضبَ ، رقیقةً فی النفخ من أفواہها على الوجوه مداعبةً .
« هذا إلهي » ، یهتف رابکین بالعابرين . « لا یرید شیئاً . لا یرید
منکم شیئاً » .

یقیم رابکین مع صدیقته أناسا ، البالغة ستاً وعشرين سنة ،
فی شقة صغيرة ، قریبة من دار إرسالية التبشیر الفخمة ، وقریبة
أیضاً من محطة القطار الذي تعمل أناسا ، فی کشک على
مدخلها ، بائعةً لحقائب السفر الصغار ، وحقائب الأکتاف . أخته
زاریو ، الشریكة فی محلٍ لبيع الأزاهیر ونباتات الزينة ، تقیم
وحدها ، فی العمارة ذاتها التي یقطنها رابکین . تزورهم کثیراً فی
المساءات بیدين تحملان طعاماً جاهزاً ، على الأغلب ، تجلبه فی
طریقها ، أو تشارك أخاها وصدیقته فی تدبیر طهوٍ یحضرون عناصره
باتفاق فی مکالمات هواتفهم المحمولة .

رابکین اتّخذ أناساً صدیقةً منذ سنة وشهر واحد ، قبل رمیها
فی خندق سكة القطار . أناسا عذبة الحضور ، طیّعة الطباع ،
مبتسمة العینین السوداوین . استعذبتُها زاریو ، ذات الصوت المتعب
النّبر بلا سبب . وهي تبالغ ، أحياناً ، فی إضافة إرهاقٍ إلیه لتستحوذ
على سامعها . كانت تعانق أناسا ، فی کل دخولٍ إلی شقة أخيها

عناقاً يطول . ثم باتت تجتذبها ضمماً ، وحضناً متواصلين كلما بادلتها
 أناسا فكاهةً ، أو مزاحاً ، أو بدت منها طرافةً موقف أو حركة .
 رابكين سخر ، أول الأمر ، من مبالغات أخته في معانقات
 صديقتها ، ثم تبرّم منها واستثقلها إذ رأى أخته تُرفق العناق ،
 أحياناً ، بقُبل خطف على شفّتي أناسا : «أهذا طراز جديد من
 سياسة التحبُّب ، يا أختي؟» ، ساءلها مرةً ، فردت وهي تدفعه دفعاً
 ليناً بيدها :

- أتغار؟ .

«لم أفهم ، يازاريو» ، ردّ رابكين بصوته النبرة الوعظ .
 «في التاريخ ، يارابكين ، أساليب كثيرة من التحبُّب ،
 والاستلطاف ، والترحيب ، تغيرت من زمن إلى زمن . المصافحة ،
 والتقبيل من الجباه ، والأكتاف ، ورفع الأيدي بالتحية ، وتمريغ
 الأنوف على الأنوف ، زادت ونقصت من زمن إلى زمن . أضيف
 إلى أولئك الطرائق العناق ، والحضن ، وشمّ الشعر ، وتقبيل
 الأيدي» ، قالت مسترسلةً ، فقاطعها رابكين :

- سألتك : في أيّ بلد استعاضوا عن تقبيل الوجوه ، في عناق
 الأصدقاء ، بتقبيل الشفاه كما تفعلين مع أناسا؟ أم الأمر طراز
 مُستحدث سنشهد انتشاره حتى يغدو عُرفاً؟ .

مدت زاريو ذراعيها أمامها لتستقرّ راحتا يديها على كتفي
 أخيها . كشرّت عن أسنانها متصنّعة إرهابه :

- أتغار؟ .

«أغارُ من على أناسا؟» ، ردّ رابكين . «تقبيلك فمها غير
 مفهوم» . حدّق إليها بنظرة اتّهام : «أم هو مفهوم؟» ، تتمم .
 التفتت زاريو إلى أناسا . ساءلتها :

- ألا تحبين ذلك؟ .

رفعت أناسا كتفيتها تعبيراً عن أنها لا تملك حُكماً . تمتت :

- لا يهمني .

«أنا لأحب ذلك» ، قال رابكين بنبر تأكيد .

استلقت زاريو على أريكة الردهة مصفرةً صفيراً خافتاً :

- ستعتاد ، يارابكين . إستشِرْ إلهك .

حدق رابكين طويلاً إلى صديقه أناسا يستحثها على قول

حَسَم ، فبدت صديقه غير معنيّة وهي تلتقم قشدةً مثلجةً بملعة صغيرة . احتدم :

- أأنتما سحاقيتان؟ .

لم يكن ردُّ فعل أناسا ليُذكرُ على ماتوقعه رابكين صادماً .

ابتسمت . أما أخته فاعتدلت في جلستها على الأريكة :

- للجميع متَّسعٌ ، يا أخي . تمالك نفسك .

«متَّسعٌ في ماذا؟» ، تساءل رابكين بصوت بارد .

«في الملكية» ، ردّت أخته بصوتها المتظاهر تعباً ، أو هكذا هو

نبرّه .

مدّ رابكين جذعه في جلوسه على كرسيّ قصبٍ ، ذي مسندٍ

ظَهْرٍ وثير :

- في ملكية ماذا؟ .

«في ملكية الشفاه ، يارابكين . الشفاهُ مَسَاحٌ . اسأل إلهك» ،

ردت زاريو .

بعد صمت طويل من رابكين تقلّبت فيه الصُّورُ على خياله ،

غادرت زاريو الشقّة تاركةً خلفها قبلةً على فم أناسا . رابكين أجّل

اعتراضه حتى غادرت . سدّد سهمَ طلبه الصارم إلى صديقه :

- أوقفني أختي عن تقبيلك من الفم .

«هي أختك» ، ردت أناسا بصوتها الطفولي .

هز رابكين يديه أمام وجهها غضباً من ردّها المفرط في تساهله :

- هي أختي وليست زوجك ، أو عشيقك ، يا أناسا . أوقفها

عن تقبيلك من الفم .

أبدت أناسا عجزاً بتعابير في ملامح وجهها :

- أستحي أن أسألها ذلك ، يارابكين .

«تستحين؟! ماذا لو جرّتك غداً إلى سريرها؟» ، تساءل

رابكين . انتفض عرق في صدغه مستفطعاً الفكرة . لكنّ الصُّورَ

المطارق لم تبرح قرعاً على صفيح وساوسه . صور لمس من يدي

أخته لجسد صديقتة . صور عارية حتى السلخ .

جلس رابكين على آخر كرسي من المقطورة الأخيرة في القطار ،

بعد رمي صديقتة وأخته في خندق السكة الحديد فقرقع جسدهما

صدماً للكتلة المعدن المندفعة بزعيق . رأى من النافذة ، حيث جلس ،

المرأة العجوز مشيرةً بيدها إليه ، في إلحاح ، إذ جاورها السائق في بزّته

السوداء ، الخاصة بسائقي القطارات . أغمض عينيه مُنْهَكاً .

كان سؤال رابكين مباغتاً يوم دخوله دهليز راووت المُستنطق

اللامستنطق :

- أتؤمن بإله ، ياسيد والوت؟ .

«راووت» ، صحَّح الرجلُ الشيخ لفظَ اسمه .

«اسمك شبيه بأسماء من لا تاريخ لهم ، ياسيد راووت» ،

عقّب رابكين .

«مَنْ هم الذين لا تاريخ لهم ، ياسيد رابكين؟» ، ساءله

راووت ، فردّ رابكين :

- الذين تستشهد النصوص بحضورهم بغتةً ، واختفائهم بعد ذلك ، ياسيد راووت . في نصٍ استظهره لك يقول حَبْرٌ من أحبار مُعْتَقَدِي الجملة التالية : نظر رجل وراء أكتاف الجمهرة إلى الجسد الملقى أرضاً . تراجع واختفى .

«ما اسمه؟» ، ساءله راووت .

«لا اسم له» ، ردَّ رابكين

«كيف يشبه اسمي اسمَ شخص لا اسم له ، ياسيد

رابكين؟» ، ساءله راووت ، فردَّ رابكين :

- هو هكذا تحديداً . راووت اسمٌ يشبه اسمَ شخص لا اسم له .

نقر راووت بأنامل يده اليسرى على غلاف الكتاب الضخم

صامتاً . عاد رابكين إلى سؤاله الأول :

- أتؤمن بإله؟ .

«لا أحب الأسئلة كثيراً ، ياسيد رابكين ، وبخاصةً تلك

المتمادية منها» ، رد راووت .

تقدم رابكين ، ذو الثماني والعشرين سنة ، من منضدة الرجل

الشيخ . حرَّك يده اليسرى كعادته متكلماً :

- ما الأسئلة المتمادية؟ .

«تلك التي عن النساء ، والآلهة ، والموت» ، ردَّ راووت .

«أنت» ، تتم مستطرداً : «أتؤمن ، أنت ، ياسيد رابكين ، بإله؟» .

«أؤمن بإله خَلَقَ آلهةً ليقايضها» ، ردَّ رابكين .

«ألا يشبه آلهة البشر الأخر؟» ، ساءله راووت ، فردَّ رابكين :

- الآلهة الأخر تتحدث كالآدمي ، وتمشي مثله .

«أرأيت آلهة تمشي ، يارابكين؟» ، ساءله راووت ، فردَّ الشاب ذو

اللحية الخفيفة ، المُتَقَنَّة حلاقةً كالرسم :

- الكلمات التي تقولها لا يقولها إلا شخصٌ ماشياً .

«كيف يتكلم إلهك؟» ، ساءله راووت ، فردَّ رابكين :

- لا يتكلم .

«كيف يمشي إن لم يكن يتكلم؟» ، ساءله راووت مبتسماً ، فردَّ

رابكين بثقةٍ من صوتهِ الوعظِ :

- لا يمشي .

«كيف يأتيكم وحيه من السماء؟» ، ساءله راووت ، فردَّ الشاب

القصير الشعر على شُقرة :

- لا يأتينا وحيه من السماء . لانصغي إلى وحي السماء بل

وحي الأرض ، الذي يَعِدُ بتوزيع السماء علينا حصصاً متساوية .

«ماذا في السماء ، ياسيد رابكين ، من نفائسٍ

ستقاسمونها؟» ، ساءله راووت ، فردَّ رابكين :

- ما يصلُح منها للمقايضات .

«أتعني الكواكب ، والنجوم ، والسُحب ، ياسيد رابكين؟» ،

ساءله راووت مبتسماً ، وهو يدير بصره عن الشاب إلى رسوم

القروء ، فردَّ رابكين :

- لم يُحَسَمَ بَعْدُ ماذا تكون أشياء المقايضات . نحن ننتظر

ذلك بإيمانٍ في أنَّ المَازِقَ سَيَتَدَبَّرُ مَخْرَجاً للوجود .

أعاد راووت بصره ، ثانيةً ، إلى رابكين . نهض في تناقل . عقد

يديه خلف ظهره المنحني قليلاً . تساءل :

- أين عَلِقَ الوجودُ لِيَتَدَبَّرَ المَازِقُ له مخرجاً؟ .

تقدم رابكين من المنضدة أكثرَ حتى لامسها ببطن قميصه

البرتقالي . نقر بأنامل يده على غلاف الكتاب الضخم :

- هنا ، ياسيد راووت .

بأبصار متفاوتة النظر إلى الأعالي مشى الأنفار الثمانية عشر
تحت مطالع غابة الأرز ، في يومهم الذي أراهم الشاب راسيد ،
الأصغر سنًا بين أهل الرحلة ، براعته في رمي الكرة عاليًا ،
والتقاطها بمأبض رجله اليسرى إذ يطوي ساقها على فخذه . ست
مرات أعاد التدبير الحاذق في تلقف الكرة بلا خطأ . تعلقو الكرة
عمودياً ، وتنزل عمودياً ، فيدير راسيد لها ظهره ليلتلقفها في المأبض
ثنيًا لساقه على فخذه . تعلق الكرة في المأبض كأنها انجذاب إبرة
إلى مغناطيس .

علا بصر ميلادين وهبط مع صعود الكرة عاليًا فهبوطها .
الآخرون أعاروا حذق راسيد اعجاباً لبرهه ، ثم عادت خواطرها تعلقو
وتهبط في المراقي التي عليهم سلوكها إلى أعالي الجبل .

« قلبي مكسور » ، تمتت ميلادين وهي تنظر إلى كرة راسيد .
« لماذا لم تجلبي صمغاً من سارسيدون كي تلحميه ؟ » ، ساءلتها
بيتاليا بمازحة ، فابتسمت لمزاحها ميلادين القصيرة ، البدينة .
استدارت دالومي ، الماشية إلى جوار جورني الشيخ إلى
ميلادين . ساءلتها :

- منذ متى هو مكسور؟ أقبل الرحلة أم أثناءها؟ .
« كان مشروخاً قبلاً ، لكن الشرخ يتسع ، ياسيدة دالومي . بل
أسمع سقوط شظايا منه » ، ردت ميلادين .
« لا ينبغي الإصغاء إلى قلوبنا إذ تتساقط شظايا . إنها إشارات
مُخادعة » ، قالت دالومي .

« إلى ماذا نصغي إذا؟ » ، ساءلتها ميلادين ، فردت دالومي :
- نصغي إلى المكان ؛ إلى جرح المكان .
« جرح المكان ؟ » ، تتمم جورني متسائلاً . أكمل التمتمة :

- ما جرح المكان ، ياسيدة دالومي ؟ .

«الزمن» ، ردّت دالومي .

لمس جورني شاريه الرفيعين ، الرمادين ، تباعاً ، محدّقاً إلى دالومي في مشيه قريباً منها . ساءلها :

- ألزمن جرح ، أيضاً ؟ .

«الكل شيء جرح» ، ردّت دالومي .

توقف ماهاهون عن مشيه وقد سبق دالومي بخطوتين ، أو أكثر .

التفت خلفه :

- أظنك ستفاجئيني بالقول إن الرياضيات جرح الزمن .

توقفت دالومي متفرسة فيه . ابتسمت :

- اختلّست مني فكرتي ، ياماهاون .

قرّعت كرة راسيد مصطمة بجذع أرزة من ركتله القوية .

تلقّفها إذ ارتدّت . صاح به داروم :

- ينتظرك فريق من اللاعبين القتلى أعلى الجبل . وفّر جهدك .

وضعت أرديلا يدها اليمنى على كتف داروم وهي تنظر إلى

راسيد : «لم أسألك هذا قبلاً» ، قالت بصوتها المسترسل النّبر . «مَنْ

قتلت؟» .

«قتل أمه» ، ردّ داروم مقتحماً صمت راسيد .

«لم أقتل أمي ، يامُعْلَفَ رسائلِ الفشل» ، تتم الشاب الأصغر

سنّاً بين أنفار الرحلة . «أجزمُ أنّ أمك ماتت مسمومةً من حبّ لها

بك» .

«لم يقتل أحدٌ منكما أمّه بعد» ، عقّبت بيتاليا متطفلةً على

تناقُرهما . «لكما أمٌ واحدة ، وهي معكما» . ضحكت وهي تنظر

إلى أرديلا نظرة واضحة المعنى .

تجاهلت أرديلا تلميح بيتاليا ، لكن داروم لم يتجاهل ذلك :
- لماذا يبدو ثوبك البرتقالي رثاً عليك ، ياسيدة بيتاليا ، أنيقاً
على السيدات الأخريات ؟ .

ابتسمت بيتاليا من لكزّة كلامه . ردّت :
- يحدث هذا أحياناً . ثوبك البرتقالي رثٌ عليك أيضاً ، أنيقٌ
على راسيد .

أطال راسيد النظر إلى داروم مبتسماً . ربّت بكُرته على صخرة
ملساء عدة مرات . جاورته دالومي في مشيها يحاذيها ماهاهون .
أرسلتُ بصرها إليه :

- كُرْتُكَ مُستغرقة ، الآن ، في حلم يقظة .
ابتسم راسيد من وجهه المستطيل ، البارز عظام الخنكين ، من
التورية اللامفهومة . عقّب ماهاهون :

- الشكل الدائري حلم يقظة .
نظرت دالومي إليه جانبياً ، ثم أعادت بصرها إلى راسيد :
- عظام أحناك كما متشابهة بروزاً .

تأمل ماهاهون حَنَكِي راسيد . ابتسم :
- كيف لم أنتبه إلى ذلك قبلاً ؟ .

كان صعود الأنفار الثمانية عشر مراقبيّ الجبل بطيئاً ، متمهلاً .
جاوزوا صفّاً من شجرات الأرز الضخام ، المتعرّية إلا غصونَها العليا
الخضرة ، الشُعَثَ قليلاً ؛ شجرات عتيقة تكلفت حملَ السماء
العتيقة . بعد شجر الأرز برّبع فرسخ تكشّف لهم صدعٌ شاهق
بصخورٍ باطنه البنية ، وجذورِ الشجر المخترقةِ الصخورِ حفراً في
زمنها . انعطفوا عن حافة الصدع بعدما تبارى مدربُ الرقص
الرياضي جينتالو ، والعاملُ في مَنَجرِ المعجّنات والفطائر سولكي ،

في إرسال عواءٍ من حنجرتيهما إلى الصدع تفرَّع صدًى ، ثم تفرَّعت الفروع ، ثم تناهشت الفروعُ فألجأ بعضها بعضاً إلى الشقوق الكبار في الصخر أذياً من الصوت متعبةً منهكةً . بيتاليا حاولت عواءً ، لكنَّ صوتها المتآكل من أثر الكحول القوية لم يتدحرج أبعد من خطوات ، فألقت شتائم من صوتها أولاً ، ثم شتمت الصدع الشاهق ، ثم شتمت الجبل ، وذُرِّيَّة القتلى التي أنجبها قتلى .

«ألا تعتقدين ، ياسيدة دالومي ، أننا في حلم يقظة؟» ، سأل ماهاهون الطبيبة النفسية وهو يرسل بصره القلق قليلاً إلى قمم الجبل في سحيقها العالي .

«ربما . لكننا نغدو حلم يقظة من أحلام جبل آيايانو الغربي ، بعدما كنا حلم يقظة من أحلام جبل آيايانو الشرقي» ، ردت دالومي مبتسمة . توقفت مستديرة خلفها إلى بيتاليا ، وأرديلا ، وياروزا ، المتجاورات : «أحلام اليقظة وحدها تصنع القتلة» ، قالت . أعادت بصرها إلى ماهاهون : «انظر إليهن . إنهن تاريخ الجبل في برهته الآن» . هزت رأسها تزنُّ الفكرة التي نطقَتْها . أضافت :

- التاريخ حلم يقظة من أحلام القتلة .

مسح ماهاهون زجاجتي نظارته بحاشية قميصه المُرخی فوق بنطاله . ضيق بين أجفانه في النظر إلى وجه دالومي المستدير :

- أهذه عُدة عِلْم النفس ؟ .

«هذه عُدة الصعود في هذا الجبل ، لاغير» ، ردت دالومي ، فعقب ماهاهون :

- ربما صعود الجبل هو اعتذارنا ، الذي أراده راووت .

«لاأظنُّ أن راووت أرادَ شيئاً قط» ، تمتمت دالومي . وجَّهت صوتها إلى طبيبة الكلاب :

- أعتقدين ، ياسيدة ياروزا ، أن راووت . .
قاطعتها أرديلا المحامية :

- لا تردّي على أسئلةٍ محيرةٍ ، ياروزا .
«لم أكمل سؤالِي بعد» ، قالت دالومي بصوتها الخفيض ،
الهادئ .

«ألم تذكرِي اسمَ راووت؟» ، ساءلتها أرديلا من فمها الكبير ،
المتناسق .

«بلى» ، ردّت دالومي .
«ذلك يكفي لجلب الحيرة إلى جواب موكلتي ياروزا» ، قالت
أرديلا مبتسمة .

«موكلتك؟» ، تساءلت دالومي مستلطفةً . أضافت : «أمر جيد
أن نتشاغل عن صعود الجبل بابتكار مهمّاتٍ . التفتت في وقتها
إلى دايك الشيخ : «أنت حلاق ، ياسيد دايك . ما المهمة التي
كلّفت بها نفسك الآن؟» .

«توثيق سير الظلال» ، ردّ دايك ذو الصوت العالي . «لكلّ ظلّ
سيرةٌ لا تنتهي في أربعة مجلدات» .

أبدت دالومي إطراءً من عينيها الشهاولين ، الواسعتين : «لِمَ
لا؟» ، تمتت . سرّحت بصرها إلى قمم الجبل الثماني واضحةً في
مرآة السماء السحيقة : «هذا مكانٌ وحيد» .
غمغم ماهاون تعقيباً :

- المكان الوحيد مكانٌ يضيع فيه المرء قبل العثور عليه .
في مساء يومهم ذاك ، أصغى الأنفار الثمانية عشر ، جالسين
حول نار صغيرة ، إلى نقيق النجوم كالضفادع في مستنقع الأعالي :
ذلك ماأكّده جينتالو : «النقيق يأتي من هناك» ، قال مشيراً إلى

الأعالي . « لا مياه حولنا » .

« أسمع أحداً ، غير جينتالو ، نقيقَ ضفادع ؟ » ، تساءل جورني الشيخ . فاكتفى الآخرون بصمتهم رداً . « لأحد » ، تتم . « أنا سمعتُ صوتَ رابكين » .

« ماذا تعني أنك سمعت صوتي ؟ » ، ساءله رابكين ، فردَّ

جورني :

- كنتَ تروي حكاية .

« أتريد حكاية ؟ » ، ساءله رابكين . طوى ساقيه في جلسته على البساط الجلد : « كان مَجْمَعُ الآلهة يعقد جلسات دورية كل مائة ألف عام . لكنهم تداعوا إلى اجتماع طارئ بعد خمسين ألف عام على آخر مَجْمَعِ ضَمُّهم . جلسوا على الصخور الفيروز تحت شجرة الفطر الكبرى » .

قاطعته ياروزا : « شجرة فطر ؟ » ، تساءلت مستغربة . « متى كان الفطرُ شجراً ؟ » .

« إنها الشجرة الخاصة بالآلهة ، ياسيدة ياروزا . فطرُ أكبر من سبعة أكوان . تسميها الآلهة شجرة الفطر » ، ردَّ رابكين .

« من سمعت ذلك ؟ أين قرأته ، يارابكين ؟ » ، ساءلته ياروزا ، فغمغم جورني مستاءً :

- ماذا أرادَ مَجْمَعُ الآلهة ؟ .

« كانت الآلهة متعبة » ، قال رابكين مسترسلاً . « كانت مرهقة من أنبيائها المتطلبين في الألفيات الست الأخيرات من عمر الأرض ، ومن بلوغ السماء طَلْقَها » .

« مَن حَبَلَتِ السماءُ ؟ ماذا ستلد ؟ » ، ساءلته بيتاليا مهاهتةً ، فردَّ رابكين :

- حبلت من الأنبياء لتلد أنبياء جددًا .

تدخل سولكي ، ذو العين اليسرى الأصغر من اليمنى :

- آلهة مُرهقة من أنبيائها؟! هي تُكلّفهم .

«نعم» ، ردّ رابكين : «لكنّ الأنبياء باتوا لا يريدون لمهماتهم إلّا الكمال بلا نقصان ، وأن تكون مشيئاتهم مُطلقةً ، وانتصاراتهم مُنجزّةً مهما كلفت من أثمان . حاولت الآلهة إقناع أنبيائها ، الذين كلفتهم مهماتٍ حصادها اليأس ، أن لا بأس ببعض الأخطاء ، ولا بأس ببعض النقصان في المقدرات والمشيات ، وأن لا بأس بموتهم أيضاً إن تطلّب برهان المعجزة ذلك . لكنّ أنبياء الألفيات السيّئ الأخيرات كانوا أكثر تطلّباً من أنبياء ألفيات الخمول الكبير بعد خروج الآلهة ، للمرة الأولى ، من خلوتها - خلوة اللامُتخيل . لهذا اجتمع الآلهة اجتماعهم الطارئ . همهم بعضهم : «لا نريد أنبياء بعد الآن . باتوا مزعجين مُذ لم يعودوا يكتفون بعلوم النشأة ، ومراتب الملائكة ، ومراتب الأفعال ، وتقدير العقاب والثواب فصولاً ووقائع» . بعضهم الآخر ردّد : «لا حصانةً لنبيّ بعد الآن» . لكنّ صوتاً واحداً خالف الأصوات الأخر تحت شجرة الفُطر» ، قال رابكين .

«أهو صوتك؟» ، سألته ياروزا بصوتها البالغ مبلّغه رقةً ، فردّ

رابكين على سخرية النبرة المداعبة :

- كان صوت إله الفيزياء الفراغية .

«ماذا قال؟» ، سألته جورني في نبرة فضول ، فردّ رابكين :

- قال للآلهة الأخر : لا بأس بأنبياء يستقلّون في مهماتهم

عنا . هم يجدّدون بعث الآلهة على نحو يكون فيه كلُّ إله على هيئةٍ يحبها المؤمن به : إله صغير . إله كبير . إله مرثي . إله

محتجب . إله حَسِّي ، أو روحي ، أو رحيم ، أو متوحش ، بحسب
أمزجة المؤمنين بالمقدِّراتِ الضرورية التي تمكِّنُ إلهاً من إرضاء
خلقه . سيكون لكل إنسان إلهه الخاص به ، مع اتفاقٍ على شراكة
الكراهية : كلُّ يكره من لا يشبه إلهه إلهه .

«لم أفهم ، حتى اليوم ، وحتى بعد الغد ، لِمَ الأنبياء؟» ،
تساءل جينتالو .

«سمعتُ هذا قبلاً . مَنْ منكم قال ذلك؟» ، تساءلت آرديلا .
«كلُّ البشرية قالت ذلك» ، ردَّ ماهاون . «لكنَّ البشرية ترتعد
هلعاً من أن تلتقط إيمانها من يدِ إله وجهاً لوجه» .

«ليس في ماتقوله توضيحٌ لسؤالي : لِمَ الأنبياء؟» ، قال
جينتالو ، فردَّ ماهاون :

- الأنبياء هم حيلةُ البشرية في تجنُّب لقاء الآلهة وجهاً لوجه ،
والآلهة تفضِّل ذلك لتجنُّب الأسئلة البشرية وجهاً لوجه .

غمغم رابكين مستاءً من مقاطعة حكايته . همَّ بالكلام
فاستوقف لسانه عواءٌ مديد من حناجرٍ كُثُر تتبادل النشيدَ الأول من
إعلان الصوت حدوداً للملكية : أُنَى يَصِلُ الصوتُ تَكُنُ الملكيةُ .

«هذه ذئاب» ، تتم سولكي ، فربت دالومي على فخذه اليمنى
المطوية :

- نعم هي ذئاب الآلهة أنتم أيقظتموها .

الفصل الحادي عشر:

ياروزا

فتحت ياروزا خَزَنَةَ ثيابها فانطلق من جوفها ستة عشر كلباً ، من النوع السَّبْنِيلِي ، أحصتهم واحداً واحداً بصوتٍ مرتعش . بكت . اتجهت إلى المطبخ . فتحت البراد فانطلق من جوفه ثمانية وأربعون كلباً من النوع الدَّلَّاسِي ، أحصتهم واحداً واحداً . جثت أرضاً نازفة دمَ طُمُثْها . حاولت إيقاف النزف بيديها . صرخت تنادي زوجها كاشين ، فهرع إليها من الباب كلبان من النوع الدُّنْغُو ، تناهشا عضاً منزلقين فوق دم الحَيْض . اختنقت ياروزا . فتحت فمها بيديها طلباً للهواء حتى كاد شذَّقاها أن يتمزَّقا مَطّاً .

أفاقت ياروزا من حلمها الممزَّق صدرها بمخالبٍ جليد . ردَّت عن نفسها الغطاءَ مستندةً بظهرها إلى مسندٍ ظهر السرير . أَلْقَتْ نظرة على زوجها كاشين مسترسلاً في شخيرٍ خافت ، فلكرته بمرفقها . تقلَّب الرجل البدين ولم يستيقظ .

نزلت المرأة النحيلة ، المتوسطة الطول ، عن السرير متجهةً إلى المطبخ طلباً لماء بارد ، فيما تفضِّل ، عادةً ، شربه في قدح من الصُّنْبُور مباشرةً ، لامن الإبريق المبرَّد . مدت يدها إلى مقبض باب البراد . تردَّدت برهةً من نُثار الصور العالقة بَعْدُ بزجاج حلمها . ارتعشت . بكت بصوتٍ مختنقٍ إذْ عاندها يدها فامتدت ، قسراً على رُغْمٍ منها ، لتفتح باب البراد : كانت رؤوسُ كلابٍ مذبوحة

فوق قصاع الطعام ، وشعرُ كلاب على الأرفف فيه . نبحت ياروزا ثم عوّت .

أفاقت ياروزا من حلم في حلمها على زوجها يهرّها : «أنت تنبحين ، يا عزيزتي» ، قال الرجل البدين .

جلست المرأة ، ذات العينين الزرقاوين ، الغائرتين ، على سريرها . جالت ببصرها على الغرفة تستوثق أنها أفاقت ، حقاً ، هذه المرة ، وليست بعدُ في حلم . نزلت عن السرير إلى المطبخ . ملأت القدح ماءً من الصنوبر وهي تحدّق إلى البراد .

كان الوقت فجراً . أعدّت إفطاراً من البيض المخفوق لنفسها ولزوجها ، وكذا إفطاراً من رقائق الذرة في طاسة غمرتها حليباً لطفلتها دأماً ذات السنوات الست . توجهت ، في منامتها الرمادية القطن ، إلى ممر الشقة في الطبقة الخامسة من العمارة . أزالَت صور الكلاب المؤطرة الإثنتي عشرة ، المتناظرة على الجدارين المتقابلين ؛ الكلاب كما صنفتها معاهدُ تقويم الأنواع الغربية ، والأجناس المتخالطة إنساناً ، النادرة والمنقرضة أيضاً . راكمت الصور في زاوية قرب باب البيت . دخلت غرفة ابنتها النائمة بعدُ . نزعَت عن الجدران مُلصقات عريضة لكلاب رسوم بعيونها البشرية ، وابتساماتها الماكرة . وضعت ركام الصور في كُيس أسود . عادت إلى المطبخ جالسةً تنتظر رنين جرس الساعة ، التي تستنهضهم عادةً .

جاء زوجها في قميص قطني منحسر عن شحم بطنه النافر .

نظر إلى الكيس :

- ما الهديةُ ؟

«لا كلاب في هذا البيت ، بعد الآن» ، تمتمت ياروزا الرقيقةُ

الوجه العصبي .

فتح زوجها البراد من غير أن تفارق عيناه وجه ياروزا . التقطَ
علبةَ عصير البرتقال الورقَ مسترشداً بعيني يديه :
- أيُّ كلاب؟ .

حدّثت إليه وهي تقربُ صحن البيض المخفوق منها ، على
الطاولة الصغيرة . ردّت :
- الكلاب الصور .

لم يستوضح كاشين زوجته المعنى الذي بدا ، في البرهة تلك ،
خاوياً . ملأَ قدحهُ عصيرَ برتقال . جلس إلى الطاولة . ساءلها :
- هل المدارس في عطلة ، اليوم؟ .

«نعم» ، ردّت ياروزا . «عطلةٌ مدارس الأولاد الفيلة» .
«ما به مزاجك هذا الصباح؟ إلى ماذا تلمّحين؟» ، ساءلها
مبتسماً وهو يتحسّس بطنه براحة يده صعوداً هبوطاً فوق القميص
القطني .

«بات بطن دامرا في حجم بطنك . هي في السادسة ،
ياكاشين . طفلةٌ كرهة . أنا أُمْنع عنها الطعام القمامة ، وأنت تحرّضها
عليه . حيث أمشي في هذا البيت أسمع كُسارةَ رقائق البطاطا
المحمّصة تحت قدمي . خزائن المطبخ ملأى بعلب ذرة الفُشار ،
والأشربة السكرية» ، دمدمت ياروزا بصوتها الرقيق غير المتناسب
مع وجهها العصبي .

بدا كاشين ، ذو الستة والثلاثين عاماً ، معتاداً على تقريع
زوجته له . التهم إفطاره مع كسرات كبيرة من رغيف الخبز القطنيَّ
اللبّ . شرب مافي قدحه ، ثم تجرّع من فم علبة العصير المستطيلة
مافيها فأفرغها . نهض إذ سمع ابنته الصغيرة قادمة في منامتها
الخضراء ، القصيرة البنطال . احتوى جسمها البدين بذراعيه

الكبيرتين . انفصل عنها . خفض طولَه ليعادلَ طولَها تقريباً . تأملها بفم لم يحسم مقدارَ الضحك . ضرب ببطنه بطنها مداعباً وهو ينظر إلى ياروزا .

تزوجت طبيبة الكلاب زوجها كاشين وهي في الخامسة والعشرين . كان طويلاً بلحم معتدل على عظامه . ثم تراكم اللحم طبقةً طبقةً ، منذ السنة الثانية من زواجهما ، بعون قويٍّ من الجعة لا تخلو يده من علبة صفيح إلا حين يعمل ، أو ينام . رقائق البطاطا المقلية ، في الأكياس المبطنة بطلاء فضي ، تركت آثارها ، في البيت ، حيثما خطأ كاشين ، من المطبخ إلى الحمام إلى الردهة إلى غرفة النوم . أنجبا طفلة ، في السنة الثانية من زواجهما ، فلَقْن الأب الطفلةَ إرثَ النّهم بليغاً مذ بلغت الثالثة من عمرها . النقانق في الخبز المُتَرَف طراوةً ، والأشربة السكرية ، وحلوى القشدة المُجلّدة ، راكمت على عظام الطفلة مارا كمته على عظام أبيها : لحمٌ يصفقُ للحم . لحمٌ يترجرج كزالال البيض النيء . لحمٌ يتكلم مهتزاً على الخدود قبل أن تتكلم الشفاه . لحمٌ يستدير قبل أن تستدير الأعطاف . لحمٌ يسيل من اللحم فيُعْرِق ياروزا في أحلامٍ يتساقط فيها اللحم مطراً طوفاناً .

غدت البنت الصغيرة دامرا كرةً ، أو كادت ، لولا بعض الطول استَلَفَتْه من أمها وأبيها الطويلين . شاجرت ياروزا زوجها مراراً . كاشين لم يبادلها شجاراً . كان يكتفي ، في المدافعة عن نفسه ، بالتهام ماتقع يده عليه نكايةً بها . هو عامل قوي في مهنته - مهنة تبديل خزائن المطابخ ومغاسلها بأنواع الأكثر ترفاً في براعة الصناعات . صبورٌ في تفكيك القديم عن الجدران ، وتنظيف الجدران ، وتعليق الحديد ، الثقيل ، بآلات الحفظ والتثبيت ، والوقاية

من اختلال الأوزان . إنه ، في بساطة ، يعيد المطابخ ، بعد دورة
يأسها الزمنية ، مبتسمةً ، أنيقةً وسعيدة .

لحم كاشين لا يعوّقه عن انجاز الترفيه عن المطابخ برفع الخزائن
الثقال إلى علياء ، وخفض الخزائن الثقيل إلى حضيض قبل نقلها ،
في شاحنته ، إلى قممات الأثاث المنبوذ في سارسيدون . لحمه
لا يعوّقه عن حمل ، أو انحناء ، أو صعود سلم ، لكنه يعيق أحلام
ياروزا عن العبور من زنزانة بقضبان لحم إلى بستان الأحلام
العادية ، تماماً كما باتت الكلاب ، ونباحها ، يُعيقان عبور أحلامها
من زنزانة بقضبان شعر إلى بستان الأحلام العادية ؛ يعيقانها عن
النوم بأحلام فارغة من أي شيء إلا من النوم .

ياروزا طبيبة كلاب . شريكة أربع طبيبات أخريات في عيادة
هي دار واسعة بين الشجر ، قرب فرع من نهر جون . للدار مرآب
لسيارات الزئبن الكثر لا يتوقف مجيئهم ، محمولين على اللوعة من
أن يروا كلابهم صامتةً خاملةً لا تسترسل في إنشاء النثر الحيواني -
أب نثر الكلام في مخاطبات مالكيها . صمت الكلاب علةٌ ،
ونباحها الزائد علةٌ ، ودورانها حول نفسها علةٌ ، وأنيبها علةٌ ، ونومها
إن تكاثر علةٌ ، وتبولها بلا تهذيب علةٌ تقتضي مراجعة العيادة
لدخضها بالدواء الشافي . رويداً ، رويداً ، حين يتملك المولعون
بالكلاب كلاباً ، يدرّبون نبض الحياة في قلوبهم البشرية على وقع
أوزان الشعر الحيواني في أصوات كلابهم ، ويدرّبون الزمن على
مديح بولها في الأوقات المحسوبة منتظمةً ، دقيقةً ، تفصل الكلاب
جداولها للمالكين فتخرجهم من البيوت في الفجر الجليد ، والفجر
المطر ، والفجر الخالم بعبودية لاشمس فيها .

الكلاب زمن مالكيها ؛ زمن إقامة أرواحهم في مشيئة المكان

الحيواني . الكلاب أدلاء الوجود ، ومالكوها يُذْعَرُونَ إن أحسوها ليست على مايرام . على ياروزا ، وشريكاتها ، أن يتدبرن تصويب رنين الوجود في أجساد مالكي الكلاب بتصويب الرنين ذاته في جُسُوم كلابهم .

عيادة يَشْغُلُهَا لهاث المالكين من حمل كلابهم الكبيرة ، والصغيرة ، بأنفسهم إلى سرير التشخيص المستطيل ، الأنيق الحديد ، المغطى بنسيج يُستخدم لمرة واحدة إذا صعد الكلب ، ثم يُرمى مُسْتَبْدلاً بنسيج جديد . أحاديث كثيرة تُرمى إلى قمامة الوقت حول سرير التشخيص ، الذي تُمدد الكلاب عليه ببطونها ، أو بظهورها ، أو بجوانبها ، أو تنتصب واقفة .

مالكو كلاب قلقون في القდوم ، مبتهجون في المغادرة بعد التشخيص المُرقق بأحاديث الطقس ، وتنزيلات الأسعار في المتاجر ، والأعاصير المتكاثرة في أثلام الكرة الأرضية المتشقة ندماً على وجودها مكاناً أرضاً . ياروزا لا تُبدي سامةً من الأحاديث ذاتها ، لكن وجهها الرقيق ، العصبي ، يوحى بالملل فيحتزل الزُّبن أحاديثهم إن كانت هي المتولية تشخيص العِلل ، ويكثرونها في حضور الطبيبات الأربع الأخريات . ذلك يريحها . هي مستكفية ، في المهنة ، بالمقارنات الصامتة بين الزُّبن الزائرين و كلابهم : لكل مالك كلب طباعُ كلبه . لكن في خيالها شيئاً ما أبعد من الشبه في الطباع . إنها واثقة أن شكل الإنسان من وحي طباعه ، وكذا شكل الكلب . لذا تمضي ، مدققةً في صمت ، إلى ملاحظة تطابق الأشكال حتى لو كان التنافر بلا حدود : إن امرأةً بدينة ، مثلاً ، لا تشبه شكلاً كلبها الصغير جداً ، المعروق ، الأجرد من أي لحم . ذلك واضح لكل مدقق إلا ياروزا : هي تعيد تركيب الأشكال .

تقتطع رقائق لحم من جسد المرأة البدينة ، مثلاً ، صاحبة الكلب المفرط في صِغر حجمه ، فتكسوه بها حتى يكتمل لياروزا التوافقُ الضروري ، المتخيّل ، بين شكل المرأة وكلبها صورةً وحجماً .

ربما لجأت مشيئةُ النشأة إلى الحيلة ذاتها في تثبيت الهيئات الحيوانية على صورها المعهودة . مشيئةُ المصادفةِ الحاذقةِ أوجبت صورةَ الحمار على نحوٍ ، وصورةَ البغل على نحوٍ ، والدجاج على نحوٍ ، والذباب على نحوٍ ، مثلاً . فصّلت من النوع الواحد أجناساً متطابقةً الهيئات ، متخالفةً النُظم والمهمّات ، كالتشابه والتخالف بين النحلة والزنبور . هكذا وُجدَ الكلبُ على صورته كلباً بقوائم أربع ، وذيل ، وجلد مكسوٌ شعراً أو وبراً ، لكنه ليس أسداً ، أو غراً ، أو جاموساً ، أو غزالة . هو كلبٌ . وقد عمدت مشيئةُ النشأة ، أحياناً ، إلى حيلة ياروزا في إجراء التعديل القسري لتتطابق صورُ مخلوقاتٍ أُخرَ على صور الكلاب . هكذا انبثقت من النوع فروعٌ تُسبّت إلى خوارق الوجود التي لا تُحصى : كلبٌ كُوسترانيك ، المحفوظُ النحتِ النافر على جدار كهف كُوسيك ، بستٌ أرجل . كلب ذُرَانكو له بطنٌ أرْقَط كظهر النمر ، وله ذيلٌ حمار . كلب جزيرة ماجورا - جزيرة الساحرة ذات الرأسِ الديك يزحف على بطنه كالضَبِّ ، وله أذنان كأذني الفيل يجرحهما على الأرض إلى جنبيه . كلب ميترامانز لا ينبج نباح جنسه ، بل له خُوار البقرة تجنُّ منه الخفافيش إن سمعته . كلب لاسيوس ، المغتذي بالحجر الأبيض طعاماً ، له أصابع آدمية في أقدامه : ربما هو الأوحَد لم تتكفّل مشيئةُ النشأة بإبرام مطابقة بين هيئته وهيئة حيوان آخر ، بل استُعيرت له قرابةٌ للإنسان في أشكال أصابعه . لا يهتم . ياروزا تستطيع ، بحيلة خيالها ، أن تعيد ترتيب شكل الكلب على صورة

صاحبه . غير أنها باتت ترى ، في واقع يومها قادمةً إلى العيادة أو مغادرةً ، مالم يتهياً لحيلة خيالها تدبيره في إرغام الشكل الحيواني على ارتداء ثياب فوق جلده البشري : باتت الكلاب تقود حافلات نقل الركاب في الشوارع ، وتبيع النقانق في الأكشاك أعلى مداخل محطات القطارات ، وتسوق سيارات الأجرة ، وتفتح أبواب المصاعد للداخلين إليها واقفة على أرجلها الخلفية ، وتفتح لهم أبوابها في الوصول إلى مقصدهم بنباح خافت من الأوزان الضرورية لشعر الحيوان غزلاً . وقد رأت أبعد من هذا كله : كلاب تأكل كلاباً على أطوار الأرصفة ، فاكتملت لها رؤيا جلييلة للإتجاه بوجودها إلى انقلاب عليه : « فلنفصل » ، ذلك مقالته لزوجها ، ذات يوم ، بعد النظرة الأولى منها إليه داخلته إلى البيت .

تأملها كاشين برهةً وهو جالس على ركبتيه أرضاً يلتقط بعض الذرة المحمصة ، المملحة ، سقط من طاسة ابنته . تجرّع جعةً من العلبة الصفيح . تتمم مبتسماً :

- مانوع آخر كلبة خاطبتك اليوم؟ .

« كلبة اسمها اللحم » ، ردت ياروزا وهي تلقي بحقيبتها إلى كرسي . مرّت من قرب ابنتها ترمقها بعينين فارغتين . دخلت المطبخ . حملت قطعة مثلثة من قرص بيتزا في علبة ورق التهم كاشين ، ودامرا ، ثلاثة أرباعه . عادت جالسةً على أريكة في الردهة تلتهم الطعام الذي جلبه زوجها في طريقه إلى البيت . تمتت من فم يمضغ بلعةً :

- فلنفصل .

استوى كاشين واقفاً بعلبة الجعة الصفيح ، الزرقاء ، ذات الرسوم السفن ، في يده :

- لماذا؟ .

«كم من السنين نحنُ معاً؟» ، ساءلته ياروزا ردّاً على سؤاله .
«تسع سنوات . خمسون ، ربما» ، قال كاشين مبتسماً . أضافَ
تمتمةً : «لماذا تسألين؟» ، فردّت ياروزا :
- كل عام أدركُ أنني أعرفك أقل .
«أليس ذلك أفضل من أن تعرفيني كُلياً فتسأمني؟» ، ساءلها
كاشين الضخم .

«فلننفضل» ، غمغمت ياروزا . أشارت إلى ابنتها : «اجلبي لي
ماءً» ، فتدحرجت دامرا الكرةً بسنواتها الست المختبئة في الشحم
إلى المطبخ .

«كلما ازدادت معرفتك بالكلاب قلّت معرفتك بي ، ياروزا» ،
قال كاشين . جلس على كرسي في الردهة قبالة زوجته . حكّ
بطنه تحت القميص القطني المتقلّص الحاشية عن لحم أبيض فيه
الكثير من البثور الحمر .

«فلننفضل» ، قالت ياروزا وهي تمسح يدها بمنديل ورق بعد
الفراغ من قطعة البيتزا .

«أتريدين جلبَ كلب إلى البيت؟» ، ساءلها كاشين بعد تراجع
ابتسامته . أردفَ : «أحلامك عن كلاب . أسمع نباحَ كلاب في
هاتفك . رنينُ هاتفك نباحٌ . تنبحين أنتِ أحياناً . الكلاب وفيّة .
الكلاب لا تطلب انفصلاً» .

«سأكون أول كلبة تطلب انفصلاً» ، قالت ياروزا . تناولت قدحَ
الماء من يد ابنتها .

«أنا أول كلب تطلب كلبةً انفصلاً عنه» ، قال كاشين . هأها
صاحكاً .

«الكلابُ لا تُجادل الكلاب عن ضرورة التقائها ، ولا تُجادل عن ضرورة انفصالها» ، تتمت ياروزا . «الكلاب لا تطلب إذناً للزواج وإذناً للطلاق» . نهضت عن الأريكة . انحنت عليه هامةً :
- تهيئاً .

«أتهيأ لماذا؟» ، ساءلها كاشين ، فردت :
- ليرجع كلُّ كلبٍ منّا إلى طباعه ككلب ، لا كزوجين .
«أأنت جادة؟» ، ساءلها كاشين من شفتيه الكبيرتين ، فردت :
ياروزا :

- أنا جادة كلحمك الذي يترجرج كلما تكلمت .
«هكذا إذاً!!!» ، تتم كاشين . وضع علبة الجعة الصفيح على المنضدة الواطئة قبالة الأريكة . خبط براحتي يديه على بطنه :
- أهذا هو المُشكل ، ياعزيزتي؟ أعطيني سكيناً لأكشطه في يومين .

هزّت ياروزا رأسها أسفاً :
- لحمك يترجرج من عنقك حتى ساقيك . يترجرج على حنكك إذ تتكلم . لك رائحةُ لحمٍ نبيئ . أريد انفصلاً .
«هذا ماأشرتُ إليه ، ياعزيزتي» ، قال كاشين كأنما يؤكد عزمه على إنقاص وزنه : «سأمحو كلَّ الزوائد عن عظامي» .
نهضت ياروزا واقفةً قبالة ابنتها المصغية إليهما :
- قولي لأبيك أن يترك المنزل لي . إنه قريب من العيادة .
نهض كاشين بدوره . دار من وراء ابنته فطوّق عنقها بذراعيه متطلعاً إلى وجه ياروزا يستعطفها :
- انظري إلينا . نحن سعداء .
«خذها معك» ، تتمت ياروزا .

ارتدّ كاشين عن ابنته متفاجئاً بنبرة الصوت الجازمة بين شفتي ياروزا النافرتين . استدارت الطفلة ذاهبة إلى المطبخ . غابت برهة لتعود بسكين كبير . مدّته إلى أمها :

- انزعي عنّا ، نحن الاثنين ، اللحم الزائد .

«انزعي أنتِ عن عظام أبيك لحمه الزائد ، ولينزع هو عن عظامك لحمك الزائد» ، قالت ياروزا .

مدّ كاشين يده منتزعاً السكين من يد الطفلة : «هذا ليس دميةً للعب» ، تتم موبخاً . أعاد بصره إلى وجه زوجته :

- إلى أين أنت ذاهبة؟ .

«لست ذاهبة إلى أي مكان» ، ردت ياروزا ، فصوّب كاشين المعنى من سؤاله :

- عنيتُ إلى أين أنت ذاهبة في هذا الموقف؟ .

«لست ذاهبة إلى أي مكان» ، كرّرت ياروزا ردّها : «أنت ذاهب . لا تحتاج إلى الشقة حاجتي إليها . هي قريبة من عيادتي» .

«أُتجَرِّيننا إلى لعبة؟» ، تساءل كاشين بصوت فيه بعض الحرقّة .

«ماللعب في طلب انفصالٍ ، ياكاشين؟» ، ردّت ياروزا ، فأوضح زوجها فكرته :

- أعني مايفعله المطلقون ، والمنفصلون ، بأولادهم : مرة هم عند الأب ، ومرة عند الأم . أكره هذا .

«إن أردت إبقاء دامرا عندك فلا مانع» ، قالت ياروزا بصوتها البالغ مبلغه رقةً . «لا مانع أن تقيم عندك حتى تتزوج» .

«أتتخلين عن طفلتك هكذا؟» ، ساءلها كاشين غير مصدّق ، فردت ياروزا :

- سيزورها صوتي كل يوم ، في الهاتف .

استدار كاشين في حال مبلبلة صوب المطبخ . جلبَ علبةَ جعةٍ صفيحاً في يده الضخمة . نزعَ غطاؤها فانفجرت الرغوة . تجرَّعَ رشفةً طويلة :
- كم كلباً عاينتِ اليوم ، ياعزيزتي ؟ .

حدقت ياروزا إليه صامتة . مدَّت يدها تتحسَّس ذراعه العارية في القميص القطني القصير الكُمين : «ينمو على جلدك شعراً كلب» ، قالت . استدارت من خلفه . أمسكت بطوق حزامه .
تمتت :

- انزعُ بنطالك .

«ماذا؟» ، غمغم كاشين . سالَ استغراباً من نبرة صوته .
«بنطالك» ، كررت ياروزا الكلمة . «انزعُ بنطالك لأرى ذيلَ الكلب الذي فوق ردفك» .

يوماً بعد آخر من إلحاح ياروزا على الانفصال رضح كاشين للفكرة على مضض . هبَّأ نفسه ، بلحمه كله وعظامه كلها ، لبحث عن مَسْكَن ، لكنْ في تمهلْ كاد لايبقي لحماً على عظام ياروزا من سأمها . تتالت من لسانها كلمة «متى؟» ، وتتالت من فمه كلمة «قريباً» . اعتصرت ياروزا كلمتها تلك حنقاً ، واعتصر كاشين كلمته تلك هدوءاً بارداً .

ثلاثة أشهر مضت على اتفاق الانفصال . كاشين ازداد تجرعاً للجنة ، واستغراقاً في النوم أكثر من معهوده . ياروزا ازدادت مكاشفات الرؤيا على خيالها بكلاب منتصبه على أقدامها الخلفية ، تتولى توزيع منشورات على أبواب المتاجر ، وأبواب العمارات ، وأبواب الحدائق العامة ، وأبواب محطات القطارات ،

وأبواب مواقف حافلات الركاب . منشورات تجريد من ألوان تتداخل
عشواء ، ورموز من شعر مُلصق على ورق المنشورات بالصمغ .
كل يوم حملت ياروزاً شيئاً من تلك المنشورات الملعزة إلى
البيت تستعرضها ، بعد العشاء ، صامتة في مجلسها على الأريكة .
لم ترد على مساءلات زوجها ، وابنتها ، عما تراه في تلك الأوراق
الخشنة ، إلا غمغمات لم تجاوز : «متى ستحزُم متاعك؟ متى
ستغادر؟» .

تراكمت الصناديق الورق في المطبخ فارغة ، مطوية . دامرا
استعارت اثنين منها للعب بهما استخفاء في جوفيهما إلى حين
يبدأ الأب حزم ممتلكاته ثياباً ، وعلب ذرة فُشار ، وجعة محزومة كل
ست صفائح بطوق بلاستيك . بل استعارت الطفلة من أمها
عبارات الحق بطريقة لهُو على لسان طفلة :
- متى ستغادر ، يا أبي؟ عليك أن تغادر .

«سأغادر» ، رد الأب الضخم . «سأخذك معي» .
«هل الصناديق تكفي لمتاعي ومتاعك معاً؟» ، سألتها دامرا ،
فرد كاشين :

- تكفينا نحن الاثنين . لكنك لن تأخذي كل شيء معك ،
يادامرا .

«لن سأترك البقية؟» ، سألتها الطفلة بنبر الحرص على
ملكيتها ، فرد الأب مطمئناً :
- لك . ستزورين أمك ، لذا ستحتاجين إلى بعض متاعك
هنا .

التفتت الطفلة إلى أمها المستغرقة في المنشورات الكلبية :
- أَسْتَبْقِينَ أُمِّي ؟ .

لم تحب ياروزا . لم ترفع بصرها إلى ابنتها ، التي عادت بمساءلاتها إلى أبيها :

- كيف هو بيتنا الجديد ، يا أبي ؟ .

«يَسْعُنَا» ، ردّ كاشين ، فانتهرت ياروزا جوابه :

- لم يعثر كاشين على بيت بعد ، يادامرا . هو لا يبحث عن بيت .

«لن يكون لنا بيت» ، قالت الطفلة في حزن ، فردّ كاشين :

- بل عندنا بيت ، لكن لم نستأجره بعد .

دبّ المرحُ في الطفلة :

- عندنا بيت ، يا أمي . لكن لم نستأجره بعد .

رمت ياروزا المنشورات الكلبية من يديها في وجه ابنتها :

- استأجرتما فندقاً من شحم .

ليلاً ، حين انبثق الهواء متقطعاً فقاعات من بين شفتي كاشين في شخير الخافت ، أحضرت ياروزا حقنةً طويلة الإبرة من حقيبة كتفها . امتصّت بها سائلاً من زجاجة صغيرة بغطاء مطاط فامتلاً جوفها الأسطواني . أضاءت الممرّ لينقذف شعاعٌ من فُرجة باب غرفة النوم إلى سريرها . مشت حذرةً إلى حيث يرقد زوجها على ظهره . غرزت كتفه اليمنى العارية بالإبرة في تؤدة . أفرغت السائل . لم يفق كاشين . تحركت يده اليسرى ، في ثقل ، إلى موضع الغرزة ، لكنها لم تجاوز صدره . ارتخت نائمةً مثله .

ياروزا حقنت زوجها بسائل دواء في علاج الهذيان الكلي . داءٌ يُعرض للحيوان الوفي في شيخوخته البرزخ بين أيامه الأخيرة وموته . الكلب يستعرض ، في هذا الطور ، أحلامه الحيوانية كلها دفعةً واحدة ، بكثافةٍ زحامٍ متداخل يصيبه بارتعاش نصفي ، من

كثفه اليسرى حتى وركه اليسرى ، مُصْدِرًا غمغماتٍ عجماءَ قريبةً من ألفاظ الطفل في أول نطقه .

الدواء السائل يعيد تنظيم استعراض الكلب لأحلامه ، لكنه يتحرك نائماً . يمشي نائماً . لا يعود ينبج مُذْ يرى نفسه في صورة صاحبه مرةً ، وصورته هو كلباً يقود صاحبه مرةً . لا يتشمم الأرض كفعل الكلب في التأكد من أن لا دخيلَ على حدود مُلكه المُعلّمة بالبول ، لأنه يغدو ، بعد الحَقْنِ ، مالِكاً لكل مكان بلا شراكة .

جاءت ياروزا بطوق كلب متصل بمقود رَسَنِ جلد . طَوَّقت عنق زوجها . فتح كاشين عينيه في كسل . حَرَّكَ حَنَكِيه من تصلب عَرَاهما . فتح فمه متبلاًداً .

قوةً لا تعرفها ياروزا النحيلة ، أعانتها على جذب زوجها فسقط عن السرير ثقيلًا يترنح . تحرك كاشين كأنما يجاهد أن ينهض ، ثم تراخى على صوت زوجته مدممةً : « تعال . ستغادر أخيراً » .

جَرَّتْ ياروزا زوجها بالرسن الجلد على الأرض حتى باب البيت . أخرجه سحلاً إلى الفسحة بين أبواب الشقق الثلاث في الطبقة الخامسة . بلغت باب المصعد . ضغطت زرَّ استدعائه مراراً فامتنع المصعد عن تلبية النداء . حَرَدَ غير مفهوم أصاب الآلة . لم تتردد ياروزا . جَرَّتْ زوجها ، المتبلاًد الحركة تماماً ، على الأدراج طبقةً طبقة ، مختنقة لهاثاً ، لكنْ بتصميم كنزف العرق من كل جارحة فيها تلك الليلة الصيفية ، حتى التَّصَقَّت بها منامُها القطنُ ، البنية ، الفضفاضة الرقيقة . أوصلت زوجها هامداً ، منغرَز الطوق في لحم عنقه ، إلى مَخرج العمارة . كوَّمته قريباً من الباب الزجاج الكبير . صعدت الأدراج إلى البيت فألْفَت ابنتها واقفة في الباب المفتوح : « أين أبي؟ » ، تساءلت الطفلة بصوتٍ وسان .

لم تجبها ياروزا . أمسكت بطوق منامتها حول العنق كأنما تنجز
أمراً لن يعوّقه ترددٌ . جرت الطفلة خلفها إلى أول الدرج فتعشرت
الطفلة متدحرجةً إلى أسفل كرةً من لحم . انزلقت قدم ياروزا أيضاً ،
لكنها تمالكت نفسها . جرّت ابنتها المتراخية من طوق عنق
منامتها . سعلت الطفلة . أنتت أنيناً متصلاً . حشرجت ، تراخت
قدماها أكثر .

لم تأبه ياروزا للجسد الذي جرّته متراخياً تماماً ، منزلقاً على
الأدراج خلفها حتى مدخل العمارة . كوّمت ابنتها المنتفخة الوجه
حُمرةً قرب أبيها . تأملتُهما بعينيهما الزرقاوين ، الغائرتين ، فارغةً
الخيال من أيّ شيء . همّت بالرجوع صوب الأدراج فاستوقفها دخول
إحدى قاطنات العمارة من الباب . بوغت المرأة الداخلة وهي ترى
شخصين مكومين أرضاً . أعادت بصرها إلى وجه ياروزا بنظرة تلتهب
استفساراً . وجمت برهةً قبل أن تغمغم من حنجرتها الجافة :
- ما بهما ؟

«لقد انفصلنا» ، ردّت ياروزا بصوتٍ مفرّغٍ من نبره . أردفت :
«سأتي بحقائبهما» . اتجهت ، من جديد ، صوب الأدراج . وطأت
الدرجة الأولى الإسمنت ثم توقفت مستدركةً . التفتت إلى المرأة
الواجمة ، المذهولة ، مسترسلةً في نقل بصرها بين الجسدين
المتكومين أرضاً بلا حراكٍ وبين ياروزا ، فأشارت ياروزا بيدها إلى
المصعد :
- إنه معطل .

في جناح النساء من سجن آييانو الشرقي توقفت دورة طمّث
ياروزا . دُعرت . كانت حريصةً في الوقاية من الحبل ، قليلة الوصل
بزوجها جسداً ، حتى أنها لا تتذكر آخر مرة وهبته لذةً . كانت

تكره ، في السنتين الأخيرتين ، أن يلامسها شحم كاشين ، وتكره لهاث كاشين ، وعرقه في الجماع . لكنها حبلى على نحو فاجأها فاندعرت . تدهرجت من حلم إلى حلم تسمع نباحاً خافئاً في جوف بطنها . أفاقت من أحلام رأت فيها رأس كلب يمعط جلد بطنها علّه يمزقه ليخرج منه . سمعت ، في أحلام آخر ، صوت كلب يكلمها مثل ابنتها دامرا . وقد تعودت ياروزا الأمر ، رويداً رويداً - تعودت فكرة الحبلى بـكلب .

ياروزا لم تخبر أحداً في السجن عن حبلىها البالغ ثلاثة شهور يوم أدخلت على راووت في دهليزه ، فبادرها الرجل الشيخ ، المتقوس قليلاً ، مُدّ صارت قبالتة :
- ما اسم طفلتك؟ .

«دامرا» ، ردّت ياروزا ، فأشار راووت بإصبعه السبابة اليمنى إلى بطنها :

- أعني إنّ كنتِ تخيّرتِ اسماً لهذه .
ذهلت ياروزا من السؤال الصدمة ، اللامتوقع من أحد قط .
غمغمت من فم لم تتلامس شفتاه في نطق الحروف :
- كيف عرفت؟ .

«ماذا ستسمينها؟» ، ساءلها راووت غير مكترث بانبهارها من حدسه حبلىها .

تبلبلت ياروزا برهة . جالت بعينيها على رسوم القروود تستعير من الرمادي منطقاً لخيالها المرتبك : «لا أعرف كيف حبلى ، ياسيد راووت . كنت أتوقى الحبلى بحرص زائد» ، قالت ، فأمال راووت رأسه متفهماً :

- تحدث الأخطاء أحياناً .

«هذا ليس خطأ ، ياسيد راووت . أنا حبلى بكلب» ، قالت ياروزا وهي تتحسس براحة يدها اليسرى بطنها .

«هي أنثى» ، عقَّب راووت بتأكيد من نَبَّر لسانه .

«أهي كلبَةٌ أنثى؟» ، تساءلت ياروزا .

بقي راووت صامتاً يحدق إليها بعينيه الغائرتين ، الشرهتين .

«حَسَنُ» ، تمتت ياروزا . «سأسميها كلبَةً جَارُوك الساحرة . كلبه تأكل الظلال كاللحم» .

في مساء من رحلة الأنفار الثمانية عشر ، ألقى ديرو ، النصفُ الأيمن من جسد التوأمين الواحد ، سؤالاً لاسياق له ، في مجلسهم المبعثر حول نارهم الصغيرة ، إلى ياروزا :

- أَنْغْنَيْنِ ؟ .

«أأغني؟» ، تمتت ياروزا متسائلة ، لكنها بدت غير متفاجئة .

«لماذا خَمَّنتُ أنني أغني ، ياديرو؟» ، فردَّ التوأم :

- لصوتك نَبْرُ رَنَّةٍ .

ابتسمت ياروزا من فراصة ديرو . أومأت موافقةً :

- لاأغني . لكنَّ أُمِّي مَغْنِيَّةٌ .

«حَدَسْتُ أن الغناءَ يحوِّمُ حولك ، ياسيدة ياروزا» ، قال ديرو .

أردف : «أأُثِّمُكَ معروفة؟» .

«قليلاً» ، ردت ياروزا .

أقحمَ يومار ، النصفُ الأيسر من جسد التوأمين الواحد ، نفسه في المحاورَة :

- سيكون مساؤنا مختلفاً عن أيِّ مساءٍ آخر لو غَنَّيتِ لنا ، ياسيدة ياروزا ، ورقص على غنائك جيتالو .

صفع ديرو توأمه يومار بغتةً . وبَّخَة :

- ألم تسمع أيها الغبي؟ أم ياروزا مغنّية ، وليست هي .
«غنّ أنت ، وسأرقص أنا» ، قال يومار بزعيقي في صوته . جاهد
أن ينهض ، لكنّ نصفه الآخر تمّنع فأحبّطه .
صرخ يومار قدّر ما يستطيع حنقاً :
- لماذا أنت توأمي وليس سواك؟ .
هأهأ ديرو استخفافاً . ردّ :
- لأحرّرك .

«أهدأ» ، قال جورني الشيخ الهادئ وهو يرمي إلى نارهم
الصغيرة ، وسط المجلس المبعثر ، أغصاناً جافة . «أصغيا إلى الجبل ،
أيها التوأمان . أسمع همسه» .

«أهكذا هم الخياطون ، ياسيد جورني؟» ، ساءله ماهاهون .
«ماذا تعني؟» ، تساءل جورني .
«يسمعون همسَ الجبال» ، ردّ ماهاهون .
«الخياطون يسمعون همسَ الخيّاطين» ، قال جورني بصوته
المتقطع .

«هذا جبلُ خيَّاطٍ ، إذا» ، تتم ماهاهون ، فلم يعقّب جورني ،
بل مدّ عنقه يستجلي مجلسَ ياروزا . ناداها من بُعدِ المسافة الأذرعِ
القليلة بينهما :

- أليديك حكاية ، ياسيدة ياروزا؟ .
«أنا؟» ، ردّت ياروزا بصوتها البالغ مبلغه رقةً . استدركت :
«ربما» .

«ربما ، أم لديك حكاية مّا؟» ، ساءلها جورني . أكّد نيابةً عن
نفسها : «بالطبع عندك حكاية ، ياسيدة ياروزا . هاتيه» .
توقف المتحدّثون بعضهم إلى بعض عن محادثاتهم . أصغوا

إلى ياروزا التي طوّقت ساقها المطوّيتين لصق صدرها بذراعيها :
« قبل خروج مَارْعُوت وزوجها جيّدُون في نزهتهما المعتادة كلّ مساء
سبت ، بعد عشاء من الخضار المسلوقة ، ضمّت المرأة إلى متاعها في
حقيبة الكتف قارورة البنج ومنديلاً قماشاً . استقلّا سيارتهما ،
واتجها إلى ناحية اختارها من ضواحي مدينة سارسيدون » .

تمت بيتاليا متسائلةً باستغراب :

- هما في نزهة . ماذا سيفعلان بالبنج ؟ .

« اسكتي » ، قالت ميلادين البدينة منتهرةً .

استرسلت ياروزا : « ركنت مارغوت المركبة إلى جانب رصيف
قريب من البحيرة الصغرى . نزلت وزوجها يجوبان الطريق . وجدا
رجلاً جالساً على مقعد . وقفا قريباً منه . جالا ببصريهما على
الأنحاء . لم يريا أحداً . أخرجت مارغوت من حقيبتها قارورة
البنج . بللت المنديل ، الذي أعطته لزوجها . مشت صوب الرجل
الجالس . حادثته قليلاً فألهته عن زوجها الذي التفّ من وراء
المقعد . كمم جيّدون وجه الرجل الجالس بالمنديل ، فوق منخريه ،
وشدّ عنقه بذراعه الأخرى كي لا يفلت منه . أعانته مارغوت ممسكة
بذراعي الضحية . ارتخى الرجل بعد برهتين . جلس جيّدون إلى
جواره ريثما جاءت مارغوت بالمركبة . وضعها الرجل في صندوقها
الخلفي ، وعادا إلى دارهما . نقلاه إلى مرآب السيارة الكبير ، الحافل
الجدران بالآلات معلقة . أجلساه على كرسي ، وطوّقاه بسلسلة حديد
عليها قفل ، ثم انتظرا أن يفيق » .

« ألم يرهما أحد من الجيران ؟ » ، تساءلت بيتاليا ، فردّت ياروزا :

- هما يسكنان داراً لاجيران حولها .

« أنت تسهّلين على المرأة زوجها خطف شخص بهذه الطريقة ،

يا ياروزا» ، قالت بيتاليا مستسهلةً منطقَ القصة . «ماذا لو أن مارغوت وزوجها يسكنان عمارة؟» .

«الحكاية هي هكذا ، يا بيتاليا . لو قرّر مؤلفو الحكاية أنهما يسكنان عمارة لبدلوا وقائعها» ، ردت ياروزا . «هي هكذا ، يا بيتاليا ، تسهلاً لاختطاف ضحايا تسعاً وأربعين مرة» .
«تسع وأربعون مرة؟!» ، تمتمت بيتاليا . ابتسمت . حرّضتها أن تكمل :

- ماذا فعلاً بالمسكين؟

«حين أفاق المسكين ، شدّ أذنيه بملقط حديد . كسرا بالمطرقة بعضاً من أصابعه . خلعا سنّين من أسنانه . صعقاه بسلك الكهرباء . صفعاه . فعلاً كلّ هذا قبل أيّ سؤال . جلسا على كرسيين صغيرين ، في المرآب ، قبالة الرجل المُختطف ، الغارق في أنينه . تمتم الرجل من فم يقطر دماً :
- من أنتما؟ ماذا فعلت لأستحقّ هذا؟ .

احتدمت مارغوت صارخةً : كل شخص نجلبه للتحقيق معه يقول الكلمات ذاتها . ألن يغير أحدكم تساؤلاته؟
زوج مارغوت احتدم أيضاً : لماذا يدعي كل من نجلبه إلى هنا أنه لا يعرفنا؟ .

ردت مارغوت على تساؤل جيدون : الإنكار طبيعة بشرية .
نهض جيدون عن الكرسي . ركل عظمة ساق الرجل المقيّد بالسلسلة الحديد . صرخ به : أنت تتذكّر ، قطعاً ، أنك فعلت ما يستوجب تعذيبك .

ردّ المسكين المقيّد : لم أفعل ما يستوجب هذا . ذكراني إن كنتُ مخطئاً .

سألت مارغوت زوجها : كم مرة سمعنا هذا المنطق ؟ .
أخرج جيدون دفترًا صغيراً من جيب قميصه . تأمل ورقة :
سمعنا ذلك للمرة التاسعة والأربعين .
قالت مارغوت : ذكره يا جيدون بما يريد هذا الدليل أن تذكره
به .

تساءل جيدون : مِمَّ أذكره ، يامارغوت ؟ .
ردت مارغوت : بأي شيء . لا يهم .
تفكر جيدون قليلاً . فكَّ قيدَ السلسلة عن الرجل المنهك . جاء
بمطرفة كبيرة وسكين كانا معلقين إلى جدار المرآب . وضع السكين
في يد الرجل . وقف خلفه . همس في أذنه اليسرى : اقتل زوجتي
مارغوت .

لم يقوَ المسكين على النهوض عن الكرسي . التفت بعينه
المنكسرتين إرهاباً إلى جيدون هامساً : لست قاتلاً .
صفعه جيدون على قذاله . صرخ به : كل آدمي قادر على
القتل . هذا قانون . اقتلها .

تمتم الرجل المختطف : لا عنف في طباعي ، أيها السيد . لم
أقتل أحداً . لم أفكر بقتل أحد .

نهضت مارغوت عن كرسيها . جذبت السكين من يده
وغمدته في فخذه اليسرى .

عوى الرجل المختطف فعلاً عواءً مارغوت أيضاً : الكذبة
نفسها .

ارتعش جسد الرجل التعس . أخرج من فمه كلمات تذوب
انكساراً . قال : أهلي أثرياء . سيدفعون لك ما تشاء إن فديةً .
وخز جيدون قذال الرجل المُرَهَقَ بمقبض المطرقة . تمتم حنقاً :

هذا القدر يظننا مبتذلّين ، يمارغوت» . توقفت ياروزا عن سرد حكايتها برهةً . أراحت ساقها بعد ضمّهما وقتاً إلى صدرها مطوّقتين بذراعيها .

«لاتقولي إنهما قتلاه» ، قالت بيتاليا .

«ألدك نهاية سعيدة لهذه الحكاية ، يا بيتاليا؟» ، ساءلها

جورني الشيخ ، فردت بيتاليا ساخرةً :

- نعم . يعتذران إليه . يضمّدان جروحه حتى تبرأ . يدفعان له تعويضاً ، ثم تتزوجه مارغوت .

«أمارغوت جميلة ، ياسيدة ياروزا؟» ، ساءل رابكين طبيبة الكلاب ، فردّت :

- أستطلب يدها للزواج؟ هي متزوجة على كل حال .

«ربما بعد طلاقها من زوجها ، إن كانت جميلة» ، ردّ رابكين .

«وستشاركها خطف أناسٍ وتعذيبهم» ، قالت ياروزا ، فردّ رابكين :

- حين تجد السيدة بيتاليا نهاية سعيدة لحكايتك ، فالأرجح أن مارغوت ستغدو طيّبة ، رائعة الطيّبة .

«أيمكن لشريعة اختطفت تسعاً وأربعين ضحية ، ثم عذبتهم في قسوة ، أن تصير طيّبة ، ياسيدة دالومي؟» ، ساءل داروم طبيبة النفس .

ابتسمت دالومي . مدّت عنقها تستجلي ياروزا : «أكملي الحكاية» ، قالت .

تدخلت بيتاليا من جديد :

- لقد قتلوا المختطف المسكين .

«لم يكتفيا بقتله» ، قالت ياروزا : «بل قطعاه أشلاء صغيرة

بالمنشار ، ووَزَعَا كُلَّ شَلْوٍ مِنْهُ عَلَى حَاوِيَاتِ نَفَايَاتِ الْوَرَقِ الْقَرِيبَةِ مِنْ
الْمَتَاجِرِ ، ثُمَّ وَضَعَا الرَّأْسَ مَقْطَعًا أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ عَلَى أَبْوَابِ أَفْرَانٍ فِي
سَارْسِيدُونٍ .

«لماذا الأفران؟» ، تساءل رابكين .

«إِسْأَلُوا السَّيِّدَةَ دَالُومِي» ، قَالَ مَاهاهون .

كَانَتْ دَالُومِي مَنشَغَلَةٌ بِالنَّظَرِ بِالنَّارِ الْغَرِيبَةِ انْبَثَقَتْ فَوْقَ أَكْمَةٍ
مَّا ، عَلَى بُعْدٍ هُوَ ذَاتُهُ مِنْ مَوْضِعِهِمْ كُلِّ لَيْلَةٍ . عَادَتْ بِبَصَرِهَا إِلَى
مَاهاهون :

- ماذا قلت؟ .

«أَرَدْتُهِمْ أَنْ يَسْأَلُوكَ عَنْ مَعْنَى تَوْزِيعِ الرَّأْسِ مَقْطَعًا عَلَى أَبْوَابِ
الْأَفْرَانِ» ، رَدَّ مَاهاهون .

ابْتَسَمَتْ دَالُومِي . رَدَّتْ :

- لَقَدْ قَدَّمْتُ مَارْغُوتَ ، وَزَوْجَهَا ، نَذُورًا إِلَى آلِهَةِ الْخُبْزِ .

الفصل الثاني عشر: جينتالو

مشى جينتالو متراقصاً خلف المرأة الشبح ، البادية عظام الوجه . لوى خصره بإتقانٍ مدرب الرقص . حرك يديه فراشتين على جانبي جسده الطويل ، العضلي ، عابراً الممر الواسع بين الزنازين المتقابلة في سجن جبل آييانو الشرقي . هتف له بعض السجناء . صفق له بعضٌ وصفر استحساناً .

كان جينتالو أنيساً ، بحق ، في لعبته الرياضية ينضم إليها ، ساعة كل يوم ، سجناء يقلّدونه في ساحة السجن دفعاً للترهل عن أجسادهم المستريحة في المعتقل الحجر ، وترفيهاً عن أنفسهم المعلقة إلى خُطّاف الوقت كلحم يُجفّف . إهتزازات رقيقة تتدحرج عنيفة أحياناً ، على إيقاع الموسيقى ؛ التواءات فاستدارات على أقدام ترتفع وتنخفض ، أو تظل ثابتة فيما تتمايل الجذوع بحسب السياق العضلي في تدوين الجسد سطور عافيته المرغوبة . إنها ساعة لأكثر ؛ ساعة من عرق تُختتم باستحمام يريح العصب الأزرق في لحم الساعات التي تليها . يلين المكان الحجري إذ يلمسه السجناء المتدربون كالوقت ليناً يرتدونه على أجسادهم .

في المساء المتأخر قليلاً ، بعد أن أوى كل سجين إلى وكره الموصد ، جاءت المرأة الشبح ، يرافقها حارس ، إلى مجثم جينتالو في الزنانة . طلبته أن يرافقها فرافقها راقصاً حتى دخوله دهليز راووت .

ظلَّ جينتالو يتهازُّ ويتلوَّى على نحو متباطئ تترصَّده عينا الرجل الغائرتان ، الشرهتان . نقر بأنامل يده اليسرى على غلاف الكتاب الضخم أمامه . نطق سؤالاً أوقف حركةَ مدرِّب الرقص الرياضي :

- من قتل أمك؟ .

« هذا ماسألني الشيخُ القذر في دهليز قروده » ، قال جينتالو للأنفار في يوم من رحلتهم صعوداً للجبل . اردفَ :
« أسألُ أحداً منكم من قتل أمك؟ » .

« أقتلت أمك ، يا جينتالو؟ » ، ساءلته روثا ، ذات الشعر الأصهب السَّبط ، فاعتكر وجهُ مدرِّب الرقص الأبيض البشرة اكتست برونزاً من تعريض جلده للأشعة الصناعية :
- ما السؤال الدنيء هذا؟ .

« أنت هنا لأنك قتلت أحداً ، ياسيد جينتالو » ، قالت روثا مستاءة من ردِّه ، فخفَّف جينتالو من نبرة العراك في لسانه :

- لم أقتل أُمي . هي حية في سارسيدون .
كانت باردةً تلك البرهة بعد سؤال راووت مدرِّب الرقص عمَّن قتل أمه ، يومَ دخوله الدهليز ، فردَّ جينتالو بصوته الأمر النَّبر :
- لم يقتل أحدٌ أُمي ، ياسيد ألوت .

صحَّح الرجل الشيخُ لزائره لفظَ اسمه :
- راووت .

« كان بين المتدريِّين عندي ، في نادي الرقص ، شاب اسمه ألوت » ، عقَّب جينتالو .

« لا تكن مذعوراً » ، قال راووت متممةً .

همهم جينتالو استغراباً : « أنا مذعور؟ أببدو مذعوراً؟ » . تقرَّى

المكانَ ببصره ، فَحَدَسَ راووت ماذا يبحث جينتالو عنه . اعتذر :
- لاكرسي آخر هنا .

نقر جينتالو الأرضَ بمقدَّم مشط قَدَمه . ساءلَ الشيخَ :
- لماذا تظنني مذعوراً ؟ .

«نبرُ صوتك إذُ سألْتُك من قتل أمك» ، رد راووت .

«أمي حية ، تداعب ، الآن ، قطتيها قبل إطفاء الضوء قرب سريرها» ، قال جينتالو ذو الأربعة والثلاثين عاماً . «اشتريتُ لها منزلاً بحديقة تقتني فيها أرانبَ . عندها كلب وهرتان . هي في الخمسين ، وستتزوج قريباً» .

«أمك ستتزوج؟» ، سألته راووت ، فردَّ جينتالو :

- نعم . ستتزوج الرجل ذاته الذي أحبَّته في صباها . وأنا سعيد من أجلها .

«أين أبوك؟» ، ساءله راووت .

«لا أريد الحديث عن أبي» ، ردَّ جينتالو .

«وماذا عن أمك أيضاً؟» ، ساءله راووت . «أأحبَّت أباك؟» ، أضاف مستدرجاً .

«لم تحبَّه قط» ، ردَّ جينتالو . «لم تدخل نادي الرقص الرياضي ، ولو مرةً ، حين كان أبي مدرباً . لكنها حضرتُ تتدرَّب لما تسلَّمتُ النادي من أبي . أمي رشيقةٌ بحق ، ياسيد راووت . أحاولتَ ، قطُّ ، أن تتدرَّب على الرقص الرياضي؟» .

«مَنْ تَسألُ؟» ، تساءل راووت مديراً بصره في سخريه ، على رسوم القروود .

«أسألك أنت ، ياسيد راووت . لا أحد سواك هنا» ، ردَّ جينتالو . أشار بأصابعه إلى الرسوم : «أنت وهؤلاء الحجاج» .

«لا . لم أفكر أبداً في أيّ رقصٍ كان» ، ردّ راووت . أضاف :
«لماذا أتدرب على رقصٍ رياضيٍّ؟» .

«من أجل أناقة جسدك ، ياسيد راووت» ، قال جينتالو .

«أناقة الجسد مطلبُ المخدوعين» ، تتم راووت .

نقر جينتالو الأرضَ نقرًا خفيفاً ، إيقاعاً ، بعقب حذائه
الرمادي : «فهمتُك» ، قال . «أنت من المؤمنين بالجمال داخل
اللحم ، بين العظام والأحشاء ، وفي الرثتين ، وتحت قحف
الجمجمة؟» . صمت محدّقاً إلى الرجل الشيخ يقلّب صفحات
الكتاب الضخم بعينين على وجه جينتالو .

«هُوّه» ، عقّب جينتالو على صمت راووت مستدرّكاً :

- أناقة الروح ، ورشاقة العقل . هذا ماتريد قوله .

«لم أرّد قول هذا . لم أفكر به» . ردّ راووت .

«ماالجمال الداخلي ، إذا؟» ، تساءل جينتالو ، فردّ راووت :

- وقوفك هنا .

طوال سبع سنوات أدار جينتالو نادي الرقص الرياضي ، الذي
امتلكه أبوه في عمارة مستطيلة من طبقتين . العليا مطعم واسع ،
والسفلى موزعة قسمين يفصلهما ممر عريض يؤدي إلى سلم الصعود إلى
المطعم . على يمين مدخل الطبقة هذه مكتبة ، وعلى يساره قاعة الرقص
بجدارين زجاجيين ، أحدهما يواجه المكتبة ، والآخر يواجه ساحة تُقام
فيها ، ليوم واحد ، عروضُ الأداء الصامت من ممثلين في أقنعة شتى ،
يقفون على سيقان خشب مفرطة في طولها ، فيما يتناوب على تلك
الساحة ، بقية أيام الأسبوع ، بائعو زهر ، واسطوانات موسيقى قديمة ،
وأنية عتيقة ، تُعرض على منصّات بسقوف قُماش .

يدرّب جينتالو تسعاً وعشرين شخصاً في ساعات ما قبل

الظهر ، ممن يناسبهم الوقتُ ذاك من يومهم . ويُعيّنه أخوه ماكّدال ، الذي يصغره بأربع سنين ، عَصْرًا ومساءً ، في تدريب ثلاثة وأربعين شخصاً آخرين بحضوره . ماكّدال لمُعْ ذكاء في ابتكار حركاتٍ مستحدّثة ، وتبديل حركاتٍ مُعتمَدة . كلُّ الذي اقتبسه جينتالو من حركات رياضية من آخرين معدّلةً بعض الشيء ، أضاف أخوه إليه تعديلاً جديداً يؤنّقه ، ويجعله خاصاً ، حتى بات النادي مُحْتَكِرَ صنوف من الأداء حَصْرًا به يصلح للتسجيل مصوِّراً ، لِيُبَاعَ مكفولَ الحقوق كما اعتقدَ ماكّدال ، فلم يوافقهُ جينتالو .

قاعة نادي الرقص طويلة ، لها أرضٌ خشبٌ صقيل ، وجدارٌ مرآة بتمام عرضه وارتفاعه . وثمت في الجهة المقابلة للجدار المرأة خزانٌ صغيرة ، وحواجز غير عالية ، من خشب ، يبدّل المتدربون ثيابهم العادية خلفها بثياب الرياضة المطاط اللّصيقة ، أو الفضفاضة ، من طُرُزٍ تتبارى شركات الصناعة في تفصيلها ، وفي وسمِها بألوان هي علامة المَصْدَر .

كان والد جينتالو مدرّب الرقص سنين قبل أن تبدأ أعراضُ تأكلِهِ من كثرة الكحول . بات يؤدي حركات الرقص أمام المتدربين بإيقاعٍ نعسان ، ثم تكاثرت سقوطه في الأداء ، ثم اعتكف لايحضر الدروس بل يرسل ابنه جينتالو ، ثم اختفى في رحلة إلى شرق الأرض ، فلم تكلف عائلته نفسها استخبار أحواله .

في السابعة والعشرين وضع جينتالو جداريّ النادي الحجريين على كتف ، ووضع الجدارين الزجاج الآخرين على كتف ، راقصاً بالمكان كله في المرأة الشاسعة كصحراء تهبُّ عليها الصورُ راقصة . أخوه ماكّدال انضمَّ إليه معاوناً ، ثم شريكاً في ابتكار الحركات الخاصة بتقوية عضل البطن والفخذ . لم يكن ماهراً في الأداء

كجينتالو، لكنه اكتسحَ خيالَ جينتالو بزحام من فنونه في إشرافات العضل، من العنق حتى ريلة الساق، فاستحسنها جينتالو لبعض السنين، ثم لم يلبث أن استكشر، في السنة الأخيرة، قبل دخوله السجن، جنوح أخيه الأصغر إلى غزو النادي بتبديل الحركات، التي يؤديها هو، حين يتسلم ماكدال ساعة التمارين.

مراراً لفتَ جينتالو سمعَ أخيه وبصره إلى لجم نزوعه في المزاومة تبديلاً، وتعديلاً، للحركات. وبَّخه مراراً على اقتحامه برهات من أداء المتدربين على إيقاع الموسيقى بمقاطعتهم كي يقدم اقتراحاً. لكنَّ قلب الشاب ماكدال كان يجري نهراً من منبع الرغبة إلى مصبِّ الرضا، فيقترح، ويجترح، ويثبت، ويُلغى.

لم يُطقْ جينتالو مزاحمةَ خيال أخيه براعةَ أدائه هو في الحركات المعتمدة، لكنَّ لم يبلغ به الضيق أن يتفكَّر في صرْفه، أو تعنيفه كلاماً، حتى اليوم الذي اقتحم فيه ماكدال النادي برجل في السابعة والثلاثين ربما، طويل، نحيل، مُرسَل اللحية إرخاءً حتى صدره، في ساعة من انخراط المتدربين في أداء صارم تقليداً لحركات جينتالو. قادَ ماكدال الرجلَ إلى آلة البيانو المركونة في زاوية من النادي، قرب خزائن الثياب، لم يعزف عليها أحدٌ، في الأرجح، بل باتت صورةَ ختم ثابتةً في عمق المرأة الشاسعة تُرى جيئماً دار المتدربون بحركاتهم.

وضع الرجل الكبير اللحية حقيبة كتفه المنتفخة أرضاً. رنَّ فيها مايشبه همسَ معدن لمعدن، فانتبه ماكدال. تساءل:

- ماذا في حقيبتك، ياسيد يونات؟

«كُتب»، ردَّ الرجل الطويل اللحية، المشذبة قليلاً على الصدغين.

«لكتبك رنينٌ قطعٌ صفيح» عقب ماكدال مبتسماً .

«هي هكذا» ، قال الكبيرُ اللحية متلمساً غطاءً مفاتيح الإيقاع في آلة البيانو . التفت بوجهه الرقيق الواضح صفاءً في حصار لحيته البنية ، إلى جمع المتدربين يقلدون ، بأبصارهم إلى المرأة ، تماوج أعطاف جينتالو . «لكتب رنينُ المعادن» ، أضاف تتممةً تبعثرت في الإيقاع المتسارع للأغنية العالية من آلة التسجيل تصاحبها حركاتُ المدرب والمتدربين . طوَّق خاصرتيه براحتي يديه كالمنتظر ما ستأتي به البرهة التالية ، فطوَّق ماكدال خاصرتيه أيضاً ، منتظراً .

ظلت إيقاعاتُ الأغنية العالية تتمادي دحرجةً لكُرَاتِ الصدى الصُّغار في قاعة النادي ، متبوعةً بغمغمات التحريض والحث من صوت جينتالو : «جَيِّد . جيد . أريدُ الكمال» ، فيتلَقَّف المتدربون غمغماته بمطابقات أكثر دقة في تقليد جسد جينتالو وإرضاءً للمدرب ، وإرضاءً لساعتهم تدريباً لا يندمون عليه .

مال يوناث الطويل على ماكدال ، وهو يمسد براحته على لحيته البالغة صدره :

- أخوك على علم بما سأفعله هنا؟ يبدو مستغرقاً في ترجمة الأغنية إلى عضل .

ابتسم ماكدال لتورية يوناث . غمغم :

- اقتربت الأغنية من نهايتها .

انتهت الأغنية ، التي ضبط جينتالو على إيقاعها إيقاعَ جسده المدرب ، لكنه لم يتوقف . هتف بالمتدربين : «أصْغُوا إلى جسدي . أصْغُوا إلى أجسادكم الآن» ، فاسترسلوا يقلدونه من غير موسيقى إلاَّ وهْوَهاَتُ أصدروها من أفواههم ، وزفراتٍ راقصةً من حول زفراتِ مدرِّبهم العالية .

انحنى ذو اللحية الطويلة بوجهه السّمح ، المتأمل ، من جديد ،
على ماكдал . هَامَسَهُ :

- أعزف أحد قَبْلاً على هذا البيانو؟ .

«ربما» ، ردَّ ماكдал . «لكن ليس في قاعة النادي . أخِي يكتفي
بالتسجيلات الأغاني الراقصة» .

استقام يوناث بعد انحناء على ماكдал الأقصر منه . استدار
إلى جمع المتدربين . لمَحَ صورته في عمق المرأة فتأملها . مسَدَّ بيده
على لحيته يستعرضها في وجهه الآخر هناك . قَرَّبَ رأسه من رأس
ماكдал :

- أخوك يترجم جسده إلى جسدٍ آخر .

التفت إليه ماكдал . تتمم :

- ترجمة؟ ماذا تعني؟ .

«أعني الترجمة» ، ردَّ يوناث كأن الأمر لا يحوجه تفسير . أوماً
بيده اليسرى إلى المتدربين :

- هؤلاء ينقلون ترجمةً عن ترجمة .

«أتقرأ الكثير من الترجمات؟» ، ساءله ماكдал ملقياً بصره إلى
حقيبة الكتف المنتفخة ، مركونة أرضاً ، فردَّ يوناث :

- أنا ترجمان .

«لم يخطر ذلك ببالي» ، قال ماكдал ، فحدَّقَ إليه يوناث :

- من ذلك عليّ؟ لستُ محترفٌ عزفٍ على البيانو . أنا نصف

هاوٍ .

«لوهين ، صديقة صديقتي ، التي تعرف من يعرفك» ، قال
ماكдал .

«لم أعزف في مكان آخر قطُّ غير البيت» ، قال يوناث .

«أثارتني الفكرة ، لهذا قبلتُ» . تطلَّع إلى جمْع المتدربين . همس :
«لا يبدو أن أخاك سيتوقف اليوم . ربما عليَّ المجيء غداً ، أو أوقفهُ ،
ياماكدال» .

هزَّ مأكداًل رأسه موافقاً . مشى من جانب المتدربين حتى بلغ
موضع جينتالو قريباً شبراً من المرأة بظهره إليها . نظر إليه جينتالو
بعينين متسائلتين . وإذ همَّ مأكداًل بالكلام قاطعه أخوه بحركة
استنكار من يده : «ليس الآن» ، قال غمغمةً وسط زفيره ، فأشارَ
مأكداًل إلى يوناث :

- ربما لن ينتظر أكثر .

توقف جينتالو فتوقف المتدربون . نظر من موضعه ، بين رؤوس
الجمع ، إلى الرجل ذي اللحية الطويلة . دمدمٌ :
- من هو؟ .

«عازف بيانو» ، ردَّ مأكداًل .

«عازف بيانو؟!!» ، تساءل جينتالو مستغرباً . «ماذا يفعل عازف
بيانو هنا؟» .

«أنا جئتُ به» ردَّ مأكداًل .

«لماذا جئتُ به إلى النادي؟ خذهُ إلى بيتك» ، قال جينتالو
بصوت مستنكر .

«أريد عزفاً على البيانو يصاحب الحركة الجديدة التي
سأريكمها» ، ردَّ مأكداًل .

طوَّق جينتالو خصره براحتي يديه . مطَّ عنقه صوب أخيه :

- أسألتني؟ أطلبتَ إذنًا مني ، ياماكداًل؟ .

«ستعجبك الفكرة . ستري» ، قال مأكداًل دفاعاً عن البرهة
المرتبكة من بلوغ صوت أخيه أسماع المتدربين الصامتين .

«جئت بعازف بيانو من غير أن تسألني . قاطعتني في ذروة الأداء . مابك يا ابن الخطأ؟» ، ساءله جينتالو مغتاظاً .

«ماذا؟» ، تتم ماكدال باستياء من توبيخ أخيه له .

اقترب جينتالو من ماكدال حتى كاد يلامسه :

- قُلْ للعازف أن يعود من حيث جاء .

«ليس قبل أن يُنجز ماجئتُ به من أجله . أنا جئتُ به» ، ردَّ

ماكدال بنبر تحذُّ خافت .

«هكذا إذاً» ، تتم جينتالو بصوت متوَعِّد . «سأُمهلُك حتى

تؤدِّيَا ، أنت وعازف البيانو ، مأحضرتُهُ من أجله ، وستخرجان بعد

ذلك معاً من هنا» . هزَّ رأسه تأكيداً . همس في أذن أخيه :

- لن تعودا .

حدَّق ماكدال إلى وجه أخيه برهةً يستجلي عمق وعيده .

استدار متَّجهاً حيث يقف عازف البيانو . صفَّق بيديه يلفت أنظارَ

المتدربين فالتفتوا إليه . «لديَّ حركة جديدة خاصة بالعمود

الفقري» ، قال . أشار بيديه أن يوسعوا له مطرحاً يؤدي حركته فيه

من وسط القاعة . تفرَّق المتدربون قليلاً إلى جهتي جداري القاعة

الزجاجيين ، بينما ظل جينتالو في موضعه قرب المرأة الشاسعة .

فرَّج ماكدال بين ساقيه . مدَّ ذراعه اليمنى أفقياً . أوماً إلى

عازف البيانو الواقف قرب الآلة :

- اعزفْ أي شيء تريده ، ياسيد يوناث ، بإيقاع هادئ .

ضم يوناث لحيته براحة يده اليسرى . تساءل بصوتٍ عال :

- ماذا؟ .

لم يتفهَّم ماكدال تساؤلَ يوناث . ردَّ بهدوء :

- اعزفْ أي شيء .

«أرني حركتك» ، قال يوناث وهو لم يزل قابضاً على لحيته .
أرخی ماكدال ذراعہ الممدودة أفقياً إلى جانبه الأيمن :
- سأقدم حركة الرقص هذه مرفقةً بالموسيقى تحديداً ، ياسيد
يوناث .

حرّر يوناث لحيته . أرخی راحته عنها . تطلّع إلى المفاتيح
المستطيلة البيض ، والسود ، متوازيةً على طول هيكل البيانو :
- ماذا تريدني أن أعزف تحديداً؟ .
مدّ ماكدال ذراعہ صوب الكرسي أمام الآلة :
- هلاً جلست ، ياسيد يوناث؟ .

«مالفرق؟» ، ردّ يوناث على السؤال بسؤال .
«لا تبدو متهيئاً بوقوفك أمام البيانو هكذا . اجلس ، والمسِ
المفاتيح» ، قال ماكدال .

«استثّر فيّ رغبة العزف ، ياماكدال . أرني حركتك لأجلس» ،
ردّ يوناث .

«اعزف أيّ شيء ، بحق الله عليك» ، قال ماكدال بنبرٍ
متوسّل ، مستنفذ الصبر .
«أريد حركةً أترجمها» ، ردّ يوناث .

«مابك والترجمة؟ تكرر الكلمة كثيراً ، ياسيد يوناث» ، عقّب
ماكدال . أدار عينيه على وجوه المتدربين ، المحققين فضولاً إليهما .
«مطابقة أصل على أصل» ، أوضح يوناث . نقر بأتملة سبّابته
اليمنى على مفتاح . رنّ صوتٌ وحيد ، رقيق كخيوط .

«مالأصل؟» ، تساءل ماكدال . «موسيقاك أم حركتي؟» .
«الإثنان معاً» ، ردّ يوناث بصوت هادئ ، واثق ، وهو ينظر إلى
سبّابته فوق المفتاح الموسيقي المنخفض عن مستوى المفاتيح الأخر .

غمغم ماكدال متذمراً :

- أرجوك ، ياسيد يوناث . ابدأ أيّ شيء .

«أي شيء؟ هذه كلمة لها سواحل شاسعة ، مستديرة ،
كبحيرتي سارسيدون» ، عقّب يوناث .

«حسناً» ، تتم ماكدال . أوضح :

- نغمٌ مّا ناعم . نغمٌ زفيرٌ خافت . نغمٌ همسة . نغمٌ رطبٌ .

«أرني حركتك لأرى مدى نعومتها ؛ مدى الزفير الخافت
والهمس فيها ، ياماكدال» ، قال يوناث .

تراخى جسد ماكدال مُحَبَطاً . سدّد صوته عالياً إلى يوناث :

- اضرب المفاتيحَ بحذائك . كَسّر البيانو . إفعلْ شيئاً .

أغلق يوناث غطاءً مفاتيح الموسيقى المتوازية كأضلاع مسطّحة .

ردّ :

- أَسْتُرِني حركتك ، أم ماذا؟ .

دار ماكدال بجسده صوب أخيه جينتالو ، المحدّق إليهما بنظرة
زئيرٍ من حَنَقه . استنجد به صامتاً . نقل بصره عن وجه أخيه إلى
صورة يوناث في عمق المرأة . تتبّع حركة الرجل ذي اللحية الطويلة
وهو ينحني ليلتقط حقيبة كتفه المنتفخة ، الواضحة الثقل إذ رفعها .
صُدِمَ وهو يراه ماشياً على مهل يتهياً للمغادرة ، مُلقياً إليه كلماتٍ
كالنَّخَر :

- كنْ لطيفاً وأنت تساوم صورتني التي سأبقيها لك في المرأة ،
ياسيد ماكدال . إنها عنيدة أكثر مني ، وعنيفة أيضاً .

على مهل خرج يوناث من النادي . تقدّم جينتالو من أخيه
المتراخي إحباطاً . وضع يده اليسرى على كتفه :
- أجنّت بمن احتقرك ، ياماكدال؟ .

أبعدَ ماكدال كتفه من يد أخيه ، غير مستسيعٍ تعقيبَه . هزَّ رأسه نفيًا :

- عند يونات اعتباراتُ ربما كانت فظةً قليلاً ، لكنه لم يحتقرني .

«بل احتقرك» ، قال جينتالو بنبرِ إهانةٍ . «واحتقرت أنت النادي» . دار ببصره على المتدربين الصامتين :

«بِمَ تصفون هذا الذي جرى؟» ، ساءلهم حثًا على تأييده .
«كنتُ سأريك حركةً لا تخطر ببال أمثالك ، يا جينتالو» ، قال ماكدال يفكُّ عن يديّ قلبه حبَلَ موقفه المُحبَط .

«أمثالي؟!!» ، تتمم جينتالو . انتفخ وجهه الملتفحُ لوناً برونزاً من تعريض جلده للأشعة الصناعية . «تعال . أرني حركتك» . شدَّ أخاه من صدر قميصه القطني الأصفر .

حاول ماكدال انتزاع قميصه من يد أخيه ، فتمادى جينتالو جذباً :

- تعال . أرني حركتك لأريك نقصانها ، يا ابن الخطأ .

«دعني» ، تتمم ماكدال مغتاضاً .

أرخى جينتالو أصابعه عن قميص أخيه . رفع بصره إلى وجه المتدربين : «سأريك ماهي حركة أخي قبل أن يُرينيها» . وضع راحة يده اليمنى على مؤخر رأس ماكدال ، وجذب وجهه بيده اليسرى في اتجاه معاكس جذباً عنيفاً .

دار عنقُ ماكدال من أصله بين كتفيه . انفصلت فقرةٌ عظمٌ من فقرات العنق عن أختها فانعكس النخاعُ بين الفقرتين . شرارةٌ من صاعقة جليد جمّدت مفاصل ماكدال ، فانهار رُمّةً .

ظلَّت يدا جينتالو معلّقتين في الهواءِ كأنَّ لم يزل ممسكاً برأس

ماكدال . أنزل بصره أسفل إلى أخيه منطرحاً أرضاً كميتٍ عاد المشيعون من جنازته . زفرَ بقسوة .

«مَنْ قتل أمك؟» ، ذلك أكثر ماتذكُّره جينتالو من سجن جبل آييانو الشرقي ، في يوم الأنفار الثمانية عشر ذاك من أيام رحلتهم صعوداً . «لماذا سألني راووت سؤاله القذر هذا؟» ، تساءل . حاول أن يتفكّر من ذلك الخاطر اقتحمه بكلمات الشيخ في دهليزه ، فلمس كتف معلم الرياضيات :

- ماأفضل ما يُقال لتلميذ ، ياسيد ماهاهون؟ .

«إنتحر» ، ردّ ماهاهون من فوره بلا تقليبٍ لخيارات الأجوبة .
«أهكذا؟!» ، تساءل جينتالو متفاجئاً .

«ماذا غير ذلك أفضل ما يُقال لتلميذ ، ياجينتالو؟» ، ردّ ماهاهون .

حكّ جينتالو فروة رأسه نكتاً عن جواب :

- الأفضل ، ربما ، أن يُقال إنّ الغدَ عطلةٌ ، وبعد الغد عطلةٌ ، وبعد بعد الغد . التلميذ يفضل أيّ خبر يتعلق بتعطيل المدرسة .
«أليس الأفضل القول له إنّ الدراسة انتهت؟ لماذا التقيسيط في أخبار تُسرّه؟» ، ساءله ماهاهون ، فردّ جينتالو :
- نعم . لكنّ جوابك الأول فاجأني .

«لا ينبغي أن يفاجئك . القول لتلميذ إنتحر هو الطلب الأكثر لبُشرى حياته . انتحر وينتهي كل شيء . لا دراسة . لا محاورات . لا بحث عن عمل . لا رحلة . لا صعود جبل . لا اعتذار» ، قال ماهاهون كالمستغرق في تأملٍ منطوق ، لكن بنبرة غاضبة قليلاً في صوته .
حدّق جينتاليو ملياً إلى وجه ماهاهون ذي الحنكين البارزين .
هامسه :

- مزاجك معتكر اليوم .

«مزاج الجبل معتكر، وليس مزاجي»، ردّ ماهاون وهو يستند براحة يده اليمنى إلى جذع شجرة، متوقفاً عن مشيه . جالاً ببصره على أنفار الرحلة سبقه بعضهم، وسبق بعضهم . وقفت ياروزا على قرب منه، في الجهة الأخرى من جذع الشجرة . تأملته :

- كم يوماً يلزمنّا لبلوغ أعلى الجبل، ياماهاون؟ .

«ثمانمائة عام»، ردّ ماهاون مبتسماً . «يلزمنّا ثمانمائة عام لبلوغ واحدة من القمم الثماني». التفت إلى الحلاق دايك :

- هل أخبر راووت أحداً أية قمة من أولائك هي غاية رحلتنا؟ .

«الأرجح سننتقل بين القمم»، ردّ دايك من بين شفّتيه الرقيقتين، الحمراوين .

التفت ماهاون إلى ياروزا :

- تخميني لم يخطئ . يلزمنّا ثمانمائة عام .

«لماذا لم يزودنا راووت بكلب لاكتشاف القمة المطلوبة؟»، تساءل جينتالو مبتسماً وهو ينظر إلى ياروزا . أضاف :

- ماأفضل مايفعله كلب في مدرسة، ياسيدة ياروزا؟ .

«أن يشرع في تدريب التلاميذ على الرقص الرياضي»، ردت ياروزا . استرسلت ناظرة إلى ماهاون : «وأن يتبرّع بمساعدة المعلمين على تصحيح أوراق الإمتحانات» . رفعت قدمها اليمنى في الخذاء الرمادي تتأملها : «من جلد أي حيوان أحذيتنا؟»، تساءلت .

«من جلد حنكليس»، ردّ جينتالو . أدار وجهه صوب التوأمين : «سمعت أن عندهما معطفاً من جلد الحنكليس» .

ألقت ياروزا بصرها إليه . سألته سؤالاً شارداً :

- أأنت نباتيُّ ، يا جينتالو؟ .

«نعم . قلتُ لك ذلك قبل أيام» ، ردَّ جينتالو .

غمغمت ياروزا تعتذر عن نسيانها . «هناك نباتيَّان آخران معنا» ، قالت . «النباتيون قتلة» .

«ماذا؟!» ، تتمم جينتالو مستغرباً .

«يأكلون الأرواح ليعيشوا أصحَّاء ، ويدخنون بشرهة» ، ردَّت ياروزا .

مطَّ جينتالو عنقه صوبها استفهاماً :

- أمزاجك معتكر هذا اليوم ، ياسيدة ياروزا؟ .

تطفَّل دايك على المحاوِّرة مُدَّ سمع تعليق ياروزا على النباتيين .
كلَّمها :

- النباتيون خريجو المعاهد الخطأ .

«هم طيبون . سعداء . لزجون كالهلام» ، قالت ياروزا ،
فانضمت روثا إليها :

- أحقَّاً بات النباتيون يدافعون عن حقوق الخضار ، هذه الأيام؟ .

ربت ماهاهون براحة يده على جذع الشجرة الخشن كأنما يوقظ روحها . تدخَّل في المحاوِّرة :

- بعد ثمانمئة عام سيكتفي العالم بأكل ماليس نباتاً ، أو لحمًا .

«سيكتفي بأكل الهواء ، إذًا» ، قالت ياروزا متطرِّفةً ، فردَّ ماهاهون :

- للهواء أنفاسُ النبات ، والبشر ، والحيوان . سيكون الهواء على قائمة الأطعمة الممنوعة .

«ماذا تقترح أن يأكل البشر بعد ثمانمائة عام ، ياسيد
ماهاهون؟» ، ساءلته روثا ، فردَّ ماهاهون :

- الريش .

«ماذا بكم لاتسيرون؟» ، ساءلت دالومي الخمسة الواقفين قرب
جذع الشجرة ، في ظهيرة ذلك اليوم من أيام رحلتهم ، فردَّ
ماهاهون :

- نفكر في الاختلاف بين دمٍ وآخر . لايعجبنا أن الدماء كلها
حُمُرٌ .

«إن لم يعجبكم ذلك فعليكم إيجاد اختلاف» ، ردت دالومي .
«كلُّها حُمُرٌ ، ياسيدة دالومي» ، قال ماهاهون ، فعقبت ياروزا :

- الدماء حُمُرٌ ولزجة .

«حُمُرٌ وزنخة» ، أضاف جينتالو .

«حُمُرٌ ودافئة» ، أضافت روثا .

تصنعت دالومي تصفيقاً خافتاً إطرأً :

- أراكم وجدتم اختلافات كثيرة في الدماء .

«لو خيرُناك أن تجدي ، أنت ، ياسيدة دالومي ، اختلافاً بين
الدماء فماذا تقولين؟» ، ساءلها جينتالو .

«سأقولُ الدماءُ حُمُرٌ وهي تسيل ، وتسير» ، ردت مشيرة بيدها
إلى مراقي الجبل .

«سيروا» ، قال ماهاهون . «أيها الدماء الحمر ، ياأبناء هذه
الرحلة النهرية ، سيروا على عجل» .

«سأسير متمهِّلةً . فلينتظر القتلى» ، قالت بيتاليا بصوتها
المتأكل ، فحثَّها ماهاهون :

- العجلة خيارٌ قوي .

وجراحٌ متمالكةٌ نَفْسُها ، وجراح متفرقةٌ أخرى . فجراح التجَّار ، مثلاً ، لا تشبه جراح الصيادلة ، وجراح سائقي سيارات الأجرة لا تشبه جراح أطباء الكلاب ، وجراح الخياطين لا تشبه جراح خبَّازي المعجنَّات .

ضحك ماهاهون من السياق المرح في لسان دالومي . ساءلها :
- أتشبه جراحك جراح أحد؟ .

«تشبه جراح الرياضيات» ، ردَّت دالومي .
«جراحك قوية ، إذاً . جراحك هي الأقوى» ، عقَّب ماهاهون .
«كلُّ ماليس له جذور هو الأقوى» ، ردت دالومي . أضافت :
«ليس للرمال جذور ، لذا هي الأقوى . ليس للغبار جذور ، لذا هو الأقوى» .

«أتعنين أن لا جذور للرياضيات؟» ، ساءلها ماهاهون ، فردت دالومي :

- بل لها جذور في ماضي آدم قبل أن يتمرد عليه الله .
«ماذا؟» ، تساءل ماهاهون وقد اختلط عليه المعنى .
ابتسمت دالومي . جذبته من كُمِّ قميصه كي يسير أسرع :
- آدم ليس اسمَ شخص ، بل هو الاسم العلميُّ لنشأة الإنسان المخدوع .
«وماذا عن اسم حواء؟» ، ساءلها ماهاهون مبتسماً مثلها ، فردَّت :

- هو اسم هذه الرحلة .
«للغتك مداخل ومخارج كثيرة ، ياسيدة دالومي . حيلتك يقظى دائماً» ، قال ماهاهون .
«اللغة . هه» ، غمغمت دالومي . «ربما قرأتُ في مكانٍ ما ، أو

تخيلت ذلك ، أن شخصاً قال : أعطوني لغةً أكثر اتساعاً لأصفَ الألمَ الذي لم تعثر عليه الأجسادُ بعدُ» .

مطلعُ تلك الليلة من يوم الأنفار الثمانية عشر ، ألقى جورني الشيخُ سؤاله المعتاد لترفيه الليل بالأقاصيص :
- أليس لديك ، يا جينتالو ، حكاية راقصة ؟ .

«أهذا نوع جديد من الحكايات ، ياسيد جورني؟» ، ساءلته سيتون الطويلة ، المتناسقة ، فردَّ جورني الخياط ملقياً بصره إلى جاره في المجلس الحلاق دايك :

- حكايات راقصة . حكايات مغنيَّة . حكايتُ مُصَفِّرة .
حكايات عندها مقصات لحلاقة الشعر . أنواع الحكايات لا تحصى ،
ياسيدة سيتون . وأزعم أن جينتالو يعرف النوعَ الراقص .

«لارقص . لاغناء . لاصفير» ، قال جينتالو . «إن حَزَرَ أحدُكم كيف بدأت حربُ الثمانمائة عام ، فسأحزر لكم كيف انتهت» .
«كانت حرباً من اختراع الدليلين سادوك وميراس . بدأتُ معها وانتهت بعودتهما» ، قال دايك الشيخ .

تنهَّدت بيونا ، أخت سيتون . أَلقت كلماتٍ سارحةً مع أنفاسها :

- عرضُ جينتالو مُغر . وأظنُّ أن تلك الحرب حصلت حقاً .
«أأقنعك الدليلان؟» ، ساءلها دايك ذو الصوت العالي ، فردَّت بيونا الطويلة ، الضخمة :

- انظروا إلى الجبلين . ألا يوحيان ، حقاً ، أن حرباً جرت في السهل الحجر بينهما ثمانمائة عام ؟ .

«اسمعي» ، رفع ماهاون صوته من حلقة الجلساء ، حول نارهم الصغيرة ، الهزيلة : «زعم الدليل ميراس أنها حربٌ تبدأ لحظة تفكيرٍ

شخصٍ مَّا بها . إنها تبدأ حين نفكر أنها ابتدأت ، وتستمر ، من تلك اللحظة ، ثمانمائة عام .

« فلنفكر أنها بدأت الآن » ، قال جينتالو .

« من سيبدوها؟ » ، تساءل يومار التوأم بصوته الزعيق قليلاً .

« النساء » ، ردَّ جينتالو . أردفَ : « حرب تدوم طويلاً هكذا هي حرب تبدوها النساء » .

« ماقصدك ، يا جينتالو؟ » ، هتفت ياروزا . « أهذا غمَزُ أم مديح؟ » .

« هذا مديح » ، ردَّ ديرو ، النصف الأيمن من جسد التوأمين الواحد .

« حسناً ، يا ديرو . كيف بدأت النساء حربَ الثمانمائة عام؟ » ، ساءلته ياروزا ، فردَّ ديرو :
- ككلِّ الحروب .

« ككلِّ الحروب؟ كيف تبدأ كلُّ الحروب؟ » ، ساءلته طييبة الكلاب ، فردَّ ديرو :
- بابتسامة واثقة .

دَوَّتْ قرعةٌ أجفلت الأنفَارَ الثمانية عشر فهبُّوا واقفين . لم يخمَّنوا ، أو يتأوَّلوا ما حصل : لقد انهارت شجرة كبيرة على قربٍ منهم ، في ليلتهم التي بلا ريح . صممتوا مصغيْن إلى أنفاسِ الأغصان زحفت من ثقل سقوطها حتى مسَّت أقدامهم ، وأدعَرَتِ النارُ الهزيلة فاختبأتْ ذُؤاباتٌ من لهبها وراء ذُؤاباتٍ .
« بدأت الحرب » ، تتمم ديرو ساخراً .

لمست آرديلا ، ذات الفم الكبير ، المتناسق ، كتفه . علَّقت ساخرةً بدورها :

- صعدَ راووت الشجرةَ فانقصفت .
تلفَّت بعضهم إلى بعض بعد زوال الإجفالة . عادوا جالسين
على البُسُط الجلود حلقةً . تتمم جينتالو بنبر يُسمع :
- لِمَ سألني راووت سؤاله القذرَ : من قُتل أمك؟ .

الفصل الثالث عشر: سولكي

لم تجاوز سُلطة سولكي أربعة أمتار مربعة من مَتَجَر كبير للمأكولات ، طازجةً ومحفوظةً وسائلةً . لكنها كانت سلطة النكهات لا ينجو من الولاء لها أحدٌ في الحي الذي فيه المتجر ، ولربّما بايعها ولأء قاطنو الأحياء الأبعد أيضاً .

سولكي هو المُشرف ، بالدقائق في الساعات وثوانيهما عدداً ، على عُجْن الكعك ، والفطائر ، وإنضاجها في الأفران الثلاثة في زاوية من المتجر محجوبة بجدران ، ولها باب بلا دفة تخرج منه الصّحاف السود ، الواسعة ، رفوفاً في عربة على عِجال بما تحويه من أطايب إفطار الصباح ساخنةً ، فتُرصّف على مصاطب زجاج بواجهات زجاج لا تحجب على القرفة ، والشونيز ، وجوزة الطيب ، نُشّر أديانها . مُنّزراً أسود ، طويل حتى الساقين ، مهورٌ بعلامة المتجر البيضاء ، يدور مع جسد سولكي من باب فرن إلى آخر ، رصداً للدقائق من الوقت ألاّ تزيد أو تنقص فتخذل النار العُجْنَ بأقلّ من مطلوب إنضاجها ، أو بأكثر من مطلوبه . فتيات ثلاث ، في مآزر كمثرى ، يتولين نقل الكعك ، والفطائر المحلاة ، على عربات صغار تتراصف عليها الصحف الواسعة ، الرقيقة المعدن ، ويعاوّنه بأسماعهن على الأجراس الخافتة في الأفران منبئةً بأرواح الخمائر ، في العُجْن ، استحالَت أجساماً تؤكل ، فتتنظّم بها أجزاء من دورة أرواح الأكلين

مُنْكَهَةً بالشونيز ، والقرفة ، وجوزة الطيب ، على مذاق حلو من مربى التفاح ، وعلى مذاق عسل ، ومذاق من حامز التوت الأحمر والأسود .

الصباح ، في الحي الكبير الذي يعمل فيه سولكي ، يوزع الأمزجة على البشر ، صغاراً وكباراً ، وفق مقادير الكعك ونوعه تناولاً ، ومقادير الفطائر وأنواعها . متذوّقو المخبوزات بالشوكولاتة موسومون بظلالهم الرقيقة ، والقصيرة إن عبروا الأضواء . متذوّقو كعك التفاح يميلون إلى الجلوس المنحرف قليلاً على مقاعد الحافلات والقطارات . متذوّقو فطائر مربى التوت لا يقرأون صحف الصباح المعروضة مجاناً في صناديق حديد مفتوحة لمن يريد ، في كل منعطف من شوارع سارسيدون ، قرب مداخل الأنفاق ومداخل المتاجر . متذوّقو الرقائق اللغافات محشوة بمعجون الأناناس يُطرقون في مشيهم كي يقتصدوا في التحية ، لكن بلا مزاج عكّرة .

سولكي ، بإشرافه على إنضاج العُجْن وأخلّاطها ، يقدم الصباح للآخرين مقطّعات نكهات ، دافئاً ، ليّناً ، يذوب في الأفواه قبل المضغ . أمّا بعد تذوّق فطائره ، وكعكه ، فالصباح للآخرين رهْنُ ماتقَدِّرُ مصادفات وجودهم على هضمه من معادن الوقت ، وحجارته الكريمة والوضيعة .

ربما تذكّر سولكي شيئاً من سرد الأفاويح قصصاً على خياله ، بين أفران المتجر ، فتنفّس ملء رئتيه الهواء في صعود الجبل ، ذلك الصباح الذي بادره فيه راسيد الشاب سائلاً :
- ماحكاية وجودك في هذه الرحلة ؟ .

« حكاية مختزلة إلى حدّ أنني لا أصدّقها » ، ردّ سولكي ذو العين اليسرى الأصغر من اليمنى . أضاف :

- قتلتُ ابنةَ أخي .

«إنها مختزلةٌ ، حقاً ، كحكاية السيد ماهاهون . قتل ابنَ أخته» ، علّق راسيد ، فالتفت إليه ماهاهون ، الذي كان يسبقه بخطوتين ، لا أكثر . تكلم بنبرٍ كالجزم :
- لم أقتله .

«ماذا فعلت به ، إذأ؟» ، ساءله راسيد مبتسماً ، ضاماً كُرتَه إلى صدره .

«قتل نفسه» ، قال ماهاهون .

«أحكايك ، ياسولكي ، هي هكذا أيضاً؟» ، تساءل راسيد ،
فهز سولكي رأسه على نحو لا يوحى بتأكيد أو نفي .
دَارِيس ، إبنةُ أخي سولكي ، كانت في الثالثة عشرة من عمرها ، حمراء الشعر ، بيضاء البشرة ، شديدة زرقة العينين ، متوسطة الطول على امتلاء . اختارت ، في منتصف الصيف من سنتهم تلك ، أن تمضي مع عمها إلى كوخه على شاطئ البحيرة الصغرى ، متوسلة إلى أبيها ، أن يعفيها من اصطحابها ، مع أمها وأختها ذات السبع السنين ، لزيارة أمه أربعة أيام ، في بلدة من بلدات الجنوب . هي كانت مرتين ، قبلاً ، على شاطئ البحيرة مع عمها وأبيها وأمها وأختها ، وصديقتين ضمتهما إلى نزهتيهما المرحتين في رحلة تستغرق ساعة ونصف الساعة ، من سارسيدون إلى كوخ العمّ البناء من جذوع الشجر اسطواناتٍ يلتصق هيكله بطلاء البرّنيق الحافظ من الرطوبة .

أكواخُ آخرُ ، ثَمَّتْ ، متناثرة على ضفاف البحيرة ، متباعدة أحداً عن الآخر ، تلفّها من الحدود الخلفية لأماكنها سطورٌ أخيرة من غابة الصنوبر ، والبتولا ، وبعض التُّوب الضخم . في نزهتيها

السابقتين تعرفت داريس إلى فتاة في عمرها من ساكني كوخ هو الأقرب إلى كوخ سولكي ، الذي اشتراه من مالك سابق قبل سنتين . وقد استعذبت أن تعود إلى البحيرة لأقتناص مرح على شاطئها سباحة ، واستجماًماً مع تلك الفتاة ، مخوَّضتين في أسرارٍ تخصُّ عمريهما بعيداً عن العائلة .

الأكواخ صغيرة على شاطئ البحيرة . كلُّ كوخ ردهة ، ومطبخ صغير ، وغرفة للنوم تسع شخصين . ولربَّما اتَّخَذَتْ أريكةُ الردهة سريراً أيضاً عند الضرورة . لكنَّ معظم مالكيها يقيمون خياماً أمام الأكواخ ، على قربٍ من الجسور الخشب ، التي تصل مداخل الأكواخ بعتبات الشاطئ . جسورٌ واطئة ، ثابتة على دعائم قوية غائصة في الماء يُلقى منها السباحون بأنفسهم إلى البحيرة ، ويعودون فيتسلَّقونها خروجاً .

داريس أمضت ليلة ، من ليلتي نزهتيها السابقتين ، مع الفتاة جارة كوخ عمها ، في خيمة . وقد منَّتْ نفسها بليالٍ آخرَ يوماً في الخيمة ذاتها مع الفتاة ، يوم اختارت مصاحبة سولكي إلى كوخه . لكنهما إذ وصلا كانت عائلة الفتاة على أهبة العودة ، ظهراً ، إلى سارسيدون ، في مركبتهم التي علَّت الخيمةُ الزرقاء سطحها محزومةً بحبل . أمرٌ طارئٌ أوجب على العائلة اختصارَ إقامتها الصيفية على عجل . وقد تمكنت داريس من تبادل كلمات مع الفتاة تلك ، المُحَبَّطَة من إلغاء الفكرة الفاتنة - العقدِ الصيفيِّ بين الأجساد والبحيرة . تعانقتا وداعاً .

أنزل سولكي وداريس ، من مركبة العم متاعاً قليلاً ، وأطعمة في أكياس تكفيهما أربعة أيام . راكمَا المتاع في الردهة ، مُدَّ كانت الفتاة على عجل . استبدلت ثيابها بثوب السباحة في غرفة النوم .

هرعت عبر الجسر ملقيةً بجسدها الأبيض ، متكوراً ، في الماء ، مرفوقاً بصراخ بهجة .

سولكي تدبّر توزيع المتاع القليل من الشيا ب والمناشف على غرفة النوم ، وأودع المطبخ أكياس الطعام . خرج من الكوخ عائداً إلى المركبة . أخرج من صندوقها مستلزمات النجارين في صندوق معدن ، مستطيل ، ذي مقبض ، ثم مضى إلى الفناء الخلفي للكوخ .

عمل سولكي ، كلما سنحت له فرصة بذلك ، على تشييد ملحق صغير من الخشب بظهر الكوخ ، يتسع لما يكفي من الحطب أياماً إن أراد زيارة الكوخ ، في الشتاء ، مع صديقاته . كان قد أنجز هيكل الملحق من جذوع أسطوانية ، وكذلك السقف المغطى بعازل من تسرب الماء ، ولم يتبق إلا الباب وقفله ، فأراد إنجاز الأمر في الأربعة الأيام المزمع صرفها مع ابنة أخيه استجماماً - سباحة ، واستلقاء تحت الشمس ، وشياً للنقائق على الفحم ، ونزهات طويلة على الشاطئ الدائريّ التقاءً بالجيران يحملون ، صغارهم وكبارهم ، قصبات لصيد السمك في غير موسمه .

سولكي ، الذي ثبت دفةً من باب مستودع الحطب ، عاد إلى داخل الكوخ . حمل قصبة صيد بدوره ، معلقة إلى الجدار قرب المدفأة الشتائية ذات المدخنة . إتجه إلى المطبخ . حمل شرائح من الخبز منطبقة على رقائق لحوم وخضار ، له ولدريس ، وكذلك زجاجتي شراب غازي باردتين ، في سلة . خرج إلى الجسر . مشى حتى نهايته . رفع السلة أمام بصر الفتاة السابحة يستدعيها إلى وجبة . سبحت داريس عائدة . تسلفت عوارض الجسر المنخفض حتى يكاد يلامس الماء . انتصبت واقفة أمام سولكي ملتمعةً بللاً .

تناولت المنشقة المركومة فوق الأرض الخشب . جففت وجهها ويديها ، ثم افترشت قماشها الزئبر الناعم . تلقت من عمها شريحتين من الخبز منتفختين بما تحويانه ، وكذلك زجاجة الشراب البرتقالي .

عينا سولكي دارتا مع كل حركة من أعطاف الفتاة . ارتفعتا وانخفضتا . تراخى فكهُ الأسفل فتكلم تتممةً :
- ممن سرقَ هذا الجسدُ ؟ .

ابتسمت داريس للإطراء . طوت ساقها جالسةً يتبعها بصرُ سولكي . كررَ تتممةً بلسان متفاجئ :

- أكبرت في ساعة ، أم سرقَ هذا الجسد من الماء ؟ .
التهما الخبزَ ورقائق اللحم والخضار - الشرائح أحضرها العمُ جاهزةً من متجر صغير على الطريق إلى البحيرة . جلس سولكي على حافة الجسر مدلياً خيطَ القصبه ، ذات البكرة ، بشصّها في الماء كقدميه دلاًهما صامتاً ، ينقل بصره ، بين برهة وأخرى ، من الخيط ، الذي بلا لون في رأس القصبه ، إلى داريس متمددة على ظهرها ، مغمضة العينين ، في الثوب ذي القطعتين الصغيرتين .

كادَ مراراً أن يرخي يده عن قصبه الصيد فيتمدد إلى جوار داريس . لم يعرف لماذا القصبه في يده ، على أية حال . جلبُ قاطني الأكواخ الصيفية لقصبات الصيد جزءً من استعادة خيال البشر المائي مصكوكات الحكَم المائية عن الأسماك شتى : أسماك بوجوه كوجوه الآدميين ، وأجنحة كالملائكة ، وأقدام كالبط ، وزعانف تنقذُ سهاماً . حكَم قصصُ لا تؤخذ على محمل الحكَم الكبرى التي على السنة الشحاذين ، والمعتوهين ، والمغامرين ، وحفاري القبور ، والرحالة ، والقديسين المنهكين من رسم خرائط

الكون المفقود عليها مواضع مناجم السَّعد ، وعلاماتُ الخطط المؤجلة
للآلهة . سولكي يأتي بقصبة الصيد كالآخرين علماً من معارك
الكسل الصيفي . لن يتصيد سمكاً مُذ ليس الوقت موسمَ صيد .
لكنه سيتظاهر بصيد السمك في جلوسه على حافة الجسر ، فيما
يلتقط قلبه ، بشخصٍ الرغبة ، جسد ابنه أخيه فتراً فتراً .

لم يرتعش خيالُ سولكي حياءً من التهامه الفتاة بعينيه . لم
يبذل قط ، ما يخفف اندفاعَ الرغبة جامحةً . رآها أنثى بتمام النداء
الذي لا يُردُّ من أنثى خرجت ، فجاءةً ، من مجهول المائي واضحةً
لن توقفه فكرةً عن منحها ولاءَ جسده بلا نقصان . نسي مُطلقاً أنه
يعرفها قبلاً ؛ يعرفُ دمها - دم أخيه . عرف جسدها ، إذ جاء من
الكوخ إلى الجسر ، ولم يعرفها هي إلا أنثى اجتمعت في التماعة
الماء على جسدها البليل برار من لهفة الذكر فيه إلى الوحشي فيه .
فاجأه كيائها مكتملاً إذ خرجت من الماء . تهدل فكهُ الأسفل :
« من سرق هذا الجسد؟ » ، تساءل أنثى بحروف مذعورة من وقاحة
عينيه تحديقاً إلى جسدها . وهاهو يرعى بخراف بصره عشبٌ غريها
في القطعتين الصغيرتين من ثوب السباحة ، متمددة على ظهرها
فوق المنشفة الزئبر القماش .

مالت داريس بوجهها صوبه . فتحت عينيها وأتقت الشمس
بيدها اليمنى فظللتهما . رآته محدقاً إليها فأرخت ، هي ، بصرها
إلى جسدها تزنُ مقادير قربه من نضج الجسد الأنثى ، أو بعده
عنه . ساءلت سولكي :

- أنا طويلة ؟ .

« أمامك سنونٌ كثيرة لن تتوقف فيها عظامك عن التمدد ،
ياداريس » ، ردَّ سولكي . « أشياء كثيرة فيك لن تتوقف عن الانتشار

حتى تملأ هذه البحيرة» .

«انتشار!!؟» ، تمتت داريس بنبر متسائل ، فردّ سولكي :

- انتشار . نعم . إقتحام . توسّع . غزو . إحتلال . أنت جيش .
هأهأت الفتاة استظرافاً من استظارات خيال عمها المتلاحقة .

تمتت :

- أنا جيش .

«أنت معركة» ، أضاف سولكي . أشار بيده إلى الأفق المائي :

- حرقت البحيرة ، ياداريس .

اتكأت داريس على مرفقيها رافعةً ظهرها عن المنشفة قليلاً .

ساءلته :

- أتظنني قد أعثر على فتاة في أحد الأكواخ ، تتسلّى معاً؟ .

التفت سولكي إلى الأكواخ المتناثرة على الشاطئ . ظلّ عينيه

بيده اليسرى :

- ستجدين مَنْ سرقن مثلك أجسادهنّ من الماء اليوم .

في المساء المشدود بحبال الرماديّ إلى المياه الشاسعة أضيئت

النيران . كل كوخ أضرم ناره منتظمةً في سياج دوائر من الحجارة ،

قريباً من الجسر الذي يخصه ، ونصب قاطنوها كراسيً تُطبّقُ

وتُفتح ، ومناضد تُطبّقُ وتُفتح ، مدوا عليها أطيابَ عشائهم مأكولاً

ومشروباً ، وجلسوا إليها هم وأولادهم . ثم مالبت الشاطئ أن

اختلط ، فهرع أولاد إلى أولاد من أعمارهم لهواً ، وتقارب الكبار في

ملتقىً من الشاطئ أوقدوا عليه ناراً كبرى ، حاملين زجاجات

شرابهم وكؤوسه .

داريس ، وسولكي ، انضمّا إلى الجمع الجيران قرّبهم الليلُ

بنسبِ القربى فيه إلى الإنسان ، وقرّبتهم النارُ بنسبِ القربى إلى

الوجود . ضحكات ، وموسيقى ، وصياحُ فتيةٍ وفتياتٍ مبتهجينَ تمازجت ، منقبةً في الظلام المنجم عن عرقه الذهب .

«ستجدين كثيرات تتسلين معهن» ، قال سولكي مطوّفاً عنقَ داريس بذراعه ، من فوق كتفيها ، في الوقوف إلى جوارها ينظران إلى النار متكلمةً بألسنتها المائة ، وإلى الوجوه تتقلبُ الظلالُ على سحناتها . انفلتت داريس من ذراعه ، بكيس من رقائق البطاطا المقلية في يدها ، صوب حفنة من الفتيات والفتيان أشعلوا عيداناً تطلق شراراً كثيراً . بقي سولكي الطويل ، الممتلئ ، وحده . تجرّع من فم زجاجة الجعة سائلها المرغي ، بعينين لم تفارقا داريس في بنطالها الضيق القصير ، وقميصها القطن الذي بلا أكمام . حادثه شخصٌ لا ينظر إليه ، بل إلى جهة المياه المغلقة بقفل كبير تُرى من ثقب مفتاحه نيرانٌ صغارٌ ، بعيدة ، على تخوم أخرى من الشاطئ الدائري :

- تصيّدتُ سمكةً ، اليوم ، بطول ذراع .

أدار سولكي وجهه إلى شاب في ثلاثينه ، على الأرجح ، في بنطال قصير عاري الجذع الأعلى ، حاملاً قميصه مطوياً على كتفه . «هه» ، غمغم سولكي استحساناً ، وتعجباً معاً . «أنا تصيّدتُ كعكةً» ، قال بنبر ساخر مبتسماً . أعاد وجهه صوب جمع الفتيات والفتية جلسوا أرضاً على حصي يخالطه ورقٌ كثير .

«أمعك عائلتك؟» ، ساءله الشاب العاري الجذع العلوي .

«معي ابنة أخي» ، ردّ سولكي بصوته الرفيع قليلاً .

«معي زوجة أخي» ، عقب الشاب على ردّ سولكي .

«أين أخوك؟» ، تساءل سولكي ، فردّ الآخر :

- قتلته .

«ماذا؟!!»، تتم سولكي مستغرباً ، فقرع الآخر زجاجته
بزجاجة سولكي نخبَ ما لا يعرفان . تتم :
- قتلته لأحظى بزوجه .

قلَّص سولكي بين جفني عينه اليسرى ، الأصغر من اليمنى ،
تحديقاً إلى وجه الشاب المبتسم من الريبة لاحت على سحنة
سولكي . أوماً له تحية وداع ، وانصرف صوب حفنة الفتيات
والفتية . انحنى . ربت على كتف إحداهن يهامسها ، ثم مضى .
تتبَّعته عينا سولكي حتى غاب بين جمع أبعد من حلقة النار ،
متقاربين أشباحاً تتألاً جلودها بين حين وحين .

عاد سولكي إلى الكوخ . حمل زجاجة من الفودكا وقدحاً
صغيراً . خرج إلى الجسر . جلس على أرضه الخشب . تجرَّع بضعة
أقداح تباعاً ، مرسلأً بصر قلبه إلى النار الكبيرة بعيدة بعض
الشيء ، تتداخل من حولها هياكلُ المستأنسين بأنفاس البحيرة
موزعة ، بالتساوي ، على الظلام وعلى النار . تنفس هو الهواء ممتزجاً
بجسد داريس متمددة ، بعد ، أمام عيني قلبه ، على الجسر .

لم يمحُ الليل ما وهبه النهار للجسر . نُحِتَت الفتاة على الجدار
الصُّلب لخيال سولكي بإزميل الرغبة . نُحِتَ الجسرُ على خياله .
نُحِتَت المنشفة الملونة بقماشها الزُّبر على خياله ، وأغرَقه خياله في
القدح السادس من الشراب القوي صِرْفاً . تمدَّد محتضناً القدح
براحتي يديه فوق صدره . قَلَبَ النجوم ببصره حجارةً على اللوح
الأسود للأعلي . تتبَّع شعاعاتها القصار متراجعة ، مندفعة ،
بحسب إطباقات جفونه . رفع القدح عن صدره ووضعه جانباً .
أغفى سولكي .

كلمات من وراء البعيد ، مُرْفَقةً بلمسة على جانب فخذ

اليسرى ، أعادت سولكي من عماء الصُّور إلى بزوغها . فتح عينيه على هيكل داريس الشاحب في الضوء الآتي من المصباح الخارجي للكوخ ، فوق الباب .

«أأنت نائم؟» ، كانت الفتاة تسأله ، فرفع سولكي ظهره عن الجسر قليلاً ، متكئاً على مرفقيه . ردّ متدرجاً بنقل بصره على فخذيهما في البنطال القصير :

- كيف بلغت العشرين في يوم واحد؟ .

«بلغت العشرين؟!» ، تمتت داريس مبتسمة من مزاحه ، فأكد سولكي :

- قفزت إلى الماء في الثالثة عشرة ، وخرجت منه في العشرين .

نقرت داريس جانب فخذها ، ثانيةً ، بمقدّم حذائها الصيفي ذي الخروم :

- تعرّفتُ إلى فتى .

نقل سولكي بصره من فخذيهما إلى وجهها . رنّ هاتفه المحمول في جيب بنطاله . أخرجه فكلّم المتّصل : «لاإزعاج . هي على مايرام» ، ردّ على سؤال سكب من الهواء حروفه في الآلة الصغيرة . «لأعرف لماذا لم تردّ» ، قال . رفع الهاتف عن فمه . سأل داريس :

- اتصلت أملك فلم تردّي .

تمتت داريس كأنما تعتذر عن سهوها . أخرجت هاتفها . همت بتشغيله فناولها سولكي هاتفه :

- كلميها .

«لم أكتبه . كان مقفلاً» ، ردت داريس على سؤال أمها عن عدم الردّ على مكالماتها . أضافت : «كل شيء على مايرام . صرتُ

في العشرين». نفرت بمقدّم حذائها جانب فخذ سولكي .
ثرثرة قصيرة دارت بين الفتاة ، الواضحة الضجر من المكالمة
باختزال أجوبتها ، وبين أمها . أعادت الهاتف إلى سولكي ، الذي
لمس ريلة ساقها ، جالساً .

تمغّطت البرهة التي امتدت فيها يدُ داريس بالهاتف إلى
سولكي . بوغّت الفتاة من اللمسة تلك ، لكن لم تبعد ساقها .
حدّقت إلى عينيهِ الغائمتين في ظل وقبيهما بتساؤل ، من عليائها
واقفةً وهو جالس . أنزل سولكي راحة يده على طول الساق حتى
قدمها . اعتصر الحذاء الصيفي الرقيق الجلد ، المخروم ، بلا شدّة ،
فأبعدت داريس قدمها . استدارت ماضية إلى الكوخ في صمت ،
فتبعها سولكي صامتاً بزجاجة الشراب والقدرح في يديه .

أغلق سولكي باب الكوخ خلفه . جلس إلى طاولة المطبخ
الصغيرة . ملأ قدحه شراباً . تجرّعه . فتحت داريس باب البراد
الصغير باحثّة بعينيها عن شيء ما ، ثم أقفلته كأنما غيرت رأيها .
«سأنام» ، قالت متجهة إلى غرفة النوم ، عبر الردهة .

«أليس مبكراً؟» ، تساءل سولكي . نظر إلى ساعة يده . تتمم
مستدركاً : «ليس مبكراً» . ملأ قدحه من الشراب . نهض فأتى
بزجاجة جعة أيضاً . تناوب الشرب بلعةً من الفودكا وجرة من
الجعة .

أمضى سولكي ما لا يعرف من الوقت متطلعاً من نافذة المطبخ
إلى الظلام الموصد فوق غَمْرِ البحيرة . أثر لنفسه صمتاً قوياً ، بلا
موسيقى من الآلة ، أو صور من التلفاز الصغير في ركن قرب مغسلة
المطبخ . كان صخبُ جسد داريس يوصد الأبواب صَفَقاً ويفتحها
صَفَقاً في خياله . فكرته ، النازحة بالرغبة سليطةً إليه ، كانت

مقفلة على نفسها ، لا أحد آخر فيها سوى جسد ، ورغبة في جسد . جسدٌ ورغبةٌ وجهاً لوجه ، عارين في وجود فارغ إلاّ منهما . لم يخطر ببال فكرة سولكي شيء كالذي قد يبلبل فكرةً مثلها : شخص يتشهى ابنة أخيه التي في الثالثة عشرة . عاصفة من الخوف ، والذنب ، والندم ، والعار ، قد تبلبل فكرةً مثل فكرة سولكي . لكنّ فكرة سولكي كانت مقفلة على نفسها ، في عراءٍ من الوجود خلواً من رغبة وجسد .

خلع قميصه القطني . خلع بنطاله وسرواله ، ثم جلس من جديد عارياً يحتسي شرابه . أفرغ أكثر من نصف زجاجة الفودكا ، وثلاث زجاجات من الجعة . نهض خارجاً من الكوخ إلى الجسر . مشى بقدمين حافيتين على خشبه المبتد من أنفاس البحيرة الرطبة . استلقى مغمض العينين على ظهره . تمرّغ متقلّباً ثم نهض بزفير قويٍّ من رثتيه . عاد إلى الكوخ . اتجه إلى غرفة النوم فذلفها . استلقى ، في هدوء ، إلى جوار داريس .

لن يتذكر سولكي الكثير إن أعادَ سردَ خياله مفصّلاً بأحمال اللحظات بعد أن دسّ جسده تحت الغطاء ، ملتصقاً بالفتاة : شيءٌ ما يشبه العراك . أنينٌ ، فصرخةٌ ، فاستسلام نائحٌ ، فصفعٌ قويٌّ . جسد سولكي الطويل ، الممتلئ ، مرّغ داريس في هزيمتها ، لكنها استحالَت شرسةً بعد أن هُتكت . سولكي لن يتذكّر إلاّ همهماتِه المختنقة لتهدئتها في انكسار : « لا أعرف ماذا جرى » ، كان يكررها ، فيما تصفعه الفتاة وتركله على حافة السرير ، قبل أن يراها منطرحاً أرضاً مغمىً عليها . رشّ على وجهها بعض الماء فأفاقت . عادت إلى صفعه ، وركله ، نصفَ عارية ، بصوت نائح ذي نبر حقد . كمّمَ فمها براحة يده الكبيرة قبل أن يصدم بها الجدارَ فيغمى عليها من جديد .

لن يتذكر سولكي الكثير في انقضااض العجز من خياله على توصيف الصّور . عارياً حمل الفتاة إلى البحيرة . مدّدها على حافة الجسر في هدوء . نزل إلى الماء وجذبها . أفاق داريس ، لكنّ ذراعي سولكي القويتين ضغطتا عليها إلى أسفل . جاهدت في النجاة خمّشاً بأظافرها على فخذه وصدره . ركلته تحت الماء بلا جدوى . استسلمت ، أخيراً ، لبياض اجتاح أعماق البحيرة فأحال خيال الحياة فيها يابضاً .

ترك سولكي الجثة طافية . صعد عوارض الجسر . زاد الذعر الهول فيه دعرٌ آخر إذ فوجئ بالشاب الذي كلّمه ، قبلاً ، عن قتله أخاه ليظفر بزوجته ، واقفاً يتأمله ، مطوّقاً بذراعه اليسرى كتف فتاة . انتصب سولكي قبالتهما مغمىً على قلبه . تتمم الشاب بنبرٍ ساخر ، مجيلاً بصره على سولكي العاري :
- أتتهياً للانتحار؟ .

أحنت الفتاة ، التي في رفقة الشاب ، جذعها تتفحص الماء من حافة الجسر : «مَنْ ذاك؟» ، تساءلت . انحنى الشاب ، بدوره ، برهةً ، ثم أعاد بصره مُبلبلاً إلى سولكي :
- أهذا شخص غريق؟ .

في ذلك اليوم من رحلة الأنفار الثمانية عشر ، إذ سألهُ راسيد : «ما حكاية وجودك في هذه الرحلة؟» ، فردّ : «قتلتُ ابنة أخي» ، اقترب ماهاون منه :
- لماذا قتلتها؟ .

«لم أحتمل صراخها . لم أكن لأحتمل أن تعود فتصفعني إذا استيقظت من غيبوبتها» ، ردّ سولكي .
«أقتلتها وهي في غيبوبة؟» ، ساءله ماهاون ، فردّ سولكي :

- نعم .

«لَمْ قتلتها وهي في غيبوبة؟» ، ساءله ماهاهون من جديد وهو
يسح زجاجتي نظارته بحاشية قميصه البرتقالي .
«اغتصبْتُها ، ياسيد ماهاهون . حاولتُ إسكاتُها فأغمي عليها .
أغرقتها في البحيرة» ، ردَّ سولكي بكلمات متلاحقة من صوته ازداد
رُفْعاً .

استوقف ماهاهون الطيبة دالومي وهي تكاد تعبره . ساءلها بلا
توطئة :

- ما الاغتصاب ؟ .

التفتت إليه المرأة المعتدلة الطول ، الممتلئة ، بعينين متسائلتين ،
فكرَّر ماهاهون سؤاله :

- ما الاغتصاب ، ياسيدة دالومي ؟ .

ابتسمت دالومي . ردَّت بصوتها الخفيض ، الهادئ :

- هو تصحيح الخلل في الحرمان .

توقف ماهاهون عن مشيه يعرض على خيال التأويل فيه شرح
دالومي . لم يطابق فهمه ردّها ، فسأل :

- أتحرضين على الاغتصاب ؟ .

«ماذا ألهمك أن تسألني عن الإغتصاب؟» ، ساءلته دالومي ،
فردَّ ماهاهون :

- رفيقنا سولكي اغتصبَ ابنةَ أخيه .

استدارت دالومي إلى سولكي . سألته :

- كم كان عمرها ؟ .

«ثلاث عشرة سنة» ، ردَّ سولكي ، فهزَّت دالومي رأسها علامة
تفهم . ساءلته من جديد :

- أكانت جميلة؟ .

«لا أعرف . ربّما» ، ردّ سولكي .

أعادت دالومي بصرها إلى ماهاهون تُكلّمه :

- حين لا يكون لمثل سولكي حظٌ في الحصول على فتاة في

الثالثة عشرة ، وجميلة ، فعليه اغتصابٌ واحدة .

«أتسمعين ماتقولينه ، ياسيدة دالومي؟» ، تساءل ماهاهون

مبتسماً من غرابة ردّها .

«إن كنتَ تسمعني فأنا أسمع نفسي ، إذا» ، قالت دالومي .

«لم أجذكِ جادّةً في المزاح هكذا قبلاً» ، عقّب ماهاهون .

وضعت دالومي يدها على كتف سولكي العالية . ساءلته :

- أكان في مستطاع مراهق من مدرسة الفتاة أن ينالها؟ .

«بالتأكيد» ، ردّ سولكي .

«أتسمع ، ياماهاهون؟» ، قالت دالومي ملقياً بصرها إلى

الأرض الحجر مكتسبةً بورق الصنوبر الإبرية ، وبعض الأشنة

الخضّر على صُفرة . أردفت : «إن كان في مستطاع فتى من مدرسة

الفتاة نيلها ، فلم لا ينالها سولكي؟» .

«لقد اغتصبها ، ياسيدة دالومي» ، قال ماهاهون إمعاناً في

التذكير .

«فلأسألك ، ياماهاهون» ، قالت دالومي : «هل الإغتصاب

خطيئة في الوجود ، أم الحرمان هو خطيئة الوجود؟» .

التفت ماهاهون إلى سولكي . ساءله :

- أكنتَ محروماً من النساء؟ .

«كنتُ محروماً من ابنة أخي ذلك اليوم الذي رأيتها فيه

ناضجةً كما لم تنضجْ أنثى لرغبة رجل» ، ردّ سولكي .

«فاغتصبتهَا؟» ، تساءل ماهاهون بصوتٍ مستفزعٍ ، فردَّ سولكي :

- لا أعرف إنَّ كان ذلك اغتصاباً ، أمَّ نَيْلاً لحقَّ جسدي فيها .
«قلتَ ، من فمك ، إنك اغتصبتهَا» ، قال ماهاهون ، فردَّ

سولكي :

- كان خطأً منِّي في وصف ما فعلتُ . ربما كان عليَّ القول :
وجدتها كعكةٍ ناضجةٍ فالتهمتُها .

رفع ماهاهون يده أمام وجهه في دلالة على حيرته ، تساءلَ على نحو يشمل الجميع :

- مابكم تشرَّعون للاغتصاب؟ .

«لِمَ لا؟» ، ردت دالومي مبتسمة أكثر من معتادها :

«تمزحين» ، تتم ماهاهون .

«كلُّ دينٍ يشرِّع ذلك . وأنا ، كطبيبة نفسية ، لاأتدخل فيما شرَّعته الأديان» ، قالت دالومي .

«أديان ركيكة في صناعة الخيال» ، تتم ماهاهون . استدرك :
«أية أديان؟» .

«كلها» ، ردت دالومي .

«كلها؟!» ، تساءل ماهاهون . «مزاجك ساخرٌ هذا اليوم» .

«نعم ، لأنه يوم مليء بالوعود» ، قالت دالومي .

قرَّب ماهاهون رأسه من رأسها :

- أتحفظين بسرِّ ما؟ أية وعود؟ مَن؟ لأرى سوى الجبل ، وهذا

المشي الذي نحن فيه .

حطَّ شحرور أسود على غصن شجرة تنوب ، قريباً من جورني

الشيخ ، الذي توقف ناظراً إليه كمثُل ماهاهون ، وسولكي ، ودالومي .

لَوْحَ له بذراعه فطَّيَّرَه مذعوراً : «لظالما كرهت القماش الأسود يطلبُه
زُبُنِي لِبَزَاتِهِمْ . وأظنني أكره الطيورَ السود أيضاً» ، قال .
«أنت عنصريُّ» ، عقَّب الشاب راسيد واضعاً قدمه اليسرى
فوق كُرته .

«كلُّنا عنصريون حتى إثبات العكس» ، ردَّ جورني الخياط .
«متى يُثبِت الواحدُ منَّا عكسَ ذلك ، ياسيد جورني؟» ،
ساءلته سيتون ، فردَّ الشيخ :
- لا أعرف . ربما لن يُثبِت العكسَ حتى موته ، فيموت
عنصرياً .

غمغم ماهاهون :
- مزاج الجميع ساخرٌ هذا اليوم .
«ربما هو الكِبَرُ» ، عقَّبَت سيتون متطلعة إلى جورني . أضافت :
- مزاجهم يبدو خافتاً كأُسُلتهم .
«ماذا؟» ، تتم جورني . «أُسئلة خافتة؟ أسمعيني أسأل سؤالاً
خافتاً ، ياسيدة سيتون؟» . استدار إلى دالومي .
- ما الأسئلة الخافتة ، ياسيدة دالومي؟ .
«إسألُ معلّم الرياضيات» ، ردَّت دالومي بمازحةً ، فاسترسلَ
جورني مجيباً ، وموضّحاً :

- بعد الستين من العمر كلُّ الأسئلة عنيقة .
«قالت لي السيدة دالومي إنَّ زائري عيادتها ، ممن بلغوا الستين ،
ألَقوا عليها أسئلةً خافتة كأنها بقايا من أسئلة محثّها السنون» ، قال
ماهاهون مشيحاً بوجهه عن دالومي كي لا تلمح اللعبَ في عينيه .
«متى قلتُ لك ذلك؟» ، تساءلت دالومي ، فردَّ ماهاهون من
غير أن ينظر إليها :

- قلت إنها أسئلة تمّ تأجيلها مراراً فغدت ، مع السنين ، بقايا خافتة .

«أهذا ردُّك على سؤال جورني عن الأسئلة الخافتة؟» ، تساءلت دالومي .

سلك ماهاهون بالمحادثة إلى ما لا يتصل بها . أشار بيده إلى روثا . ما زحها :

- أ يُصاب الكلبُ بالسكتة القلبية؟ .

«قلوب الكلاب لا تخونها» ، ردت روثا ذات الشعر الأصهب ، القصير .

عقبت بيتاليا على ردِّ روثا ، ملقيةً بصرها إلى طبيبة الكلاب :

- أنت تراحمين ياروزا على العلوم .

تقدّمت روثا خطوةً من ياروزا . ساءلتها :

- أ يُصاب الكلبُ بالسكتة القلبية؟ .

«يُصاب بالسكتة الروحية» ، ردت ياروزا بصوتها البالغ مبلغه رقةً .

«غريبٌ هذا» ، قال سولكي متذكّراً . «سألتُ راووت ، حين

دخلتُ عليه ، إن كانت القُرود تُصاب بسكتات قلبية» . نقلَ بصره على الوجوه بنظرة تأكيد : «أقسم على ذلك» .

سولكي سأل راووت ، يوم دخوله الدهليزَ بعينين استرعتهُما

الرسوم القوية للعراك على الجدران :

- أ تُصاب القُرود بالسكتة القلبية؟ .

«لا أعرف ما أوحى إليك بسؤال كهذا» . ، قال راووت . ردٌّ

مجيباً :

- هي تصاب بسكتة قلبية في هذه الرسوم .

«كل يوم يسقط سجينٌ صريعاً بسكتة قلبية» ، قال سولكي .

«للقلوب حريتها في سجن آييانو الشرقي» ، عَقَبَ راووت ناقرأً بأنامل يده اليسرى على الكتاب الضخم .
مسَّد سولكي براحة يده اليمنى على شعره الأحمر ، القصير :
- النظر من شرفات السجن إلى الشلالين يورثُ السُّمنة ،
ياسيد راووت .

«لا أراكَ بديناً» ، قال راووت ، فردَّ سولكي :
- لا أنظر إلى أسفل . الأمكنة العالية تدوِّخني .
«أتنظر إلى أعلى؟» ، ساءله راووت ، فردَّ سولكي مبتسماً من دعاية الرجل الشيخ :

- أنظرُ ، أبداً ، إلى موضع قدمي . تلك معجزتي .
في مساء من رحلة الأنفار الثمانية عشر جلس جورني الشيخ إلى جوار سولكي . سأله ، على النحو ذاته الذي يحرِّض واحداً منهم ، كل ليلة ، على سرد حكاية ، أو ينتزعها منه انتزاعاً :

- أنت بائع كعك وفطائر ، ياسولكي .
- لستُ بائع كعك وفطائر ، ياجورني . أنا أصنعها .
- لَتَباعُ ، ياسولكي .
- لا ، ياجورني . لَتُزرعُ في أخص على الشرفات . ما أصنعه من كعك ، وفطائر ، يُزرعُ .

ضحك التوأمان ديرو ، ويومار ، من احتداد سولكي في الرد .
ربت جورني على فخذه جلسه :

- ألم يسرد عليك أحدٌ في المتجر ، الذي تباع فيه فطائرك وكعكك ، حكاية ، ياسولكي؟ .

«قُلْهَا صَرِيحَةً» ، ردَّ سولكي . «قُلْ ، ياسيد جورني ، إنك تريد مني حكاية» .

«هذا ما عنيتُ» ، تتم جورني الشيخ .

تبادل الأنفار غمغمات وهم يوجهون أبصارهم إلى موضع ، في الجبل ، انبثق منه لسانٌ صغير من النار ، ثم أعادوا أبصارهم إلى سولكي ، الذي تكلم : «تأمل الوحشُ البشرَ الخائفين» ، قال .
قاطعه رابكين :

- أيُّ وحش؟ مانوعه؟ .

«وحش من سلالة الوحوش» ، ردَّ سولكي .

«أعتذرُ» ، قال رابكين مبتسماً . تتمم ساخراً : «فهمتُ الآن» .

أكمل سولكي :

«قال الوحش : لن أذلَّ أحداً منكم بعد اليوم . لن ألتهم أحداً .
أسعدت البشرية . غنَّت . رقصت . تعانقت الناسُ سروراً
وبهجة . بعد أسبوع من الإحتفالات الهائجة ، المدوّخة فرحاً ، صعد
سؤالُ خافت من بعض الأفواه ثم صار واضحاً معلناً : ماذا سنفعل
بعد الآن؟ .

ردَّ البعضُ المبتهج للحقبة الجديدة في تاريخ البشرية :

- سنعيش بلا خوف .

تساءل البعضُ المرتبك من مرحلة ما بعد الخوف :

- أسيطول ذلك؟ .

ردَّ البعضُ المبتهج :

- نعم . سنعيش بلا خوف طوال وجودنا بشراً .

تساءل البعضُ المرتبك :

- مَنْ سيعيد إلينا تلك اللحظات التي أحسنناها بعد الخوف ،

حين كان الوحش يختار ضحية لالتهامها ، فنعرف ، نحن الباقين ،
أننا نجونا لوقت؟ إنها لحظات لا توصف من فرط السعادة بالنجاة .
مَنْ سيعوّضها؟ .

ردّ البعضُ المبتهج من حقبة النجاة الكبرى :

- أتلمّحون إلى رغبةٍ في عودة الوحش؟ .

قال البعضُ المرتبك :

- لا نعرف» .

قاطع ماهاون سردَ سولكي الحكاية :

- دعهم محتارين . إن أعدتَ الوحشَ إليهم باتت حكايتك
مقتبسةً من حكايات كثيرة .

«هذا يجعل حكاية سولكي قصيرة جداً ، ياماهاون» ، عقبَ

جورني . التفت إلى سولكي بالكلمات :

- كيف تنتهي حكايتك؟ .

صفّقت ميلادين القصيرة ، البدينة ، تصفيقاً خفيفاً بيديها

تُلفتُ الأسماعَ إليها ، والأبصارَ :

- لديّ حكاية .

«أهي عن مصلحة الضرائب؟» ، تساءلت بيتاليا بنبرٍ ساخر ،

فردّت ميلادين بصوتها المتردّد قليلاً :

- هي عن حقبة ما قبل تفكير الإنسانية في الضرائب .

«رائع . هاتيها» ، عقبّت بيتاليا ، فانبرت ميلادين مسترسلةً :

- أجمع السكانُ الأصليون في أرض ماسادؤوس على الرحيل

عن أرضهم .

«أرض ماسادؤوس؟» ، تساءل داروم . أضاف ساخراً :

- أهي أرضُ بريدِ الألواح الحجرية؟ .

«هي أرض الحكاية»، ردّت ميلادين بنبر جادّ. مضت تكمل
حكايتها: «سمعوا بأرض أخرى، ذات غلال وفيرة، وذهب
كالطر، فأجمعوا على الرحيل إليها. غير أنّ كباراً من حكمائهم
اقترحوا، رغبةً منهم في ألاّ يتخلوا عن أرض أسلافهم، أن
يأخذوها معهم إلى حيث هم راحلون».

«أن يأخذوا ماذا؟»، تساءل سولكي، فردّت روثا، مستبقةً
ميلادين، بنبر مزاح:
- أن يأخذوا فطائر وكعكاً.

ابتسم سولكي. عقّب على ردّها بمزاحاً بدوره:
- لا يحتاجون فطائر وكعكاً، بل سيدهً مثلك تصبغ شعور
قططهم.

«أإنتهيتما؟»، تساءلت ميلادين بصوت عتب على بنبرهم
سردها. مضت مسترسلةً: «اقترح حكمائهم أخذ أرضهم معهم،
فوافقوا أجمعين بلا استثناء. حملوا الحجارة في سلال على
ظهورهم وظهور دوابهم. ربطوا أشجارهم، كلّ شجرة بحسب
حجمها، إلى اشخاص ليجرّوها. حملوا أطفالهم نباتات صغيرة،
وأعشاباً. وضعوا على ظهور كلابهم، وقططهم، أكياساً من التراب.
طوّوا نهرهم الكبير...»، سعلت ميلادين، فانتهاز سولكي انقطاع
السرد. عقّب:

- سمعنا بتحويل مجاري الأنهار من أرض إلى أخرى. لكن
لم نسمع بنقل نهر في حقائب؟ أم ماذا، ياسيدة ميلادين؟

تدخلت بيتاليا بتوضيح المنطق في نقل نهر:

- الأرض الجديدة قريبة من الأرض القديمة. حولوا المجرى.
أليس كذلك، ياميلادين؟

«ألم تسمعيها ، ياسيدة بيتاليا؟ لقد طووا نهرهم مثلما نطوي
بُسْطَنَا هذه التي تحتنا» ، قال سولكي بعينين على ميلادين التي
تنحنحت ، ثم أكدت :

- طووا نهرهم لفافة كبيرة لينقلوه .

«في حقائب؟» ، تساءل سولكي ، فردت ميلادين :

- أخطأت .

«في قطار ، أم على ظهور الققط؟» ، تساءل سولكي .

«إنه نهر يُنْقَل ، أيها الغبي» ، صرخت ميلادين .

فوجئ سولكي بالنبر الغاضب في صوتها . تتمم مساءً :

- أفهم كراهية الناس للضرائب . أصوات موظفي مؤسساتها

عالية ، وبشعة .

«دعها تُكْمَل ، ياسولكي» ، قال جينتالو من موضع في حلقة

الأنفار الثمانية عشر .

«لن أكمل» ، ردّت ميلادين .

«أنا سأكمل حكايتها» ، انبرى سولكي متبرّعاً بتدبير نهاية .

«أكمل» ، قالت ميلادين بتحدٍّ ، فاختلق سولكي السطر

الآخر ارتجالاً :

- إنهم يجزّون أرضهم وراءهم منذ ثمانمائة عام ولم يصلوا ،

بعُدْ ، إلى الأرض الموعودة .

الفصل الرابع عشر: ميلادين

في مساء هدأت ريحُ يومه القوية نهاراً ، كان الموضع الذي تخيَّره الأنفار الثمانية عشر لإقامتهم كثيرَ الغصونِ العُصافَةِ . لم يزيلوها ، بل جعلوها سوراً من حولهم بلا سبب .

«لن نرى النارَ الغربية من خلف سورنا» ، قال جورني .
«تلك النار ألهمتنا حكاياتٍ ، ياجورني» ، عقبَ دايك ، فاستخفَّ جورني بالتعقيب :

- مامن أحد روى حكاية عن نيران . أتعرف واحدة؟ .

«ميلادين» ، همس دايك إلى المرأة الجالسة قربه :

- ألدريك حكاية عن نيران؟ .

«رويت لكم واحدة قبلاً» ، ردت ميلادين .

«لم تكن عن النار» ، قال دايك .

«اسمعُ هذه ، إذاً» ، قالت ميلادين . أصغى الجالسون إلى المرأة

القصيرة ، البدينة ، تروي :

«طلبَ الأميرُ وزيرَ العدل إلى إيوانه ، وصرف الحاضرين بإشارة

من رأسه إذ حضر الوزير .

سأل الأميرُ وزيره : منذ متى لم يُعَدَم إنسانٌ في إمارتي؟ .

ردَّ الوزير : منذ أربع وأربعين سنة ، يامولاي .

قاطع دايك سردَ ميلادين :

- أين النار؟ .

«لا نيران في هذه الحكاية» ، ردّت ميلادين .

أبدى دايك استغراباً من عينيه المحتجبتين في ظليّ وقبئيهما :

- خلّت أنها ستكون حكاية عن نيران .

«أيهم أن تكون عن نيران؟» ، تساءلت ميلادين . «انتهت

حكايتي ، إذا» ، أضافت .

«لا تتوقفي» ، قال جورني الشيخ بنبر متوسّلاً في صوته .

«فلتكن حكايتك عن الماء ، والهواء ، أو ماتشأين . لكنّ

لا تتوقفي» .

«نعم» ، تمتت ميلادين . استمرت :

«سأل الأمير وزيره وقد علّت وجهه الدهشة من أربع وأربعين

سنة بلا إعدام : ألا ترى الأمر غريباً؟ .

ردّ الوزير : لاغربة ، يا مولاي . الرعية ممتنة للحياة اللائقة بها في

إمارتك . لا سرقة . لا اغتصاب . لا قتل . لا اعتداء على أملاك . لا ظلم .

فكّر الأمير قليلاً . أسرّ إلى وزيره : اجمع لي أربعة وأربعين

شخصاً لأعلى التعيين من كل ناحية في المدينة .

سأل الوزير الأمير : لماذا ، يا مولاي؟ .

قاطع دايك سرد ميلادين للمرة الثانية :

- لا نار ، لا ماء ، لا هواء في هذه الحكاية .

«أأنت في إيوان الأمير ، يا دايك؟» ، ساءله جورني بنبر

متأفّف : «ألا ترى النار في المشاعل ، والمصابيح ، تضيء الإيوان ،

والماء في الأباريق ، والهواء مفعّحاً بالورد حول أريكة الأمير؟» .

«لم أعرفك زرت أميراً من قبل ، يا جورني» ، عقبت بيتاليا

ساخرة .

«أنت لم تعرفيني بعدُ ، ياسيدة بيتاليا . كم لنا معاً في هذه الرحلة؟» ، تساءل جورني . أردف :

- كيف خَمَّنت أنني لم أزرُ أميراً؟ .

«أزرتَ أميراً؟ أين؟» ، ساءله دايك في فضول .

«في حكاية ميلادين ، أيها العبيد» ، ردَّ جورني الهادئ .

عَلَّتْ غمغماتُ استياء . ساءله ماهاون :

- مَنْ عنيتَ بندائك : أيها العبيد؟ .

«عبيد الأمير ، ياماهاون . كلُّ أمير يملك عبيداً» ، ردَّ جورني .

التفت إلى المرأة القصيرة ، المدينة : «كم من العبيد في إيوان الأمير ، ياسيدة ميلادين؟» .

«لأأراهم» ، ردت ميلادين ساخرة . أضافت : «لكنهم هناك» .

بادرها جورني بصوت خافت :

- ماذا أراد الأمير؟ .

«أراد من وزيره جَمَعَ أربعة وأربعين شخصاً» ، ردَّت ميلادين .

«على قَدَر السنين التي لم يُعَدَمْ فيها أحدٌ ، فاستغرب الوزير :

- لماذا يامولاي؟ .

ردَّ الأمير :

- اجمعهم وسترى .

طلب الوزير من الشرطة إحضار أربعة وأربعين شخصاً ، نساءً ورجالاً ، على نحو عشواء ، كلٌّ واحد من ناحية في المدينة ، فاجتمع بين يديه أشخاص مذعورون قليلاً ، لم يفهموا مايستوجب القبض عليهم . حملهم الوزير في عربات إلى قصر الأمير .

وقف الأشخاص في الإيوان مذهولين ، صامتين . تكلم الأمير :

- من منكم بلا أب؟ .

رفع اثنان يديهما من بين الأربعة والأربعين شخصاً .

أوماً الأمير للوزير أن يقترب فاقترَب . هَامَسَهُ :

- أَعَدَمُهُمَا .

هَاهُنَا الحامية آرديلا من فمها الكبير ، المتناسق :

-- من أين استقيت هذه الحكاية ، ياميلادين؟ .

«من الشعراء» ، رَدَّتْ ميلادين .

تَيْقَظُ خيالُ بيونا ذات الوجه المتطاول ، والوجنتين العاليتين .

تساءلت :

- أَللَّشَّعْرُ علاقة بالضرائب؟ .

«الشَّعْرُ ضرائبُ الخيال على الكلمات» ، رَدَّ ماهاهون .

«الشَّعْرُ هو الرياضيات معكوسة» ، عَقَبَتْ دالومي .

«أين الحكاية؟» ، قاطع جورني مقاطعي ميلادين محتجاً .

صاح بصوت عال قليلاً :

- هل أُعْدِمَ الشَّخْصَان ، ياميلادين؟ .

لم تُؤكِّد ميلادين أو تنف . انعطفت بسياق لسانها إلى مجرى

آخر :

- هذه الحكاية رويتهَا لراووت .

هي روت الحكاية ذاتها لراووت ، يوم دخلت عليه في دهليزه ،

على نحو لا تتذكر تماماً السياق الذي أوجبَ أن ترويها . لقد جادلت

المرأة الشَّيْخَ ، التي تولَّتْ المجيء بها إلى الرجل الشيخ حين عرضت

على ميلادين أن ترافقها . ساءلَتْها :

- إلى أين ستأخذيني؟ .

«إلى السيد راووت» ، رَدَّتْ المرأة الشَّيْخَ ، الوسيطُ في نقل أنفار

الرحلة من زنازينهم إلى الدهليز .

«من؟» ، تساءلت ميلادين .

«إلى السيد راووت» ، ردت المرأة الشبح ، الطويلة ، البارزة عظام

الوجه .

«من هو السيد راووت؟» ، ساءلتها ميلادين .

«اسألينه» ، ردت المرأة الشبح بصوت بارد .

«ليس لاسمه شبه بأسماء ناس سارسيدون . من أي . . .» . لم

تتمّ جملتها . قاطعتها المرأة الشبح :

- إسألينه .

ربما كان امتعاضُ ميلادين من الردود الباردة للمرأة الشبح ،

ومن سَحنتها المقفلة العظام على أيِّ إحساسٍ يُلحَظُ ، هو الذي

أجرى الحكاية على لسانها . هي بادرت راووت أن دخولها عليه :

- ألهذه المرأة ، التي جاءت بي إليك ، أب؟ .

تأملها راووت ملياً . فوجئ ، ربما ، أنه لايعرف جواباً ، فصرف

بصره عنها إلى رسوم القروود . لكنَّ ميلادين عاجلته بسؤال آخر لم

يخطر بباله أن يُسأل :

- أدفعت هؤلاء القروود ضرائبَ قط؟ .

«إنها في الموضع الذي لا ضرائب فيه» ، ردَّ راووت ، فأكدت

ميلادين :

- لا موضع ينجو من الضرائب . إنه قانون الوجود ، ياسيد

راووت .

«لاضرائب في الموضع اللون ، ياسيدة ميلادين» ، ردَّ راووت .

«هل اللونُ موضعٌ ؟ مكانٌ؟» ، تساءلت ميلادين .

«هؤلاء القروود في المكان اللون ، ياسيدة ميلادين» ، ردَّ راووت .

ضَيِّقَتْ ميلادين بين أجفان عينيها البنيتين ، الواسعتين ، في وجهها المستدير :

- أدفعتَ ضرائبَ عن هذه الرسوم ؟ .

«ليس بعد» ، ردَّ راووت مبتسماً . «قد أدفعها لك» . نقرَ بأنامله على غلاف الكتاب الضخم . «عندي عَرَضٌ» .

«لي؟» ، تساءلت ميلادين ، فهزَّ راووت رأسه نَعَمًا .

«أرجو أن لا يكون كعروض السحاقيات في السجن على أمثالي» ، قالت ميلادين . أعادت بصرها إلى الرسوم بلا فضول في أن تعرف ماقد يعرضه راووت عليها :

- لماذا تتعارك هؤلاء القروء ؟ .

«هذه بعض حقوقها : تأكل . تنجب . وتتعارك أيضا» ، ردَّ راووت . أضاف : «الخيانة ، الكفر ، القتل ، كلُّها حقوق» .

«حقوق؟!» ، تساءلت ميلادين مستغربة ، فردَّ راووات :

- نعم . هي حقوق لكنَّها معلقة .

لن تجيز ميلادين لنفسها أيَّ حقٍّ من التي أدرجها راووت في قائمة الحقوق المعلقة . لم تُجِرْ ذلك لنفسها قبل القتل ، أو بعده . أختها لايان ، التي تكبرها بسنتين ، حرَّضتها على قتل أمها المريضة تحريضاً كالهندسة في نخاريب النحل : «أمنَّا تذوب ونذوب نحن معها» ، قالت لايان في المُفْتَتَحِ الأول من خيالها على فكرة الخلاص من ألم امتدَّ أربع سنين .

ميلادين ذاتُ الثلاثة والثلاثين عاماً ، وأختها لايان ، أقامتا مع أمهما في الدار الملاصقة لدُور أخريات ، مستقلة بحديقتهما الأمامية والخلفية ، فيما انتقلت أختاهما الأخريان ، الكبريان للإقامة في مسكنين وسط سارسيدون ، كلُّ واحد مع صديقها . أمهما دِيزلي

تدرّجت في حال من النسيان المتسارع . تساقط من ذاكرتها الغربال
أسماء الناس ، فحدودُ الأمكنة ، فالانجهاثُ ، فالطريق إلى الدار ،
فارتداءُ الحذاء . اختلط عليها الفرقُ بين غرفة النوم والحديقة ، ثم
باتت تزعم ظهورَ امرأةٍ دخيلة في البيت كلما رأت نفسها في المرأة :
- هاهي . إنها تسرق الجدران .

باتت تنظر إلى ابنتيها في ريبة لم تنفع في تبديدها حبوبُ
امتلاّت بها أدراجُ المطبخ . كانت قوية في آخر ستّينها ، ولم تزل في
سيمائها رقةً من جمالٍ عنيد . لقد علّقَ وجودُها ، بعد كل ذلك
النسيان المنكبّ تهشيماً على خزائن الصور والأسماء ، في حيزٍ من
مخاطباتٍ ماضي عملها كسمسارة لبيع البيوت : «سأقتل في شقة
من أربع غرف ، في طبقة ثانية من إحدى العمارات» ، تقول
لابنتيها ، قبل أن تتأملهما طويلاً :

- من أنتما؟ أبيعان منازل؟ .

«نحن ابنتاك» ، كانتا تردّان على أمهما ، وتبذلان ماتقدّران
عليه من حصاد المنطق إقناعاً حين تزورهن الأختان الأخريان :
«هما ابنتاك أيضاً» ، فيختلط حاصلُ الجَمْعِ حساباً على الأم
ديزلي :

- أنتما ابنتاي . أنتما اثنتان . كيف تصيران اثنتين أخريين؟ .

«نحن نحن ، يا أمي ، وهما هما . نحن أربع أخوات ، ولسنا
اثنتين في أربع صور» ، تردّ لايان ، فلا يتوافق ردّها مع القبول المفقود
في عقل ديزلي . تسألها :

- أربع بنات؟ كم منزلاً بعُتُنَّ؟ .

«لا نبيع منازل . تلك كانت مهنتك يا أمي» ، تردّ لايان كردّها
بـ «لا» متكررةٍ على اقتراح أختيها الأخريين أن يُودِعْنَ أمهنَّ مأوىً

للعناية بمن هُنَّ في حالها - مأوىً من حدائق الموتى الأحياء المرفهة بالحبوب ، التي تجعل النسيان ذاكرةً جديدة ، وتجعل الخمول نشاط الجسد الأوحَد .

تدبَّرت لا يان مُرتباً شهرياً من مصلحة الرعاية الصحيَّة ، مقابل تكفلها العناية بالأم في البيت . ذلك أراحها من عملها في روضة أطفال . لكنها ، في الأيام التي سبقت مقتل الأم ، رمت بشخص فكرة الخلاص من شقاء الأم إلى ماء خيال ميلادين ، عسى تتصيَّد قبولها : «أمنَّا تذب . سنذوب معها» .

«لأعرف لماذا عنادك ، يا لا يان؟ فلنودع أمنَّا مأوىً لرعاية من هُنَّ على حالها» ، قالت ميلادين .

«لست متذمرة من عنايتي بها ، ياميلادين» ، عقبت لا يان . «تمرّني فكرة بقاء أمنَّا هكذا . فلنساعدها» .

«نساعدها؟» ، تساءلت ميلادين . «أنت تُعنينَ بها . ماذا أكثر من ذلك؟» .

كانت لا يان تدرك من نظرتها إلى أختها أنها قد تُصعق من فكرة نجدة الأم بقتلها . لذا باتت تستظهر رغبتها قطرةً قطرةً تلميحاً :

- أليس جارحاً ، ياميلادين ، أن نرى أمنَّا منحدره من سيء إلى أسوء؟ تنام في الحديقة . تخلط بين المرحاض والمطبخ . ماذا بعد؟ أن أفيق ذات يوم وأراك مذبوحةً بسكين ، أو تفيقي وتريني مذبوحةً ؟ .

شعاعٌ ما من صورة الذبح سقط ، عبر الزجاج في خيال ميلادين ، على واقع متكوّم في ركن من أعماقها . لكنها كرّرت صواب فكرة إيداع الأم مأوىً للرعاية :

- لن تُذبحي ، يالايان ، ولن أُذبحَ ، إن كانت أمانا في مأوى .

«عُدتِ إلى خطّة التمديد لبؤس أمانا ، ياميلادين . فكّري بشيء آخر» ، قالت لايان .

«إن كنت تفكرين ، أنت ، يالايان ، بشيء آخر ، فافعلي» ، قالت بلسان مسّه وخزّ الذعر الصامت .

«فلنقُم بالأمر معاً ، ياميلادين» ، تمتمت لايان .

«فلنقُم بماذا؟ نُسمّوها؟» ، تساءلت ميلادين مرتعدة الخيال من صور رشق بالماء مغلياً .

«نخنقها بوسادة وهي نائمة» ، تمتمت لايان مطأطئة تنظر إلى قدميها .

«لن أفعل ذلك صاحبة . عليّ شربُ كحول قوية» ، قالت ميلادين . «أحشائي لن تحتمل ذلك وأنا صاحبة» .

«سنريحها ، ياميلادين» ، تمتمت لايان . «انظري إليها . أمانا التي نعرفها غادرت جسدها وعقلها . تركت لنا ، في البيت ، صورة فارغة ، كقشرة ، تتحرك» .

نظرت ميلادين إلى أمها جالسة على كرسي قرب النافذة تُحصي شيئاً ما بأرقام خطأ في تسلسلها ، وتستعرض بيوتاً ، ودوراً ، وشققاً للبيع : «مَسْكَنٌ لأربعة آباء . مَسْكَنٌ يتسع لطاولة نوم . مطبخ في النافذة . واحد ، ثمانية وواحد . أحد عشر» ، كانت تتمتم . «ماذا بعد أحد عشر؟ اثنان هنا . خمسة هناك . درج العمارة داخل العُرف . ذلك أفضل» ، ثم تلفتت إلى ابنتيها :

- تزوران بيتي مرة . وتزوران بيت المرأة الأخرى مرة .

كانت تشير إلى المرأة الكبيرة ، التي كلّما عبّرتها ، قرب الباب ،

وقفت برهةً تؤكِّدُ لذاكرتها الغربالِ وجودَ امرأةٍ دخيلةٍ في البيت .
لايان كانت تطيل التحديق إلى عيني ميلادين البنيتين ،
الواسعتين ، كلما تدحرجَ على لسان أمها خيالُها الفوضى في
كلمات فوضى ، أو بدرت منها أفعالٌ فوضى ، فتدرك ميلادين أن
عليها اختبارَ الفروق في ذعرها أهو ذاته قبل الإقدام على قتل ، أم
مختلفٌ بعد الإقدام . ذعرُ الفكرة أنهكها ، فيما ظلت لايان على
قدرٍ من الجأش في ترويج الفكرة على خياليهما ، وتصرفها تصريفَ
فعلٍ عادل يضع حداً لبؤس أمهما .

لم يكن تفكير ميلادين في القتل يعادل شيئاً من ثقل البرهة ،
التي انتصبت فيها أختها لايان أمامها حاملة أكبر الوسائد في
البيت . ظلَّتا يقظانتيْن حتى نامت أمهما ، فسارعت لايان إلى
جلب الوسادة تلك ، الزرقاءِ برسوم بيضٍ لهرةٍ واضحةٍ الشواربِ
والعيون لاغير . غرزت لايان أصابعها في الوسادة تختبر طراوة
الحشو القطن فيها وليَّته : «هذه تنفع» ، قالت تتممةً .

نهضت ميلادين عن الأريكة مرتعشة الساقين قليلاً . تحسست
الوسادة بدورها :

- ماذا لو استطاعت أمنا أن تتنفس من خلال القماش؟ .

«لن تستطيع ، ياميلادين . الضغط عليها منّا ، نحن الإثنتين ،
سيجعل التنفس تحتها مستحيلاً» ، ردت لايان .

«معاً؟» ، تساءلت ميلادين .

«نعم . سنضغط الوسادة على وجهها معاً» ، ردت لايان .

ارتعشت كتفا ميلادين بعد ارتعاشة ساقها :

- سأتولى الإمساك بيديها ، وتضغطين أنت بالوسادة على

وجهها .

«كيف؟ من أية جهة ستمسكين بيديها الاثنتين ، ياميلادين .
أستجلسين على صدرها؟» ، تساءلت لايان . «لن أستحكم من
خَنَقِها بالوسادة» .

«سأمسك بقدميها إذا» ، قالت ميلادين متعثرَةً في التخطيط
الفوضى .

«بِمَ ينفعني ذلك؟ ستقاوم أمي بيديها» ، عَقَبَت لايان على
تخطيط ميلادين . «معاً سنضع الوسادة على وجهها ، ونضغط عليها
بثقل جسدنا . لن تقاوم أمي طويلاً» .

«ماذا سنقول للناس في أمر موتها؟» ، تساءلت ميلادين .

«ماتت نائمة» ، ردَّت لايان .

«ألن تبدو آثارُ خَنَقٍ عليها؟» ، تساءلت ميلادين ، فردَّت
أختها :

- الاختناقُ اختناقٌ ، والوسادة لن تترك آثارَ عنف على أمي .
ذلك هو المهم .

« ماذ لو خمشتُ بأظافرها جلدَ إحدىنا ، أو نتفت شعرنا؟» ،
تساءلت ميلادين . «سيعثر المحققون في موتها على براهين تديننا .
سنُكتشف» . ارتعدت .

«سننظف أظافرَ أمنا إن خمشتنا ، ونغيّر ملاءةَ السرير ، وغطاء
الوسادة ، ونكنس الغرفة من الأرض حتى السقف» ، قالت لايان .
أضافت : «فلنلبس قفازات ، ولنتقنَع بمنشفتين» . هزت رأسها
تستبدل الفكرة : «ضعي ركبتيك على إحدى ذراعي أمي ، وأنا أضع
ركبتي على الأخرى . سنقيّد بذلك يديها» .

تنهّدت ميلادين . تمتت :

- ستضعين أنتِ الوسادة على وجه أمي أولاً .

«سنضعها معاً . ونضغط عليها معاً» ، ردت لايان .
«ماذا لو أفاقت لحظة صعودنا سريرها؟» ، تساءلت ميلادين ،
فردت أختها :

- لن تعرف ماذا يجري حتى لو أيقظناها وأخبرناها بما
سنفعل . هي لاتعرفنا ، ياميلادين .

متقوِّضة القلب مشت ميلادين خلف أختها . ارتعشت ساقاها
أكثر حين دفعتا بابَ غرفة نوم الأم غير المغلق . وقفنا ساكنتين .
طال سكونهما الثقيل وهما تسمعان نبضَ قلبيهما ، لافي
صدريهما حَسْبُ ، بل في كُلِّ جارحةٍ منهما : نبضٌ في الأصداع ،
وفي الأنامل ، وفي الأرجل . استدارت لايان إلى ميلادين . دفعت
بالوسادة إليها ، وخرجت من الغرفة كالهاربة .

ذهلت ميلادين . ارتخت ذراعاها حتى كادت أن تُفلتَ
الوسادة أرضاً في وقوفها هكذا ، وحيدة ، في غرفة الأم . خالت ،
في لحظة من زغل عينيها ذعراً ، أنَّ الأم نهضت من فراشها هادئةً .
تقدمت صوبها . نزعت الوسادة من يديها وانهالت عضاً على
غطائها فمزَّقته ، ثم مزقت بأسنانها القماش الذي يحوي الحشو
القطن ، ثم استخرجت القطنَ حفنات فالتهمته .

تراجعت ميلادين خارجةً من الغرفة . ردت البابَ خلفها
موارباً من غير إطباق . اتجهت إلى الردهة حيث جلست لايان
منحنيةً تخبئ وجهها في راحتي يديها . ضربت أختها بالوسادة
على رأسها ، وانهارت جالسة قبالتها على كرسيٍّ بلا مساند .
خبطت بقبضة يدها اليسرى على صدرها كأنما تلجم النبضَ المتدافع
من قلبها إلى فضاء الردهة منتشراً . تمتت :
- أيتها الكلبة لايان .

لم ترفع لايان وجهها المحتجب في راحتي يديها إلى أختها .
غمغمت بنبر مختنق :

- تهياً لي أن أُمي تنظر إليّ .

«قلت لك إنها قد تفيق» ، قالت ميلادين .

«لم تفق . لقد تهياً لي ذلك» ، عَقَبَت لايان .

أطلقت ميلادين زفيراً قوياً ، متقطعا :

- حَرَضْتَنِي ، أيتها الكلبة ، على قتل أُمي . مامبلُغ السخرية
القاتلة في مافعلت ؟ .

«لا سخرية» ، ردت لايان ، فانحنت ميلادين بصدرها صوب
أختها :

- أين نحن الآن ؟ .

أزاحت لايان يديها عن وجهها شاحباً . تمتمت :

- لم يحدث شيء . لم نفعل شيئاً .

أطلقت ميلادين زفيراً آخر ، متصلاً :

- لم نفعل شيئاً؟ كدنا نقتل أُمنا بهذه الوسادة .

مدت ميلادين يدها اليمنى إلى الوسادة المطروحة أرضاً .

تناولتها وضربت بها ، من جديد ، رأس أختها . دمدمت :

- لقد فعلنا شيئاً ، أيتها الكلبة .

نهضت لايان واقفة بعينين ترقرق فيهما اعتذارٌ ، واستياءٌ من

التوبيخ القاسي :

- فعلنا شيئاً لم نفعله ، وانتهى .

«لن ينتهي هنا» ، قالت ميلادين وهي تفرع بقبضتها قرعاً

خفيفاً على صُدغها : «كم ليلة لم أُم وأنا أهيء هذا الرأس ليتواطأ

معك ، يا لايان؟ كم كابوساً رافقني ، كل يوم ، إلى عملي؟ كل نظرةٍ

إليّ من زميل ، او زميلة ، في المكتب ، خلّتها اتّهاماً . كلُّ ابتسامةٍ منهم بدت كالقبض عليّ متلبّسةً بقتل أُمي » .

هكذا كان حال ميلادين ، في الأيام التي سبقت التنفيذ المتراجع لخطّتهما . لم تخطئ في ضبط بيانات الضرائب المرسلة إلى مستحقّي دفعها ، لكنّ الأرقام في الجداول ، والكلمات المختزلة تعريفاً بنسب الأرقام ، كانت كلّها وجوهٌ شهودٍ على فكرتها المتمرّغة في الشاشة التي تطيع ميلادين عليها البيانات . بل كأنها كانت تسمع الأرقام متكلّمةً توبّخُ ، وتشهّرُ ، وتُحقّرُ ، فتتراخى أناملها في الضغط على مفاتيح طبع الأرقام . بياضُ الشاشة في أكتها كان ينبض أحياناً نبضاً قوياً ينفخ منه البياض ، وتندفع - ضغطاً عليه من جوف الآلة - وجوهٌ تكاد تمزّق البياض المتمعّط كالطاط . أيدٍ بيّضٌ تتظاهر على الشاشة البياض . همسٌ أبيض يسيلُ من البياض الراكد أحياناً ، والمتماوج أحياناً بنقوش العلامات الدلائل في عقل الآلة وخرائط علومها .

أرهقت الشاشة ، ورموزُ مفاتيح العلوم في الآلة ، عقلَ ميلادين . أرهاقها سماعُ الأرقام الشهود قبل إقدامها على التنفيذ الناقص للخطط ، لكنها سارت وراء فكرة أختها حتى عتبة النهاية من غير أن تجاوزها ، مُدّ تخلّت لايان ، في البرهة الأقسى امتحاناً ، عن الوسادة فدفعتها إلى أختها .

«فعلّنا شيئاً لم نفعله ، وانتهى» ، قالت لايان تخفيفاً عن صدمة ميلادين . صدمةٌ لن يتراجع صداها ؛ لن تعيد للصمت دَينَ الصوت . أربعة أيام بعد تلك الليلة المتراجعة ، لم تنم ميلادين جيداً إلّا حين ترهقها اليقظة بأثقال فوضىٍّ من صوّر التخطيط ، بخيالٍ بؤسٍ ، للحدّ من شقاء الأم . لقد أيقظت لايان ، في الأخدود

المديد لوجود ميلادين ، أفعى الإنسان الأبدية ، وبات على ميلادين
أن تطعمها من وجودها .

لم تكن الرغبة في خلاص الأم من نَفْسِها ، على الأرجح ،
هي التي أعادت ميلادين إلى تخطيط متّصل ، سرّاً ، لتنفيذ
مأحجمت عنه لايان بعد تحريضها المثمر . أرادت ، ربما ، ردّ صفة
حريق إلى كيان أختها . هكذا حملت الوسادة ذاتها ، في ليلة من
سهر لايان خارجاً بعد ائتمان ميلادين على أمها ، ، فدخلت غرفة
الأم النائمة . سعدت السريرَ قفزاً خاطفاً . أحكمت وضع الوسادة
على وجه المرأة السابحة في ذاكرتها النسيان . لم تأبه لخمش على
ذراعيها بأظافر الأم . لم تأبه لقميصها القطن تمزّقت صدْرته جذباً
من يديّ الأم . لم تأبه لنشيج الهلع المختنق تحت الوسادة . ثقل
جسدها البدين ، ضاعطاً بالوسادة على وجه الأم ، ضاعفه أنها ترى
وجه لايان ، أيضاً ، تحتها . غمغمت مرتين بفم مُزبد :

- ماذا الآن ، أيتها الكلبة لايان ؟ .

خمدت الأم مُذّ تسلّمت من النهاية مفاتيح خزانة نسيانها .
نزّلت ميلادين عن السرير الذي تجاذبت الفوضى غطاءه . اتجهت
إلى غرفة أختها لايان . وضعت الوسادة الكبيرة ، الزرقاء ، ذات
الرسوم الهررة ، فوق الوسادة الأخرى على السرير . عادت إلى الردهة
جالسة . ربّبت بيديها شعرها البنيّ السَّبَطَ ، القصير . أطلقت زفيراً .
عادت لايان بعد منتصف الليل . فاجأها أن ترى ميلادين
جالسة على الأريكة في الردهة ، بقميصها القطن الممزّق الصدرة .
تقدّمت منها محدّقة :

- ما بك ؟ .

لم تردّ ميلادين .

«ماذا جرى لقميصك؟» ، ساءلتها ، فأرخت ميلادين بصرها إلى الأجزاء الممزقة ، فوق صدرها ، صامتةً .

تلفتت لايان من حولها في حيرة . اتجهت إلى غرفتها وهي تنزع سترتها . عادت ، بعد برهة ، تحمل الوسادة الزرقاء بوجهٍ مثقلٍ تساؤلاً :

- من وضعها على سريري؟ .

التفت ميلادين بوجهها صوب غرفة الأم . تمتمت :

- هي وضعتها .

«أمي؟» ، تساءلت لايان مستغربة . تراخت شفتها السفلى بغتةً من هبوب إحساسها الغامض أن شيئاً ما جرى في البيت . هرعت إلى غرفة أمها . أضاءتها . اقتربت من السرير انتهبتة فوضى الغطاء ، وفوضى جسد الأم الجاحظة العينين . أطلقت صرخةً ذعر . في المساء الذي أكدت فيه ميلادين أنها روت حكاية الأمير لراووت ، تبادل الأنفاز نظراتٍ متسائلةً في حلقة الثياب البرتقالية . ارتفع صوت جورني :

- من غير ميلادين روى حكاية للجزّار؟ .

«الجزّار؟!» ، تتم دايك الحلاق متسائلاً . «كان راووت لطيفاً» .

«نعم . لطيفٌ إلى حدٍّ أن مكتبه لم يحوِ إلا كرسيه» ، عقب داروم . «ذلك لطفٌ زائد» .

عاد جورني إلى سؤاله إن كان أحدٌ آخر ، غير ميلادين ، روى

حكاية لراووت . لكنّ ماهاون انعطف بالمحاورات إلى اتجاه آخر :

- من منكم يُحسن فنّ الدفاع عن النفس؟ .

«أنا» ، قال جينتالو . أضاف : «أعاركتَ أحداً في السجن؟» .

«لا» ، ردّ ماهاون ، فسأله جينتالو :

- لِمَ سَأَلْتَ؟ .
«لأَحْسَ بَأَمَانٍ» ، رَدَّ مَاهَاهُونُ بِنْبَرٍ بِمَازِح .
«مَنْ أَنْتَ خَائِفٌ ، يَامَاهَاهُونُ؟» ، سَأَلَتْهُ بِيْتَالِيَا .
«مَنْي» ، رَدَّ مَاهَاهُونُ . «بِي رَغْبَةٌ فِي الْقَتْلِ» .
«أَلْتَقُومُ بِرَحْلَةٍ اعْتِذَارٍ ثَانِيَةٍ؟» ، سَأَلَتْهُ دَالُومِي . «بِمَنْ فَكَّرْتَ أَنْ
تَقْتُلَ؟ أَبِأَحَدٍ مِّنَّا؟» .
«مَاهَاهُونُ يَهْدُ لَصِنَاعَةِ حِكَايَةٍ» ، قَالَ جُورْنِي . «إِنَّهُ
يَسْتَدْرِجُنَا» .
جَرَّبَتْ بِيْتَالِيَا حَظَّهَا فِي الْمَحَاوَرَةِ بِدَوْرِهَا . أَدَارَتْ الثَّرَثَةَ صَوْبَهَا :
- عَلِّمْنِي ، يَاجِينْتَالُو ، شَيْئاً مِنْ فَنُونِ الدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ .
«لِمَذَا؟» ، سَأَلَتْهَا دَالُومِي ، فَرَدَّتْ بِيْتَالِيَا :
- إِنْ عَدْتُ إِلَى السِّجْنِ سَأَكُونُ الْأَعْفَفُ .
«كَانَتِ السِّجْنِيَّاتُ مَسْأَلَاتٍ» عَقَّبَتْ دَالُومِي عَلَى رَغْبَةِ بِيْتَالِيَا .
«كُنْ كَذَّابَاتٍ» ، قَالَتْ بِيْتَالِيَا . «مَافِي وَاحِدَةٍ صَرَّحَتْ عَنْ
سَبَبِ وَجُودِهَا فِي السِّجْنِ . كُلُّ وَاحِدَةٍ كَانَتْ تَوْشُوشُ الْأُخْرَى
قَائِلَةً : لَا تَصْدُقِي مَا قَالَتْ هَذِهِ . لَا تَصْدُقِي مَا قَالَتْ تِلْكَ» .
«أَكْذَبْتَ أَنْتِ؟» ، سَأَلَتْهَا دَالُومِي ، فَرَدَّتْ بِيْتَالِيَا بِلا تَرَدُّدٍ :
- نَعَمْ .
«الْكُذْبَةُ اكْتِشَافُ إِنْسَانِي مَدْهَشٌ» ، عَقَّبَتْ دَالُومِي . أَضَافَتْ :
«الْكُذْبُ» ، وَحْدَهُ ، مَعْجِزَةُ الْعَقْلِ» .
«أَكْذَبْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ زَائِرِي عِيَادَتِكَ ، يَادَالُومِي؟» ، سَأَلَهَا
مَاهَاهُونُ ، فَرَدَّتْ دَالُومِي عَلَى نَحْوِ مُلْتَبِسٍ :
- أَخْرَجْتُهُمْ مِنْ عِنْدِي مَذْعُورِينَ لِيَعُودُوا إِلَيَّ .
«أَرَى إِلَى الطَّبِّ النَّفْسِيِّ كَنْظَامٍ لِلذَّعْرِ ، إِذَا» ، قَالَ مَاهَاهُونُ .

«نظام صنع مجتمعا لا يتخلى عن النبوءات» ، ردت دالومي .
«ظننته نظاماً للتذكير بالأخطاء ، وكشف الأخطاء ، ودخض
الأخطاء كي نتفادها» ، عقّب ماهاهون ساخراً ، فردت دالومي :
- بل لنعيد تكرار الأخطاء على نحو أنيق .
«أهذه مهنتك حقاً؟» ، تساءل ماهاهون ، فردّت دالومي ردّاً
غامضاً :

- إنني أجربّ تعديلاً موسيقياً في المحادثات .
«كيف ذلك؟» ، تساءل ماهاهون .
«التمويه في الردود» ، قالت دالومي .
صفرّ ماهاهون تصفيراً خافتاً كتعليق . «نعم» ، قال تأكيداً على
مالا يؤكّد . «هكذا انتصر قوّادٌ ، وهُزمَ قوّادٌ بالتعادل ، في حرب
الثمانائة عام» .
«التعادلُ هزيمةٌ غير صريحة ، وانتصارٌ غير صريح ، ياماهاون .
لكنّ تعقيبك هذا على كلامي تمويهٌ في ذاته» ، قالت دالومي .
«أوقفنا هذه المحاورّة الغريبة» ، تدخل داروم . «أتساءلُتم قطّ كيف
لم يلتقِ أحدُكم بأحدكم في السجن؟» .
«هذا أفضل ماسمعتُه منك ، ياداروم» ، قال ماهاهون ، فعقّب
داروم متسائلاً :

- أسْؤالي جيّدٌ ، أم كلُّ ماقلته ، سابقاً ، رديءٌ؟ .
«سؤالك وجيهٌ بحقّ ، ياداروم» ، ردّ ماهاهون ، فسأله داروم
بنبرٍ فيه مناوشةٌ ما :
- من المعلّم الأقوى : معلم الرياضيات أم الفيزياء ، أم مدرّب
كرة القدم؟ .
«الحقّ هو المعلّم الأقوى» ، ردّ ماهاهون ، محدّقاً في الظلام

الخافت إلى داروم ، الذي عَقَبَ على نحوٍ لم تُفهم حدودُ السخرية فيه من الشرثرة الخواء :

- لا بدَّ أن تلاميذك يفتقدونك .

«التلاميذ الأذكياء ينسون معلمهم سريعاً» ، قال ماهاهون .

«اصمُتُ قليلاً ، ياداروم» ، تمتت أرديلا ، فوافقها راسيد ، في

خُبث ، من فوره :

- نعم . اصمُتُ .

«أنت أيضاً» ، قالت أرديلا لراسيد بنبرٍ موبَّخٍ . ألقت سؤالاً إلى

طبيبة النفس :

- ما انطباعك عن نفوسنا نحن ، يادالومي ، في هذه الرحلة؟

أيبدو أحداً منّا مختلاً ، أو مأزوماً؟ .

«الإتزانُ بإفراطٍ خَلَقَ الجنونَ» ، ردت دالومي في لبسٍ .

«والجنون حظٌّ لا يتخلى العقلُ عن حقوقه في امتلاكه» .

«أنت جريئة في الردود المفهومة ، وغير المفهومة» ، عَقَبَ

ماهاهون ، فردَّت دالومي :

- بجرأةٍ لا مثيل لها أقرُّر ، أحياناً ، أن أكون جبانة .

عوى جينتالو بغتةً . جاره راسيد فعوى . عوى التوأمان يومار ،

وديرو . ضحك بعضهم . استنكر بعضهم العواء . صرخت الأختان

بيونا ، وسيتون ، معاً :

- متى سنصل إلى أعالي الجبل؟ .

نهض رابكين عن بساطه الجلد . صفَّقَ بيديه تصفيقاً قوياً :

- علينا أن نبدأ حرباً لأعرف إلى جانب مَنْ سيقف إلهي .

«سنبدأ حرباً بعد ثمانمائة عام» ، ردَّ ماهاهون . «سنصل إلى

قاعدة إحدى قمم آييانو الغربي بعد ثمانمائة عام» .

نهضت بيتاليا بدورها واقفةً . دمدت بصوتها المتأكل :

- أفكر أحد بالعودة؟ أنا أفكر بالعودة .

«نبدو مذعورين الليلة» ، تتم ماهاون . «بدأت سيرة الذعر» .

«أللذعر سيرة؟» ، ساءله رابكين ، فرد ماهاون :

- إسأل السيدة دالومي .

التفت رابكين في وقفته إلى دالومي وقد تلاأت رُكبنا بنطاله بانعكاس النار الصغيرة ، وسطهم ، عليهما :

- أللذعر سيرة ، ياسيدة دالومي؟ .

غمغمت دالومي قبل نطق كلماتها واضحة :

- أنت تورطني في الإجابات عنك ، ياماهاون . لكنني أحمّن أن للذعر سيرة هي الأكثر اختزالاً بين السّير ، والأكثر طولاً أيضاً .

«ماسيرته؟» ، ساءلها رابكين ، فردت دالومي :

- الإنسان سيرة الذعر .

«أهو سيرة الذعر الأكثر اختزالاً ، والأكثر طولاً؟» ، تساءل رابكين .

«نعم» ، ردت دالومي .

«مامقدارُ هذه السيرة مختزكةٌ ، ياسيدة دالومي؟» ، ساءلها رابكين .

«ذعرُ الإنسان من الحياة ، وذعره من الموت» ، ردت دالومي .

«مامقدار هذه السيرة طولاً؟» ، ساءلها رابكين واقفاً ، فردت دالومي :

- ذعر الإنسان من الفشل . ذعره من خسارة النجاح . ذعره من أنّه فعَل ، وذعره من أنه لم يفعل . ذعره من الجسارة ومآلها ،

وذعره من الجبن ومآله . ذعره من الله ، وذعره من الشيطان . ذعره من سُلطة الآخر القوي ، وذعره من أن يغدر الآخر بسُلطته إن كان هو الأقوى . ذعره من كثرة المطر وقلة المطر . ذعره . . قاطعها ماهاهون :

- ذعره من هذه الرحلة ، وذعره من الرجوع عنها . همهمت دالومي من غير نطق كأنما أثرت لُجْم استطرادها في ذِكْر أمثلة الذعر . نادت بصوتها الخفيض الهادئ : « ميلادين . أين صارت حكايتك ؟ » .

ردت ميلادين من فورها سَرْدًا : « أمسك رجلٌ ، كان يترئّض راكضاً على ضفة البحيرة الكبرى ، بفتاة التقاها مصادفةً وهي تركض ترئّضاً بدورها . صرخ بها : كنت في حلمي . سرقت شيئاً » .

قاطعتها دالومي :

- كانت حكايتك عن أمير ، ياميلادين . « تغيّرت » ، ردّت ميلادين . « إنها الآن عن رجل أمسك بفتاة بُغِيت . ساءلته الفتاة : ماذا سرقت في حلمك ؟ . ردّ الرجل لاهثاً بعدُ من الركض : سرقت شيئاً ما ، كان أئمن ما يملكه حلم ، لكنني لأستطيع تخمينه . ماذا سرقت ؟ . تساءلت الفتاة : مابك ؟ أمجنون أنت ؟ .

ظل الرجل ممسكاً بها بيد . وضع الأخرى على صدره مُدّ أحسن حريقاً فيه . سألها : ماذا كان ؟ ماذا سرقت في حلمي ؟ . صرخت به الفتاة : توقف . أنت تعتصر ذراعي . لا أعرفك . صاح بها الرجل بدوره : كنت في حلمي . لا يدخل حلمي مَنْ لا أعرف .

ردت الفتاة : لم ألتق بك في أي مكان . أنا جديدة في هذه الناحية ، وهذا هو اليوم الأول لي أترى ركضاً على ضفة البحيرة . سألهما الرجل محتماً : كيف دخلت إلى حلمي ؟ .
ردت الفتاة مذهولة : أنت معتوه .

صرخت تتوسل نجدة . كاد يغمى عليها ، فأفلتها الرجل ، الذي ازداد الحريق في صدره . انهارت الفتاة ، ثم انتفضت هاربة . ابتعدت مسافة . توقفت . التفتت إليه . وضعت يدها في الكيس المعلق إلى خصرها محتويًا ماءً في اسطوانة مطاط مغلقة . أخرجت كتلة حمراء ، مدماءً ، ملء قبضتها . لوحت بها له . قالت : هذا ماسرقتة .

انهار الرجل ممسكاً صدر قميصه بجُمع أصابعه ، فوق موضع الحريق تحت الأضلاع . لهث حشجة . تمت : قلبي .
«أهذه حكاية عن سكتة قلبية ، ياميلادين؟» ، ساءلتها دالومي ، فعقبت بيتاليا بصوتها المتأكل : «ظننتُ الفتاة سرقت خصيتيه» . نهضت . حملت غصناً مشتعلًا . أضرمت النار في سور الأغصان من حولهم حلقةً فاشتعلت .
عوت روثا . عوى سولكي .

الفصل الخامس عشر:

راسيد

عراء واسع من الأرض المعشبة يفصل دار راسيد عن الطريق الكبير، في موضع من ضواحي مدينة سارسيدون. ثمت دور آخر مثلها، متباعدة مسافات، يمتلك ساكنوها المركبات لانتقالاتهم منذ هم معزولون قليلاً عن المتاجر الكبيرة، وتجمعات الأبنية، ومرافق الخدمات، كأنهم في ريف، أو هكذا أثروا أن تكون مواضع سُكناهم. على بعد من تلك الدور موقوفان من زجاج مسقوف لحافلة نقل الركاب، متقابلان على طواري الشارع الكبير، الذي يصل المناطق العراء، المنعزلة المساكن، بأنحاء المدينة. قليلون يستقلون الحافلة، قادمين أو مغادرين، إن أجاتهم الضرورة إلى ذلك. وهي حافلة متباعدة مواعيد عبورها في الاتجاهين مقدار ساعة بين عبور وآخر، من المدينة وإليها، مروراً بمحطات متاجر صغيرة، أو مفارق طرق متفرعة تفضي إلى مراكز تسوق، ومُجمَع طبيّ واحد يتشارك في ارتياده ساكنو العزلة الريفية.

امتلك راسيد سيارة مستعملة بحجم ضئيل عندما أُجيز له، في بلوغه الثامنة عشرة أن يقود واحدة. قبل ذلك كان يستقل حافلة الركاب في ذهابه إلى المدرسة، والعودة إلى البيت. لقد اشتكى، مراراً، المشي الطويل من الدار إلى الشارع الكبير. واشتكى المصادفات المقلقة في تأخر الحافلة إن هطلت الثلوج قوية،

أو أضرب سائقو الحافلات . أمّه لم تقتن مركبةً بعد انتحار زوجها ، مُدَّ كان راسيد في السادسة ، وعاندت في أن تهجر الدارَ إلى مسكن قريب من مدينة سارسيدون ، أو فيها ، مؤثِّرةً العراءَ العشبَ - « بساطُ الروح » كما وصفته من وحي الربيع الشديد الغيرة على أزاهيره الفاتنة ، ومن وحي الصيف الذي يدافع ، بضراوة ، عن حقِّ ابنه الربيع في الاستيلاء على بعضٍ من الوقت الذي يخصُّه هو كفصل صيف .

بيُّون ، أمُّ راسيد ، لم تكبر ابنها بأكثر من عشرين سنة . انجبتَه صغيرةً بعدُ ولم تنجب سواه . تسَلَّفت مع زوجها مالاً من المصرف اشتريا به تلك الدار ، في السنة الثالثة من زواجهما . كانت تعمل صيدلانيةً في مركز على مبعدة عشرين دقيقةً يقلُّها زوجها إليه بمركبته . انتحر زوجها فجاءةً ، بلا تمهيدٍ من اضطراب في مزاجه ، أو اعتكار . وجدته في مغطس الحمام مُستنزفَ الدم من بترئين في عروق معصميه . دفنته بحضور اختيها ميليد ، وسائتين ، اللتين تَصْغُرانها ، في مقبرة توطَّدت فيها أواصرُ الموت بين أناس عاشوا ، قبلاً ، في تلك المنطقة العراءِ ، وأناس من قاطني دورها الحديثين .

وراء بيت راسيد وأمه ، على بعد سبع دقائق مشياً ، أُقيم ملعبٌ صغير لكرة القدم مختزِلُ الأبعاد جدًّا ، تُرادفه ساحةٌ حصيٌّ نُصبت فيها مراجيح ، وثُبَّتت مناضدُ أربعٍ مستطيلة الخشب ، يَقْتَعِدُها قاطنو ذلك المكان حين يؤثِّمون المكانَ بأولادهم للهو في العُطْل . لم يزدحم مكانُ رفاهة الأولاد لهواً قطُّ . بضع عائلات ، لا غير ، كانت تأتي إلى الملعب ، ومنتزِةً للهو ، بين وقت وآخر ، مصطحبةً مواقد شواء صغيرة لا يعلو جمرها إلاَّ النقائق الجاهزة . راسيد ، وحده ، استأثر بملعب الكرة لا يصرفه عنه إلاَّ المطر ، أو

الثلج ، أو الدَّرْسُ الواجب ، من غير أن تشغله المراجيح ، والمَزْلَقُ العالي ، الوحيد ، الذي يصعده الأولاد على سلم وينحدرون ، بعد ذلك ، بأجسادهم انزلاقاً في مجرى معدني الهيكل إلى أسفل ، فيتلقّفهم رملٌ ناعم بأيديه العشرات الناعمة .

كان الملعب المختزلُ الأبعاد محاطاً بسياج شبك فيه بابٌ لا يُغلق ، مفتوح أبداً ، بسخاء الأرض المعشبة ، لمن يرتاده . مهجوراً يبدو معظم الأوقات إلا حين يوطّد راسيد فيه إمارة لهاته ركضاً وراء الكرة تصدم عارضتي المرمى الأسطوانيتين الحديد وتتردّد إليهما . مرات قليلة كانت تلك التي انضمّ إلى راسيد أولاد آخرون من قاطني دُور ذلك العراء . دارُ أمه هي الأقرب إلى الملعب من الدُور الأخرى المتناثرة ، المتباعدة - كلّ دار بأرض واسعة مُلكاً من حولها ، قائمة بلا أسيجة لتحديد الملكية ، تصلها دروب ضيقة من فناءاتها بالطريق الكبيرة إلى مدينة سارسيدون ، أو غيرها .

على ركنٍ للكرة بلا توقّف ترعرع راسيد . هو لا يعرف مقدار البراعة فيه سوى التقاط الكرة ، منحدرّة من أعلى ، بمأبضي ساقيه إن طواههما إلى خلف ، وإبقائها منمنطة فوق رأسه لدقائق ، وتصويبها إلى زوايا المرمى بإحكام . لاعب أولاداً ، من حين إلى حين ، لكن ذلك لم يحدّد نَبَر البراعة فيه ونُطقها بالأحكام . امتلك الملعب وحيداً ، وأحبّ - هكذا - أن يمتلكه وحيداً يلاعب خياله بقدمي خياله . منذ انتحار أبيه ، وهو في السادسة ، بات مقيماً داخل كُرتَه ؛ في باطنها المُحكّم إغلاقاً بغلافها الجلد المشدود قطعاً بالسّيور الجلد . هو والهواء ، المتراصّ كتلةً لا تتخلخل ، في باطن كُرتَه . هو وشعبه من اللاعبين بلا أسماء ؛ بلا وجوه ؛ بلا زيّ لعبٍ موحد ، في باطن كُرتَه . هو وأبوه المنتحر ، وأمّه الصيدلانية ،

في باطن كُرتِه . هو والوقت في باطن كُرتِه .

كَبِرَ راسيد شاباً في باطن كرتِه - كرة القدم التي لم تفارقه قط ، حَمَلَهَا طفلاً ، وفتىً ، وشاباً ، إلى المدرسة تحت إبطه ، قريبةً من حقيبة الظهر . دخل بها إلى عُرفِ الدرس عاماً فعاماً ، وخرج بها من عُرفِ الدرس عاماً فعاماً . خرج بها من البيت وعاد بها إلى البيت عاماً فعاماً ؛ ومن البيت إلى الملعب ذي القلب المهجور كلما اتَّسع خلاءُ الوقت لركلة يسدّدُ بها جسده ، داخل الكرة ، إلى المرمى الذي يحرسه شعبٌ بأكمله فلا يستطيع ردُّ الرُمية عن هدفها المنجَز .

لاعبَ نفسِه كلَّ تلك السنين ولذا لا يعرف راسيد براعة اللاعب فيه . همُّه أن تظلَّ الكرة متدحرجةً ، أو منقذفةً بشهوات الغضب في هوائها المحتبس الأسير . غير أن شيئاً آخر تدحرج ، يوماً بعد يوم ، في حياته ، فلم يتوقف منذ بدأ حتى النهاية : ألمٌ صغير اعتصر كلَّيتي الأم بيلون . ألمٌ وخزٌ مفاجئ وثب ثم تراجع ، ثم عاودها عنيفاً فراجعت طبيبها . أخضعت لفحوص أوصت خلاصتها بحبوب مهدئة ريثما تكتمل الإحاطة بنسب الألم ، وجنسه الوليد . قُرِئت عِيْنَاتُ من دمها في المختبر بلغات الإنذار المبكر ، فاستقرَّ البيانُ المشخَّصُ ، في تلك اللغات ، على قصور انتاب إحدى الكليتين ، وتضخُّم في الأخرى . غُسِلَتِ الكليتانُ بأمصال . أُدخِلتا مَطَهَرِ العناية بالوظائف الداخلية لأحشاء الإنسان - الوظائفِ الأسرارِ الموقوفة على أفهام الجراحين بشفرات الأشعة أو المَبَاضِع . خرجت كليتها بعد الدرس ، والفحص ، والغسل ، والتطهير ، والمُلاطَفة النطاسية ، والتأهيل الاليّ ، متأهبتين لامتحان الجسد بهبة البول ومعجزته .

عادت الأم بيلون إلى بيتها من المشفى أياماً نقاهةً ، ثم إلى عملها الصيدليّ ، قبل إخفاق النظام ، الذي جُدِّدَت قوانينه ، في كليتها اليمنى . عاث الأَلَمُ بها ، من جديد ، وعبث بمقادير الوظائف وأسرارها في جوارح المرأة المنكودة . أُدْخِلَتِ المشفى . أهيبَ بلغات الإنذار المبكر أن تستنفر معاجمها الصغرى ، فالكبرى ، فحروف الوصل والفصل ، فقواعد إعراب الأَلَمِ وصرفَ كلماته المطاعن .

لم تنفع النجدة المتكررة من الغسل ، والتطهير ، في لجم الإخفاق العنيد . انتشلت الكلية بجذورها من موضع ولادتها كُليةً في جسد بيلون . هي تستطيع عبورَ الحياة بعربة تقودها كلية واحدة - كليتها اليسرى . ذلك أكيدٌ في أعراف الوظائف الداخلية لجوارح الإنسان وموائيقها : كلية واحدة . عين واحدة . رئة واحدة ؛ أي ماهو مزدوج النشأة لا يضيّرُ الجسدَ كثيراً فقدُ توأمٌ منه . لذا عادت بيلون ، للمرة الثانية ، إلى بيتها ، فعملها ، بجرح صغير في خيال جسدها أنه رُمي ببضعة منه في كيس القمامة .

مثلما يوقفُ راسيد كرة القدم على رأسه ثابتةً ، ثبتت حالُ الأم بيلون مدّةً على وفاء كليتها لجسدها . لكنْ ، كما تنزل الكرة عن رأس راسيد فيقذفها ركلاً إلى المرمى ، أو عارضة المرمى ، انحسر وفاء كليتها الوحيدة فانقذف جسدُ بيلون ، بركلة من الأَلَمِ ، إلى مرمى الأَلَمِ . حُمِلَتِ إلى المشفى مضعضعةً ، متقوّضةً ، منهوبة . أعانتها آلاتُ المَطْهَرِ النُّطَاسِيِّ القويّة ، والعقاقيرُ المستولدةُ بكيمياء الصيادلة ، على توازنٍ مؤقت بين وداع الحياة لسريرها ، وجلوس الحياة على حِفافِ السرير . كليتها الوحيدة بلغت النَّزْعَ الأخير ، وبات على المشفى أن يجد لها كلية جديدة تلتزم وفاءها لجسد بيلون .

أُختا بيلون عرضتا على راسيد الرعاية بحنانيهما ، وعظفیهما ، في مبتلى العائلة ، ريثما يتدبر الأطباء مايعيدون به الأم إلى رعاية ابنها . غير أن المشفى لم يجد كلية ، أو متبرعاً بكلية ، حتى عَرَضَ راسيد أن يسدّد لأمه دينَ جسده وجوداً لجسدها : «أنا أعطيها كليةً» ، قال للخالتين في الشهر الثاني من عامه الثامن عشر . وافق الأطباء الجراحائيون ، بعد مطابقات في المختبر لخصائص القبول ، وترجيحات الفشل ، أن ينتزعوا من جسد راسيد كليةً بجذورها العروق زرعوها في التراب اللحم لجسد الأم ، لصقَ عظم الصلب ، وتعهدوها بسماد من الأمصال . عادت جوارح الأم ، المتمددة على سرير يجاور سرير ابنها في المشفى ، إلى تذكير الحياة بوجوب التمديد ، فمددت الحياة المهلة على ميثاق من تعهد الكلية الجديدة بالوفاء للجسد القديم .

في سيارة سائين ، خالة راسيد ، رجع الإبن والأم إلى البيت . جُلِبَتْ مؤنٌ تكفي أياماً استجماماً في الكسل قبل أن تسلك الأم الطريق ذاتها إلى عملها في الصيدلية ، ويسلك راسيد الطريق ذاتها بالحافلة إلى المدرسة ، فالعودة ، فغزو الملعب بكُرته ، التي خَلَدَ الهواء فيها إلى صمته المتأمل طوال غياب قَدَمِ راسيد عن ترجيح فكرة على فكرة رَكْلاً .

بعد عشرة أشهر من وفاء كلية راسيد لجسد أمه تراجعت الكلية عن ميثاقها . عقوق في الوظائف أنتج إخفاقاً جديداً ، مُراً ، صادمًا . سرير له عَجَالٌ أدخل بيلون غرفةً مستنسخةً عن عُرف زارتها قبلاً في المشفى . نُقِلَتْ عن ذلك السرير المشاء إلى سرير ثابت ، مُكْتَنَفٌ بالبياض العُرام بلا نقوش . آلاتُ المَطْهَرِ النَّطَاسِيّ ، وعقاقيرُ الصيادلةِ الرُّسل ، أبقت على رَمَقٍ في الأمِ المُرْتَنَّةِ من خيانة .

كُلِّية ابنها . ارتعد راسيد إشفاقاً على أمه وعلى نفسه . أثَّبتَ كُليته الخائنة : «ياكلية راسيد القحبة» ، غمغمَ شامتاً . شتمَ «المشفى النحس» . شتمَ «البياضَ القوَّاد» . شتمَ «الأطباء الصراصير» . شتمَ «المرضات العقاقير» . شتمَ كرتَه أيضاً .

نظرات راسيد انقلبت توسلاً أخرس كلما حدَّق إلى أحد : على المشفى أن يجد كُلية جديدة ، وعلى متبرِّع بكلية . لم يعثر ، في إحصاء الخيارات المتلاشية ، إلّا على خالتيه : «هي أختكما» ، قال للمرأتين العزباوين - لا زوجَ ولا خِلَ . هما أبقتا رُدَّهما معلّقاً ، متأبّيتين أن تصارحاه بما صارحهما أطباء المشفى . جسد بيلون لن يحتمل زرع كلية جديدة . رفضُ خلايا بيلون قبولَ خلايا دخيلة لارجعة فيه ، والأمر برُمته باتَ موكولاً إلى آلة لا تنعش جسدَ بيلون ، بل تحتال له في تمديد الحياة موقوفةً على حدها الأدنى : قلب ينبض ، لا غير . وغيبوبة بلا حلم .

«فلْيُعِدْ أحدُ أُمِّي إليَّ» : كان قلب راسيد يغمغم صامتاً . «افعلوا شيئاً» ، قال لخالتيه اللتين لازمتاه تناوباً في بيت أمه ، ترجعان من العمل إليه ، ثم تبقى إحداهما للمبيت وتغادر الأخرى . لكنَّ إلحاح راسيد في التوسل إليهما ، حتى الصراخ أحياناً ، أخرجهما من الكتمان إلى التصريح . جالستاه ، ذاتَ صباح سبت ، بعد الإفطار ، بأخبار الوقائع الموقعة .

«راسيد» ، قالت سانين التي تصغر أمه بسبع سنين ، وتكبر أختها ميليد بسنتين : «جسد بيلون يرفض زرع كلية أخرى» .

لم يُذهل الشابُّ من خبر الترابِ اللحمِ العقيم في جسد أمه لا يقبل بزرّاً ، بل استغرب تردّد الأختين في التبرع بكلية لأمه :
- أهذا عذرُكما؟ أهكذا تبرّران خيانتكما أُمِّي؟ .

«لم تفهمني ، ياراسيد» ، قالت سانين . «خرج الأمر عن إرادة كلنا . جسد أمك لم يعد قادراً على استقبال كلية جديدة» .

صرخ راسيد بهما :

- تستطيع إحداكما العيش بكلية واحدة . لا تتذرعاً بأي شيء في تقاعسكما .

«نعرف ذلك» ، قالت ميليد . «لا تحمّلنا إخفاق جسد أختنا بيلون . نحن حزينتان من أجلها» . دمعت عيناها .

لم يرقِ الردُّ لراسيد . قال بنبرٍ الممتحن في صوته :

- جرّباً .

«نجرّب ماذا؟» ، ساءلته ميليد بنبرٍ منكسر .

«أعطيّا أُمي كليةً» ، ردَّ راسيد .

تبادلت الأختان نظرات العجز عن إقناع الشاب المجروح .

أوضحت سانين الموقف لابن أختها بلا لبس ، من جديد :

- أمك بيلون حيةٌ بقدرة الآلة .

«ماذا تعنين؟» ، ساءلها راسيد ، فردت سانين :

- سمعت ، ياراسيد ، بأناس في غيبوبة لاشيء حياً فيهم سوى ماتبثّه الآلات من نبضٍ في قلوبهم . النبضُ صناعيٌّ . هم موتى مؤجّلون .

«أتميتان أُمي قبل أن تموت؟ ستنقذها كلية . تبرّعاً بها» ، قال في عناد أغلق عليه التفسير ، والشرح من خالتيه ؛ أغلق قلبه .

«نحن أختاها ، ياراسيد» ، قالت ميليد . أكّدت أَلهما بتكرار كلماتها : «نحن أختاها» .

«أعطيّاها كليةً» ، ردّد راسيد ما لم يعد مفهوماً .

تبادلت الخالتان نظرات العجز ذاتها . ربّبت سانين سياقاً

للمحاوره في مسلك الجرح المنتشر كالهواء . ساءلته :

- الم يقترب يومٌ ميلادك؟ .

«بعد غد» ، ردّ راسيد .

«كيف ترى لو أننا أخذنا كعكة إلى المشفى تُطفئُ شموعها

قرب سرير أمك؟» ، ساءلته سانين .

«أتريدان أن أحتفل بيوم ميلادي إلى جوار سرير أمي في

غيوبتها؟ ما هذا الاقتراح؟» ، ردّ راسيد .

«ستراك أمك . ستفرح» ، قالت سانين بلا تقدير لوقع

كلماتها .

انتفض راسيد : «هي في غيبوبة» ، تتم مستغرباً منطق خالته ،

التي صوّبت خطأ الفهم :

- قلبُ الأم يرى .

«كُلّية ستفتح عيني أمي . آنئذٍ أحتفل وهي تراني» ، قال

راسيد .

لم تسترسل الخالتان في إقناعهما الباهت لابن أختهما بالمعلوم

المؤسسي . قررت ميليد البقاء معه ، ذلك اليوم ، وأن يزورا المشفى

معاً . غادرت سانين على وَعْدِ اللقاء مساءً .

فكّر راسيد طوال يومه بعرض الخالتين أن يحتفل بميلاده قرب

سرير أمه . لم يَرُقْهُ العرض ، ومنطقه المستخفُّ بشقاء الموقف .

«كيف خطر لهما هذا؟» ، صارح خياله بلسان قلبه . وبئخما بلسان

قلبه : «خذلتما أمي لاتتبرّع إحداكما بكلية ، وتفكران في احتفال

بيوم ميلادي قرب سريرها؟» .

صامتاً أمضى يومه ، مكتفياً بنظرات استياء يغالبها الشكُّ إلى

خالته ميليد ، وبالرد عليها إيماءً لا يُجاوزه . وقد ظل على الحال ذاته

حين انضمت إليهما سانين مساءً . استفسرتهما عن زيارتهما المشفى . أعدت عشاءً من السمك الجاهز ملتوتاً في كعك مطحون ، وصحفةً من السلطة . «سنبقى معاً هذه الليلة» ، قالت .

صباح الأحد فاجأ راسيد خالتيه بقبوله الإحتفال بيوم ميلاده ، لكن ليس قرب سرير أمه في المشفى كما اقترحتا ، بل في البيت : «تنامان الليلة أيضاً هنا» ، قال .

«أتريد زيارة أمك اليوم؟» ، سألته سانين ، فردَّ راسيد :

- ماذا ستقول أمي لي؟ .

صمتت سانين . بيلون الأمُّ لن تقول شيئاً لابنها في يوم مولده . هي هناك ، على قُرب من مولد كوكبها في زمرة الكواكب الجديدة على مدارات الأبدية . قد تلقي نظرةً من هناك إلى عالم ضيقٍ على جسدها الضيق على فكرة الحياة . قد تغمض عينيها ، وعيني كيانه بلا عودة إلى إحصاء مافاتٍها قبل غيبوبتها . قد تستدين من الموت ذاكرةً بوعد لتسديد غير مؤكَّد تنبش فيها ، بمعول الحنين في الأحياء الموتى إلى أخطاء الحياة كلها ، عن صورة ابنها مؤطرةً كتلك المنتصبة على حامل قرب سريرها في البيت ، حيث مرأتها المُكبَّرُ الصغيرة ، ونظارتها ، والكتاب الذي لم تجاوز قراءة فصله الأول ، عن صيادلة عشاق قتلوا أزواج عشيقاتهم بحيلٍ من السموم لا تُكتشف .

صمتت سانين صمتاً بعثرته ميليدُ بسؤال عن الكحول : «أفي

البيت شراب ، ياراسيد؟ متجر الكحول مغلق يوم الأحد» . زفرت استياءً : «ماالحكمة في حصر الكحول بمتاجر خاصة بها؟» .

«عندنا زجاجة مارتيني» ، ردَّ راسيد .

«مارتيني؟» ، تساءلت ميليد بلا داعٍ . هزت رأسها استحساناً :

«ولم لا؟»، أمسكت بعضد أختها . وشوشتها همساً قصيراً قبل أن تستدير إلى راسيد :

- أنا وسانين سنتسوّق ، من متجر الضاحية ، كعكةً ولوازم طهو ، وهدية . أتأثني معنا؟ .
«لا» ، ردّ راسيد . «فاجاني . أحبّ المفاجآت» .

أصغى راسيد إلى صوت محرّك مركبة سانين مبتعداً . توجه إلى غرفة نوم أمه . سحب درجاً من الخزانة الصغيرة انتصبت فوقها صورته طفلاً . علّب أسطوانية كثيرة تدرجت مخشخشة بما تحوي من حبوب . قرأ وصفاتها واحدةً واحدةً قبل أن يتخيّر إحداها . أربع وعشرون حبة بيضاء ، صغاراً ، سحقها راسيد في منديل دقاً بعقب قدح سميك الزجاج حتى غدت طحيناً دقيقاً . فتح زجاجة المارتيني الخضراء . أفرغ منها مقدار بلعتين في مغسلة المطبخ ، ثم حشا سائلها بالطحين المسحوق . خضّها طويلاً . عاينها فلم يجد أثراً مريباً في الشراب الأخضر . وضع الزجاج في البراد لينصرف إلى آتة الـ « iPad » بحثاً عن نور المعجزات المروضة .

مساءً هيأت الخالتان المراسيم ، بعد عشاء مبكر من اللازانيا ، ورقائق اللحم المدخن ، والجبنه الجافة المبروشة . جاءتا بكعكة الإحتفال عليها تسع عشرة شمعة مضاءة . وضعتها على مائدة مستطيلة في ردهة الدار .

أحضر راسيد زجاجة المارتيني . فتحها بنفسه . ملأ كأسين لخالتيه ، فيما تخيّر لنفسه علبةً صفيحاً من عصير التفاح بنسبة من الكحول مخفضة جداً . لم يترغوا بالكلمات المعهودة عن سعادة الأعمار ومناها ، وتذكير الكون بترفيه الحظوظ ، ونشر العناية . نفخ راسيد على العيون اللهب الصغيرة في رؤوس الشموع فأغمضها

واقفاً . عانقته خالتاه تمكيناً للقلوب أن تتبادل ، عن قرب ،
مصافحات النبض للنبض . جلسوا مسترخين .

«حبذا لو كانت بيلون معنا» ، قالت سانين ملاطفةً لخاطر ابن
أختها ، فرفع راسيد علبة الشراب الصفيح في يده :
- نَحْبُ الآلة .

تفهمت الخالتان تلميحه إلى الآلة التي تُبقي قلبَ بيلون
خافقاً ، ببرهان الحظّ الضوئي المتعرج على لوحها . لم تبادلاه رفع
الكأسين نَحْباً . تجرّعتا بلعتين ثم تنهّدتا . نظرت ميليد إلى السائل
الأخضر في كأسها . تمتت تسأل أختها :

- مانكهة المارتيني هذه؟ أليست غريبة قليلاً؟ .

مطت سانين شفتها السفلى عجزاً عن التحديد :

- لا أشرب المارتيني عادةً . ربما ابتكر الصانعون نكهةً جديدة .

رفعت ميليد الزجاجاة تتقرّى ببصرها السطور القصيرة في
إعلان الصانعين عن أخلاط بضاعتهم . مطّت شفتها السفلى ،
بدورها ، عجزاً عن الفهم . تجرّعت بلعتين متتاليتين إمعاناً في
الإحاطة بالمذاق . نظرت إلى راسيد المحدّق إليها بعينين حذرتين
فابتسمت له :

- لن نخذلك خالتاك . ستشربان مافي الزجاجاة حتى آخر

قطرة .

لم تكمل الخالتان ثلاثة أرباع الزجاجاة شُرباً . انحدرتا إلى
خَدَرٍ جذبهما بسبعين يداً أسفلَ حقائق الوجود المرئية . تقشّرتا
كالفستق عن لُبّين معتمين ، صلبين ، مغلقين على بُعد مغلق .
هزّهما راسيد متأكداً من إحكام الحيلة . غاب برهةً في غرفته
فأحضر كُرته . ثم غاب في المطبخ برهةً فأحضر بَكْرَةً من شريطٍ

لاصق عريض . وضع الكرة واللاصق في حقيبة صغيرة تُحمل على الظهر . أنزل حالته سائين عن الأريكة . جرّها بإمساكها من تحت إبطيها إلى بساط في الممرّ بين الغرف . مدّها عليه . فتح باب الدار . خطا خطوتين خارجاً إلى فنائها المفتوح بلا سياج .

رقائق متناثرة من الثلج هبطت مرثية في سيل الضوء من المصباح الخارجي ، فوق الباب . لم يحسّ راسيد ببرد وهو في قميص قطن قصير الكُمين . ترصد العراء الفارغ إلاّ من أضواء الدور المتباعدة . عاد إلى الداخل . ارتدى سترةً جلدًا . أطفأ المصباح الخارجي استزادة في الحذر . احتمل الحقيبة على ظهره ، ثم جرّ البساط سَحْلاً من خلفه بجسد حالته سائين عليه .

السبع الدقائق مشياً بين دار راسيد وملعب الكرة المختزل أبعاداً ، تمدّت إحدى عشرة دقيقة . أثّر كطريق ارتسم خلف راسيد في الثلج من زحف البساط عليه . دخل الملعب من بوابة السياج المفتوحة متوجّهاً إلى مرمى الكرة . وضع الحقيبة جانباً قرب العارضة الحديد اليسرى للمرمى . جرّ حالته فأسند ظهرها إلى العارضة . أخرج بكرة الشريط اللاصق من الحقيبة . طوّق المرأة بالشريط على استدارة ثبّتها مقيّدة إلى العمود الحديد ، ثم طوّق رأسها ، من فوق الفم تحديداً ، فثبّته أيضاً ، مُلصّقا إلى العارضة . جمع البساط جمعاً فوضيًّا تحت إبطه . رجع إلى الدار .

جرّ راسيد حالته الأخرى ميليد سَحْلاً بالبساط من تحتها إلى الملعب ، المضاء بمصباح وحيد ، شاحب ، في ركن منه قرب مدخله ، يرسل شعاعات خجولة إلى عارضتي المرمى الأسطوانيتين فيلتمع معدنهما . ثبّتها مقيّدة بالشريط اللاصق على استدارة صدرها ، ورأسها ، بالعارضة اليمنى كحالته سائين المقيّدة إلى

العارضة اليسرى . أبعدَ البساطَ جانباً بقدمه . خلع سترته الجلدَ فرماها فوق البساط المتكؤم . أخرج الكرة من الحقيبة ، التي ركلها أبعدَ ما يستطيع فعبرت المرمى مصطدمة بالسياج الشبك . ابتعد مقدار ثلاثة أمتار عن المرمى . وضع الكرة أرضاً . حدّق ، في قميصه القطن القصير الكُمين ، إلى سائين يزنُ البُعدَ ، ويستوثق التقدير . فكَّ الشريط المطاط ، الصغير ، عن شعره السبط ، الطويل ، المعقود ذيلًا فحرّره مُرخيً على كتفيه .

كان الثلج المترقق في نزوله شاحباً ، خفيفاً ، صامتاً ، ودافئاً ، قبل أن تحفر فيه الكرة المقذوفة بركلة من راسيد ثغرة امتدّت من قدم الشاب حتى رأس سائين . رنَّ صدى معدن في اسطوانة العارضة المعدن المجوّفة .

خمس مرّات صدم راسيد بالكرة ، قدّر استطاعة قدمه القوية قذفاً في الرُّكل ، رأسَ خالته سائين ، على الوجه تماماً . أنت المرأة . فتحت عينيها في ثقل ثم أغمضتهما عائدةً إلى نومها الطاحن . انحدر من منخريها دمٌ تفرق ، مع الضربات ، فوق اللاصق من إصابة الكرة فمّها المكّمّ تحديداً .

دحرج راسيد كرّته إلى المدى المواجه عارضة المرمى اليمنى . رازَ البعدَ بعينيهِ بينه وبين خالته ميليد . ركلَ كرّته خمس مرات ، بأقصى ما في قدمه من جراءة الرُّكل وبأسه ، فأرّن العارضة المعدن رنينَ الصدى المعدن . ارتعش رأسُها مغمضة العينين . زفرت من منخريها الهواءَ ملطّخاً بالدم .

قسّم راسيد الحقائق خمساً خمساً على حظوظ خالتيه . جعل الساعي بالحقائق بينه وبينهما كُرّته - ابنة النشيدِ الهواءِ في لهو الإنسان بالمعارك ، وترفيه براعاتها . بلل العرقُ صُدرةَ قميصه

القطن ، وظهره ، في برزخ الترقوتين . بلل الثلج شعره ذائباً من حماوة الخيال البهلوان ماشياً على حبل الغضب في جمجمته .

حتى الفجر لم يخطئ راسيد في تقسيم الفراديس النائمة خمساً خمساً على خالتيه . استنفدت قدمه بأس عصبها ، أخيراً ، فباتت لا تقوى على البلوغ بالكرة ركلاً إلى عارضتي المرمى ، المتسامرتين ، بلسان الصدى الرنين فيهما ، مع الصدى النهائي للحياة في رأسي سانين وميليد . تنقل الشاب المنهك بين خالتيه متفحّصاً ، في غمامة الفجر ، وجهيهما الغارقين في الدم . ارتقى على ظهره أرضاً ، فاتحاً ذراعيه للسماء النخالة .

بعد سبعة أيام من دخول راسيد السجن ، أبلغ بوفاة أمه . خذلتها الآلة التي لا تخطئ ربما ، أو خذلتها روحاً أحتيتها فأبتاً منحها كليةً في دخولهما عليها بحيرة الغيبوبة . لكن كرة راسيد لم تخذله . أحاط نفسه بلاعبين في السجن ملأ ساعات خروجهم من الزنازين إلى الساحات استرواحاً باللهات الصديق . وهو ، يوم دخل الدهليز على راووت صحب كرتة معه . نطنط بها مرتين على الأرض على نحو من النزق المرتجل .

حدق راووت إلى راسيد بعينه الغائرتين ، الشرهتين ، ملياً .

بادره :

- ماذا تتوقع من شخص أن يكتب ، قبل موته ، إن أعطي ورقة وقلماً ؟ .

« لا أريد أن أموت » ، ردّ راسيد .

نقر راووت بأنامله على غلاف الكتاب الضخم . تتمم :

- أنت ذكي ككرتتك .

« كيف تعرف أن كرتي ذكية ، ياسيد راووت ؟ » ، ساءله

راسيد ، فردَّ الشيخ الشاحب البشرة :

- فيها هواء . الهواء ذكي .

عقَّب راسيد على كلمات الشيخ وهو يدور بعينه على المكان يستجلي مقعداً ما :

- الهواء في كل مكان ، ياسيد راووت .

«هواء الكرة هو عقلها» ، قال راووت .

«لماذا أنا هنا؟» ، تساءل راسيد .

خفض راووت بصره صامتاً . نطنط راسيدُ الكرة من جديد مرتين . نظر إلى الرسوم على الجدران :

- هؤلاء القروء خرجت من ملعب كرة قدم بعد هزيمة فريقها .

«هه» ، غمغم راووت : «ماذا تعني لك الهزيمة في مباراة بكرة القدم؟» .

«تعني أن الكرة كانت عاهرة ذلك اليوم» ، ردَّ راسيد .

«ماذا عنك ، أنت ، إن هُزمت؟» ، ساءله راووت ، فرد راسيد :

- أنا لا أُهزم . تُهزم الكرة .

«ألا تمزقها إن هُزمت؟» ، ساءله راووت ، فردَّ راسيد :

- أعضُّها .

هزَّ راووت رأسه متفهِّماً ، فيما استرسل راسيد بحثاً بعينه عن مقعد في الدهليز المهجور إلّا من راووت ، ومنصدته . ساءله :

- أسرقت القروء الكراسي من هذا المكان لتتعارك بها؟ .

«نعم» ، ردَّ راووت .

عاد راسيد إلى السؤال المعلق الجواب :

- لماذا استدعيتني ، ياسيد راووت؟ .

«لتشاهد المباراة» ، ردَّ راووت متطلّعاً إلى القروء في عراكها .

أضاف : «مباراة بلا قواعد» .

«بل لها قواعد ، ياسيد راووت» . عقّب راسيد .

«ماقواعدها؟» ، ساءله راووت ، فردّ راسيد :

- الغضب .

غمغم راووت تعقياً :

- أنت ذكي .

«لا» ، تتم راسيد مستخفاً بالإطراء . «حتى الغبي يعرف

ذلك» .

«لماذا صحبتَ هذه الكرة في الدخول عليّ؟» ، ساءله راووت .

مضيئاً بين أجفانه ، فردّ راسيد :

- ألم تطلبيني ؟ .

«لم أطلب الكرة» ، عقّب راووت .

«أنا في هذه الكرة ، ياسيد راووت» ، قال راسيد بنبر تأكيدٍ في

صوته . نقر بأصابعه على الجلد الرمادي المنتفخ مشدوداً : «الصوت

الذي أكلمك به هو هنا ، في داخل هذه الكرة» .

ذات يوم من أيام رحلة الأنفار الثمانية عشر صعوداً في مراقي

الجل ، هتف سولكي مستاءً :

- أوقفْ كرتك عن العبور بين أقدامنا ، ياراسيد .

«سيلاعب أرواح القتلى» ، قال رابكين . «لاتوقف تدريبك ،

ياراسيد . كلنا نتدرب في هذا المسير على شيء ما» .

«على ماذا تتدرب ، يارابكين؟» ، ساءله سولكي الطويل ،

الممتلئ ، فردّ رابكين بنبرٍ ساخر :

- على الموت .

«علّمني كي أتدرب» ، قال سولكي ، فردّ رابكين :

- بالتفكير في أنَّ البشرية لم توجد قط ، وأنني لا أريد العيش وحيداً مع الآلهة .

التفتت دالومي جانبياً ، في مشيها ، إلى رابكين . كلمته بصوتها الخفيض الهادئ .

- أنت تتدرب على الحقيقة .

عَقَّبَ ماهاهون من جوارها على مقالته . اشار بيد إلى قمم الجبل :

- لقد حرَّرتك الحقيقة ، يارابكين . ها أنت تمشي حرّاً إلى هناك .

«الحقيقة لا تحرِّر ، بل تستعبد» ، قالت دالومي ، فلمست سيتون الطويلة ، المتناسقة ، كتفها من خلفها :

- كلما سمعتك تتكلمين ، يادالومي ، سمعتُ باباً يُغلق ، أو نافذة تُغلق .

مالت دالومي بوجهها صوب كتفها التي لمستها سيتون ، من غير أن تنظر إليها . ابتسمت :

- الوجود كله إمَّا بابٌ يُغلق ، أو نافذة تُغلق .

«ماذا عن فتح بابٍ ، أو نافذة؟» ، ساءلتها سيتون ، فردت دالومي :

- لا يُغلق بابٌ ، أو نافذة ، إنَّ لم يكونا مفتوحين .

«عندك كلمات مُخادعة» ، قالت سيتون .

«كلُّ شيءٍ مُخادعٌ» ، ردت دالومي . التفتت إلى سيتون مضيفةً : «إلاَّ الحقد» . أدارت وجهها صوب ماهاهون . ساءلته غامزةً :

- أخذتَ أحداً ، ياماهاهون؟ .

«ماذا تعنين؟» ، تساءل ماهاهون بنبر كالجواب بدهاءة : «بالطبع خدعتُ أحداً . خدعتُ أكثر من أحد . خدعتُ بلا توقف» .
 «لم أستدرجك إلى اعتراف ، ياماهاون ، بل أردتُ جواباً صغيراً» ، قالت دالومي كالمعتذرة ، فتمتم معلم الرياضيات :
 - هاحصلت عليه .

توقفت دالومي عن المشي متطلعةً من حولها إلى نوافذ السماء بين شجر الجبل . توقف ماهاهون قريبها . ساءلها سؤالاً لاسياق لحضوره :

- لمن تسلّمين إدارة مصالحك ، يادالومي ، إن كنت ثرية كثيرة المصالح ؟ .

«أسلمها لمن تسلّمها له» ، ردّت دالومي .

«أسلمها إلى عدوّ» ، قال ماهاهون .

«أتختار أقصر الطرق إلى انهيارك؟» ، ساءلته دالومي .

«لاأظن» ، ردّ ماهاهون . «سيبذل عدوي جهده ليبذو أفضل

مني في إدارتها» .

تأملته دالومي تستجلي موضع اختلاط المزاح ، في كلماته ، بالقناعة . ابتسم ماهاهون لنظرتهما المتفحّصة . نسيا برهتهما إذ سمعا ضجيج التوأمين ديرو ، ويومار ، منزلقين دحرجةً على الأرض المائلة ، قبل أن توقفهما صخرة عن المضي أبعد . زعقا معاً . تجاذبا جسدهما الواحد كلٌّ من جهة يحاول النهوض . صفع أحدهما الآخر تناوباً . هرع إليهما جينتالو ودايك الشيخ . أعاناهما على النهوض وهما مسترسلان في شجارهما .

أطلق راسيد ، بغتةً ، نباحاً ، كأنما يستزيد الصخب في سكون

الجبل .

«ما به؟»، تتم جورني الشيخ متسائلاً . أضاف : «يبدو يائساً» .
«اليأس ليس مبتدلاً ليليق براسيد» ، قال داروم .
لكزت أرديلا خاصرة داروم لكزة خفيفة بقبضة يدها .
همست : «لا تستفزه» .

صعد راسيد من نباحه ، محرّكاً ذراعه اليسرى يحرض الآخرين أن ينبحوا . لم يُجاره أحد . خُذِل ، فانكبَّ يضرب بالكرة على جبينه ممسكاً بها في راحتيه .

«ما به هذا الشاب؟» ، تتم جورني من جديد .
«هيه» ، صاحت بيتاليا بالشاب راسيد . رفعت صوتها ، المتأكل من أثر الكحول ، بالكلمات :
- لن تبكي عليك أرديلا .

«ماذا؟» ، تساءلت أرديلا غير مستسيفة ذلك التعليق ، فألهت بيتاليا نفسها عن أرديلا بحديث آخر . سألت ياروزا :
- هل الكلاب وفية للإنسان حقاً؟ .
جاءها ردٌّ من خلفها على لسان داروم :
- هي وفية للإنسان لأنها يائسة .
اقترب ماهاهون من ياروزا . مازحها :
- الإنسان والكلب يشتركان روحياً في النباح خوفاً .
«هذا أغرب ما سمعت . الإنسان لا ينبح» ، قالت ياروزا ، فتساءل ماهاهون :

- ألا تسمعين نباح راسيد؟ .
«إنه يتصنّع نباحاً» ، قالت ياروزا .
تسلّلت الدومي إلى المحاورّة . نادى : «ياروزا . إن قلّبت كلمات الإنسان باطنها ظاهراً ، وظاهرها باطناً ، كانت كلماته نباحاً في

نباح». غمزت ماهاهون متواطئةً معه .
اقتربت سيتون من دالومي . ساءلُتها :
- أفتحتِ باباً الآن ، أم أغلقتِ نافذة؟ .
وضعت دالومي يدها على كتف سيتون الطويلة . همست :
- النوافذُ عيونُ البيوت ، والأبوابُ فُروجها .
«سمعتُك» ، قالت أرديلا القريبة منها . أدارت وجهها على
بعض الأنفار القريبين منها :
- أسمعتم دالومي؟ عليكم أن تعترفوا أن المرأة عملٌ فنيٌّ مُبَالِغٌ
فيه .

«الكلماتُ الغزلُ في النساءِ كلماتُ مُبَالِغٍ فيها» ، قالت دالومي
كأنما تصوغُ فكرةً أوحَتْها كلماتُ أرديلا ، التي استرسلت :
- ربما الوجودُ فكرةٌ مُبَالِغٌ فيها ، لذا نذكره بأن الكلماتِ العاديةِ
في وصفه هي اللاتقة ، يادالومي .
«أيقولُ الحمامونُ كلاماً كهذا في قاعاتِ المحاكم؟» ، ساءلُتها
دالومي ، فردت أرديلا :
- نقولُ أشياء كهذه قبل دخول قاعاتِ المحاكم ، ثم نتجاهلها .
«أخبريني أشياء أُخَرَ تقولونها ثم تتجاهلونها» ، قالت دالومي ،
فردت أرديلا سالكةً سيافاً واحداً بالكلمات :
- القتلُ فكرةٌ مُبَالِغٌ فيها . الحبُّ فكرةٌ مبالغ فيها . الجنونُ فكرةٌ
مبالغ فيها . الوقتُ فكرةٌ مبالغ فيها .
تنحج جورني الشيخ في استراقهِ السمعِ عليهما . تتمم بنبرةٍ
متهكِّمة :

- أتتدربان على اعتذارات؟ .
«نعم . نتدرب عليها لنورثها من يشاء أن يرث» ، قالت أرديلا .

أضافت : «كلُّ شيءٍ يورث : الأقدارُ نفسُها تورثُ كالمال والدول» .
«هكذا إذا!!» ، تتم جورني . استجمع سؤالاً خالَهُ سيُحيرُ :
- أتورثُ الجبال ؟ .

«نعم» ، ردت دالومي . «يتوارثها أشباحُ القتلى» .
مساء يومهم ذاك جلس الأنفار الثمانية عشر في عراء متناثر
الشجرات من سفح الجبل ، لاحجارة فيه أو عشبٌ . أوقدوا نارهم
الصغيرة كمُعْتَادها في النسائم مبتردةً من أنفاس أوّل الخريف . تمدّد
بعضهم على جنبه ، وبعضهم استلقى مستطلعاً ممرات النجوم
المتصلة من السماء بقمم آيايانو الغربي . تبادلوا تقديرَ البقية من
رحلتهم إلى المفارق بين القمم . تبادلوا أحاديثَ لم يتفق لهم قبلاً
أن تبادلوها ، وأحاديثَ اتَّفَقَ أن كرّروها ، قبل أن ينهضوا ، أجمعين ،
وقوفاً ، مُدُّ ارتفع عمودُ لهبٍ على البعد ذاته الذي يشهدون ، كلُّ
ليلة ، نارَ السائرين مثلهم في مراقبي الجبل . كانت النار الغريبة
صغيرةً كنارهم عادةً ، لكنها لم تكن كذلك تلك الليلة .
دُهِشَ التوأمان يومار ، وديرو ، من ضخامة اللهب انطقهما
زعيقاً من بُرِّ الخوف :

- إنهم يحرقون الجبل .

مشى ماهاهون خطوات ليتبين ، في الموضع الذي لا يُستجلى
نازلوه ، شيئاً من خبر النار . جاوره جيمنتالو ، والتوأمان ، وبيونا
الطويلة ، الضخمة ، التي تتمت :
- لقد أشعلوا شجرة بتمامها .

«لاأظن» ، قال ماهاهون . أردفَ : «إنها نار كبيرة» .
«كيف لم نَرِ أحداً يكوّم هذا القَدْرَ من الخطب علواً؟» ،
تساءلت بيونا . «انظروا إلى النار . إنها تتفرّع غصوناً» .

لم يعقّب أحد على تخمين بيونا نقوش النار ونَحَتَ شكلها .
عادوا إلى مجلسهم بالتفافات إلى البعيد المتشقق الظلام بالقرع
الصامت من مطرقة الهب .

«هل استَبْتِئْتُمْ شيئاً؟» ، ساءلتهم بيتاليا .

بادل الراجعون سؤالها بصمتهم الذي استغنمه جورني :

- جيراننا يطهون عشاءهم .

«إنها نارٌ تكفي إنصاجَ وليمة لمائة شخص» ، قال داروم ،
فعقبت أرديلا مزاحاً :

- تكفي مائة روح من أرواح القتلى .

صفّق سولكي براحة يده على فخذه يلفتهم إلى سؤال أوحاه
ذكر الطهو :

- ما أفضل ما أكله أحدكم؟ .

«قلبُ عاشق» ، ردت أرديلا من فورها بنبر مُزاح .

«أيُّ مسكينٍ منهما أكلت قلبه؟» ، ساءلتها بيتاليا بإشارة غَمَزٍ
إلى راسيد وداروم الجالسين إلى جنبيها .

عطس داروم . تتمم : «هذا تعقيب على سؤال بيتاليا» . ساءلها :
«مانوع قلبك؟» .

«جعة ممزوجة بفودكا» ، ردت بيتاليا .

«لأرى قلبك إلا شظايا ، يا بيتاليا» ، قال داروم . أردف : «قطعة
في فمك . قطعة في يدك . قطعة في جيبك» . استدرك : «قطعة
ضائعة في الجيب الضائع للبنطال» .

ارتفع صوت جورني مقاطعاً المحاورّة :

- ألدك حكاية ما ، ياراسيد؟ .

«نعم . نعم» ، ردّ راسيد متهيئاً . «عندي حكاية عن ماشكّان ،

سيد ملاعب كرة القدم» .

«أهذا اسمُ لاعب كرة قدم؟» ، تساءل داروم مستقبلاً .

«إنه أكثر شهرة من مدينة سارسيدون ، ياداروم . واسمه أجمل

من اسمك» ، ردَّ راسيد .

لكزته أرديلاً برفقها . تمتت :

- أكمل حكايتك ، ياراسيد .

«ماشكان متَّهم ، حتى اليوم ، بإخفاء أصابع صديقاته

المنتحرات» ، قال راسيد مستطرداً في حكايته .

«مَن المتَّهم؟» ، تساءلت بيتاليا .

«ماشكان» ، ردَّ راسيد .

«كم صديقة له؟ لماذا انتحرن؟» ، تساءلت بيتاليا فردَّ راسيد :

- هنَّ قطعن أصابعهن وأخفينها ، قبل أن ينتحرن .

«ما هذه الحكاية المزاح؟ يقطن أصابعهن ، ويخفينها ثم

ينتحرن؟» ، تساءلت بيتاليا ساخرة . أضافت : «ربما قطعها هو بعد

انتحارهن» .

«لماذا يقطع أصابعهن ويخفيها؟» ، تساءل راسيد مستنكراً

منطق بيتاليا ، التي ردَّت :

- ليحيط نفسه بالغموض إستزادةً للشهرة . أهو شهيرٌ هذا

الذي اسمه . .

«ماشكان» ، ردَّ راسيد مذكراً .

«هذه أطفه حكاية سمعتها في هذه الرحلة» ، غتم داروم .

استسخف جورني الشيخ ضمناً ، بدوره ، حكاية راسيد .

ساءله :

- أعندك غيرها؟ .

«نعم» ، تتم راسيد . نهض حاملاً كرتة . خطأ بضع خطوات
حتى صار على قرب من الحلقة الصغيرة للحجارة أوقدوا فيها
نارهم . وضع الكرة فوق الغصون المشتعلة .
صدرت غمغماتُ استنكار ، وأسف أيضاً ، من فِعلَةِ راسيد ،
الذي ظلّ واقفاً يحدّق إلى النار حتى انفجرت الكرة .
رمادٌ وشررٌ تناثرا ملتهمينِ ماحولهما من ظلامٍ لم يلبث أن رمّم
ما التهماه .



الفصل السادس عشر: الإعدام

استيقظ الثمانية عشرَ الأنفارُ فجراً في الزفير الخافت للريح تحشد الغيومَ ، دفعاً من الشرق ، على قمم جبل آيايانو الغربي الثماني . غيومٌ متقلّبةُ الولاء ، تتصل وتنفصل ، مطيعةٌ حيناً ومعاودةٌ حيناً . لكنها - بتصميم عزم - تستكمل ، كحرس التشريف ، مراسيم وداع الصيف ، وتتسلم من حفظة خزائنه مفاتيح المشيئة .

هُمُ الأنفار ، أجمعون ، أزمعوا ، في آخر ليلتهم المنصرمة ، أن يستقصوا موضع النار الكبيرة أضمرت على بُعد منهم ، مُدّ ناموا على فضول لا يردُّ . التوأمين كانا أولَ المتأهبين ببساطيهما مطويين ، ووسادتيهما تحت الإبطين . تبادلا استنكارهما المعتاد كلَّ صباح من وجودهما هكذا متلاصقين ، مستنزلين اللعنة أحدهما على الآخر ، موصلةً بنعوت الشؤم ، من غير أن يتصافعا . نظرا عالياً إلى الغيوم تتزيّنُ للسماء بأقنعة من رماد اللون ، وسوادٍ شكوكه . نفخا عليها من فميهما .

هَاهُاتُ أرديلا من فعلهما المضحك . تتمت :

- أفزعُتماها .

«هل ستمطر؟» ، تساءلت ياروزا ، فردت روثا من شفتيها

الممتلئتين :

- ستمطر كلاباً إنْ أمطرت .

لم تأبه ياروزا للفكاهة الباردة كطبع الفجر . طوت كالأخرين
بساطيها .

اتجه الأنفار الثمانية عشر شمالَ شرق على السفح ، بتخمين
بصريٍّ للموضع الذي انبثقت منه نارُ البارحة الكبيرة شجرةً لهباً
بفاكهة لهب . جورني الشيخ ، وجينتالو ، سبقا الآخرين مشياً
سريعاً في العراء الذي ينتهي امتداده الشاسع شمالاً بسدٍّ من شجر
التنوب . زوج من طيور الخَبَل مدّاً عنقيهما من أفحوصة في الأرض
واراها ورقٌ إبريٌّ تسللت به الريحُ من نواحي شجر الصنوبر ، المتفرّق
في البعيد غرباً .

«مؤهّهُ هذه الطيور كالدرّز في أكتاف السترات» ، قال جورني
مُدّاً أبصر رأسي الطائرَين المرتفعي الريش فوق عيونهما كأذان .
«للطبيعة خيَّاطوها ، في الأرجح» ، قال جينتالو بتلميح إلى
مهنة جورني .

«وللطبيعة مدرّبو رقص» ، عقّب جورني على تلميح جينتالو ،
الذي ردّ :

- الريح ، ياسيد جورني . مدرّبة المدرّبين على الرقص هي
الريح .

رفع جورني وجهه عالياً . تساءل :

- ماذا عن الغيوم ؟ .

«إنها مبتدئة ، تتدرب على الرقص» ، ردّ جينتالو .

توقف جورني لاهثاً قليلاً بعد مشيه السريع :

- من المدرّب الأكثر براعةً بين المدرّبين ؟ .

«الظلال» ، ردّ جينتالو .

ابتسم جورني ذو الشعر الرمادي له فَرَقٌ في الجهة اليمنى .
تتم :

- لو معي مقصٌ لاقتطعت لك من الظلال مايكفي بزةً لم
يصنع خياطٌ مثلها .

تطلع جينتالو من حوله إلى البعيد ، فالأبعد . استدار يستطلع
سرعة الآخرين اقتربوا منهما . تتم :

- لا ظلال اليوم ، ياسيد جورني .

التحق الأنفار جميعاً بالذين سبقاهم ، جورني وجينتالو .
«ألحظتما شيئاً؟» ، ساءلهما رابكين ، فردَّ جورني مازحاً :
- نعم . رَصَدْنَا طائرَيْنِ .

عاد الجميع إلى تخمين موضع النار الكبيرة قياساً بأبصارهم :
«هناك . بل أبعد قليلاً . لا . ربما» . كانت الكلمات الخافتة تتراجع
وتتقدم في التقدير ، قبل أن يسترسلوا في مشيهم إلى الجهة
الشمال الشرق ، في العراء الرُّحْب كريماً بحرية البُعد فيه بلا تضيقٍ
من شجر أو حجر .

لبث الجميع وقتاً على حالهم في المسير ، حتى بلغوا أولَ حدٍّ
مرتفع قليلاً من الأرض يلجم امتدادَ العراء ، ويواري عن الأبصار
لفيفَ شجر التنوب السَّدَّ حتى أنصاف جذوعه . صعدوا المرتفع
ككتف في السفح بطاءً ، وهم يجزمون حيناً أنَّ النار علت من تلك
الناحية ، ويتشككون حيناً في صواب التقدير . غير أنهم فوجئوا ، إذ
بلغوا علاء المرتفع ، بالأرض خلفه نابتهً بأثار ريم - أعمدة متقوّضة ،
وساحة دائرية واسعة الأرجاء ، وتمثالين مهشَّمي الأكتاف لرجلين
متواجهين ، جاثين كلٌّ على ركبته اليمنى ، فيما اليسرى مرتفعة
بَعْدُ ، وعليهما عباءتان بُرنسان تكتنفان رأسيهما بقلنسوتين ،

وتنفتحان من أمام عن الركبتين اليسريين ، العاريتين ، لاغير .
تبادلوا نظرات متسائلة . بحثوا بعيونهم عن مسلك أقل
انحداراً يلجؤونه نزولاً إلى تلك الآثار . اضطروا أن يدوروا نصف دورة
من حول المرتفع لينحدروا ، رويداً رويداً ، أسفل ، فبلغوا الساحة
الدائرية بعد وقت ، إلا التوأمين . ظلاً بطيئين ، حذرين ، فابتعدا
كثيراً في تفحصهما ممراً أسهل لنزولهما .

لم يكن المرتفع ، الذي عشروا من علائه على الآثار ، إلا بقايا
سور مندثر ، في الأرجح ، حين صاروا قبالة من موضعهم في
الساحة الدائرية تقوّضت فوق أرضها أعمدة بيتجان ضخمة . دار
ماهاون حول التمثالين تسلّقتهما عروق نبات هم أن يحتويهما
كالصدفة ثم انكفأ متيبساً . «هنا دُوتْ خططُ حرب الثمائن
عام» ، قال . لمس كتف أحد التمثالين المكسورة . انحدر ببصره إلى
موضع جثوة . أبعدَ غباراً بحذائه عن الأرض مبتسماً :
- هاهي ألواح الخطط .

كانت الحجارة المسطحة ، التي أبعد ماهاون الغبار عن بعض
أجزائها بحذائه ، متأكلةً ببقايا كتابة ، أو هكذا خيّل للأنفار داروا
من حول التمثالين ، وتقرّوا تيجان الأعمدة بأيديهم .
«أكتابة هذه ، أم نقرُ طيور؟» ، تساءل ماهاون محدقاً إلى بشور
متوازية ، غائرة في سطوح الأحجار . جثا أرضاً . حدّسها لمساً بأصابعه .
«ستوقظهما» ، قالت بيتاليا ساخرة ، بإشارة من رأسها إلى
التمثالين ، فيما ربت راسيد على فنحذ أحدهما الحجرية سألته :
- أين أسلحتك؟ .

«تحت عباءته» ، ردّ جينتالو . «ارفع عباءته ، ياراسيد» .
شدّ راسيد طرف عباءة أحد التمثالين المفتوحة فوق ركبته ،

متظاهراً بنزعها : «أرني سلاحك» ، قال بنبر أمر .
أقربت ميلادين من التمثالين بدورها . تأملتهما : «من هشم
أكتاف هذين التمثالين؟» ، تساءلت ، فردّ جورني مازحاً :
- هشّمها أحفادُ الذين دفع أسلافُهم ضرائبَ لصاحبَي
التمثالين .

«بل هشّمها الجنودُ بعد الهزيمة» ، قالت آرديلا . التفتت إلى
ماهاهون يتقرّى النقر في الحجر بعدُ : «أم تظنّ الأمر غير ذلك ،
ياماهاهون؟» .

نهض ماهاهون واقفاً . التفت بدوره إلى دالومي . سألها :
- ماتقديرُ طبية النَّفس؟ .

«تقدير ماذا؟» ، تساءلت دالومي وقد فاتها شيء من سياق
الحديث بين الإثنين ، فأوضح ماهاهون :
- من هشم أكتاف التمثالين؟ .

«اسألها» ، ردت دالومي .
«أليس من زائري عيادتكَ؟» ، سألها ماهاهون متصنّعاً نبرةً
جادةً ، فردت دالومي بنبرة جادة :

- التماثيل التي زارت عيادتي كانت أقلّ قلقاً من هذين .
تأمل ماهاهون التمثالين المتقابلين ، بوجهيهما المحتجبين قليلاً
في قلنسوتي بُرنسيهما . تساءل :
- أهما قلقان؟ .

«إرخاء القلنسوتين من أمام ، فوق معظم وجهيهما ، هو القلقُ
بعينه . هما يخفيان ، أحدهما عن الآخر ، شيئاً ما» ، ردت دالومي .
تأملت عيني ماهاهون : «هما القائدان المتعاديان في حرب الثمانمائة
عام» .

«قد يكونان من رُسل القوَّاد»، قال ماهاهون . «لكنهما ليسا قلقين . في حرب الثمانمائة عام كل شيء كان مكشوفاً . القوَّاد الأعداء اجتمعوا هنا ، معاً ، بخرائط مفصَّلة عن مواقعهم ، وتشكيلات جنودهم ، ومواضع متاريسهم ، وأعدادهم ، وتوزيع فرَقهم ، وأنواع أسلحتهم . حرب واضحة التفصيل ، مُعلَّنة الحِيل . كل قائد أطلع غريمه على عدَّته وعديده ، ونظام طعام معسكراته ، ومواعيد نومه وصحوه ، ومقدار مؤنته ، وأحلام جنوده» ، قال ماهاهون مستغرقاً في سرده تحت بصر دالومي المتأمل سَحَنَتَه مبتسمةً . استطرَد : «كل صباح كانت الرسل تحمل من معسكر عدوِّ إلى معسكر عدوِّ رسائل شرح واف عن وقائع هجوم يومهم ، استعانةً بفرسان أو برجَّالة ، أو بالصنَّفين معاً» . رفع عينيه محدقاً ، من جديد ، إلى وجهي التمثالين . خَمَّن في ثقة :

- هما رسولان في برهة من تبادل الخطط .

«أسرَّ إليك دليلاً ميراَس بهذه التفاصيل عن حرب الثمانمائة عام؟» ، ساءلته دالومي . أضافت متصنَّعة دَهْشاً :

- أأنت ماهاهون؟ .

«ماذا؟» ، تساءل ماهاهون متصنَّعاً ، بدوره ، استغراباً .

«أكنتَ في حرب الثمانمائة عام؟» ، ساءلته دالومي . «أم الأمرُ تخاطُرُ بينك وبين التمثالين؟» ، أضافت ، عاقدة ذراعيها تحت صدرها .

«كلنا كنَّا في حرب الثمانمائة عام ، بأجور نتقاضاها خيوطاً وإبراً» ، ردَّ ماهاهون مجيلاً بصره على الآثار الرِّثْم .

«هذا من وحي الرياضيات» ، عَقَّبت دالومي . تحرَّكت :

«سأستكشف المكان الذي حاربتَ فيه» . أضافت من غير أن تنظر إليه : «بأيِّ سلاح حاربتَ؟» .

مشى ماهاهون خلفها . وضع يدهُ على كتفها فتوقفت مستديرةً إليه . جذبها فعانقها . قَبْلَ شفتيها قبل أن يطلقها مندهشةً . صَفَر داروم للمشهد فاجأ الأنفَار جميعاً ، أو مَنْ لَحَظُوا القِبلَةَ الْمُخْتَطَفَةَ .

«منذ متى تتهيئان لهذه القِبلَة؟» ، هتفت بيونا ذات الوجه المتطاوِل ، العالِي الوجنتين .

«منذ حرب الثمانمئة عام» ، ردَّ ماهاهون مرتبكاً قليلاً ، فيما ظلت دالومي على حالها صامتةً ، مندهشة . حدَّق إلى عينيها : «لاتشيَّ بي إلى أحد . مافعلتُ كان من وحي الرياضيات» ، قال مدارياً ارتباكَه بالمزاح يُمازجه اعتذارُ خافت .

صرفت دالومي بصرها عنه إلى الأنفَار ظلَّ بعضهم محدِّقاً إليهما مبتسمين . هزَّت رأسها اقتصاداً في شرح صامت لن ينطق به لسانها . أكملت مشيها بين الأعمدة الرَّم .

تفرَّق الأنفَار يستعرضون الساحة الدائرية الشاسعة ، كلُّ بضعة منهم في اتجاه ، ويستوثقون تخمينهم عن نار الليلة الماضية . مشى ماهاهون وحيداً . القى نظرات مختلصةً ، من ورائه ، إلى دالومي المبتعدة . لم يخطر بباله أن يقبِّلها قَبْلَ تلك البرهة . لا يعرف دافعاً في أعماقه إلى مافعل ، ولا يظن أنَّ به مَيْلاً إلى فعل ذلك من جديد . حدث الأمرُ منفلتاً من سياق تبريره ، كالصغير القوي أطلقه جينتالو ، قبل أن يلوح للأنفَار المتفرِّقين بذراعه ، من موضع بدا جداراً واطئاً ، منهاراً ، يخفيه حتى وسطه .

تقاربَ الأنفَار المتفرِّقون في توجههم صوب جينتالو . داروا من حول الجدار المنهدم لتستقبلهم بركةٌ مستطيلة ، مديدة ، لاماء فيها ، في وسطها نافورةٌ مكسورة القُلَّة . كان جينتالو جالساً على حِفافها ،

باديَ الدَّهَشِ فِي عَيْنِيهِ الْمَتَسَمِّرَتَيْنِ عَلَى شَيْءٍ مَّا فِي جَوْفِ الْبَرَكَةِ .
تَتَّبَعُوا بَصَرَهُ فَضُولاً فَعَادَتْ أَبْصَارُهُمْ مِنْدَهْشَةً حِينَ انْجَلَى لَعْيُونُهُمْ
مَا انْجَلَى لَعْيَنِي صَاحِبِهِمْ : كَانَتْ ضِفَادَعُ ذَهَبِيَّةٍ ، نَظِيفَةٌ ، مُؤْتَلَقَةٌ
الْمَعْدَن ، مَوْضُوعَةٌ فِي أُنَاقَةٍ عَلَى جَوَانِبِ حِجَارَةٍ فِي الْبَرَكَةِ ، وَفَوْقَ
حِجَارَةٍ فِيهَا ، كَأَنَّمَا خَرَجَتْ ، قَبْلَ بَرَهَةٍ ، مِنْ مَاءٍ ذَهَبٍ . فَفَزَ رَاسِيدُ
إِلَى الْجَوْفِ . هُمْ بِلَمْسِ ضِفْدَعٍ فَتَهَاها جِينْتَالُو :
- سَتَحْرِقُ يَدُكَ .

أَبْعَدَ رَاسِيدُ يَدَهُ مَجْغَلاً مِنْ تَحْذِيرِ جِينْتَالُو . حَدَّقَ إِلَيْهِ
مُتَسَائِلًا :

- أَهْوِ سَاخِنَ ؟

«مَلْتَهَبٌ» ، رَدَّ جِينْتَالُو . حَرَّضَهُ يَزِيدُ مِنْ حَذَرِهِ : «جَرَّبُ . الْمُسُ
ضِفْدَعَةً» .

قَرَّبَ رَاسِيدُ يَدَهُ ، ثَانِيَةً ، مِنَ الضِفْدَعِ الذَّهَبِيِّ الْمَعْدَن ، الْمُتَقَنَّ
صِنَاعَةً ، يَتَحَرَّى الْحَرَارَةَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْمَسَهُ . رَفَعَ وَجْهَهُ صَوْبَ
جِينْتَالُو :

- لَا جَرَارَةَ فِيهِ .

«التَّقْطُ الضِفْدَعُ» ، هَتَفَتْ بِيْتَالِيَا بِالشَّابِّ ، فَأَطْبَقَ رَاسِيدُ رَاحَةَ
يَدِهِ عَلَى الْجِسْمِ الْمَعْدَن . ابْتَسَمَ لِبَرُودَتِهِ الْعَادِيَةِ : «الْلَعْنَةُ» ، تَمْتَمُ .
«أَخَفَّتَنِي يَا جِينْتَالُو» .

«وَالْآنَ مَاذَا؟» ، سَاءَلَهُ جِينْتَالُو كَالْعَارِفِ بِخُدْعَةٍ مَّا ، فَأَزْمَعَ
رَاسِيدُ أَنْ يَرْفَعَ الضِفْدَعَ لِيَجِيبَ جِينْتَالُو عَلَى سُؤَالِهِ بِالْقَوْلِ : «الْآنَ
هَذَا» . جَذَبَ الضِفْدَعَ فَتَسَمَّرَ مُذْ لَمْ يَسْتَطِعْ نَزْعَ الْجِسْمِ الذَّهَبِيِّ
الصَّغِيرِ عَنِ الصَّخْرَةِ .

صَعَدَ مَا هَاهُونَ حِفَافَ الْبَرَكَةِ نَازِلًا إِلَى جَوْفِهَا . خَمَّنَ عَلَى نَحْوِ

موفور المنطق وهو يلمس صفدعاً لا يُنتزعُ من مجثمه :

- قد تكون الحجارة ذهباً أيضاً ، والصفادع نحتٌ فيها .

نزل الأنفار ، أجمعون ، إلى داخل البركة الجافة يتقرؤون الصفادع بأيديهم ، ويمسحون الحجرَ بأيديهم علَّهم أن يتبينوا معدنه ، فآلفوه حجراً لا غير .

حيرهم التصاقُ الصفادع الذهبية بالحجر لا يقوون على نزعها ، بلا تثبيت من مسامير تُرى ، أو لواقط . التوأمان ديرو ، ويومار ، تبادلا التسويخ : « ارفع يدك . لا . أنت ارفع يدك . لا تدفعني . سنتعثر » . تنفساً بصوت عالٍ من ثقل الحيرة ربما . عَرَضَ ديرو شرحاً :

- قد تكون بطون الصفادع ناتئة مسامير غائصة في الحجر .

«ربما» ، عَقَّبَت ميلادين وهي تجاهد أن ترحز صفدعاً عن مجثمه بلا جدوى . استسلمت وهي تتأولُ الحال :

- هذه حجارة مغناطيس .

«لماذا لا غبار على جسوم هذه الصفادع؟ أهنالك من ينظفها؟» ،

تساءلت آرديلا .

غمغم الآخرون مستلهمين سؤالها ذاته بلا نطق . أيَدوها هزاً برؤوسهم ، وتبادلاً للنظرات . دار بعضهم بعينه على المكان يستطلع ما قد خفي عليهم ربما .

خرج داروم من البركة الجافة . مشى في فضول صوب أنقاض متلاصقة علاها سوادٌ خفيف ، على بعد خطوات من تاجي عمودين تدحرجا ، في الأرجح ، من الهيكلين المنهارين قريباً من البركة . صعد الأنقاض في حذر . « تعالوا » ، هتف بغتة ، فتسلق الأنفار الأحفة الواطئة للبركة يغالبهم فضولٌ كطعم على اللسان .

«ماذا هناك ، ياداروم؟» ، ساءله يومار ، بصوته الزعيق ، متعشراً
هو وتوأمه في صعود حفاف البركة .
«رماد» ، هتف داروم .

كومة من الرماد واسعة الدائرة انكشفت للأبصار حين وصل
الأنفار إلى حيث يقف داروم . انحنى دايك الحلاق . مسّ الرماد
براحة يده مبسوطاً : «أنه دافئٌ بعدُ» ، قال . أضاف : «هذا ليس
رماد حطب أو غصون» . نفص يديه .

«يبدو كقماش محترق» ، عقّب جورني وهو يبعثر بمقدّم حذائه
بعضاً من حفاف دائرة الرماد .

أدار جميعهم الأبصار في أرجاء المكان ، مترقبين ما لا يعرفون .
أقحم راسيد مزاحاً فظاً في غمامة التساؤل المحيطة بالأنفار :
- أنفك قويٌّ ، ياداروم .

«ماذا؟» ، تساءل داروم ، ملتفتاً من موضعه فوق الأنقاض إلى
راسيد . كرّر : «ماذا؟» .

«أدلك أنفك على الرماد ، أم روحٌ من قتلت؟» ، ساءله راسيد .
متلاحقاً بدقائقه المرسومة نقشاً على ذاكرة داروم استعرض
داروم ذلك اليوم ، الذي وجد شاحنة نقل أثاث تسدّ على مركبة
البريد الصغيرة الدرب القصير ، الضيق ، وسط المنازل القرميدية
السطوح على جهتيه . من مبنى البريد ، في إحدى ضواحي مدينة
سارسيدون ، ينقل الساعي إلى الصناديق المنصوبة أمام مداخل
الحدائق الأمامية للمنازل ما ينتظره سكانها ، وما لا ينتظرون ، من
مغلّقات لا سجد في كثيرها ، على الأرجح ، إذ هي فواتيرٌ مستحقة
الدفع ، أو صحف تتزاحم على حظوظ الورق فيها النكبات مرفهة
بالصور الأكثر استحواذاً .

دربٌ ضيقٌ هو الذي يعبر من أمام صفوف المنازل . دربٌ لا يتسع لمركبتين . عربة البريد ذات العجل الأربع الصغار ، الضيقة الهيكل يشغلها مقعدُ السائق ، وجوفٌ لأحمال البريد ، لا تستطيع العبور ، بالرغم من ضآلتها ، إن زاحمتها مركبةٌ أخرى . والضرورات تقتضي ، عادةً ، أن تتراجع كلُّ مركبة عن الدرب لمركبة البريد ، في الضواحي ذوات المنازل شبه الأكواخ الجبلية . إلا أن ذلك اليوم ، الذي تنزل متلاحقاً بدقائقه على ذاكرة داروم واقفاً فوق الأنقاض ، على سفح الجبل ، لم يشهد المقتضى الواجب للضرورات : أي أن تتراجع شاحنة نقل الأثاث ، وتعتبر مركبة البريد أولاً .

كان سائق الشاحنة قد غادرها إلى داخل أحد المنازل ، صباح ذلك اليوم ، فأطلق داروم نفيراً المركبة عالياً ، دقيقتين متواصلتين . ظهر سائق الشاحنة متمعضاً . أشار إلى داروم أن يعود أدراجه من الدرب ، ويلتف من وراء المنازل ليعود فيكمل توزيع مالهديه ، على بقيتها ، من نهاية الدرب .

نزل داروم من مركبته الصغيرة ، الصفراء اللون ، ذات النقش المُحكَم للأبدية دائرةً بلون أزرق هي علامة البريد . جادل سائق الشاحنة يحثه على إفراغ الأثاث بعد عبور مركبة البريد . لا وقت لساعي البريد أن يهدره ، لكنَّ عناد سائق الشاحنة أهدر من وقت داروم ، ووقت مركبته الصفراء المختزلة حجماً ، مايملاً جيوب عشرين دقيقة . كادت المجادلة أن تصير شجاراً . لم يتراجع سائق الشاحنة . اضطر داروم إلى الرجوع إلى مدخل الدرب نكوصاً بمركبته ، فالانعطاف من وراء المنازل ليكمل مهمة المؤتمن على ماينتظره السكان من بريدهم ، وما لا ينتظرون .

حدث الأمر ذاته في اليوم الثاني : سدَّت شاحنةُ الأثاث على

مركبة البريد الدرب الضيق . أطلق داروم العنان لبوق مركبته متصلاً عويلاً ، حتى خرج سائق الشاحنة من أحد المنازل في رفقة قاطنه ، الذي اعتذر إلى ساعي البريد ، متعللاً بالوقت : «لن يجد سائق الشاحنة من يتسلم منه الأثاث إذا لم أكن هنا ، في هذه الساعة تحديداً ، عليّ أن أغادر بعد قليل» ، قال ، ثم تبرّع باقتراح : «المنازل الباقيات ، من مسكني حتى مَخْرَج الدرب ، قليلة . أعطني بريدهم . سأوصله بنفسي» .

«قدّم طلباً لوظيفة إلى دائرة البريد ، أيها السيد . سيدربونك على مهنة ساعي البريد» ، قال داروم متهكماً ، فأبدى صاحب المنزل عَجْزَه عن فعل شيء :

- اليوم ، وغداً ، لاغير . رجوعك بالمركبة للتوزيع من الجهة الأخرى لن يكلفك عشرين دقيقة . في أيام الثلج يتأخر البريد ساعات أحياناً .

«فلنترك عمل الثلج للثلج ، ياسيد . لا ثلج اليوم» ، عَقَب داروم . أضاف : «أستطيع تقديم شكوى ضد هذه الشاحنة . البريد أولاً» .

«انتظر ربع ساعة ، إذاً . أفطرت ، أيها الشاب؟ سأقدم لك إفطاراً . تعال» ، قال صاحب المنزل فيما يشبه السخرية أيضاً .

صعد داروم مركبة البريد . دمدم حانقاً : «فلتأخر الشاحنة نصف ساعة غداً» . صَفَق باب المركبة في قوة ، ثم تراجع بها إلى مدخل الدرب ، ليكمل العبور إلى صناديق بريد ساكني المنازل في الجهة الأخرى من وقوف الشاحنة .

في اليوم الثالث ، حين بلغت مركبة البريد مدخل الدرب تماماً ، لمح داروم الشاحنة ، الكثيرة السطور كتابةً على بياضها إعلاناً عن خدمات شركة الأثاث ، قادمة من مَخْرَج الدرب . عزم من فوره

أن يخوض نزلاً بسلام السرعة ، فإن بلغ المنزل المقصود بالأثاث ، وجاوزه قليلاً ، فلن يجد سائق الشاحنة بدءاً من القهقرة بها نكوصاً .

توافق ذلك الخاطر مع ما يماثله من خاطر سائق الشاحنة أيضاً ، إذ زاد من سرعتها ليلغ المنزل المقصود قبل داروم ، فيضطر ساعي البريد إلى التقهقر ببريده إلى دورة من خلف المنازل لإكمال توزيعه .

كان واضحاً أن الغلبة هي من حظ الحرّك - القلب الحديد للشاحنة علا زئيرها . انتهبت الدرب الضيق كما لو في طريق مفتوحة تتكفل قواعدها السرعة الكبيرة . مركبة داروم بذلت جهداً يفوق ما فعلته قط في سنين خدمتها بقلب حديد ، ذي نبض مدرّوس لا يجاوزه . بلغت الشاحنة المنزل المقصود . توقفت من فورها بأمر المكّح الذي لا يُرد . لكن داروم لم يوقف مركبته الصغيرة : منحها القدر الأقصى من لوعة الوقود المحترق .

يتذكر داروم الدقائق المتلاحقة من نقوش ذلك اليوم على لوح خياله . يتذكر وجه سائق الشاحنة وهو ينزل منها مبهوراً مذ لم يوقف داروم مركبته . يتذكر يدي سائق الشاحنة تلوحان له ، في يأس ، أن يتوقف .

انسحقت عربة البريد في ارتطامها بالشاحنة ، وانفلقت جمجمة داروم عن صور بياض تتمرّع في الدم .

«لم أقتل أحداً ، يا ابن الثقوب» ، ردّ داروم للمرة التي لم يُخصّ رقمة على سؤال راسيد : أدلك أنفك على الرماد ، أم روح من قتلت ؟ . كرر كلماته ملقياً بها إلى الأنفار جميعاً بتأكيد غاضب : - لم أقتل أحداً . قتلت مركبة البريد .

يوم دخول داروم إلى دهليز راووت ، كانت نبرة الغضب هي ذاتها في صوته .

خاطبه راووت كأنما بوغت بحضور داروم :
- أنت لم تقتل أحداً .

«بالتأكيد لم أقتل أحداً» ، ردّ داروم .

«ماذا تفعل هنا؟ من جاء بك إليّ؟» ، ساءله راووت باستغرابٍ وسّع أجفانَ عينيه الغائرتين ، المتفرّستين .
«رجل طويل قاذني إليك» ، ردّ داروم .

«ثمّت امرأة هي الوحيدة الموكلة بإدخال من أطلبهم إليّ» ، قال راووت موضحاً . استطرّد : «لم تكن في السجن» .

«كيف خمّنت؟» ، تساءل داروم مستخفّاً . عادت نبرة الغضب إلى صوته : «ماذا أفعل في سجن؟ لم أقتل أحداً . قتلت مركبة البريد» .

تفرّس فيه راووت ملياً ، فأشاح داروم بوجهه إلى رسوم القروود . ارتجّل مزاحاً :

- تأخّر البريد في الوصول بالرسالة .

«بالرسالة إلى مَنْ؟» ، ساءله راووت ، فردّ داروم :

- إلى هذه القروود .

ابتسم راووت مستظرفاً . ساءله :

- ماذا في الرسالة؟ .

«أنّ الحرب انتهت» ، ردّ داروم .

نقر راووت بأنامله الطويلة على غلاف الكتاب الضخم . ساءله :

- ما مهنتك؟ .

«ساعي بريد»، ردّ داروم .
التفت راووت بعينيه إلى الرسوم على الجدار اليمين من
دهليزه :

- هل الرسالة معك ، ياساعي البريد؟
«إنها في مركبتي المهشمة» ، ردّ داروم .
«ما اسمك؟» ، ساءله راووت ، فردّ ساعي البريد :
- داروم .

نهض راووت واقفاً . عقد يديه خلف ظهر قميصه الأسود
الفضفاض . تساءل :

- ماذا أفعل بك ، ياسيد داروم؟
ردّ داروم بتساؤل على تساؤله :
- ماذا تعني؟ .

«حدث خطأ ، ياسيد داروم» ، ردّ راووت . «كان على الموكلين
بأمرك أن يرسلوك إلى دائرة أخرى من دوائر السلوك البشري» .
«ما هذا؟» ، تتم داروم . «موكلون بي؟ دوائر السلوك البشري؟
من أنت أيها السيد؟» .

«أنا راووت» ، ردّ الشيخ المتقوّس قليلاً .

«أعني : من أنت؟» ، ساءله داروم بصوته البحة الخفيفة .
مشى راووت خطوات هادئة قليلة ، معقود اليدين خلف ظهره ،
حتى قارب الجدار على يمينه . استعرض الرسوم بعينيه صامتاً قبل
أن يستدير بوجهه إلى داروم . اقترب منه كأنما سيخاطبه ، ثم
تراجع . عاد إلى المنضدة . وضع راحة يده اليسرى على غلاف
الكتاب : «أهل الكتابة - الشعراء ، ورواة الأقاصيص ، سيقراؤن ،
بعد الموت ، باللغات كلها ، ويكتبون باللغات كلها ، ويتحدثون

باللغات كلها . سيكتبون ، معاً ، قصيدة واحدة لاتنتهي يتبادلون
سطورها بالرُّسل السُّعاة راكضين بينهم ، من مكان إلى مكان .
سيكتبون حكايةً لاتنتهي ، يتبادلون فقراتها في حقائب الرُّسل
السُّعاة راكضين بينهم . سيعدُّلون مايكتبون ، ويضيفون ، ويحذفون ،
ويستطردون ، ويحتزلون ، ويَعْضون على الورق حَنْقاً أحياناً بما لا
يعجبهم ، أو إفراطاً من إعجابهم بما قرأوا . الحياة الأخرى كتابة بلا
نهاية» ، قال راووت . نقر بأنامله على الكتاب الضخم . تتم :
«اللانهاية الْمُعْتَمَدَةُ بدايةً هي ، أيضاً ، دائرة من دوائر السلوك
البشري» .

«لا يهمني هذا ، ياسيد راووت . لا يهمني إن أكلوا ورقهم ، أو
أحرق بعضهم بعضاً به . لا يهمني ماسيفعل الناس برسائلهم بعد
الموت . أعلمني لِمَ أنا هنا؟» ، ساءله داروم .
«لا أعرف» ، ردَّ راووت . «لكنني سأتدبّر لك رحلةً إلى مكانٍ
خطأ» .

«لماذا ليس إلى مكان صواب ، ياسيد راووت؟» ، ساءله داروم ،
فردَّ الشيخ ذو اللحية الطويلة ، الحليقة الشاربين :
- لأنني لاأستطيع تدبير رحلة إلى مكان صواب لزاثر خطأ .
حوّل داروم عينيه عن وجه راووت إلى الجدار ، على يسار
منضدته . استرعاه شيء مّا يسيل على الجدار . مشى بضع
خطوات : «ماهذا؟» ، تتم .

استدار راووت بوجهه إلى حيث ينظر داروم : كانت انبجاساتُ
من الدم متلاحقةً ينزفها أحدُ القروذ الجرحى من خاصرته .
ذلك النهار من وقوف أهل الرحلة في الساحة الدائرية ، قرب
كومة الرماد ، حين كرر داروم تأكيده الغاضب : «لم أقتل أحداً» ،

مسَّ جورني الشيخ بنطال ساعي البريد من جهة فخذه : «انزل» ،
قال له .

«لماذا؟» ، تساءل داروم مستغرباً طلب جورني ، فردَّ :

- ارؤ لنا حكاية ، ياداروم .

«أنت لا تحتُّ أحداً على حكاية في وضع النهار ، ياسيد

جورني» ، عقبت روثا على طلبه .

عقَّب ماهاهون بدوره على طلب الخياط : «أهذا وقت

حكايات ، ياسيد جورني؟» ، قال مبدئياً استخفافه وهو ينظر إلى

دائرة الرماد .

نزل داروم عن كومة الأنقاض . خاطبَ معلمَ الرياضيات :

- كلِّكم روِيتُم حكايات في هذه الرحلة . سَأروي ، أنا ،

الحكايةَ الأَجمل .

لم يكثرث أحدٌ لعرضه سوى بيتاليا ، والتوأَمين . أصغوا مع

جورني إليه يروي ، صاعداً كومة الأنقاض من جديد :

- حملَ ملكَ قصبةٍ صيدِ سمك ، مزودةً بخيطٍ وشصٍّ . حملَ

خدَّامُه قواريرَ فيها حشرات ، وديدانٌ ممَّا يستطِيبُها السمك . صعد

عربة ذات جِياَد أربعة . وجَّهَ بطانته ، وحرسَه ، وخدامه ، وطهاته ،

إلى الصحراء .

«ملك؟» ، تمت بيتاليا كأنها خُذِلت . «ملك يصيد السمك

في الصحراء؟» .

«الملوكُ تفعل ما لا يفعله الناس لأنها ملوك» ، ردَّ داروم بنبرةٍ

تأكيد .

«هذه سخرية . لا معنى لصيد سمك في الصحراء» ، قالت

بيتاليا ، فردَّ داروم :

- سترضخ الصحراء لرغبة الملك وتعطيه صيداً سَمَكاً ،
يا بيتاليا .

«ما نوع أسماك الصحراء؟ أَتَجِدُّ بزعانفها على الرمل؟» ،
تساءلت بيتاليا هازئةً ، فردَّ داروم :

- سيقول الملك بلسانه مانوعها ، في نهاية الحكاية .
نفخ جورني هواءً من بين شفثيه ببعض الملل والانخزال معاً
في نبرِ صوته حين تكلم : «حكايات النهار تشبه حكايات الليل .
ذلك ليس جيداً» ، قال . انصرف عنه ، فانصرفت بيتاليا ، بدورها ،
وهي تغمم :

- ملوك ، وأنبياء ، وطيور ، وشعوب راحلة ، ومالستُ أدري . أما
من حكاية عن سيارة أجرة؟ .

همهم التوأمان يومار ، وديرو ، مستاءين من انصراف جورني
وبيتاليا . حثَّ ساعي البريد :

- أكملْ ياداروم . سنصغي .
نزل داروم عن الآثار الركام . تجاهل الرغبة التوأمين متجهاً صوب
أرديلا ، الجالسة على حفاف البركة الجافة تحدث راسيد الواقف
قربها ، مبتسمين يتسارران برأسين يقترب أحدهما من الآخر
ويبتعد . بادرهما وهو على بُعد خطواتٍ بُعدٌ :
- أتنصيدان الضفادع؟ .

التفتت إليه أرديلا وقد انحسرت ابتسامتها . قالت بنبرٍ
معاتب :

- كُنتَ ظريفاً أكثر منك الآن ، ياداروم .
«كنتُ أنا الذي أنا ، وكنتَ ترينني ظريفاً» ، ردَّ داروم . وقف
إلى جوار راسيد محدقاً إليه بنظرة تحدُّ : «أترين ابنَ الكرة ظريفاً؟» .

ضغظ بإصبعه السبابة في صدر راسيد .
صرخ راسيد باستياء قوي : «آية هرة أنت؟» ، قال ، ثم دفع
ساعي البريد بيديه فرنحه .
تقاطر الأنفار المتفرقون صوب الشابين المثيئين لعراك .
توسطتهما طبية الكلاب ياروزا مهدئة :
- أأنتما جرّوان في طريق ضيق؟
«هما هكذا» ، عقبت ميلادين البدينة . أطلقت من لسانها إشارة
لا يخفى معناها المتهاكم : «السيدة أرديلا طريق ضيق لا يتسع لجروين» .
«هه» ، غمغمت أرديلا متفاجئة . «لست وقحة ، عادة ،
ياميلادين!» .
أحست ميلادين أنها تبادت . وضعت راحة يدها على صدرها
كأنما تعتذر إلى أرديلا . جاورها دايك مبتسماً : «هذه بداية حرب
الثمانائة عام» . تلفت من حوله بحثاً بعينه عن شخص يقصده .
استقرتاً على ماهاهون : «من أين سنأتي بأجور المحاربين ،
ياماهاهون؟» .
«من خيوط بنطالك ، أو من منحهم صفادع ذهبية» ، ردّ
ماهاهون .
نقل دايك بصره عن ماهاهون إلى دالومي ، الواقفة في الجهة
الأخرى من البركة . ساءلها متخابثاً :
- مالحب ، ياسيدة دالومي؟
«أن تصير نصفاً حين تحب ، ويصير من تحب نصفك الآخر ،
يادايك . أحدث لك هذا؟» ، قالت دامي .
تلفت دايك من حوله مستنجداً بمن يعينه على جواب . هتف
بالخياط :

- أحدث لك شيء كهذا ، يا جورني ؟ .
« قبل أن أجيب ، أسأل السيدة دالومي : ماذا يصير الواحد حين يكرهه ؟ » ، قال جورني .

« يصير اثنين : هو والآخر الذي يكرهه » ، قالت دالومي .
وضعت بيتاليا يدها على كتف دالومي من ورائها : « في أيِّ حال هما هذان الشابان ؟ أكلُّ منهما نصفٌ ، أم اثنان ونصف ؟ » ، ساءلتها بإشارة إلى راسيد ، وداروم .

لم تحب دالومي . عبرت ببصرها لمُحاً وجهَ ماهاهون ، وجاوزته إلى أعمدة منهرة . أرخت بيتاليا يدها عن كتف دالومي . مشت صوب الأختين بيونا وسيتون ، المنحيتين على البركة تتفرَّسان في الضفادع الذهب . ساءلتها :

- أفكران بالعودة عن هذه الرحلة ؟ أنتما لاتكلمان كثيراً هذه الأيام .

تأملت سيتون الطويلة ، المتناسقة ، وجهَ بيتاليا تستجلي سببَ تخصيصهما بسؤالها . ردَّت على نحو لا يُحتجَب مزاحه :
- نندارس ، أنا ، وأختي ، سُبُلَ إغواء مَنْ هم دون السنِّ القانونية .

« هه » ، غمغت بيتاليا مستظرفةً :
- شُبانَ مراهقون ، طازجون بعدُ ، أرانبُ .
« بل أعني شيوخاً دون السنِّ القانونية » ، أوضحت سيتون .
ابتسمت بيتاليا . التفتت بوجهها إلى جورني في الجهة الأخرى من البركة . نادته :

- ياسيد جورني ، ماالسنُّ القانونية للشيوخ إنْ أريدَ إغواؤهم ؟ .
استقامت سيتون وأختها بيونا بعد ماكانتا منحيتين على

حفاف البركة ، تستعرضان الضفادع الذهب . مشتا مقتربتين من دالومي الجالسة على عمود مستلق أرضاً . «ماذا الآن ، يادالومي؟» ، ساءلتها سيتون . عضت على شفتها السفلى . رفعت دالومي وجهها إلى سيتون الطويلة ، المتناسقة . ابتسمت :

- لماذا لاتفعلين هذا دائماً؟ .

«أفعل ماذا؟» ، تساءلت سيتون ، فردت دالومي :

- أن تعضي على شفتك السفلى . تبدين فاتنة هكذا .

«أوه» ، غمغمت سيتون مستعذبة إطرأ دالومي . نظرت إلى أختها لحظة متصنعة غروراً بلامح وجهها المستدير ، ثم استعادت سؤالها الأول :

- ماذا الآن؟ .

تلقت دالومي من حولها في هدوء كهدهد صوتها :

- لا أعرف .

جاء الرد على سؤال سيتون في صوت ماهاهون من بعيد ، يذكر الأنفار جميعاً بمقتضى رحلتهم :

- تهيأوا للمسير . لاشيء هنا .

«ماذا عن هذا الرماد؟» ، ساءلته آرديلا ، فرد ماهاهون :

- ماذا عنه؟ .

«ثمت من أوقد ناراً» ، ردت آرديلا .

«نحن أيضاً نوقد ناراً كل ليلة ، ياآرديلا» ، قال ماهاهون .

«ماذا عن هذا المكان؟» ، ساءلته آرديلا ، فرد ماهاهون بسؤال :

- ماذا عنه؟ .

«يوحي بالمكوث هنا قليلاً» ، ردت آرديلا .

«مكثنا وقتاً أكثر من قليل» ، قال ماهاهون .
«قد يظهر أحدهم» ، عَقَّبَ ميلادين على حديثهما ، فردَّ
ماهاهون :

- ثم ماذا إن ظهر أناسٌ ما؟ .
«قد يكونون في رحلة كرحلتنا ، ومعهم دليل أو خريطة» ،
قالت ميلادين ، فردَّ ماهاهون :

- إن كانوا في رحلة كرحلتنا فلن يصحبهم دليلٌ ، أو يصحبوا
خرائط . وإن لم يكونوا في رحلة كرحلتنا فما الذي تعتقدون أننا
سنسألهم عنه؟ هل نسألهم أين تسكن أرواح القتلى في هذا
الجبَل؟ مضحكٌ .

«تعني أنَّ الرحلةَ كُلَّها مضحكة ، ياماهاهون» ، عَقَّبَ روثا
على كلامه ، فردَّ ماهاهون :

- مضحكة حتى الهلع . أبينكم من يصف لي هيئات القتلى
إذا التقيناهم؟ أهم عظامٌ ، أم دخانٌ تبغ؟ أهم أنيقون في ثياب
كثياب موظفي المطارات ، أم في ثياب سائحين ، أم في ثياب
رياضية متهَيَّئين ليدربهم جينتالو على الرقص؟ هل من أحد منكم
يصف لي كيف هي أجسادهم؟ كيف يستقبلوننا؟ أم سيفاجأون
بظهورنا عليهم فيرتعدوا هلعاً؟ قد يهربون . فماذا نفعل إن هربوا؟
أنرسل خلفهم دارومَ برسائل نشرح فيها جمالَ اعتذارنا؟ أم نَعُدُّهم
أن دايك سيعيد رؤوسهم أنيقةً بحلقات حسب الطلب؟ أم نَعُدُّهم
أن جورني سيفصل لأجسادهم العظام ، أو أجسادهم الدخان ،
بِرَّات من أيِّ قماش يختارونه؟ صِفوا لي شيئاً . هل سنصافحهم ،
أم سنعانقهم ، أم سنقف على مَبْعَدَةٍ منهم متوسلين أن يقبلوا
دخولنا عليهم؟ دخولنا إلى أين؟ أهم في خيام ، أم في بيوت حجر ،

أم في كهوف؟ حسناً . ماذا لو كان موضع سكني القتل مكتظاً
كمدينة سارسيدون ، أين سنجد قتلتنا؟ ربما سنسأل بلدية الأرواح
عن عناوينهم .

«أنتهياً للعودة إلى سارسيدون ، أم لصعود الجبل؟» ، سألته روثا
ذات الوجه العريض الصفحة ، وقد أشكلَ عليها الموقف في خطابه .
«إلى الجحيم» ، ردَّ ماهاهون بنبرة يأس . أشار بيده إلى قمم
الجبل ، ثم أطرق صامتاً .

تأملته روثا مطرقاً بوجهه باحثاً عما لا يعرف . تكلمت :
- يخطر ببالي ، أحياناً ، ما يفزعني : ماذا لو أن الموتى يرون
جميع مايفعله الأحياء ، في علنِ أفعالهم وفي خلواتهم؟ ماذا لو
أنهم يرون كل مايفعله؟ .

«هذه الفكرة هي الجحيم ، ياروثا» ، عقَّب جورني . «إن كانوا
يرون جميع ما يفعله الأحياء ، فبأيّ وجه سيلاقِيهم أحدنا حين
نموت؟ أنلاقيهم بعار الأسرار الوضيعة ، والخساسات التي نعجز عن
وصف دناءتها؟» .

«هؤُنا عليكما ، ياروثا وجورني» ، قالت دالومي . «كل الموتى
سيستأوون في عار مايعرفه السابقون عن اللاحقين ، على مدار
اللانهاثي . سيكون الأمر عادياً . سيكونون قد ملُّوا مراقبة الأحياء
في الدورة ذاتها من أفعالهم المكرورة» .

«ربما الأمور هي هكذا» ، عقَّب آرديلا .
«هي هكذا قطعاً» ، قالت دالومي . تطلَّعت إلى روثا : «سؤالك
ليس مفزِعاً . المفزع أن يفكر الأحياء بمراقبة الموتى» .
«كيف نراقبهم ونحن لانراهم؟» ، سألته روثا ، ذات الشفتين
الممتلئتين ، فردت دالومي :

- تستطيعين أن تتخيلي رؤية موتى حيثما توجهت بعينيك .
«لا أفعل ذلك» ، قالت روثا .
«نعم . لا نفعل» ، تمتت دالومي . أضافت : «قلتُ مفرغٌ أن
نفعل ذلك فنراقبهم» .
«ولسنا موتى بعدُ لنراقبَ الأحياء» ، أضافت روثا . حدثت إلى
دالومي متسائلة : «ما هذه الخدعة التي نجونا بها؟ لا ينجو قاتل من
الإعدام في سارسيدون بعد الثامنة عشرة» .
«هم منحونا الخدعة» ، قالت دالومي . تمتت : «إعتذار؟!! ربما
الاعتذارُ خدعة» .
برق بثلاث شِعَبٍ قِصارِ جَنَحٍ بسُفنه من بحر السماء إلى
الخليج الصخر لإحدى القمم الثماني . التمتعت السواري الذهبية ،
ثم انطفأت .
رفع الأنصار جميعاً وجوههم إلى الأعالي . «هذا ليس وقت
بروق» ، قال جورني . «لا أتذكر ، في أعوامي الكثير ، برقاً مطلعَ
الخریف» .
«ألاحظُتم ما لحظُته الآن؟» ، ساءلتهم ياروزا وهي تنظر إلى
القمم بفراغات متساوية بينها . «لو كان هذا الجبل مقلوباً ، قاعدته
إلى أعلى وقيمته إلى أسفل ، فماذا كنتم تلاحظون؟» .
«كنا نلاحظ ضروعاً» ، ردت بيتاليا من فورها .
«أنت على قرب كبيرٍ ما خمُنته . قد تكون القمم حلقات مما
في ضروع الأبقار . لكنْ ، ألا تشبه أكثرُ أئداء الكلبة؟» ، تساءلت
ياروزا .
«جبلُ كلبة» ، عقَّب جينتالو . «تُرضع مدينة سارسيدون» .
«هه» ، زعق ديرو - النصفُ الأيمن من جسد التوأمين الواحد .

«هذه قطرة مطر على أنفي». رفع وجهه إلى أعلى فرفع توأمه يومار وجهه أيضاً. مدّاً لسانيهما خارج فميهما مغمضَيَّ العيون. انتظرا المطرَ برهةً، ثم أعادا لسانيهما منحسرَين إلى جوفَيَّ فميهما.

«قطرة واحدة؟»، تساءل ديرو خائباً.

«لن نصعد هذا الجبل أكثر»، قال يومار. «أنا وأخي سنبقى هنا. لن نصعد أكثر».

التفت إليهما معظم الأنفار. «إبقي معهما، يابيتاليا»، قالت سيتون مازحةً، فردت بيتاليا بسخرية:

- «إبقي، أنت وأختك، معهما. إنهما مسلّيان.

«أنحن مسلّيان؟»، سأل يومار توأمه.

«نعم، مسلّيان»، ردّ ديرو.

«لم يخطر ذلك ببالي»، قال يومار.

«لم يخطر ببالك، بل ببالي»، عقّب ديرو.

«أنت شرير، ياديرو»، قال يومار. أضاف: «كيف تكون

مسلّياً؟».

«الشرُّ مسلٌّ»، ردّ ديرو.

ساءلهما ماهاهون يوقفهما عن استطرادٍ ثرثرة:

- «أحقاً تنويان البقاء هنا؟».

«نعم. اتخذنا قرارانا»، ردّ ديرو.

ابتسم ماهاهون:

- «أستمرّمان هذه الآثار؟».

«لِمَ لا؟»، ردّ ديرو مبتسماً. أضاف: «اتفقت مع توأمي ألاّ

نكمل صعود الجبل، وها أنت تلهمنا فكرةً رائعة».

«نعم، رائعة»، ردّ يومار الكلمات. «سنرمّم هذه الآثار».

«ليكن» ، قال ماهاون . «نراكم بعد ثمانمائة عام» .

«أيلزنا ثمانمائة عام لترميمها؟» ، تساءل يومار .

داس ديرو بعقب قدمه على قدم أخيه .

«لماذا دُستَ قدمي؟» ، ساءله يومار مستنكراً ، فرد ديرو :

- تسرق من وقتي .

«ماذا أسرق من وقتك؟» ، تساءل يومار .

تجاهل ديرو سؤال أخيه . «لأبأس» ، قال . «سنشهد في سنين

ترميم هذه الآثار حرب الثمانمائة عام أيضاً .

ذلك مثير» . صفعَ وجهَ يومار براحتة صفعاً ودوداً :

- فلنبداً ، يا يومار .

توحدت أبصارُ الجمع ، بعد تفرُّق ، على مشهد واحد : بطَّان

صفقتا بأجنحتهما صفقاً قوياً ، ثقيلاً ، وهما تحطَّان على حفاف

البركة المديدة ، الجافة .

«ماذا يفعل بطُّ هنا؟» ، تساءل دايك الحلاق . اقترب منهما ،

فجاراه الآخرون اقترباً . طَوَّقوا أحفة البركة مستعذبين تلك الحركة

الخِلاء في مشي الطيرين بلا خوف . دارتا على أحفة البركة مرتين

كأنما تستعرضان ، هما أيضاً ، ذلك الجمع في ثيابهم البرتقالية ،

يحملون بُسْطاً لفافاتٍ ، ووسائدَ تحت أباطهم . صَوَّتتا ، ثم توقفتا

مرفرفتين بأجنحتهما .

«لو لم تكن هاتان البطتان مهرجتين لما حطَّتا هنا» ، قال

سولكي .

«ألن تعظهما بشيء عن إلهك؟» ، ساءلته آرديلا ، فرد المبشر

بإله خلق ألَّهَةً ليقايضها :

- لو كانتا في رحلة اعتذار مثلنا لفعلتُ .

«اسألُهما ، ياسولكي» . قد تكونانِ في رحلةِ اعتذارٍ ، قالت أرديلا .

حدق إليها سولكي بعينيه البنيتين على حمرةٍ . ساءلها :
- مالعقوبة التي ستطلبينها لهتين البطتين لو كانتا قاتلتين ؟ .
«لستُ قاضية» ، ردت أرديلا .

«لو كنتِ قاضية» ، استطرَدَ سولكي ، فردت أرديلا :
- أنا محامية . قد أدافع عنهما .

اقتحمت ياروزا المحاورة . سألت أرديلا :
- ما إحساس المحامين في الدفاع عن أناس ارتكبوا أكثر الجرائم فظاعةً ؟ .

«هم محامون . تلك مهمتهم» ، ردت أرديلا .
«كل الأحاديث ، هنا ، تمارين على بلاغةٍ نصِّفُ بها حرب
الثمانمائة عام» ، قال ماهاهون . مازَحَ أرديلا :

- دافعي عن هذا الجبل .
«أهو متَّهم؟» ، تساءلت أرديلا ، فردَّ ماهاهون .
- متَّهم بإخفاء الطرق .

«إن كنا لانعرف طرقَ الجبل فليس ذلك أنه يخفيها . الجبال
لاتخفي طُرُقها» ، ردت أرديلا .
ابتسم ماهاهون . رفع الوسادة الصغيرة عالياً في حركة
مستلطفة :

- بدأت أرديلا دفاعاً عن الجبل .
عادت البطتان إلى تجوالهما على أخفة بركة الضفادع الذهبية ،
بعد توقف قليل . صفَّق لهما راسيد عسى يخيفهما ، فلم تعيراه
التفاتاً . نَهَره ماهاهون في لطفٍ :

- لا تُخَفِّهُمَا . هاتان البطتان طليعةُ العمال ، الذين سيساعدون يومار وديرو في ترميم الآثار .

«أُصِيبَ الأرواحُ ما يُصِيبُ العمرانَ من تشقُّقٍ ، وتقوُّضٍ؟» ، تساءلت أرديلا وهي تنظر إلى ياروزا الواقفة قربها ، فردَّت ياروزا :

- تصاب أرواحُ الكلاب بذلك . أمّا عن أرواح البشر فاسألني السيد جورني الأكبر سنّاً بيننا .

«ماذا؟» ، تساءل جورني القصير الممتلئ إذ سمع اسمَه متداولاً .

«تحدث عن الأرواح ، ياسيد جورني» ، رفعت ياروزا صوتها . «هل تتقوُّض ، وتشقُّق كهذه الآثار الرّمَم من حولنا؟» .

«اسألني نبياً ، يا ياروزا . أو اسألني إلهَ سولكي» ، ردَّ جورني . رفع صوته منادياً :

- سولكي . ماذا يرى إلهك في خصائص الأرواح؟ أيتقشَّر عنها الدهانُ ، ويتشقَّق إسمنُّهُما؟ .

رَنَّ رعدٌ من نواحي القمم بلا برق ، فأمطرَ الصدى على كل صخرة ، وكل جرح في صخرة . لغاتٌ لأُتُحصى استرسلت سرداً صاخباً في مطاوي الجبل وصدوعه .

توقفت البطتان عن تجوالهما فوق أحفة البركة مصغيتين . تدحرج صوتُ داروم :

- أسمعتم؟ .

«سَمِعْنَا» ، ردَّ جينتالو . «لسنا صُمّاً» .

«لأعني الرعدَ ، بل الصوت الآخر» ، قال داروم . «صوت

البوق» .

«بوق؟!» ، تساءل راسيد . هم بالسخرية ، لكن روثا أكدت ،
بدروها ، سماع صوت :

- يقيناً سمعت مايشبه الصهيل .

«أكل هذا كلام الرعد؟» ، تساءل جينتالو ، فرد ماهاون :

- الهذيان النبويّ يستبق حرب الثمانمائة عام .

صوت أنيس ، خافت ، قوَّضَ كلَّ سياق آخر من الأصوات
متداولةً بين الأنفار الثمانية عشر ، لما أطلقت النافورة المكسورة
القُلة ، وسط البركة ، رشقاً من الماء علا قليلاً ثم تراجع ، ثم اشتدَّ
فبلغ علواً وسطاً . شبكة من الأقواس الماء بللت الصخور الموزعة
بأناقة في القاع ، فرفرت البطتان بأجنحتهما ، وصوتتا زَقياً .

لم يتبادل الأنفار كلمات في استرسالهم متفحصين الماء يعلو
في البركة حتى غمر الضفادع الذهب ، والصخور التي تجثم عليها .
قفزت البطتان ، الخضراوا الرأسين ، إلى المرايا المتقاطعة دوائر تصدُّم
دوائر من رشاش الأقواس الماء متساقطة كمظلة شفيفة . غمرتا
رأسيهما ، حتى أصْلَيَّ العنقين ، في المرايا تلتقطان دعاميص
الصدى الأخيرات من صور الرعد ذائباً في مياه النافورة .

شهق جورني ، المنحني ب صدره على حفاف البركة الواطئة
الجدران . مدَّ إحدى يديه ، في حسرةٍ ، إلى جوفها من غير أن يبلغ
الماء .

«مايك؟» ، ساءلته بيتاليا ، فرد جورني :

- سقط القداح في الماء .

الدليلان ميراس ، وسادوك ، تركا للأنفار قداحاً يشعلون به
نيران الليل ، فتوكل جورني بحمله في غلاف وسادته ، بعد أن
أحدث فيه ثقباً يُدخل القداح منه ويخرجه . سقط القداح في الماء

من انحناء جورني الشديدة على حافة البركة بالوسادة تحت إبطه .
شهق متحسراً .

«أَتُحَسِّنُ السباحةَ ، يا جورني؟» ، ساءلته بيتاليا ساخرةً ، فردَّ
جورني بمزاح :

- أَحَسِّنُ السباحة في الأقمشة .

«لا تهتمَّ» ، قالت بيتاليا . «ستأتيك البطتان بالقَدَّاح .
كَلُمَهُمَا» .

«لسنا في حاجة إلى القداح . لسنا في حاجة إلى النار» ، قال
ماهاون . أردفَ : «لن نتوقف ، هذه المرة ، في مسيرنا» . نظر إلى
التوأمين يحاولان الصعود إلى حِفاف البركة الواطئة الجدران .
ساءلهما :

- ماذا تفعلان؟ .

«سننتشل القداح» ، ردَّ يومار .

«لن نحتاجا إليه إذا بقيتما هنا . ستأكلكما جيادُ الفرسان
الجِياعُ» ، قال ماهاون . «لقد استيقظتُ بعد ثمانمائة عام لتستكمل
حربَ ثمانمائة عام أخرى . ألم تسمعا الأبواق ، والصهيل؟» .
«سمعنا نباحاً» ، ردَّ ديرو متهكماً .

«كلاب الفرسان جِياعٌ أيضاً ، بعد ثمانمائة عام من نومها» ،
عَقَّبَ ماهاون .

تراخى جسدُ التوأمين الواحد ، لامن تردَّد أثارُهُ خيالُ ماهاون
عن جياد ، وكلاب جِياع ، بل من عجز جسدهما الواحد عن
الصعود إلى حِفاف البركة . صفعَ أحدهما الآخر صفعاً خفيفاً
يلومه ، ويحمِّله سببَ العجز ، وتبادلا الاتهام أن أحدهما ، قطعاً ،
هو من نسل الكلب أو الشيطان .

الدوائر الصغار ، المتلاطمة من سقوط الرّشّاش المائيّ للنافورة ،
في البركة ، موجّت أجساد الضفادع الذهب . خالها الأنفَار متحركة
في مجاثمها على الصخور . لكنّ الضفادع كانت تتحرك ، حقاً ،
بهدهوء من حَذَر الأرواح الصلبة في الحركة . اندفعت بطيئة
بأيديها ، وأقدامها ذوات الأغشية بين الأصابع ، إلى الأعلى . تفتّق
الماء عن رؤوسها محدّقة بالعيون الجوا حظ إلى الأنفَار .

دَهَشَ حجريّ أثقل أكتاف الثمانية عشر الأنفَار فانحنوا .
اتسعت عيونهم ، وافتَرَّت الشفاه مذهولة .

«نحنُ سحرة» ، كانت تلك هي العبارة الأولى إشراقاً على
صمتهم من فم التوأم ديرو . أردفَ : «نحن سحرة البركة السحرية» .
حامت الضفادع في الماء متلاعبّة . هتف جورني كأنما أفاق من
نوم على حلم عذوبة تحت لسان النائم : «هذه حكاية انتظرتُ طويلاً
أن تُروى لي . ضفادعُ ذهبٍ تسبح ، ونافورة سحرية» . تلفّت بعينه
إلى الأنفَار : «من نحن؟» ، تساءل . أسقط الوسادة والبساطين من
تحت إبطه أرضاً : «لن أ غادر هذا المكان» .

«تشبه جدّاً يروي له حفيده حكاية ، يا جورني» ، عقّب
ماهاون .

«كنتُ جدّاً منذ وُلدتُ ، ياماهاون» ، قال جورني . أردفَ :
«هناك مَنْ يولّد جدّاً منذ أن يولّد . هنالك من تولّد أمّاً منذ أن تولّد .
هناك من يولّد أخاً منذ أن يولّد . هناك من يولّد توأمّاً منذ أن يولّد ،
حتى لو لم يكن له توأمٌ» . ارتعشت يدا الشيخ ذي الطباع الهادئة
فجاءةً ، فسكّن رَعَشهما يامساك حفاف البركة . «حبَلتُ بي أمي
من رجل هجرها حين عرف بالحَبَل» ، قال . أغمض عينيه
البنيتين ، المستديرتين : «في الثالثة والعشرين من عمري أغويتُ

زوجة أبي وهي في الثالثة والأربعين . حبلتُ مني . أعرف ابنتها ،
وأبي لا يعرف أنها ليست ابنته » .

نَقَّت الضفادع . انتفخت أوداجُها فقاعات ذهباً في المياه ، التي
ارتفعت إلى منتصف هيكل النافورة ، البالغة ثلاث أذرع طولاً ، ثم
توقَّفت ارتفاعها مُدِّ كادت أن تصلَ أحفَةَ البركة .

غمست دالومي راحة يدها اليمنى في الماء . حرَّكت أصابعها
تستثير ضفدعةً ، فاقتربت الضفدعة من يدها بالجلد الذهب أنيقَ
النقش تعاريقَ دوائرَ ، وخطوطاً منحنيةً بين بشورٍ ذهب . أرخت
ذراعها فاسقطت ماتحملة من إبطها أرضاً . وضعت راحة يدها
اليسرى تحت بطن الضفدعة . حملتها في رفي . حمل الآخرون
ضفادع في راحتهم مبتهجين من وداعتها . دار ماهاهون من الجهة
الشمالية للبركة إلى الجهة الغرب . اقترب من دالومي . قرَّب يده
بالضفدع من يدها . تساءل محدقاً إلى وجهها المستدير :
- أين نحن ؟ .

حدَّقت دالومي بدورها إليه . ثبَّتت عينيها الشهلأوين ،
الواسعتين ، على عينيهِ البنيتين وراء زجاجتي نظارته . تمتت :
- لِمَ فعلتها ؟ .

كانت إشارتها واضحة إلى القبلية المختلِّسة . تقرَّت بأناملها
ظهرَ الضفدعة الذهب في يدها اليسرى ، فيما استدار ماهاهون
مُخرَجاً . خطا خطوةً مبتعداً فاستوقفته دالومي :
- أكانت قُبَلتكَ من وحي الرياضيات ؟ .

التفت إليها ماهاهون مبتسماً ، ومرتبكاً أيضاً . ردَّ :

- بل من وحي حرب الثمانمائة عام .

«مالك تكرر ذَكَرَ حربٍ لم تحدث ، ولن تحدث في الأرجح ؟

أُستثير شيئاً في ماضي خيالك؟» ، سألته دالومي .
«هذا ماضي خيالي» ، ردَّ ماهاون وهو يرفع الضفدع في راحته أمام عينيه . «مأرواح هذه الضفادع؟ ماهذا المكان؟» .
قأقأت البطتان . خفقتا بأجنحتهما وقفزتا من حفاف البركة إلى الأرض الخلاء . ركضتا ركضاً غيرَ رقيق ، لكنَّ متزنًا . اختفتا وراء أعمدة متقوّضة ، ثم ظهرتا تصعدان ربوةً كأنها ، أيضاً ، بقية جدران متهالكة أخفاها الوقت بتراب حيلته ، ثم انحدرتا إلى الجهة المحتجبة .

«هما متلهّفتان» ، قالت أرديلا وهي تعيد الضفدع من يدها إلى الماء ، كالآخرين أعادوا الضفادع تباعاً إلى ملعبها .
«هما عاشقتان» ، عقّبت بيتاليا ناضرةً إلى ضفدعها منزلقاً على سطح الماء لا إلى أرديلا . رفعت صوتها :
- أحسنتَ أمرك ، ياماهاون ؟ .

«حسنتُ ماذا» ، تساءل ماهاون ، فردت بيتاليا :
- أن تصعدَ الجبل ، أم تعود أدراجك ؟ .
«ماذا تعتقدين ، ياسيدة بيتاليا؟» ، أجاب ماهاون .
«أعتقد أننا مترددون» ، ردت بيتاليا .

«لسنا مترددين ، بعدُ ، ياسيدة بيتاليا . الجبل متردّد» ، قال ماهاون بنبرٍ أرادَه أن يستثير خيالَ دالومي ، التي بدت سارحةً بعينيهما إلى موضع الربوة حيث غابت البطتان .
«أترون مانري؟» ، زعق يومار متطلعاً ، هو وتوأمه ديرو ، إلى حيث تنظر دالومي .

كانت امرأتان تمشيان وراء البطتين ، في ثوبين أسودين ، فضفاضين ، طويلين ، تحت عباءتين حمراوين . لم تَبْنِ ملامح

وجهيهما من البعد ذاك . بدت متماوجة كأنها وراء بخار شفيف ،
أو حماوة كالتي تصعد من الأرض تحت شمس قوية . لكنهما ، إذ
اقتربتا ، لم يتوقف تماوجُهما . كان وجهاهما مائيَّين ؛ لهما ملامحُ
أغشية ملأى ماءً ، وعيونٌ متحركة كأسماك حُمُرٍ ، صغار ، في
شفافتهما المائية .

لن يكون الذهول ، في وجوه الأنفار ، على قَدَرِ غرابة وجهيَّ
المرأتين المتشابهتين ، وأيديهما البادية أغشية شفيفة أيضاً ، مملوءة ماءً
على أشكال كالأيدي العادية ، مُدَّ جاوز ذهولُهم خياله كذهول .
لقد بُهروا ، وبُهِتوا محدِّقِينَ إليهما في خَرَسٍ يَمْضَغُهُمْ مَضْغاً .

ابتسمت المرأتان من فميهما المترقِّقَيْنِ على سطحيَّ وجهيهما
كمِثْلِ أَنْ يُحَرِّكَ ماءٌ بِأَصْبَعٍ : «هاأنتم جاهزون ، أخيراً» ، قالت إحداهما
متطلعة إلى الضفادع الذهب متقافزةً لهواً . غَمَسَتْ يدها اليمنى في
الماء فذابت يدها . سَلَّتْ يدها فعادت يداً منحوتةً من ماء .

تبادل الأنفارُ نَفْخَ انبهارهم من العيون على الوجوه . نفخت
العيون على العيون ضياعها في التقدير ، ونفخت الوجوه على
الوجوه عجزها في التقدير . بعضهم كان قد وضع بساطيه ووسادته
أرضاً ، ومن لم يفعلوا سقطت بُسطهم ، ووسائدهم ، من تحت
الآباط . وحدهما التوأمان التقطا من مسيل دَهَشِهما المُربِكِ برهةً
تَمَالُكٍ . ساءل ديرو المرأة التي حدَّثتهم :
- جاهزون من أجل ماذا؟ .

«للترميم» ، ردَّت المرأة المائية بصوتٍ كالتَّبَرِّ في رَشَاشِ النافورة .
«لترميم هذه الآثار؟» ، ساءلها ديرو وقد علت شفثيه
الممتلئتين ، المنفرجتين عن أسنانه ، ابتسامةً مستنزفةً .

نظرت المرأتان إحداهما إلى الأخرى بعيونهما المتحركة

سمكات حُمراً . حرَّكتا شفاههما من غير صوت ، ثم أعادتا
بصريهما إلى ديرو - النصفِ الأيمن من الجسد الواحد :
- نعم . هذه الآثار .

« كيف خمَّنتما أنني وأخي ارتضينا البقاء هنا ، كمزاح ،
للترميم ؟ » ، ساء لهما يومار ، فردَّت إحداهما :
- لم نخمَّنْ . أنتم جاهزون .

أدار التوأمان عيونهما على الأنفار الآخرين خُرُساً بعدُ ،
متقوِّضي الحروف في الكلمات على ألسنتهم المختبئة . تكَلَّم ديرو :
- يبدو أن هذا هو كل شيء .

شهقت ياروزا شهقةً خفيضةً إذ أيقظها خيالها :
- أين نحن ؟ .

« هنا » ، ردت إحدى المرأتين . أدارت يدها المائية مروحةً على
أرجاء المكان . « أنتم في الوقت الذي أنضجكم أخيراً » .
« أنتمما من أشعل ناراً ، في الليلة الماضية ؟ » ، تمتمت ياروزا
بصوتها البالغ مبلغه رقةً في وجهها العصبي .

« نعم » ، ردت إحداهما . « أحرقنا ثياباً كثيرة » .
« أحرقتُما ثياباً كُثْراً ؟ !! » ، ساء لهما جورني مستعيداً رقصَ
الأقمشة بين يديه .

« نعم » ، أكَّدت إحداهما . « ثياب الذين سبقوكم ، كانت ثياباً
كثيرة » .

« أين هم ؟ » ، تساءل جورني متطلعاً إلى أنحاء الساحة
المترامية .

« سبقوكم » ، ردت إحداهما باختزالٍ لم يحسم فضولَ سؤال
جورني .

«أكنتما تشعلان ناراً كل ليلة؟» ، ساءلهما جينتالو ، فردت إحداهما :

- نعم .

«أكانت نارُكم تلك التي واكبنا كل ليلة؟» ، ساءلهما جينتالو ، فردت إحداهما :

- نعم .

«لماذا بقيتما على مبعدة ، طوال رحلتنا حتى اليوم ، لا تقتربان؟» ، ساءلهما ، فردت إحداهما :

- لم تكونوا جاهزين بعد .

مالت أرديلا على الدومي . هامستها بصوتٍ لم تُحْكَم تقدير الهمس فيه :

- أنحن في حلم؟ .

«في حلم قَدَر ما تشائين ، وفي يقظةٍ قَدَر ما تشائين» ، ردت إحدى المرأتين المائيتين .

«أأنتما حقيقتان؟» ، ساءلهما ماهاهون . مدَّ يده ، في حذر ، صوبَ يد إحديهما . ثم أوقفها من غير ملامسة ، فبادرت هي إلى إتمام الحركة . قبضت على يده براحتها لحظةً ، ثم تركتها . أعاد ماهاهون يده متفرساً فيها ، وقد سالت عليها قطرات ماء . تتمم ناظراً إلى الدومي :

- نحن لسنا حقيقيين .

دارت البطتان حول أقدام المرأتين المائيتين ، ثم توقفتا قربهما تحرسان ، أو هكذا بدا . رنَّ رعدٌ من باطن السماء المستقرّة بمساطبها على قمم الجبل .

«لديَّ سؤال» ، قالت أرديلا متوجهة ببصرها ، وصوتها ، إلى المرأتين .

تأملتُها المرأتان المائيتان بعيونهما المتنقلة أسماكاً حُمراً في
شفافة وجهيهما المحاطين بشعر قصير ، شديد البياض . ظلّتا
صامتتين ، فألقت أرديلاً سؤالها بلا انتظار :
- من أنتما ؟ .

«لم نقرّر بعدُ من نكون» ، ردت إحداهما .
قربَ ماهاهون رأسه من دالومي . ساءلها هامساً بنبرٍ ممازح :
- ماتقديركُ النفساني لردِّ كهذا ؟ .
التفتت دالومي من غير أن تنظر إليه ، بل إلى البطتين . ردت :
- سيكون عندي تقديرٌ لحالهما إذا زارتاني في عيادتي . لم
تُزُرني ، قبلاً ، مخلوقاتٌ بجلود شفيفة ملأى ماء .
خرج التوأمان من بين جمع الأنفار ، المتحلّق إلى جهة واحدة
من البركة منذ وصول المرأتين . اقتربا منهما متفحّصين ثيابهما ،
ووجهيهما ، عن قرب . سألهما يومار - النصفُ الأيسر من جسد
التوأمين الواحد :

- أترميم الآثار من اختصاصكما ؟ .
«ترميم كل شيء» ، ردت إحداهما بصوتها الرذاذ المائي .
تلفّت التوأمان في ثقل من حولهما :
- الأنقاض ضخمة . من سيجملها؟ أين الآلات ؟ .
تحدثت المرأتان بشفاه متحركة بلا كلمات . دارت إحداهما
بوجهها على الأنفار :
- ستجدون ، بأنفسكم ، طريقة للترميم .
لمس ديرو عباءة إحدى المرأتين في فضول . بدت على ملامحه
بهجةً متنامية . نقرت البطتان قدميه فابتعد قليلاً يجرّ توأمه .
هأهأت بيتاليا . عقبّت على فعل البطتين :

- هما غيورتان ، ياسارقيّ القلوب .
عادت المرأتان المائيتان إلى تذكير الأنفار بواقع أحوالهم :
- أنتم جاهزون .
رفعت دالومي عينيها عن البطتين إلى وجهي المرأتين .
ساءلتهما :

- أحقاً ترمّمان كلّ شيء ؟ .

«نعم» ، ردت إحداهما .

«ماذا عن حياة هؤلاء؟» ، تساءلت دالومي مشيرة بإصبعها ،
من خلف كتفها اليسرى ، إلى الأنفار . «رمّما نافذةً فيها ، أو باباً» .
«ما النوافذ؟ ما الأبواب؟» ، تساءلت إحداهما .

ابتسمت دالومي لما خالته مزاحاً لا يبيّن في وجهيهما
المتماوجين ماءً مُجسّماً وجهين .

تحرك ماهاهون من بين جمّع الأنفار . التقط وسادته ويساطيه ،
المضمومين لفافةً ، عن الأرض : «حان وقت وداع السيدتين . أماننا
طرق إلى أعالي الجبل» ، قال .

نادى يومار معلّم الرياضيات بصوته الزعيق الخافت :

- ياسيد ماهاهون ، هل أبلغنا أحدٌ عمّا يتوجب علينا فعله بعد
تقديم اعتذارنا؟ أنبقى هناك ، أم نرجع؟ إن بقينا نبقى أين ، وإن
رجعنا نرجع إلى أين؟ .

نظر الأنفار ، بعضهم إلى بعض تصديقاً لسؤالٍ ربما عبّر
خواطرهم ، قبلاً ، عبوراً خلسةً ، بلا إلحاح ، أو إلخاف .

«ربما علينا أن نقرّر مايتوجب فعله حين نبليغ الأعالي ، وننجز
اعتذارنا . هناك سنختار أن نبقى ، أو نرجع» ، ردّ ماهاهون .

تَقَلَّبَتِ الغيوم ، في طَلْقِهَا ، على شَكوكِ كُثْرٍ اعترت سوادَهَا ،
ورمادِيَّهَا ، قبل أن تنجب الشكوكُ قطراتٍ من المَطَرِ انحدرت من
علائِهَا البارد لتلحق بأخر كلمات ماهاهون . تقاسمتِ القطراتُ
أَرْضَ الجبل . تقاسمَ بللُهَا الخجولُ ما لا يُقْتَسَمُ .
مدَّ داروم يده إلى كتف ماهاهون بعد أن التقط حوائِجَه .
ساءله :

- لم أفهم ، طوال هذه الرحلة ، ماذا يعني ذِكْرُ الاعتذار؟ .
غمغمت المرأتان المائيتان بِنَبْرِ لَفَتِ أَبْصَارُ الأنفَار ، بعد
انشغالها بحركة ماهاهون وتصميمه : «ماذا تفعل هنا؟» ، تمت
إحداهما ، مشيرة بيدها المائية إلى داروم .
ابتسم داروم لتخصيص المرأة إيَّاهُ بالمحادثة :
- أنا؟ .

«أنت . ماذا تفعل هنا؟» ، كررت المرأة سؤالها .
«أنا مع هؤلاء في الرحلة» ، ردَّ داروم ببعض الاستغراب في
صَوْتِهِ البَحَّةِ الخفيفة .
تبادلت المرأتان المائيتان نظراتٍ لم تُفْهَمَ مراتبُهَا . استدارتا
بوجهيهما ، من جديد ، إلى داروم . تكلَّمت إحداهما بِنَبْرِ إخبارٍ
واضح :

- أنت شخص منتحر . ماذا تفعل بين هؤلاء؟ .
ابتسمت عينا داروم السوداءوان ، الصغيرتان .
غمغم الأنفَار الآخرون استغراباً . ساءلته ميلادين بصوتها
المرتدَّد :

- ماالذي تعنيانه ، ياداروم؟ .
«تعنيان أنني انتحرت» ، ردَّ داروم بلا تكلف . أضاف : «نسيَنا

أَنَّ مركبة البريد انتحرت أيضاً .

وَجَمَ الأنفار من المحاورة الغامضة سالكةً سياقاً مغرقاً في
اللامعنى . أبدى أحدهم للآخر استغرابه ، وحيرته المشدودة
كعصب ، وعجزه عن تفسير ما تبادلته المرأتان وداروم .

«لم أفهم شيئاً» ، تتمم ماهاهون ، فلمست دالومي مرفقه
تستعيده من عكرة الحال بكلام رطب :
- هذه محنة الرياضيات .

أدار ماهاهون وجهه إليها . نثر صوته قطناً في مهبٍ حيرته :
«لم أعد أفهم شيئاً ، يادالومي : البركة . الأسماك الذهبية . هاتان
المرأتان . داروم المنتحرا!!» . تنفّس عميقاً :

- صعود الجبل هو الأكثر وضوحاً . سأصعد الجبل .
مدت إحدى المرأتين ذراعها صوب ماهاهون . لمست صدغه في
دعة بأصبعها الماء . ساءلته :
- ماذا عن الترميم ؟

«أيّ ترميم؟» ، نفت ماهاهون الكلمات زفيراً وهو يمسخ البلب
عن صدغه براحة يده .

«هنا . هذه الآثار الرّم» ، ردّت إحدى المرأتين .
رنينُ العبث ، في الموقف ، خالطه رنينُ الرعد في منعطفات
القمم الشماني . قطراتُ آخر من رَشَاش السماء الكسول تقاسمت
أرضَ الجبل من جديد . لمست نساء الرحلة شعورهن . نظرن إلى
الأعالي يستكنهن مدى الجدّ في وعيدها بمطر أكثر .

«لستما جادّتين» ، قالت سيتون الطويلة ، المتناسقة ، للمرأتين
المائيتين .

«أكيدّ هما ليستا جادّتين» ، أكدت أختها بيونا بصوتها السريع

الكلمات . «ربما علينا مغادرة هذا المكان» .

أمالت المرأتان المائيتان ، الطويلتان ، عنقيهما صوب الأختين :
«حَسِمَ الأمر» ، قالت إحداهما . «أنتم جاهزون ، أخيراً» .

«سنكمل صعود الجبل ، أيتها السيدتان . أمامنا الكثيرُ بعدُ» ،
تتم ماهاون بنبرٍ معتذر عن إلحاق خيبةٍ مُحتمَلةٍ بهما . أردف :
«لسنا جاهزين لشيء سوى صعود الجبل» .

تبادلت المرأتان المائيتان حركاتٍ من شفاههما صامتةً . أعادتَا
بصريهما إلى ماهاون . ساءلته إحداهما مشيرةً بيدها إلى قمم
الجبل :

- ماذا هناك؟ .

«هناك من ينتظرون اعتذارنا» ، ردَّ ماهاون .

«إعتذاركم إلى مَنْ؟» ، ساءلته إحداهما .

«إلى من قتلنا» ، ردَّ ماهاون .

«أأنتم صاعدون الجبلَ باعتذارٍ إلى من قتلتم؟» ، ساءلته

إحداهما ، فردَّ ماهاون :

- هذا هو تدبير السيد راووت شرطاً لإطلاقنا من السجن .

«راووت؟» ، تساءلت إحداهما ، فانبرت آرديلا تحادثهما بنبرةٍ

تشوبها لهفةٌ عجولة :

- أتعرفان السيد راووت؟ .

«هو الطبيب المكلف بتوثيق الإعدامات في سجن آيايانو

الشرقي» ، ردَّت إحدى المرأتين المائيتين .

شقت الحيرةُ صفيحها في قلوب الأنفار ، فتصاعد صوتُ الشقِّ

زعيقاً نزقاً إلى أسماعهم .

هم ، أجمعون ، استذكروا ، في البرهة ذاتها ، سياقاً واحداً

مستنسخاً ، متطابقَ الصور تفصيلاً . رأوا ، باستعادة الخوف للزمن مُعْتَصِراً ، كيف دخلَ واحدُهم تلكَ الغرفةَ البيضاء ، المستطيلة ، ذاتَ السرير المرتفع جزؤه الصُّدْرُ ، حيث وقفت امرأتان إلى جوار قضيب معدن ، طويل ، على قاعدة مستديرة ، تتدلى من قمته أنابيبٌ رقيقة ، وقارورةٌ مثبتة بطوق ، مقلوبة ، فيها سائلٌ بلا لون .
لوحٌ ضوئيٌّ كان هناك أيضاً ، على رفٍّ ، موصولاً بشرائط ذات مجسّات في نهاياتها .

صمّتْ بأظفار بيض كان هناك .
صريرُ نظراتٍ متتاليةٍ من المرأتين على واحدٍهما ، في دخوله الغرفة ، كان هناك .

همُ عبروا ، واحداً واحداً ، في أوقات متقاربة الشهور بين أحدهم والآخر ، إلى تلك الغرفة عبر دهليزٍ طويلٍ زيّنت جداريه المتقابلين رسومُ الحداثق المفقودة ، وزيّنت سقفه رسومُ الكواكب .
رجلان ضخمَا الجسدين ، في ثياب بيض ، واكبَا واحدُهما ، ممسكين به من تحت إبطيه يسندانه ، في المسافة المحسوبة بأشبار الحياة بينه وبين السرير المنتظر .

الإناث ، والذكور الأنفَارُ في رحلة الجبل ، عبروا السرداب باتكاء على ساعديَّ الرجلين الضخمين ، مستسلمين مُذْفِرُغَتِ مفاصلُهم من سوائِلها ، ومُلثت هواءً ، إلّا بيتاليا : خذلتها ساقاها ، فاقْتَبَدَت على مقعد ذي عجلتين إلى الغرفة البيضاء . هي لم تُبَدِ استخذاءً ، أو ضعفاً ، في يوم خروج المُحَلِّفَيْن من خلوتهم ، معلنين ثبوت الجُرْم عليها . جَبَّهَتْ قاعةَ المحكمة بالسخرية من حُكْم القاضي بإعدامها : «لن تنجو ابنتي مني . سأتبعها إلى السماء العاشرة في الموت» ، قالت ، قبل أن تشير إلى زوجها : «سأنتظر

مجيء هذا الكلب». لكنها لم تتمالك ساقها على ذلك القدر من عناد جسارتها ، حين همَّ الرجلان الضخمان باقتيادها . حدث إليهما خرساء الملامح ، ثم انهارت .

بعض الأنفار ، من أهل رحلة الجبل ، تمالك نفسه في صدور الحكم بالإعدام . بعضهم بكى . بعضهم خذلته ساقاه في وقفته من هبوب الحكم عنيفاً في كلمات القاضي الهادئة ، فأسنده محاميه ، الذي يجاوره واقفاً بدوره . دالومي لم تجد من يسندها حين انخذلت ساقاها في صدور الحكم عليها ، فاتكأت بيديها على المنضدة أمامها . هي توكلت الدفاع عن نفسها . لكنها اختزلت المدافعة منذ المرافعة الأولى ، إذ خذلها الشاهد الوحيد في قضيتها . كانت على ثقة من تخفيف الحكم عليها مُذْ أقدمت على مافعلته تحت تأثير حشيشة القنب . ذلك أمرٌ يُعفي فعلها من قصديّة الجرم ، وتمالك الإرادة ، وتأميّة الوعي . شاهدُها خذلها لما افتتحت بمثوله دفاعها . إنها - شاهدُها الأوحـد ، الذي اعتمدته لثقة دفاعها ، أنكر أنها دخنت حشيشة القنب تلك الليلة . أبوه وخالتـه ، بحسب شهادته العَصْـصُ على قلب دالومي ، دخنا الحشيشة . سَمِعَا نباح كلب فتعاقبا على استطلاع النباح من الشرفة . تبعتهما أرديلا واحداً بعد آخر فقذفت بهما من الطبقة الرابعة في العمارة .

أوصدَ الإبنُ على أمه الجرحَ الأعظم - جرحَ خيالها ، فأوجزت دالومي دفاعها إلى اعترافٍ بالجرم ارتكبته ، بتخطيط قَصْد . بانكسار تمَدَّد واحدُهم على السرير ، بصدرٍ مرتفع قليلاً عن مستوى ساقه .

بانكسار سلَّم واحدُهم معصميه للرجلين الضخمين فأحكما تقيدهما بحزامين عريضين إلى مسندي السرير الحديدين .

بانكسار مدّد واحدھم قدميه فأوثقھما الرجلان إلى حاجزٍ حديد في نهاية السرير .

بانكسار راقب واحدھم رقصَ المرأتين في ثيابھما البيض من حوله ، وھما تصلان أنبوباً رقيقاً ذا إبرة بمعصمه فتغرزانھا في الشريان ، وتثبتان الإبرة بلاصق .

بانكسار راقب واحدھم رقص المرأتين وھما تلصقان مجسّات بصدغيه ، ووريدي عنقه ، وصدرة فوق القلب ، تدبيراً للإحاطة بكل عضو يُحسُّ نبضُ فيه .

بانكسار تتبّع بصرٌ واحدھم دخولَ رجل شيخ ، طويل ، متقوّس قليلاً ، شاحب البشرة ، ذي لحية حليلة الشاربين ، يتبعه رجلان في ثياب عادية لا كثيابه البيض .

بانكسار تتبّع واحدھم ببصره عيني الرجل الشيخ ، الغائرتين ، الشرهتين ، تتفحصان عمل الآلات ، وتقذّران كمية المصل في القارورة المُنكّسة .

«أنا راووت» ، هكذا قدّم الشيخ نفسه لكل واحد منهم . «أنا الطبيب المشرف على إنجاز الحُكم بلا خطأ» ، قال بصوته المرتفع المنخفض بالكلمات .

«أؤلّم التنفيذ ، ياسيد راووت؟» ، كلّھم سألَ الطبيبَ السّؤال ذاته ، فردّ راووت :

- لا . المخدّر في المصل يُنيم . لن تحسّ بشيء . .

يومار وديرو ، التوأمان ، أبديا للطبيب راووت ، في استلقاء جسدهما الواحد على السرير ، رغبةً لن يخمّن أحدٌ مَبْعَثَ شرارة إلھامھا :

- لو أتيحت لنا فرصة لرسمك ، ياسيد راووت . أما من وقت لذلك ؟ .

أغمض راووت عينيه الغائرتين ، الشرهتين ، محيطاً راحتيه العريضتين بدفتره الكبير المقاس ، المضموم الأوراق ، من الأعلى ، بلا قط عريض المعدن . فتحهما بعد ثوانٍ متمماً بصوته المتراجع الحروف :

— سيكون لديكما وقت لترسماني في الجهة الأخرى .

«أهنأك معاجينُ ألوانٍ ، ودفاتر رسم ، في الجهة الأخرى؟» ، سأله ديرو بنبرٍ بمازح في ملامح صوته ، وفي ملامح وجهه المستدير ، الشاحب ، فلكرز يوماً رأسَ توأمه برأسه :

— لماذا تسبقني إلى الأسئلة ؟ .

كل واحد منهم غمغم ، في البرهة الأولى من بلوغ قطرات المصل المخدر إلى شريان يده ، بنبرٍ متوسِّل ، خافت : «أنا قادم لأعذر» ، إلّا بيتاليا ، تمنت تخاطبُ ابنتها القتيلة :

— بقيت خطوة واحدة لأمسك بك من جديد ، يا يائين .

هم لم يروا بعد دقائق من امتزاج المصل المخدر ، القاتل الرحيم ، بدمهم ، الطبيب راووت يدوّن ، بصرامة التوثيق ، ماسيُضاف إلى السجل في خزائن الأحكام النافذة ، لكن أرقاماً متلاثلة ستنبجس ظاهرة في خيالهم الثاني - خيال الجسد في الجهة الأخرى من الحياة . أرقامٌ هي تحديدُ دقيقة إنجاز الموت نَحْتَه كاملاً ، وساعة إنجاز الموت نَحْتَه كاملاً ، ويوم إنجاز الموت نَحْتَه كاملاً ، وشهر إنجاز الموت نَحْتَه كاملاً ، وسنة إنجاز الموت نَحْتَه كاملاً في كتلة الحياة الصخر الصلبة : أرقامٌ دوّنها راووت على دفتره الكبير المقاس .

أنفار الرحلة استعادوا ما استعادوه من صوّر العبور إلى الجهة الأخرى . كلهم ، إلّا داروم ، شهقوا شهقةً خفيفة ، متواقته ، متطابقة النبر ، في وقوفهم قرب البركة ، ثم أصغوا ، كأنما للمرة

الأولى ، إلى صوت إحدى المرأتين المائيتين تكرر كلماتها :
- أنتم جاهزون الآن .

لمس ماهاهون ذراعَ دالومي على نحو لم يفكر فيه . تتمم :
«سأصعد الجبل» . فكَّ أززار قميصه فخلعه . خلع بنطاله ، ومشى .
خلع الأنفاز ، أجمعون ، ثيابهم البرتقالية .
صعدوا الجبلَ عِراءً .

غابة سكوغوس

مملكة السويد

٢٠١٣ - ٢٠١٤

صدر للمؤلف

- ✽ كل داخل سيهتف لأجلي ، وكل خارج أيضاً (شعر)
- ✽ هكذا أبعثر موسيسانا (شعر)
- ✽ للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر)
- ✽ الجمهرات (شعر)
- ✽ الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) (سيرة)
- ✽ الكراكي (شعر)
- ✽ هاته عالياً ؛ هاتِ النَّفير على آخره (سيرة الصبا) (سيرة)
- ✽ فقهاء الظلام (رواية)
- ✽ بالشِّباك ذاتها ؛ بالثعالب التي تقود الريح (شعر)
- ✽ أرواح هندسية (رواية)
- ✽ الريش (رواية)
- ✽ البازيار (شعر)
- ✽ الأعمال الشعرية (شعر)
- ✽ معسكرات الأبد (رواية)
- ✽ طيش الياقوت (شعر)
- ✽ الفلكيون في ثلثاء الموت : عبور البشروش (رواية)
- ✽ الفلكيون في ثلثاء الموت : الكون (رواية)
- ✽ الفلكيون في ثلثاء الموت : كبد ميلاؤس (رواية)
- ✽ المجابهات ؛ المواثيق الأجران ؛ التصاريغ ، وغيرها (شعر)
- ✽ أنقاض الأزل الثاني (رواية)
- ✽ الأقرباذين (مقالات)
- في علوم
- النَّظر

- * المثاقيل (شعر)
 * الأختام والسديم (رواية)
 * دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) (رواية)
 * كهوف هايدراهوداهوس (رواية)
 * المعجم (شعر)
 * نَادِرِيْمِيْسُ (رواية)
 * موتى مبتدئون (رواية)
 * السلالم الرملية (رواية)
 * شعب الثالثة فجرًا من الخميس الثالث (شعر)
 * لوعة الأليف اللاموصوف المحير في صوت سارماك (رواية)
 * ترجمة البازلت (شعر)
 * هياج الإوز (رواية)
 * التعجيل في قروض النثر (نصوص)
 * حوافر مهشمة في هايدراهوداهوس (رواية)
 * السَّيْلُ (بلغتُنَّ ، أخيراً ، عُمَرَ الأربعاء) (شعر)
 * السماء شاغرة فوق أورشليم (رواية)
 * عجرفة المتجانس (شعر)
 * السماء شاغرة فوق أورشليم «ج ٢» (رواية)
 * آلهة (شعر)
 * حورية الماء وبناتها (رواية)
 * شمال القلوب أو غربها (عشاق لم يحسبوا أمرهم) (شعر)



سجناء جبل آيائانو الشرقيّ

سلسلة من جرائم القتل يقاضى مرتكبوها لا بما يقابل الجناية فداحة، بل بعقاب ملتبس في تساهله: أن يقدموا اعتذاراً إلى من قتلوا، والثمانية عشر نفراً في هذه الرواية، الذين تخبرتهم الجرائم مصادفة، أو قصداً، لإنجاز حدوثها، سيقبلون شرط العقاب المحير، متجهين صعوداً في الجبل إلى موضع القتل، بلا أدلاء، أو خرائط يهتدون بها إلى مقصودهم.

هذه الرواية عرض للجرائم، وتوصيف لأحوال القتل اجتماعاً غرباء أحدهم عن الآخر، وتوثيق لأسفلتهم عن معنى صعود الجبل في مهمة كالعشب. لكن، أين هم ذاهبون حقاً؟

أبو عبدو البغل

<https://facebook.com/groups/abubab/>

